عبد الكريم غلاب
عضو أكاديمية المملكة المغربية

الماهدون... الخالدون



عبد الكريم غلاب
عضو أكاديمية المملكة المغربية

الماهدون... الخالدون

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾
(سورة الذاريات، الآية 48)

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

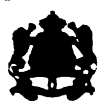
الماهدون...
الخالدون

عبد الكريم غلاب

الطبعة الأولى : 1991
الطبعة الثانية : 2017
الإيداع القانوني: 2017MO0227
ردمـــك: 978-9954-1-9626-7
منشورات دار أبي رقراق، الرباط، المغرب

الطباعة والإخراج الفني
دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم 3، حسان - الرباط
الهاتف : 83 75 20 37 05 - الفاكس : 89 75 20 37 05
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com





طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

تقديم

تقديم الريادة رسالة والذين يتحملون مسؤولية رسالة ما يفكرون في أنهم يضعون رسالتهم أمام أجيال قادمة، وليس فقط أمام جيلهم. وحينما تستقيم الحياة وتسير في طريقها وليتعرفوا على أنفسهم وخطواتهم ، هل هي تسير فعلا الى أمام أو هي سائرة إلى وراء، أو هي متوقفة؟ وكل توقف يعني السير إلى الوراء.

كل حرية تقدمية في الفكر والفلسفة، في الدين والعلم، في الأدب والإبداع، وفي الوطنية والسياسة مدينة لمجموعة من الماهدين الذين إرتادوا هذه المناطق الفكرية وهي صحراء قاحلة مليئة بالصخور السوداء والرمال المالحة تذروها الرياح السافية، يتيه الفكر بين صخورها وجبال رمالها، وبحار سرابها، يحاولون أن يؤصلوا الحياة على هذه الأرضية الموحشة ليزرعوا الصحراء ويجعلوا منها بستانا نابعا بالعطاء والثمار.

هؤلاء الماهدون هم أصل الحياة الذين تركوا بصماتهم على ملامحها المتطورة منذ كان آدم، منذ كان نوح، منذ كان الأنبياء، منذ كان الفلاسفة والمفكرون وكبار المبدعين، منذ كان المناضلون ضد كل مرحلة رجعية أو تخلفية في العالم.

ما أظن منطقة في العالم تطور فيها التاريخ دون أن يمهد لهذا التطور ماهدون أوقفوا التاريخ ليملوا عليه مخططا جديدا لمسيرته. والماهدون بطبيعتهم وبحكم رسالتهم ثوريون. تدفع بهم الثورة، التي تبدأ في فكرهم وتتسرب إلى عملهم وممارساتهم، ليغيروا الواقع، فهم عنه غير راضين. ثورتهم تنبع أحيانا من فكرهم الخلاّق، تنبع أحيانا من نظرتهم التاريخية، تنبع كثيرا من نظراتهم المستقبلية، تنبع دائما من كل ذلك. فهم أبناء الماضي الفترة المجيدة منه على الأخص رجال الحاضر، المنطقة المتحركة منه على الأخص، منظروا المستقبل، كما يرونه أو يحلمون به. كثير منهم يحققون الحلم، أو هو المستقبل المحدود كما تصوروه، ثم يتوارون.

وكثير منهم لا حد لآفاقهم المستقبلية وكلما حققوا خطوة إزداد المستقبل خطوات، يغذّون السير، حتى إذا تواروا بالعجز أو الشيخوخة أو الموت، تواروا غير قريري العين لأن عمرهم لم يسعفهم بأن يحققوا المستقبل الذي إليه كانوا يطمحون.

حينما عشت تاريخ الحركة الوطنية وبحثت في خباياها وأسرارها وكتبت ما كتبت منه كنت أجدني مع هؤلاء الماهدين الذين فرضوا وجودهم على التاريخ. علّموني الكثير من فصوله، ورسموا أمامي ملامحه. كنت أستشيرهم لأفهم التاريخ الفكري والوطني والسياسي، والثقافي المتصل بالسياسي، في حياتهم وسلوكهم ونضالهم، وفيما كتب أغلبهم، وفيما رأى أو فكر أو عمل آخرون. كنت أستبطن نفسياتهم وأحاول أن أسبر غور تحركهم الداخلي، لأن تحركهم الفكري أو العملي لم يكن ذا بعد محدود، أو ذا بعد سطحي، ولكنه كان ذا أبعاد نفسية وفكرية وعاطفية وتاريخية وأحيانا عائلية أو إقليمية، وفي كثير من الأحيان ظرفية ناتجة عن الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه، وهم يعون وجودهم ووجود بلادهم، في وضع متخلف أو محتل أو مستلب.

إختزنت ذاكرتي كثيرا من هذه الأبعاد، وأنا في صحبة معظمهم. تعرفت عليهم منذ حداثتي، عايشتهم تلميذا أو صديقا أو رفيق طريق في الكفاح الوطني أو الثقافي. جادلت بعضهم وخالفتهم أو خالفوني في الرأي. ظلت صورتهم، رغم رحيل مجموعهم في مكان الفكر والقلب والعاطفة مني. ولا أجادل في أني، وأنا أرسم هذه الصورة، كنت مأخوذا بكل ذلك. لا تتخلى العاطفة والقلب وأنا أفكر، ولا يتخلى الفكر وأنا أرسم ما يمليه القلب والعاطفة. كثيرون غير هؤلاء كان لهم مكان في الريادة، ولكني لم أسعد بمعرفتهم من الداخل، ولو عرفتهم مما سمعت عنهم أو ما قرأت لهم. وذلك عذري في أني لم أكتب عنهم في هذا الكتاب.

عبد الكريم غلاب

محمد الخامس...
بطل الاستقلال
(1961-1909)

- السلطان مات...

هكذا أسّر إلي زميل لي في الدرب وأنا بعد طفل صغير

- وهل يموت السلطان؟

دخلت المنزل ورددت ماسمعت لوالدتي وجدتي. قالتا لي : "من أين لك ما رددت؟... إسكت... لا تردد هذا الكلام قد يوبخك جدك. كان جدي، ساعتئذ في قيلولته المعتادة. أيام بعد ذلك، دلف إلى سمعي محمد بن يوسف، إسم السلطان الجديد.

كان الرجل الذي تعلم كيف يكون ملكا، وقد كان. علّم نفسه قبل أن يتعلم مع الآخرين. جاءه الملك على غرة (18 نونبر 1927). ما أظن أنه كان يفكر فيه، وعمره لم يبلغ العشرين ربيعا، وله إخوة أكبر منه سنا. ومن المؤكد أنه لم يكن يعرف ماذا يصنع بالأمانة التي وضعت بين يديه، في تلك السن المبكرة.

-1-

لم أتعرف على وجه السلطان إلا في ربيع سنة 1934 (8-11 مايو)، بعد ست سنوات من اعتلائه العرش في زيارته التاريخية لمدينة فاس. وكل مواقفه الوطنية بعد ذلك، وضعت صورة محمد بن يوسف - بطل الاستقلال - في مقدمة صور التضحية والنضال.

كانت زيارة تقليدية مفروض لها أن تنظم رسميا، وأن يقف المواطنون على جانبي الطريق يخفضون رؤوسهم بالتحية إحتراما لموكب السلطان وهو

على صهوة جواده. يهتفون "الله يبارك في عمر سيدي"، يتبعه موكب من الوزراء وكبار المسؤولين. ويحف به عشرات "المخزنيين"[1] يلبسون ملابس تقليدية (سلهام وشاشية حمراء)، ويعتمدون على عصا، ولو كانوا شبابا يسرعون على أقدامهم سرعة فرس السلطان. كان السلطان يتجول في عدد من أحياء المدينة، يزور بعض أضرحة الصالحين داخل الدروب والحواري الضيّقة، ويعود إلى القصر من طريق غير التي مرّ منها، حتى يتمكن من التعرف، وهو على فرسه، على وضعية المدينة وسكانها ويتعرف المواطنون على سلطانهم، ويجددون ولاءهم له بعبارة: "الله يبارك في عمر سيدي"...

ذلك تقليد الزيارات الملكية للمدن والاتصال بالمواطنين، ومن أجل ذلك كان هناك حاجز بين السلطان وشعبه. قد يتعرف بعض المواطنين على وجه السلطان، وأكثرهم لا يعرفونه ولو قابله أحدهم شخصيا في الشارع في ملابس عادية ما لفت نظره إليه. وقد جعل بُعد التواصل وبُعد الصورة الورقية السلطان معزولا إلا حينما يتحرك فيزور منطقة ما.

سكان فاس شكلوا طوقا فأحاطوا بسلطانهم في زيارته تلك، وساروا جميعهم معه دون حرس ولا موكب وهو يزور أطراف المدينة. كانوا يهتفون له، كتقليد جديد وينشدون نشيد: "يا مليك المغرب"[2] والنساء يزغردن من سطوح المنازل. كان السلطان وسط سكان المدينة جميعهم أكثر سعادة، وجهه أكثر إشراقا بابتسامة الرضا. ضاع موكب الوزراء والمسؤولين - الذين كانوا يتبعون موكبه السلطان - في شوارع المدينة التي خلت من سكانها، وقد إلتفوا جميعهم حول عاهلهم. وكان على السلطان بعد نهاية الزيارة أن يعود إلى قصره (دار المخزن) التي تبعد عن المدينة القديمة بنحو ميلين. عاد السلطان في حراسة الجماهير المحتشدة دون حرس رسمي تهتف وتنشد نشيد "يا مليك المغرب".

1- الحراس.

2- نظمه علال الفاسي بهذه المناسبة.

هذا التعبير السياسي التلقائي الحاشد لم ينته بعودة السلطان إلى قصره وإنما تكونت مظاهرة جماهيرية عائدة إلى أحياء المدينة هاتفة منشدة، وكأنها في يوم من أيام الحرية تخلصت فيه من كل رقابة مثلما تخلصت المدينة من أية حراسة أو مظهر لسلطة الحماية . وحدث أن بعض المتظاهرين إقتلعوا الأعلام الفرنسية المرفوعة على عدة بنايات عمومية.

هذه المرة الأولى التي رأيت فيها وجه محمد بن يوسف عن قرب، وهتفت له وأنشدت النشيد. لحظة لم ولن أنساها. السعادة التي إرتسمت على وجهه لم يكن الزمان ليطويها. وإذا كانت بداية تحول تاريخي فلأن محمد بن يوسف عرف منذ ذلك اليوم أن له شعبا، ليس هو الذي تحدثت عنه إدارة الحماية والسلطات المخزنية المحيطة به، وليس هو الذي يستجلب البعد عنه والعزلة. إنه شعب حي متطلع للحرية، بمقدار ما هو متطلع إلى التعليم والعمل والخدمات الصحية والاجتماعية.

إكتملت الصورة في اليوم الموالي. كان الدرس الذي تعلمته إدارة الحماية، والمسؤولون المغاربة تحت نفوذها في المدينة، أن الجماهير ستتحرك مرة أخرى، وربما أكثر من ذي قبل، يوم يخترق السلطان المدينة من جديد ليصلي "صلاة الجمعة" في مسجد القرويين. أكدت الاستخبارات أن الشعب يستعد إستعدادا كبيرا ليوم مشهود آخر. ألحت إدارة الحماية من السلطان أن يصلي في مسجد قريب من القصر حتى لا يعيش المواطنون معه يوما آخر من أيام الحرية... إمتنع السلطان عن الاستجابة للطلب وإصطدم لأول مرة مع الإدارة وأضرب عن إستمرار الرحلة وعاد، غاضبا غير راض، إلى الرباط.

كان الحدث فاجعة للسكان الذين إرتبطوا بالسلطان برباط جديد، ليس رباط البيعة من بعيد، ولكنها بيعة جديدة بالاتصال الشخصي، وبأسلوب جديد في العمل السياسي ألا وهو الهتاف والنشيد والتظاهر والقرب من السلطان دون حراسة ولا جيش إحتلال.

الأثر السياسي لهذه الزيارة هو أن السلطان أدرك أن الحركة الوطنية هي التي نظمت هذا الاستقبال الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الملكية بالمغرب. وأدرك من خلال النشيد "نحن جند للفدا نحمي هذا الملك" أن لغة جديدة تتحدث بها الحركة الوطنية من خلال نشيدها، هي غير اللغة التي يتحدث بها المسؤولون في إدارة الحماية عن شعب المغرب. فقد ردد النشيد كلمات : "جند، الفدا، الملك بدلا من السلطان، الشعب، مازغ، يعرب"... وقد أكد وفد " كتلة العمل الوطني" من فاس مضامين الزيارة ومفاهيمها عند زيارته للسلطان في الرباط، أياما بعد هذا الحدث، أن الاحتفال الحاشد كان ذا مفهوم وطني سياسي، وأنه تأكيد شعبي من جديد، ليس على تعلق الشعب بشخصه فحسب، ولكن كذلك على ما يريده الشعب من حرية واعتراف بقيادته لمواجهة سياسة الحماية وسلطاتها. وأكد الوفد للسلطان احتجاج سكان فاس على إجهاض السلطة الفرنسية للرحلة الملكية مما اضطره إلى اختصارها، والعودة إلى العاصمة.

منذ ذلك اليوم إرتبط محمد بن يوسف بالحركة الوطنية ممثلة في "كتلة العمل الوطني" ثم، بعد منعها، بحزب الاستقلال. ومنذ ذلك اليوم، بدأ الخلاف يعرف طريقه بين محمد بن يوسف والإقامة العامة. ويمكن القول بأنها بداية الطريق نحو مؤامرة النفي (20 غشت 1953).

أعتقد أن زيارة فاس كانت مفتاح شخصية محمد بن يوسف. فقد وجد نفسه في لقاء أرحب وفضاء أكثر شاسعة مع الشعب. إكتشف أنه سلطان لشعب يعبر عن تعلقه به، وبالمؤسسة الملكية أكثر مما كان يعتقد. شعب يعبر، لأول مرة، عن آماله بوسائل جديدة لم يعبر بها في عهد الحماية. وهي وسائل تتجاوز القيود الإرهابية التي يفرضها عليه نظام الحماية.

تشبع السلطان "بمطالب الشعب المغربي" التي قدمتها إلى الملك "كتلة العمل الوطني" (1934). كان السلطان يلح على المقيمين العامين، خاصة بونصو[3]

3- Henri Ponsot (1877-1963)، رابع مقيم عام في المغرب، تولى المسؤولية لمدة ثلاث سنوات (غشت 1933 - شتنبر 1936).

ثم الجنرال نوكيس، لتحقيق بعض الإصلاحات، وفي فكره، هذه المطالب دون أن يشير إليها.

الجنرال نوكيس[4] كان يتملق للسلطان، ويظهر من الود له، على غرار ما كان يفعل أستاذه ليوطي مما جعل العلاقة بينهما طيّبة، وخالية من التوتر. حدث أن طالب نوكيس من السلطان أن ينتقل من الرباط إلى فاس بمعية المخزن وإدارته حينما نزلت الجيوش الأمريكية في المغرب (1942)، لأنه كان معارضا لهذه الخطوة التي خطتها أمريكا لمحاربة المد النازي في أوروبا وصحراء مصر الغربية، إخلاصا منه لحكومة فيشي المتخادلة. إمتنع محمد بن يوسف عن أن ينتقل من عاصمته رغم إلحاح متواصل. وكان ذلك من حسن التقدير، فلم يربط سياسته بتوجيهات نظام فيشي، وقد أصبح شبه متأكد من هزيمة دول المحور، وهو حدس سياسي لم يتمتع به الجنرال نوكيس رغم ذكائه وخبرته السياسية.

موضوع آخر كان مثار توتر بين السلطان والمقيم نوكيس. فقد إتجهت سياسة المقيم اتباعا لسياسة نظام فيشي التي كان الألمان يتحكمون فيها، إلى إضطهاد اليهود المغاربة، على غرار ما أصبح المرشال بيتان يضطهد اليهود الفرنسيين تنفيذا لسياسة المحور. وقد طلب نوكيس من السلطان أن يصدر قرارات ضد اليهود المغاربة، وقد كان عددهم يقارب 200.000 نسمة. إمتنع السلطان عن إتباع هذه السياسة، مؤكدا أن اليهود رعايا مغاربة لهم نفس الحقوق التي للمسلمين وعليهم نفس الواجبات. ولا حق للسلطان أن يمارس نحوهم سياسة عرقية عنصرية. كان السلطان محمد بن يوسف يعتبر اليهود، في حماية الدولة المغربية، وليسوا تحت الرعاية الألمانية أو تحت رعاية حكومة فيشي.

في هذين المثالين بدأت تتجلى شخصية السلطان ومعارضته للسياسة الفرنسية بالإضافة إلى ما كان يواجه به المقيمين العامين كلما طلب إليه أن يوافق

4- Charles Noguès (1876-1971)، المقيم العام السابع، تولى الإقامة العامة لمدة ستة سنوات وتسعة أشهر (شتنبر 1936 - يونيو 1943)، وهي أطول مدة بعد المرشال ليوطي.

على ظهير أو قرار يتفق مع مصلحة الوطن، أو يجعل من الحماية سبيلا إلى سيادة مزدوجة أو إجراء لصالح المستوطنين ضدا على مصالح المواطنين.

كانت الظروف العسكرية تتطلب من الحكومة المركزية لباريس أن تتدخل، إلى حد ما، في السياسة المغربية. ولم يقبلوا بقاء الجنرال نوكيس مقيما بالمغرب لأنه متشبث بفكر وبحكم المرشال بيتان، ويرغب في أن يجعل من المغرب وإمبراطورية شمال إفريقيا خاضعة لنظام فيشي.

ومن ثمة، أسندت مهام الإقامة العامة إلى غابرييل بيو[5] مقيم مدني جرب سياسته الاستعمارية في تونس، وعيّن بالمغرب في ظروف اضطراب عسكري وسياسي، بعد نزول القوات الأمريكية في الدارالبيضاء.

كان بيو إستعماريا متطرفا. وفي عهده قدم "حزب الاستقلال" وثيقة المطالبة بالاستقلال باتفاق مع محمد بن يوسف (11 يناير 1944). فبدأ بذلك العداء المطلق بين السلطان والمقيم الذي تأكد أن السلطان يقود شعبه إلى الاستقلال. ولذلك قام بيو بحملة اضطهاد كبرى ضد الحزب فاعتقل قيادته المركزية وجميع أعضاء فروعه والنشطاء من رجاله (29 يناير 1944). ومن ثمة، مر المغرب بحالة من الاضطهاد والعنف والقتل لم تعهده الإدارة الفرنسية بالنسبة للمواطنين منذ فرض الحماية. وقد تمكن محمد بن يوسف من التخلص من المقيم بيو خلال الزيارة الرسمية التي قام بها إلى فرنسا بعد تحريرها (18 يونيو 1945) حيث قلده الجنرال دوغول "وسام رفيق التحرير". هكذا، إستجاب لطلب السلطان بتعيين مقيم عام جديد. كان هذا المقيم هو إريكَ لابون[6].

ما كان أريك لابون لينجح، فاللوبي الاستعماري في فرنسا لم يتحمل أن يقوم محمد بن يوسف برحلة سياسية إلى طنجة (9 أبريل 1947) تتعبأ لها القوى الوطنية

5- Gabriel Puaux (1883-1970)، ثامن مقيم عام في المغرب. تولى الحكم لمدة تقارب ثلاث سنوات (يونيو 1943 - مارس 1946)

6- Eirik Labonne (1888-1971)، تاسع مقيم عام في المغرب. تولى الحكم مدة 15 شهرا (مارس 1946 - مايو 1947).

في الشمال والجنوب ويخطب في الجماهير، يبشر بالمستقبل ويعلن عن ارتباط المغرب بالجامعة العربية، ويستقبل ممثلي الدول الحاكمة في المدينة ويحدثهم عن مغرب المستقبل، حديث السلطان المتحرر من قيود الحماية، ويفهمهم بلغة دبلوماسية أن المغرب يعمل لتحصيل إستقلاله.

عصفت هذه الخطوة التي خطاها السلطان، بالمقيم العام (14 مايو 1947)، أي حوالي شهر بعد رحلة طنجة. اللوبي الإستعماري والحكومات الفرنسية، يمينيته ويساريته، إعتبرت لابون مقيما ضعيفا في غير مستوى بلاد تجرأت لتطالب بالاستقلال. كانت خطة هذه الحكومة المحافظة على الإمبراطورية الفرنسية ولم تستفد أي منها من التحولات الدولية التي حدثت بعد الحرب. ولذلك لم تجد الحكومة التي كان يرأسها الإشتراكي بول رماديي أي مقيم أحسن من ألفونس جوان[7]، وهو جنرال له سابقة في تونس، ويتمتع بسمعة ونفوذ عسكري مهم.

بلغت شخصية محمد بن يوسف أوج تألقها في زيارته لطنجة وخطابه التاريخي. كانت هذه الزيارة قفزة نوعية في علاقة المغرب مع نظام الحماية. وذلك من وجهتين إثنتين :

أولاهما : التأكيد على وحدة المغرب. المنطقة الشمالية التي كانت تحتلها إسبانيا وطنجة نفسها، فلم يسبق أن زار سلطان مغربي هذه المنطقة من المملكة منذ توقيع عقد الحماية وإحتلال البلاد وتقسيمها، ولا زار منطقة طنجة التي إختصتها اتفاقية الحماية بنظام دولي خاص وممارسات مختلفة. هكذا أصبح المغرب ممزقا في ثلاثة مغارب. ولم تتح الفرصة للدولة المغربية أن تلغي هذا المفهوم الضمني لتؤكد وحدة الوطن والدولة.

ثانيتهما: أن السلطان خطا خطوة جريئة أخرى في الإعلان عن المطالبة بالاستقلال، دون أن يذكر الكلمة. عبّر عن المضمون حينما إستعجل أن يصبح المغرب عضوا في الجامعة العربية، وهي جامعة تضم البلاد المستقلة. وكانت دول

7- Alphonse Juin (1888-1967)، عاشر مقيم عام في المغرب. تولى الحكم لمدة أربع سنوات وثلاثة أشهر (مايو 1947 - يوليوز 1951).

الغرب، والحكومة الفرنسية بالأخص، تقف من الجامعة موقف الحذر، باعتبار أهدافها في إنهاء الاستعمار وإقرار الاستقلال وخاصة في بلاد المغرب العربي، وقد أعلنت عنها، على لسان عبد الرحمن عزام أمينها العام، عدة مرات.

محمد بن يوسف أضاف خطوة أخرى تعتبر خطيرة بالنسبة لنظام الحماية، وهي إستقباله لممثلي الدول المشاركة في إدارة طنجة تحت النظام الدولي. وهي مبادرة تعتبر خرقا صارخا لمعاهدة الحماية على رؤوس الأشهاد. ذلك أن إتفاقية الحماية تمنع السلطان أن يجري محادثات أو إتصالات مع أية دولة أجنبية، غير فرنسا، إلا بواسطة المقيم العام. وكانت زيارة طنجة، بكل المبادرات السياسية والشعبية التي تمت فيها، في غيبة المقيم العام. وقد تصرف الملك فيها كعاهل مستقل دون إعتبار لدور المقيم العام، ولا لما تفرضه معاهدة الحماية.

ثم إن السلطان إستقبل إستقبالا شعبيا حاشدا بهيجا لايوازيه إلا استقباله في فاس (مايو 1934). وقد أشعره هذا الاستقبال بأن وحدة الشعب حول العرش هي رصيد المملكة التاريخي، وعن طريق هذا الرصيد يمكن أن يحقق الاستقلال.

زيارة طنجة كانت مفتاحا من مفاتيح شخصية محمد بن يوسف. وكانت بداية النهاية للاستعمار الفرنسي. الشخصية التي نضجت في طنجة هي التي وقفت في وجه الجنرال جوان ثم الجنرال كيوم.

أصبح السلطان يرفض توقيع الظهائر التي يراها تضر بالسيادة المغربية، وصار يعرقل مخطط الجنرال جوان في إنشاء نظام حكم مزدوج تساهم فيه الإدارة الفرنسية مع المغرب في تدبير شؤون الدولة عن طريق حكومة مشتركة، وأضحى أخيرا يرفض ما طلبه المقيم العام الجنرال جوان من إستنكار "حزب الاستقلال" ليتيح بذلك الفرصة للإقامة العامة أن تقضي على فريق من شعبه باسمه.

هذه الشخصية صعّدت التوتر بين السلطان وبين المقيم العام جوان إلى درجة الإنذار والتهديد بالعزل.

كنت أسعى خلال السنوات القليلة التي سبقت النفي (1948 -1953)، في مهمتي الصحفية والوطنية، أن أحضر حدثين مهمين في كل عيد العرش[8] (18 نوفمبر من كل سنة).

الحدث الأول: ساعة تقديم المقيم العام لتهاني الدولة الفرنسية وتهانيه الشخصية وإدارته لجلالة السلطان بعيد العرش.

يحضر هذا الاحتفال بعض كبار الموظفين، مغاربة وفرنسيين، والصحفيين وبعض المهتمين واقفين متحلقين في جانب من قاعة العرش التي يجرى فيها الاحتفال. فقد كان السلطان يجلس على العرش ويأخذ كل أبهة الملك، ويدخل المقيم في ملابس رسمية، ومعه كبار المسؤولين الفرنسيين في الإقامة ورؤساء الإدارات. يقدم المقيم العام تهانيه وتهاني الدولة في عبارات ودية مختارة، حتى لتشعر بأنه أمام سلطان دولة مستقلة، ويترجم محمد المعمري (الوزير المكلف بالتشريفات) ويجيب السلطان باللغة العربية[9] وبكلمات شكر لبقة مترفعة. ثم ينتقل الحديث بين السلطان والمقيم العام إلى القضايا العامة، دون تحديد ولا تدقيق. وتبقى لباقة المجاملة مسيطرة على الحديث. ولكن السلطان يعبر بكلمات دقيقة عن آمال المغرب ليعلو إلى درجة الدول الراقية. ويجيب المقيم العـام بكلمات مبهمة، ولكنها واضحة. الحماية، من منظوره، تقوم بواجبها الذي تفرضه مسؤوليتها لترتفع بوضعية المغرب. كل من السلطان والمقيم العام يفهم الآخر، وكل منهما يقول ما يريد أن يقول وتبقى مجاملة الحديث تسيطر على الموقف كما تقتضيها المناسبة.

8- عيد جلوس السلطان على العرش. وهو عيد أصبحت له مكانة في تاريخ النضال من أجل الاستقلال. الوطنيون إقترحوا المناسبة وإحتفلوا به إبتداء من منتصف الثلاثينات قبل أن يصبح عيدا رسميا يحتفل به الملك والشعب.

9- محمد بن يوسف كان يجيد اللغة الفرنسية، ولكن الموقف الوطني كان يستدعي منه أن يتكلم بالعربية في المناسبات الرسمية.

كنت أتصور أن السلطان يسعى ليكسب الرهان. وليس من الصدفة أن يسمح للصحفيين أن يحضروا هذه المقابلة الرسمية، ويسجل كل منهم حديث الرجلين، كل حسب ما فهمه.

الحدث الثاني : خطاب العرش الذي يلقيه السلطان في جمع من المواطنين المدعوين. وكل خطاب كان يعتبر قفزة في التعبير عن الرغبة في استقلال المغرب والمحافظة على سيادته، دون أن تذكر كلمة "الاستقلال". كان محمد بن يوسف ينتهز الفرصة ليذكر، بالتلميح لا بالتصريح، فيؤكد "أن المغرب شاب كَبُرَ جسمه ولم يعد الجلباب الذي يلبسه يليق به، ولذلك يجب تغيير الجلباب حتى يليق بالشاب الذي أصبح رجلا".[10] وكان المقيم العام يحترم مناسبة اليوم الذي يحتفل به المواطنون، كما لو أنه يوم إعلان الاستقلال. حتى الصحف الوطنية والإذاعة الرسمية تتحدث في يومها ذاك بلغة لا تبيحها لها إلا المناسبة. يوم واحد في السنة وينتهي بمغيب شمسه، ينظم السلطان في نهايته حفلا مسائيا تحضره سيدات من كل شرائح المجتمع.

كنت أشعر بأني أقترب من محمد بن يوسف، وإن لم يتجدد معه اللقاء.

إرتأى السلطان (1950) أن يكون له ديوان يساعده في القيام بمهمته كرئيس دولة. لنتصور أن السلطان لا ديوان له. وقد قرر أن يتكون من محمد أبا حنيني ومسعود الشيكر ومحمد بن العباس القباج وعبد الكريم غلاب. ولكن المقيم العام الجنرال جوان إعترض على أسماء البعض، وفشلت المبادرة.

هكذا، كان المقيم العام يتدخل في كل القضايا وحتى المسائل الشخصية التي تخص عاهل بلاد تحت حماية دولة أخرى.

-3-

لا أريد أن أكتب تاريخ محمد الخامس، فقد كان لذلك مكانه في مؤلفات عديدة، ولكن لا أريد أن يفوتني الحديث عن شخصية الرجل، كما رسمتها في ذاكراتي من خلال لقائي معه ذاتيا، ومن خلال تتبعي لعمله ونشاطه.

10- من خطاب العرش (18 نوفنبر 1952)

تعلم محمد بن يوسف كيف يصبح سلطانا كما سبق القول. كان من الصعب على الشاب يعيش في ظروف لا تأهله لتحمل المسؤولية أن يعرف كيف يتحملها دون أن يخل بالأمانة التي وضعت في عنقه ولا أن يخل بالرقابة الصارمة التي كانت الإقامة العامة تفرضها عليه. من هنا، ندرك أن نفسه ضاقت بازدواج المسؤولية.

محمد بن يوسف لم يجد نفسه في الفراغ الذي كّونه حوله عبد العزيز، بل وجد نفسه أمام دولة تكتنفها مشاكل العقد الثالث من القرن العشرين.

الحماية تقدم برامجها، وتخطط لمغرب محتل، والسلطان يتحمل كل المسؤولية. بدأ الشعب يقترب من السلطان، ويتحرك في إتجاه غير إتجاه الحماية. وتصل السلطان أصداء المعارضة القوية للظهير البربري، الذي وقعه بنفسه، أو وضع الصدر الأعظم عليه خاتم السلطان دون علمه، كما تؤكد بعض الروايات دون أن ينتبه إلى ما يحمله من خطورة. وتقترب الأصداء منه حينما يحمل إليه وفد من مدينة فاس يضم شبابا وشيوخا يرأسه عالم جليل وشيخ مجيد في العلم والعمر. عريضة يلقيها بين يديه الشيخ عبدالرحمن ابن القرشي فتدمع عيناه لما سمع من حديث الشيخ، ويشعر بالمسؤولية التي تحملها وهو يوقع الظهير.

هذا اللقاء مع الشعب من خلال وفد العلماء وأعيان المدينة إقترن بلقاء من بعيد في شكل المظاهرات التي كان يبلغه صداها في كثير من مدن المغرب يحتج فيها المواطنون على صدور نفس الظهير الذي تحمل مسؤوليته دون إرادة منه. ويسمع، ولا شك، عن شباب فاس المتعلمين الذين جلدهم الباشا إبن البغدادي، ممثله في مدينة العلم والعلماء. وكان يبحث حوله فلا يجد مساعدا ولا مرشدا يدرس معه ما يقدمه إليه مستشار الإقامة العامة للتوقيع. وهذا باعث آخر على الشعور بالمسؤولية.

بدأت شخصية محمد بن يوسف تأخذ مكانتها من المسؤولية التي يتحملها. أخذ يشعر بأن هناك واقعا غير الذي يتحدث به مسؤولو الإقامة. هذا الواقع هو الشعب المتذمر من التصرفات التي تمس بالوحدة الوطنية والدينية. وما من شك

في أن المساس بالوحدة الدينية والوطنية للشعب مس شعور السلطان الديني والوطني، وقد فتح فكره على أن ما تقوم به "الحماية" لا ينجز إصلاحات اقتصادية وعمرانية فحسب، ولكنه ينجز تصرفات ضد الشعب يشتكي منها فينقل شكوى الشعب إليه رجال الدين والفكر في البلاد. ويتقدم إليه الوطنيون بعرائض الشكوى ثم بدفتر " مطالب الشعب المغربي " الذي يضم برنامجا شاملا لإصلاح المغرب، سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا. يفكر السلطان في هذه الإصلاحات ولكن الحماية تحول بينه وبين تنفيذها. ويزيد ذلك في شعوره بالحجر للقيام بمسؤولياته كسلطان لدولة ذات سيادة.

عرف الجنرال جوان كيف يستفيد من ما حسبه أخطاء سلفه، إريك لابون. ومن ثمة، قرر أن يشدد الخناق على السلطان وعلى الوطنيين ليخطط لسياسة تهدف إلى هيكلة جديدة للحماية تشرك المستوطنين الفرنسيين في كل ما له صلة بالسيادة وبذلك ينسف فكرة الاستقلال من أساسها. وبدأ الاصطدام مع محمد بن يوسف الذي أخذ يرفض كل مشروع ظهير يمنح المستوطنين حظوظا في المناصب السياسية. كان الجنرال جوان يتحدث عن " السيادة المشتركة الفرنسية المغربية" كما أعلن ذلك في معهد العلوم الاستعمارية في باريس. وكان مخططه في بلورة هذه السيادة المشتركة هو ما سماه بالإصلاحات السياسية التي تتمثل في تكوين حكومة مشتركة بين الفرنسيين والأهلين. تقوم هذه الحكومة، حسب برنامجه، بترسيخ السيادة المشتركة في الإصلاحات السياسية : مجالس منتخبة للفرنسيين ومعيّنة للمغاربة، إصلاحات إقتصادية واجتماعية تحقق رغبات جماعات المعمرين الذين أصبحوا يطمعون في إصلاحات تضمن لهم، إلى جانب الأرض، حقوقا وإمتيازات تمكن من السيطرة على المغرب.

كان تفكير المقيم يسير في هذا الاتجاه بينما كان تفكير السلطان محمد بن يوسف يتلخص في هذه الفقرة التي وردت في مذكرة وجهها إلى رئيس الجمهورية

فانسان أوريول[11] عندما كان في زيارة رسمية لفرنسا. كتب السلطان مذكرة مهمة (2 نونبر 1950) جاء فيها: "إن إصلاحا جوهريا للأوضاع بإنهاء نظام الحماية يمكنه وحده أن يعطي العلاقات المغربية-الفرنسية قاعدة أمن واضح. وهو الذي يمكنه وحده أن يفسح المجال أمام إقامة حكومة حرة في المغرب تتمتع بثقة الشعب المغربي، وتكون قادرة على تحقيق آماله المشروعة".

وقد شعر السلطان بلا جدوى هذه المحادثات. وتبين من الموقف السلبي لرئيس الجمهورية وحكومته مبلغ التوتر الذي كان يسود العلاقات بين القصر والإقامة العامة. يضاف إلى ذلك أن المقيم كان يتصرف تصرف السيد في مملكته، يعيّن الموظفين المغاربة ويعزل وينصب من يشاء دون إستشارة السلطان.

في هذا الجو المتوتر قام الجنرال بعملين خطيرين:

أولهما: تجنيد الكلاوي ونظرائه من القواد (العيادي مثلا) ليواجه السلطان بالعداء ويصارحه (23 دجنبر 1950) بأنه "لم يعد سلطان المغرب وإنما هو سلطان حزب الاستقلال الشيوعي الملحد". وقد طرد السلطان الكلاوي من القصر دون أن يفقد هدوئه. وبدأت أزمة تكوين فئة من أنصاره للمطالبة بعزل السلطان. إنتهى الأمر، مع الجنرال كيوم، بتمثيل نفس الدور الذي بدأه على عهد جوان.

وثانيهما: الإنذار الذي وجهه الجنرال جوان للسلطان (26 يناير 1951)[12] "بأن يتبرأ من حزب الاستقلال ويوقع الظهائر التي إمتنع من توقيعها، فإن لم يفعل فليس أمامه إلا أن يستقيل أو سيضطر إلى عزله عنوة". وقد أمهل السلطان أياما إلى أن يعود من رحلة كان سيقوم بها للولايات المتحدة ليحضر إجتماع الحلف الأطلسي.

وقد إضطر السلطان أمام التهديد أن يوقع على بعض الظهائر مع إضافة عبارة بأنه "وقع على غير رضى". أما عن "حزب الاستقلال" فقد صدر عن القصر بيان لا يشير إلى الحزب، "وإنما يتحدث عن إستنكار العنف من أية جهة يصدر".

11- Vincent Auriol (1884-1966)، أول رئيس للدولة في إطار الجمهورية الرابعة. تولى المهام في فترة حرجة من العلاقات بين المغرب وفرنسا (1947-1954). خلال ولايته تم نفي محمد بن يوسف.

12- أقل من شهر من فعلة الكلاوي.

إكتفى جوان بهذه الأجوبة الغامضة ولكن السلطان فضح التهديد والتوقيع تحت الضغط في حديث مكتوب أدلى به الصحفي المصري الدكتور محمود عزمي. فقد زار المغرب وأجرى حديثا مع الجنرال جوان ثم مع السلطان. أجاب محمد بن يوسف عن أسئلته في رسالة مكتوبة بخط اليد أعلن فيها أنه وقع الظهائر تحت ضغط الإنذار الذي قدمه له المقيم جوان. وقد نشرت هذه الرسالة، أياما بعد ذلك، بخط السلطان في "جريدة الأهرام". فكان لنشرها دوي في الدوائر السياسية الفرنسية ولدى الدوائر المغربية.

تصادف أن نقل الجنرال جوان إلى منصب جديد عسكري دولي، وعيّن مكانه تلميذه الجنرال كيوم[13]. وقد بدأ خطابه للمغاربة في أول خطاب ألقاه في فاس حيث صرح: "سأطعم المغاربة التبن"، ففتح بذلك باب التوتر الخطير من جديد. واستمرت علاقته بالقصر على غرار ما كانت في عهد سلفه الجنرال جوان. كيوم يلح في توقيع الظهائر التي تشرك المستوطنين في السيادة المغربية والسلطان يمتنع، والتوتر يتفاقم.

وإنفجرت الأزمة بعد الإضراب العام الوطني الذي نظمه "حزب الاستقلال" عقب اغتيال الزعيم التونسي فرحات حشاد في تونس (5 ديسمبر 1952). حدث الاضطراب الذي شاركت فيه نقابات "الإتحاد المغربي للشغل". ونجاح الإضراب شلّ الحياة في المغرب يوما كاملا (8 ديسمبر 1952). ولتنتقم السلطات الفرنسية من الحزب والنقابة قامت بعملين خطرين:

أولهما: إعتقال كل النشيطين في الحزب في جميع أنحاء المغرب وفي مقدمتهم اللجنة التنفيذية "لحزب الاستقلال" التي قدم أعضاؤها إلى المحكمة العسكرية. وحدثت مجزرة في باب مقر النقابة أخذ كل من يخرج من الباب بالقوة ويُسلم لجماعة من المستوطنين الإرهابيين فيفترسونه ويضربونه حتى الموت، أو يقتلونه بالسلاح الأبيض.

13- Augustin Guillaume (1895-1983)، المقيم العام الحادي عشر في المغرب. تولى الحكم لمدة ثلاث سنوات (يونيو 1951- يونيو 1954).

وثانيهما: إحياء مخطط الجنرال جوان في تهديد محمد بن يوسف بالكلاوي ونظرائه. وقد إستمرت هذه الأزمة يطبعها العنف والتهديد حتى بلغت قمتها في محاصرة القصر ومحاولة إكراه محمد بن يوسف على الاستقالة فلما أبى اعتقل وعائلته وفي مقدمتهما ولي العهد الأمير الحسن وأخوه الأمير عبد الله، حيث نُفي الجميع إلى كورسيكا قبل أن ينقلوا إلى جزيرة مدغشقر.

-4-

وتتجلى شخصية محمد الخامس في أنه الملك الوحيد في الأسرة العلوية، التي ابتدأت قبله بنحو ثلاثة قرون، الذي واجه عهدا فريدا في تاريخ المغرب. قصة المواجهة بين المغرب والغرب بدأت في عهد المرابطين، ولكنها تصاعدت في عهد السعديين، ومرت بظروف حرجة في عهد العلويين، خاصة منذ عهد محمد بن عبد الله، ولكنها في عهد محمد بن يوسف شهدت أعظم ملحمتين في تاريخ المغرب الحديث: ملحمة الحماية بكل مباذلها التي تأججت مع ولاية محمد بن يوسف وملحمة الاستقلال الذي إتفقت بدايته مع نهاية الحرب الريفية، واستمرار بقايا حرب الأطلس والصحراء، وكذا مع تصاعد نظام اغتصاب الأرض لصالح المعمرين، وتدعيم نظام ملكية الأجانب للأرض الفلاحية، إلى جانب ملكية الرأسمالية الصناعية لتدعيم الاستعمار العسكري والاقتصادي.

كل ذلك حدث في عهد تيودور ستيك[14] الذي خلف ليوطي على رأس الإقامة العامة، قبيل رحيل السلطان يوسف وولاية إبنه محمد. شهد السلطان، إذن، بداية ملحمة الحماية، وهي تؤصل جذورها، السياسية والعسكرية والاقتصادية، وشهد نهايتها، وهي ترحل ليخلفها نظام الاستقلال في ملحمة كبرى، لعب فيها النضال الوطني السياسي دورا كبيرا، ولعب فيها النضال المسلح بالمقاومة وجيش التحرير دورا جذريا. كان محمد بن يوسف رمز هذين الدورين الكبيرين فجنى، وهو سلطان البلاد، ثمرة هذا النضال المزدوج.

14- Théodore Steeg (1868-1950)، المقيم العام الثالث تولى الحكم لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر (أكتوبر1925 - يناير 1929).

بعد الاستقلال كنت أحضر، ممثلا لوزارة الخارجية، لجانا كان الملك يترأسها ويديرها بحكمة وطول نفس، لا يصدر أوامر أو تعليمات، ولكنه يناقش الموضوع لتنتهي فيه اللجنة إلى قرار. وكان الملك يخرج بالمجلس أحيانا إلى موضوع يبعث الارتياح والتسلية. تشعر معه بالإجلال والتقدير والمحبة، ولكن لا تشعر بالخوف والرهبة. أعضاء اللجنة يتحدثون بالرأي، ويناقشون الرأي الآخر بلغة واضحة، كما يفرضه موضوع الاجتماع.

في يوم من هذه الفترة السعيدة من فترات الاستقلال، أخبرني أحمد بلافريج وزير الخارجية بأن الملك يطلبني للقيام بمهمة. وكان مريضا أجريت له عملية جراحية في مصحة الدكتور هنري دوبوا روكبير[15]. كلفني محمد الخامس، حينما زرته في المستشفى وهو ممدد على سرير المرض، بأن أقوم بمهمة في السعودية لأعقد اتفاقية قرض، تعتبر الأولى من نوعها، بين البلدين. وفي طريقي إليها عرجت على القاهرة، كان يوجد بها الملك سعود بن عبد العزيز ومعه بعض وزرائه، في زيارة رسمية. إستقبلني الملك سعود في مقر إقامته بقصر الطاهرة، ومنه صدرت تعليماته إلى "سرور" وزير المالية السعودي في جدة. سافرت إلى جدة وأديت المهمة التي نجحت فيها.

وكنت في الرحلة التي قصد فيها الملك محمد الخامس تونس (22 أكتوبر 1956) لاجتماع ثلاثي: تونسي، جزائري، مغربي بهدف فرض إعتبار قضية إستقلال الجزائر قضية تخص بقية بلاد المغرب العربي (المغرب وتونس). وأثناء رحلة الوفد الجزائري من المغرب اختطفت الطائرة المغربية التي كانت تقل الزعماء الجزائريين الخمسة (أحمد بن بلة، حسين آيت أحمد، محمد بوضياف، محمد خيضر، مصطفى لاشراف). عاد الملك في يومه ذاك بعد أن ألغي الاجتماع على متن طائرة عرجت على مطار روما حتى تتلافى المرور في الأجواء التي يسيطر عليها القراصنة الفرنسيون.

15- Henri Dubois Roquebert (1891-1971)، طبيب خاص وصديق حميم للملك. زار العائلة الملكية خلال نفيها في جزيرة مدغشقر. توفي خلال محاولة الانقلاب الأول بالصخيرات (10 يوليوز 1971).

ما رأيت محمد الخامس شديد الغضب ووجهه بالغ الحزن والأسى مثل ما رأيته في يومه ذاك.[16]

بطلب من عبد الله إبراهيم، وزير الأنباء، كنت ألقي حديثا سياسيا. كنت عادة أسجل الحديث قبل مغرب كل يوم ليذاع بعد نشرة الثامنة ليلا. في يوم 15 يونيو 1956، وقد عدت إلى مكان عملي، بعد أن سجلت حديثي، رن هاتف مكتبي : "جلالة الملك محمد الخامس يتحدث إليك".

- نعم، يا جلالة الملك.

- حديثك الليلة في الإذاعة يجب أن يتناول الحدث التاريخي المهم. اليوم سيقدم أول سفير لفرنسا أوراق اعتماده إلي. ويعتبر هذا أول حدث في تاريخ المغرب المستقل. قم بواجبك، الله يرضى عليك.

أسرعت إلى القصر لأحضر الحدث التاريخي. تأخر الاستقبال الملكي للسفير إلى حوالي السابعة مساء. كان البشر باديا على وجه الملك والمغرب يحقق أكبر خطوة في طريق السيادة المغربية. تغير وجه التاريخ. فلم يعد المقيم هو الذي يخاطب الملك. ولكن السفير المعتمد فوق العادة. باب الدبلوماسية المغربية يفتح من جديد في وجه المغرب المستقل، كسفير لدولته في دولة مستقلة.

سعدت بأن يكون حديثي الإذاعي تعليقا على الخطوة العظمى في تاريخ المغرب، ولها أكثر من دلالة، أهمها أن العلاقات مع فرنسا أصبحت علاقة الند للند. في ذلك اليوم طويت صفحة الإقامة العامة التي كانت تمثل دولة حاكمة للمغرب

16- زعم أحمد بنبلة، فيما بعد، أن محمد الخامس وولي عهده إتفقا مع الفرنسيين على عملية الاختطاف، وهي تهمة رخيصة ودنيئة. وتناسى أن محمد الخامس إقترح على الحكومة الفرنسية تعويض الخمسة بابنه ولي العهد. ثم ترددت هذه التهمة في بعض الدوائر المسؤولة بالجزائر (2008)، وأعلن بعدها حسين آيت أحمد (أحد الخمسة الذين اختطفوا) شهادته بأن محمد الخامس إقترح عليهم أن يركبوا الطائرة التي أقلته إلى تونس محافظة عليهم واحتراما لنضالهم. ولكن آيت أحمد كان ممن إعتذر للملك ألا يركبوا لمكانته، وهم آنذاك مناضلون متابعون. نشر آيت أحمد شهادته في مختلف وسائل الإعلام المغاربية الدولية، خمسين سنة بعد وقوع الحدث.

المحكوم، وكان السفير أندري دوبوا[17] هو الذي عيّن يوم عاد الملك من المنفى مندوبا ساميا خلفا للمقيم العام "الجنرال بوايي دولاتور". وها هو ذا يتخلى عن أعظم تمثيل إداري للاستعمار الفرنسي في المغرب ليصبح ممثلا دبلوماسيا لفرنسا لدى جلالة محمد الخامس، ملك المغرب.

كتبت الحديث مأخوذا بكل هذه المشاعر وأمامي رغبة الملك في أن يعبر الحديث عما يشعر به من اعتزاز وخطوة كبرى تتحقق. إعتبرت ذلك بداية علاقات جديدة متماثلة مع فرنسا على غرار كل الدول المستقلة.

أعتقد أن الحديث إستجاب وعبّر عن مشاعر الشعب ومحمد الخامس أمام الحدث التاريخي.

-6-

محمد بن يوسف هو السلطان الوحيد في الأسرة العلوية الذي ختم قصة المواجهة بين المغرب والغرب، وذلك ما ميّز شخصيته كحاكم مناضل. وما من شك في أنه رغم نضاله كان يصبر على ما تحيط به إدارة الحماية مركزه كسلطان من رجال المخزن في مقدمتهم محمد المقري والتهامي الكلاوي[18]، وامتناعه من قبول قرارات الدولة المستعمرة كان هو قاصمة الظهر للحماية.

17- André Dubois أول سفير في المغرب مستقل. إستمر في عمله لمدة أربعة أشهر حيث عين قائم أعمال آخر بعد تدهور العلاقات بين البلدين إثر إختطاف الطائرة المغربية التي كانت تقل الزعماء الجزائرين الخمسة من الرباط إلى تونس.

18- ظل الكلاوي طيلة حياته (1879 - 23 يناير 1956) معاديا للعمل الإستقلالي سواء تمثل في السلطان أو في الوطنيين عموما. كان محور المعركة التي أعلنتها سلطات الحماية ضد السلطان وضد "حزب الاستقلال". وكان أول مغربي أعلن عصيانه لمحمد بن يوسف وإختار سلطان (محمد بن عرفة) مكانه ونظم بيعته كإمام للمؤمنين في مراكش (13 غشت 1953). ظل الكلاوي على عدائه للسلطان الشرعي حتى تأكد أن الحكومة الفرنسية قررت عودة محمد بن يوسف إلى فرنسا تمهيدا لعودته على عرش البلاد. أعلن فجأة (25 أكتوبر 1955) معارضته لمجلس حفظة العرش الذي كان من المقرر تأسيسه وإبتهاجه لعودة محمد بن يوسف إلى فرنسا ظنا منه أنه سيحتفظ بمجده في العهد الجديد. سافر لباريس وسجد (8 نونبر 1955) لمحمد بن يوسف طالبا العفو والمغفرة. ولا شك أنه كان ينوي حفظ الثروة التي كوّنها بالاستيلاء على آلاف الهكتارات الفلاحية. لم يمهله القدر إذ توفي بعد أقل من ثلاثة أشهر من المقابلة التي خصّه له السلطان.

وقف محمد الخامس أمام مسؤوليات الاستقلال مستعظما المسؤولية، وربما شبه متخوف من المشاكل التي كان يستعظم وسائل حلها. تجاذبته قضيتان مهمتان تتعلقان بالسلطة: هل ينفرد بها أو يمنح المسؤولية كثيرها للحكومة ؟ لم يكن يجد القوة والقدرة والكفاءة في الحكومة التي قضت تكوينها ظروف معيّنة، ولم يكن قادرا على تحمل السلطة بمشاكلها الصعبة والمتنوعة. وكان يرغب بالإنفراد بكل السلط. وهذه زادت في نفسه حيرة. يضاف إلى ذلك ما كان يشعر به، بعمقه، أن بلاده لم تحرر جميعها، قضايا الصحراء الغربية والشرقية والمدينتين السليبتين في سبتة ومليلية كانت تؤرقه.

فارق محمد الخامس الحياة وهو يحمل أعباء ضخمة كان يأمل أن ينتصر على بعضها بعد إخضاعه لعملية جراحية مشؤومة ذهبت بحياته.

***

توفي محمد الخامس يوم الأحد 26 فبراير 1961 وعمره يقارب 52 سنة.

رحمه الله...

محمد غازي...

المتنبئ بالاستقلال

(1972-1901)

-1-

وتحل ذكرى غياب الفقيه غازي[1]، فأجدني أذكر معها يوم طرق سمعي إسمه، ويوم تطلعت، في شوق وفي فضول، إلى وجهه الصبوح دون أن يعرف، ويوم جلست إليه لأول مرة فبهرني بهاء فكره، وبساطة منطقه، وذكاؤه النافذ إلى حقائق الأشياء والأفكار والأحداث والناس، ويوم ضمتني معه لسنوات عديدة اللجنة التنفيذية لحزب الإستقلال، فكانت عيناي وأذناي وقلبي وعقلي جميعا تتطلع إليه حينما يكون آخر من يتكلم فيضحك البعض ويبتسم آخرون إعجابا بالفكرة التي يعبر عنها، أحيانا، بالمثل المغربي الساخر أو بالحكاية الشعبية المعبرة، أو بالكلمة المفردة ذات الأبعاد العريضة، أو بالآية القرآنية الصادقة الدلالة.

ويبتسم الحاج أحمد بلافريج، وقد أدرك، إعجابا بالحكمة "الفقيهية"، ويتطلع محمد اليزيدي في جدية إلى الفقيه غازي وهو يشرح، ويضحك الحاج عمر بن عبد الجليل بصوته الجوهري وهو يعلق على النتيجة التي يحسبها حتمية من فتوى الفقيه. وتكون كلمة الفقيه أولا وأخيرا نبراسا يهتدي به الباحثون في اللجنة التنفيذية، عن الحقيقة، عن العمل، عن المواجهة، عن المخرج من المأزق الذي وقع فيه الحزب، أو حاولت الإقامة العامة أن توقع فيه الحزب.

سمعت عن الفقيه غازي، ربما من أحد أساتذتي: عبد العزيز بن ادريس أو بوشتى الجامعي، في بداية مرحلتي التعليمية والوطنية. كانت النكبة في إقفال

---

1 - 26 مايو من كل سنة.

المدرسة الناصرية التي كان يديرها ما تزال حديثة العهد. وإقفال مدرسة حرة وتشريد أساتذتها وتلاميذها في ذلك الوقت يعتبر نكبة للفكر وللتعليم وللغة العربية وللحركة الوطنية على السواء. وكان الصراع قد بدا قويا بين "الإنسية المغربية" كما كان يسميها علال الفاسي، وبين "الإنسية الإستعمارية" كما يمكن أن نسميها. فالحماية فُرضت على المغرب لتحقيق هدفين أحدهما يخدم الآخر:

- إستعمار الوطن، وتوطين الإنسان الفرنسي فيه، وإستغلال إمكاناته الإقتصادية والإستراتيجية، واستخدام بنيه وقودا للحرب محلية أو إقليمية أو عالمية، كلما داهمت إحداها أوروبا عموما أو فرنسا خصوصا في إفريقيا أو في آسيا...

- تكوين الإنسان المغربي على "مثال الإنسان الفرنسي" كما كان يعبر علال الفاسي، وليس مثل الإنسان الفرنسي، لأن الفكر الإستعماري لم يكن يريد أن يجعل من العربي أو المسلم أو الإفريقي فرنسيا، ولكنه كان يريد منه أن يكون مستلبا من كل إنسيته، بما فيها من فكر ودين ولغة وحضارة وإنتماء وطني وتطلع للمستقبل ليخدم، وهو مجرد من كل ذلك، الإنسان الفرنسي الذي يمثل إبن فرنسا وإنسان العصر المتحضر الجديد بأن يستعمر الأرض ويستغل الإنسان ويسود العالم وينعم بذلك، وبغير ذلك، بكل طيبات الحياة.

كان تأسيس مدرسة مغربية حرة مما قد يعوق الهدفين معا، لأن المدرسة الحرة المتمردة على المدرسة الفرنسية، تعمل للحفاظ على الإنسان المغربي مواطنا بإنسيته الإسلامية المغربية، بكل ما فيها من فكر ودين ولغة وحضارة وانتماء وطني وتطلع للمستقبل. وكانت المدرسة الناصرية إحدى مدارس ثلاث أسست في فترات متقاربة في فاس ومثيل لها أسس في مدن المغرب وقراه تعمل للحفاظ على هذا الإنسان المغربي طفلا ليكون بكل تلك القيم رجل المستقبل. وضاقت إدارة الحماية بهذه المدرسة التي يديرها الفقيه غازي ويعلم فيها علال الفاسي وثلة من شباب القرويين الذين بدأت مخايل التمرد الفكري والعقدي والوطني تظهر على وجوههم وسلوكهم وأقوالهم، فأقفلت المدرسة وشردت تلاميذها وأساتذتها. أما مديرها، وهو إبن مكناس وليس إبن فاس، فلا ينبغي عليه في عرف الإستعمار أن

يقيم في هذه المدينة ليجتمع مع بنيها حول مدرسة أو فكرة أو درس، ولذلك كان جزاؤه الإبعاد.

وليكن مقره آسفي أو الدارالبيضاء، فهما في ذلك الزمان لم تمسهما بعد عدوى التمرد الفكري أو العقدي أو التعليمي فيما يحسب الإستعمار.

هكذا فعلت الإدارة الإستعمارية مع الفقيه غازي كما فعلت مع بوشتى الجامعي، فكانا أول مناضلين طالتهما يد الإستعمار فأبعدتهما من فاس إلى آسفي وأولاد جامع.

-2-

وتمر الأيام ولم أكن أعدها بالأسابيع أو بالشهور أو بالأعوام فالمغالطة الفكرية لدى الأطفال تصور عمر الطفولة كعُمر نوح ويهمس في أذني رفيق القرويين لعله كان أكبر مني بكثير:

ـ الفقيه غازي دخل الجامع، وهو يجلس مع رفاق له في "السارية" الثانية في البلاط الثالث على يمين المحراب. وأغذ السير في فضول إلى السارية الثانية في البلاط الثالث لأشهد، على ضوء باب جامع الجنائز المثيرة، وجها صبوحا تلمع فيه عينان زرقاوان، تحيط بعارضيه لحية شهباء كأنما حصدت من حقل قمح قبل حصاد. يتحدث إلى ثلة من زملائه. يشير بيده ليؤكد ما يقول، ويحرك رأسه المغطاة بقب جلبابه على عمامة. خيّل إليّ أنها أكبر من رأسه. في وجهه جمال تطفو عليه الصرامة، وربما الحدة. بدا لي أنه متمكن من نفسه، غير عابئ بما قد يلقاه مرة أخرى من إبعاد عن فاس وجامع القرويين.

إكتفيت بالنظرة من بعيد، وأنا أحسب أني حققت حلما كان يراودني كلما سمعت عن شخصية من الشخصيات المثالية التي تقدم إليّ أسماؤها مجللة بغار الفخر والعلم والوطنية والنضال. كذلك حدث لي وأنا أرى مرة علال الفاسي ومحمد داود وعبد الخالق الطريس وأحمد بلافريج والحاج عمر بن عبد الجليل. كانت مشاعر طموح الطفولة. ولكنها ما تزال في نظري مشاعر طبيعية وصادقة، ظلت أبعادها تحرك إنتمائي إلي جيل الرواد، على تباعد في السن وتقارب في العمل.

وغاب عن موقعه من فاس والقرويين مرة أخرى. فما كانت إدارة الحماية تسمح له بالعودة إلى المدينة التي حرمتها عليه وحرمته عليها، إذا غضت الطرف عن زيارة عابرة فلن تسمح بإقامة دائمة. ولكنه كان موجودا حيث يكون، فهو في آسفي ينشئ المدرسة أو يوحي بإنشائها، ويكون خلايا "كتلة العمل الوطني" ويوجه أجيال الشباب ليكونوا وطنيين مناضلين، وهو في الدارالبيضاء يقوم بنفس العمل في المدينة، وفي القرى التي تنفتح عليها المدن القريبة منها، وهو في هذه أو تلك يعيش من عمله كوكيل شرعي. وما أظن أن الوكالة كانت تأخذ من وقته ما يأخذه التعليم والنضال الوطني.

-3-

وتمر الأيام وتنقطع صلتي بالوطن والوطنيين. فمصر التي أقمت فيها طالبا كانت تبعد عن المغرب في ذلك الزمان بعد الأرض عن القمر، والحرب العظمى الثانية باعدت بين الأقطار وأبناء العائلة والأصدقاء والخلان ورواد الجيل والمنتمين إليهم فكرا وعملا. لم نعد نسمع، ونحن في مصر، عن أحد الذين عرفناهم ونحن في المغرب. عرفنا أن علال الفاسي نفي إلى الغابون، ولم نعد نعرف أحي هو أم ميت، أما الآخرون الذين توزعتهم المعتقلات والمنافي والسجون، والآخرون المعرضون لأحكام الإعدام، والشعب كله الذي يرزخ تحت ثقل الاحتلال والجوع والمرض والخوف من جائحة الحرب، وأبناؤه الذين يساقون إلى الموت، وأعينهم تزيغ عن المصير المحتوم، فقد كانوا وقودا في المقدمة، وإسبانيا تخوض الحرب الأهلية يسوق بعضهم الجمهوريون ويسوق بعضهم فرانكو إلى مجزرة الحرب الطاحنة. وفرنسا تفقد إستقلالها وتضع السلاح، وتحارب مع الحلفاء لاستعادة كيانها وطرد جيوش الاحتلال من أرضها. لم نعد نعرف شيئا من كل ذلك. فقد كانت مصر هي الأخرى تعاني، وجيوش الإحتلال الإنجليزية والألمانية تتبادل المواقع في صحرائها الغربية، أملا في إنتصار إحداهما على الأخرى كسبا للحرب، وتدعيما للإستعمار، وتركيزا للسيادة على وادي النيل، أحد مفاتيح القارتين الإفريقية والأسيوية وبلاد حضارة خمسة آلاف سنة.

ولم تكد غيوم الحرب تنقشع حتى عاد إسم الفقيه غازي يطرق أذني في التقارير التي وردت إلينا عن عريضة الإستقلال والموقعين عليها، في نسخة من مجلة "رسالة المغرب". إسمه مكتوب في مقدمتها كمدير للمجلة، في الأخبار والتقارير التي أخذت ترد علينا تباعا عن نشاط حزب الإستقلال، ثم عن الذين حضّروا لرحلة طنجة (9 أبريل 1947) التي قام بها محمد بن يوسف والذين نشطوا في تنظيمها، ثم، وهذا المهم، في أحاديث علال الفاسي معنا عندما وصل إلى القاهرة بعد عودته من المنفى (مارس 1947) حيث كنا نستمع إليه، في جلساتنا الطويلة "بمكتب المغرب العربي" وسهراتنا الطويلة بمنزله، عن الوطن والحركة الوطنية، وشخصياتها القيادية، عن كل ما يصل الحاضر بالماضي من حلقات كنا نحسبها ضاعت من عمرنا ومن ذاكرتنا. وكان في مقدمة الشخصيات التي حدثنا عنها علال الفاسي طويلا الفقيه محمد غازي.

كان علال الفاسي يعيدنا إلى واقع المغرب بعد الانفتاح، أي بعد الإفراج عن الزعماء والمناضلين المنفيين والمعتقلين، بعد تفكير المقيم الجديد، بأن يخلع قفاز نوكيس وبيو ويلبس قفاز ليوطي[2] الحريري يقدم على بياضه اللامع إلى السلطان والوطنيين مجموعة إصلاحات اقتصادية من شأنها تحويل الإمكانات المغربية إلى شركات فرنسية تسهم الدولة الفرنسية في رأسمالها، ويكون للمغاربة حظ الشراكة في عضوية مجالس إدارتها، وإصلاحات سياسية تنشأ بمقتضاها مؤسسات مختلطة، وربما حكومة مختلطة، وإنتخابات مختلطة لهذه المؤسسات. وكان يحدثنا عن واقع الحزب في تجديده وتنظيمه، عن العناصر الجديدة التي إلتحقت مواكبها بالحركة الوطنية، عن صحف الحزب...

في إحدى الأمسيات وضع علال الفاسي المصحف بين يديه:

2- Hubert Lyautey ، أول مقيم عام لفرنسا للمغرب. كانت الأيام الدامية التي شهدتها فاس (17-19 أبريل 1912) أسبوعان بعد توقيع معاهدة الحماية سببا في تعيينه. مكث في الحكم 12 سنة ونيف (أبريل 1912 - غشت 1925) ما عدى أربعة أشهر عيّن خلالها وزيرا للحرب في فرنسا. ما لبث أن إستقال مفضلا منصبه في المغرب. كانت أحداث الريف السبب الرئيسي لإقالته.

ـ أقسموا على المصحف على إخلاصكم وكتمانكم للأسرار لأكمل لكم قصة الحزب في شكله الجديد.

ـ أقسمنا يوم إنخرطنا في "كتلة العمل الوطني"، ومن يومئذ ونحن نعمل في السر والعلن فماذا حدث لنقسم من جديد؟

وأقسمنا دون إلحاح منه ولا تمنع منا. فقد كانت ثقتنا به تمنع كل تمنع.

وأخبرنا علال الفاسي بأن الحزب كوّن جماعة سرية تحت تسمية "الطائفة" كوّنها على عهد "الحزب الوطني" وإستمرت في عهد حزب الإستقلال. وهي وحدها التي تطلع على أسرار الأعمال الخطيرة، هي التي نظمت المطالبة بالإستقلال، وهي التي كتمت سر العمل المنظم لتجنيد الشعب للمطالبة بالإستقلال، وهي التي تنظم العلاقة الحميمية مع محمد بن يوسف.

ـ مع محمد بن يوسف؟

- نعم. وهذا هو السر الثاني الذي أقسمتهم على الاحتفاظ به. الحزب يعمل في إتصال كامل مع جلالته، والقيادة في الطائفة تعقد معه إجتماعات منتظمة تتقرر فيها القضايا الأساس، لمواجهة الإقامة العامة ودراسة مشاريعها والبت فيما يقبل منها وما يرفض.

ويتوقف علال الفاسي وهو يضعنا في الصورة الكاملة. ويزداد شوقنا لهذا الحدث الذي كنا نحسبه جديدا وما هو بجديد. ثم يستأنف:

ـ طلب الإستقلال تم بالاتفاق مع السلطان. خلال الاجتماعات السرية التي كانت تنتظم ليلا، بعد أن تنام أعين المراقبين والمخبرين والملاحظين، في إحدى الغرف المنزوية بالقصر الملكي. حضرت عدة اجتماعات من هذا النوع، وكان السلطان يقود بنا سيارته المتواضعة بنفسه، وقد حشرنا فيها حشرا، ولا يتوقف إلا في مرأب معزول داخل القصر، ومنه إلى الغرفة السرية.

أضاف علال وهو يبتسم:

ـ في إحدى الليالي الباردة الممطرة حرنت السيارة فتوقفت وسط شارع عام بالرباط. وكان من الممكن أن يهرع إليها شرطي أو مجموعة من الفضوليين أو فاعلي الخير لينجدوا سائقها. ولكن بعضا من الوطنيين تعاونوا على دفعها والسلطان ممسك بمقودها حتى هداها الله فأسلست القياد ووصلوا إلى مكان الاجتماع سالمين...

وتحدث علال الفاسي عن المجموعة التي كان يجتمع بها محمد بن يوسف ويثق في كتمانها للسر:

ـ كان يتعرف على أسماء كل أعضاء الطائفة ويختار بنفسه الذين يمكن أن يطلعوا على سر اللقاء معه، وكان يحتاط لكتمان السر. ولذلك أقسم مع هذه النخبة التي يجتمع معها على المصحف على أن يحتفظوا جميعهم بالسر وأن يعملوا من أجل الإستقلال والوحدة، وأن يضحوا بكل شيء في سبيل الوطن.

ولم يكن يطول بنا الشوق للتعرف على كل شيء فقد كان علال الفاسي حريصا على أن يطلعنا، في ساعات، على كل ما كان يمكن أن نطلع عليه في شهور أو سنوات:

ـ المجموعة التي كان السلطان يطمئن إليها والاجتماع إليها، بالإضافة إلى علال الفاسي نفسه بعد عودته من المنفى، كانت تتكون من: أحمد بلافريج ومحمد الفاسي ومحمد غازي والحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد اليزيدي.

ويقفز مرة أخرى إسم الرجل الذي كان يختار دائما أن يكون في الظل، الفقيه غازي...

ويضيف علال:

ـ نِعْمَ الرجل ... إنه المناضل الذي يفكر جيدا ويعمل كثيرا رغم الظلال التي تخفي إسمه. وهو الرجل الذي يضعه محمد بن يوسف في مقدمة من يثق بهم فيستشيرهم في كل أسراره ويأخذ برأيهم ويمنحهم الرأي. ومعهم، وحدهم، وضعوا أسس وثيقة المطالبة بالإستقلال.

ما أدري ما الذي ساقنا، نحن بعض أعضاء "مكتب المغرب العربي" إلى إدارة الجوازات والتأشيرات في السفارة الفرنسية بعد أن إستقر الأمر لحكومة دوكول وفتحت سفاراتها في كل دول العالم، أو هي إستعادت السفارات التي كانت تشرف عليها حكومة المرشال بيتان. ولعل الذي ساقني إلى هذه السفارة أن الممثلية الفرنسية كانت ترفض تجديد جوازات سفرنا. كنا نقيم في مصر بجوازات قديمة -ما قبل الحرب- مكتوب على ظهرها "الحماية الفرنسية بالمغرب". وحينما طلبنا من ممثلية " فرنسا الحرة" بالقاهرة تجديد جوازاتنا إمتنعت لأنها لا تملك ذلك، أو لأنها ترفض أن تتبنى مجموعة من الطلبة المغاربة يتحركون في الميدان السياسي، ويقلقون راحة فرنسا حرة وغير حرة بما ينشرون وما يطلبون من إستقلال المغرب وحريته.

في السفارة الفرنسية الجديدة أرشدونا إلى مكتب يتحدث القائم عليه بعربية "مغربية سليمة". وجه ذئب، وعينا قط، وإبتسامة ثعلب، ومنطق عذب، وكهولة ما تزال فيها بقية من شباب. لم يتحدث إلينا عن جواز السفر، ولكنه أخذ يتحدث بتواضع الإستعماري ودهائه حينما يكون خارج المستعمرة عن المغرب ومشاكله، والشخصيات التي يعرف... كل الوطنيين كانت له معرفة بهم عن طريق ملفات المخابرات. عمل، دون شك، في المغرب. وكان على رأس جهاز "الاستعلامات" في الإقامة العامة. ذكر الأسماء التي يعرف عنها بشيء من التقدير. وتوقف عند الفقيه غازي. ومع إبتسامة عريضة قال:

- ذاك المسيح، وجهه ولحيته وعيناه وذكاؤه، كل ذلك يذكرني بالسيد المسيح.

لم نجد في تشبيهه غضاضة. أدركنا ما يقصد إليه من هذا التشبيه، يبشر بالوطنية. في منطقه إقناع، وفي عينيه تأثير، وفي ملامحه جد. يعاني مرارة الخيبة، ليس من الذين يدعوهم إلى الاهتداء، ولكن من الذين يعارضون دعوته. يضحي، وربما كان مصيره مصير المسيح في إعتقاد بني إسرائيل.

إزداد إعجابي وتقديري للفقيه غازي، على بعد الدارين. الصورة التي قدّمها لنا عنه السيد سوليي وهذا هو إسم الموظف الفرنسي السامي في السفارة كانت تنقصني لأتعرف على جانب من شخصية الفقيه. وقد تأكدت من صدق هذه الصورة بعد أن تعرفت على الفقيه. فقد كانت حكمة المسيح وصبره ودهاؤه وتواضعه وبعد نظره وإيمانه بربه ويقينه في نصره وتضحيته، عن كل ذلك يحدث وجهه، الذي كان أشبه ما يكون بوجه المسيح كما قدمته لنا صور ورسوم وتماثيل الذين عبدوه من دون الله...

-5-

ويواجهني الفقيه غازي بهذا الوجه المعبر في طنجة، وقد عدت من القاهرة (ديسمبر 1948) صحبة علال الفاسي. جاء لزيارة علال بعد غيبة نحو من سنة ونصف رفقة الحاج أحمد بلافريج ومحمد اليزيدي. لم تكن العين تقتحمه، رغم العمامة المكورة والطقس يومئذ شديد البرودة التي تتربع على رأسه. وكان للعمامة مدلول عندنا في ذلك الزمان، تخلف في أذهاننا من حديث الجامعة. والجامعة في مصر كانت تنافس الأزهر وترغب في إحتلال مكانها التاريخي. ولست أدري لم إرتبطت العمامة بمفهوم غير منصف في أذهان بعض الأساتذة والطلاب، رغم أن بعض كبار أساتذة الجامعة، ممن تشرفنا بالتلمذة عليهم، إحتفظوا بالعمامة الأزهرية. كان في مقدمتهم الشيوخ مصطفى عبد الرزاق، وأمين الخولي.

توالت لقاءاتنا في الرباط. كثيرا ما كنت أزوره عمل في "المصرية" التي يفضي إليها درج يلصق الباب في منزله المتواضع بحي ديور الجامع، وما أحراه أن يسمى "حزب الإستقلال". كان يسكنه معظم الذين كانوا يقودون الحزب آنذاك. وحينما كانت اللجنة التنفيذية تجتمع في منزل محمداليزيدي أو أحمد بلافريج أو الفقيه غازي، لم يكن الأمر يستدعي تنقلا بعيد المسافة.

-6-

كان الفقيه يومن بالإستقلال إيمانه بالله. وكان يومن بشعب المغرب إيمانه بالوطن. ويعرف من أحداث التاريخ أن إستسلام المقاومة لنفاذ السلاح كان لواقعية

عقلانية. المقاوم يموت حتى إذا لم يستشهد وضع السلاح إلى أن يتمكن أو يتمكن خلفه من حمله مرة أخرى. ولكن منطق العصر يفرض أن فترة ما بين السلاحين يجب أن يملأها العمل السياسي لينتهي الأمر بحمل السلاح مرة أخرى.

من هنا كان الفقيه غازي موجها لقيادة الحزب على تهييء الجو النفسي لحمل السلاح مرة أخرى. كان الفقيه غازي إذا تكلم إستمع أحمد بلافريج ومحمد اليزيدي وعلال الفاسي. كثيرا ما كان رأيه هو الرأي، رغم صيغة التواضع التي يفرغ فيها حديثه.

حينما يريد أن يوحي بهذا العمل، الذي كان يومن به كما يومن بالعمل السياسي، كان الفقيه غازي يستقبل مفتش الحزب أو كاتب الفرع في "الصالة" التي شهدت كثيرا من المحادثات الهامة. كان يعبئ المسؤول الإقليمي أو المحلي للحزب، ويفهمه "المسؤولية" باللغة التي يجب أن يفهم بها حتى إذا أفصح المسؤول عما فهم اصطنع الفقيه ثورة في وجهه وهو يقول:

ـ ولَـمَ تسألني عما يجب أن تفعل، وأن يفعل فرع الحزب والمناضلون في صفوفه؟ كُن فَهِيماً... ألق السؤال على نفسك وأجب عنه...

أسلوب لم يكن يستطيع أن يتحدث به إلا الفقيه غازي، ولكنه لم يكن يترك مجالا لمخاطبه أن يعترض أو يتردد.

كان الفقيه غازي أحيانا يضيف للذين لا يفهمون إلا بالتكرار:

ـ الحزب لا يأمركم، ولكنه لا يمنعكم... كل واحد يقوم بواجبه الوطني... والحزب لا يأخذ بيد كل عضو فيه ليقول له: "إفعل أو لا تفعل... أنتم رجال أكفاء". وإذا بلغت بالإدارة الفرنسية الجرأة للمساس بالعرش فعلى كل منكم أن يقوم بالواجب الذي تفرضه عليه وطنيته...

ما أشك في أن الفقيه غازي كان يقنع بهذه الوسيلة أكثر مما يمكن أن يقنع لو كان أكثر وضوحا. كان يقول: "المسؤولية يجب أن يتحملها المناضل من بدايتها إلى نهايتها، لا مسؤولية إرادة الفعل فحسب، ولكن مسؤولية التنظيم والتحضير

والعمل المباشر. ولو قام الحزب، كهيئة منظمة، بكل هذا لأضعف قوة الإرادة وقوة المسؤولية وقوة الحافز وقوة المبادرة عند الذي يتلقى التعليمات، ويعتمد على ألا يتحرك إلا تحت التعليمات. الأحزاب الواضحة المعروفة بتنظيماتها وترتيبات القيادة فيها لا يمكن أن تقوم بالمقاومة المسلحة داخل هذا الوضوح والتنظيم والتراتيب القيادية".

وكانت سبيله إلى الإقناع: الآية القرآنية، والحادثة التاريخية والمثل الدارج والحكمة المتداولة... وأكثر من كل ذلك كان سبيله النظرة الصارمة والإبتسامة المحببة والغضبة المفتعلة أحيانا.

كان يشير إلى أن المساس بالعرش هو الفاصل بين العمل السياسي والعمل ما بعد السياسي، لأن وتلك نظرية الحزب المساس بالسيادة يفقد الإستعمار كل منطقه، حتى منطق معاصرة الحماية، ولأن عمل ما بعد السياسة يتطلب مزيدا من الإقناع للشعب بأن الإستعمار تجاوز كل حد حتى منح للسلاح منطقا قويا، أقوى من المساس بالحزب، أو بالحركة الوطنية عموما، ولو كان هذا المساس لأنها تطالب بالإستقلال والديمقراطية، ولأن المساس بالعرش يضع الشعب كله في معركة واحدة.

-7-

كان مديرا مسؤولا لمجلة "رسالة المغرب" وكنت رئيس التحرير فيها، والمجلة الأدبية كالصحيفة السياسية كانت معرضة للرقابة الصارمة وللمسؤولية الإدارية.

ومرة دعينا، هو وعبد الجليل القباج (مدير "العلم" آنذاك) وأنا، لنقابل الصدر الأعظم الحاج محمد المقري. ومن بين شفتيه المرتعشتين أخذ يحدثنا عن "دسارتنا على المخزن"[3] وإننا معرضون للعقاب لأن "المخزن" لا يمكن أن يتهاون الضرب الضالين... وغضب الفقيه غازي، وكنا نقعد على الزربية في مواجهة الصدر

3- الخروج الأدب والإحترام الواجب للسلطة.

الأعظم، ولم يكن يمتاز مقعده عن مقعدنا إلا بلبدة صلاة تميز مكانه. غضب الفقيه غازي وشد الصدر الأعظم من ركبته يحركها أماما وخلفا وهو يقول:

ـ إسمع اَلفقيه، إذا كان المتحدث أحمق فليكن المستمع عاقلا...

لم يكن الصدر الأعظم ليغضب من حركة الفقيه وثورته وحكمته. فقد بلّغنا ما أوحى إليه به. وما أشك في أنه بلغهم ما صارحنا به. كان ذلك في عزّ أزمة 1951 .

-8-

كان الفقيه غازي واقعيا بمقدار ما كان يؤمن بالتوقع. حينما كان يسأل عن الإستقلال -في عز طغيان الجنرال جوان- يجيب جازما:

ـ هو أقرب إلينا من حبل الوريد...

أمام إبتسامات أصدقائه وزملائه، التي كانت تعني الاستغراب من الإغراق في التفاؤل ،كان يلجأ إلى الحجة التي يستمدها من التاريخ، أو من واقع تخبط نظام الحماية، حتى إذا رأى الإبتسامات أصبحت عريضة قال وبين عينيه حزم وعزم وتحد:

- سترون سيحييكم الله إلى أن تعيشوا عهد الإستقلال، كما عشتم عهد الحماية.

عرف الفقيه غازي السجن مرات ومرات. ولعل أخطر المرات كانت في عهد الجنرال جوان، ثم الأخطر منها كانت في عهد الجنرال كيوم. أحداث ثامن دجنبر 1952 التي كانت مجزرة سالت فيها دماء المواطنين مدرارا، والتي جندل فيها المواطنون نحو عشرة من الفرنسيين، والتي انتشر فيها الرعب بين الجانبين. بدأ في ديسمبر الأسود الأنحس وتجدد في غشت الموالي. إستمرت الدماء تسيل في شوارع الدارالبيضاء ومراكش وفاس، وأعدم عشرات الشهداء، وكان الإعدام أقرب الأحكام إلى فم قضاة المحاكم العسكرية.

في هذه المرحلة كانت قيادة حزب الإستقلال متهمة بالمسؤولية عن كل ذلك. وكان التحقيق العسكري يحاول أن يحكم الطوق على أعناق كل أعضاء قيادة الحزب. تأكد الهدف يوم طوقت دبابات جنرالات الاحتلال بقيادة المقيم العام الجنرال كيوم القصر الملكي وخيّر الجنرال السلطان بين التنازل والعزل.

أرْبَدت الوجوه وأظلمت النفوس. وفاضت أعين العاطفيين من المناضلين بالدموع. وفي السجن واجهت قيادة الحزب النظر لليل الإستعمار الطويل. الفقيه غازي كان وحده الذي إبتسم إبتسامته الآملة:

ـ لا تنزعجوا يا أصدقائي، الفرج قريب...

لم تستطع الابتسامات هذه المرة أن تطفوا على وجوه المهددة بلادهم بالليل الطويل، المهددة أعناقهم بالمقصلة. قال بعضهم في نفسه:

- الفقيه يخرف...

وقال آخرون:

- النزعة الصوفية تراوده حتى في أحلك ساعات الحرج.

لم يخنه المنطق ولا التحدي العقلاني فأخذ يردد:

- الإستعمار كانت تنقصه هذه الغلطة، وها هو ذا يرتكبها... سترون... الآن تأكد أن الإستقلال قريب.

جميعهم أخذوا كلامه مأخذ الرجل الذي يهرب من الحقيقة إلى الحلم، ولكنه أضاف مبتسما ضاحكا:

ـ الغلطة الأخيرة... الإستعمار ينتحر...

لم يكن الفقيه غازي يستمد إستنتاجه من الحس السياسي الدقيق الذي كان يتمتع به فحسب، ولكنه كان يستمده مما يعرف من أن أفواج الشباب الذين أوحى إليهم في "الصالة" المعلقة على رأس الدرج الضيق من منزله المتواضع بأن يبدأوا المعركة يوم تمتد الأيدي إلى محمد بن يوسف، وكان يعرف من علاقته الوثيقة

بالسلطان وفكره وإيمانه ببلاده وإستعداده للتضحية بأنه سيسير إلى النهاية في مواجهة إدارة الحماية. وكان يعرف من المبادرات الأولى للفدائيين بقنبلة صيدلية درب السلطان وبعض الأماكن الأخرى وبمذبحة وجدة، ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية 177).

كان الفقيه غازي يومن بالله إلى درجة التصوف، ويومن ببلاده وبمستقبلها، ويومن بأبناء بلاده كما يومن بعطاء الأرض التي أنجبتهم في الجبال والسهول والوديان والمدن والقرى. ويمكن أن نقول إنه يكاد يكون الوحيد في المغرب الذي قدر الخطأ القاتل في السياسة الفرنسية، كما كان علال الفاسي المناضل الوحيد الذي جلجل صوته من مذياع القاهرة بعد ساعة من نفي محمد بن يوسف، يرفض بإسم الشعب التصرف الفرنسي ويدعو المواطنين جميعهم في المغرب أن يبدأوا المقاومة حتى إذا فعلها علال بن عبد الله أدركه طائف من الوجد وهو يفتخر:

- .... وإسمه علال.

وانطلقت المقاومة من نداء العلالين، وكان الفقيه غازي سعيدا في سجنه ينشد في سره:

- الآن مرحبا بالمشنقة...

-9-

ويصحو الفقيه من نومه، النوم الثاني بعد صلاة الصبح. والسجناء عادة يتحدثون أكثر مما يصمتون، ولأنهم قلما يقرأون إلا الكتب المحددة التي تصلهم، بعد رقابة صارمة، وربما ينفذ منها إلى الزنزانة المصحف الكريم. والفقيه غازي يفكر وهو نائم ولكنه حينما يصحو يقرأ القرآن ويتحدث أكثر مما يصمت أو ينصت:

- رأيت فيما يرى النائم أني أخذت طريقي سائرا على قدمي في اتجاه الإقامة العامة في الرباط، وإلتقيت ببوشعيب (محمداليزيدي) في طريقي فسألني عن مقصدي فقلت: "لي موعد مع الحاج أحمد(بلافريج)، وزير الخارجية".

ـ وأين هو الحاج أحمد ؟

ـ في وزارته ... بجانب المقر القديم للإقامة العامة.

وضجت الزنزانة بالضحك. فقد كان حلم الفقيه في زنزانة، ينتظر ساكنوها الحكم بالإعدام، مما ينتزع الضحك من أعماق المحزونين. وقال الفقيه في سره، متحديا، فقد كان لا يستطيع أن يقنع بصدق الأحلام:

ـ سترون...

ورأوا بعد ذلك بمدة لا تزيد عن سنتين أن الحاج أحمد بلافريج كان وزير خارجية المغرب في نفس المقر الذي طرد منه الجنرال جوان ممثلي حزب الإستقلال من مجلس شورى الحكومة.

كان الفقيه غازي يجمع بين المنطق العقلي والرؤية ذات البعد الصادق إذا لم تعبر عنها اليقظة عبّر عنها الحلم. فقد مرّ في حياته بمرحلة تصوف وتعبد، هي مرحلة تصفو فيها النفس حتى إنها لتدرك ما لا يستطيعه العقل.

-10-

وجاء الإستقلال فشعر الفقيه غازي أنه أدى الأمانة، وأن رسالته في الحياة قد إنتهت. وما أتذكر أنه خاض بعد ذلك في عمل سياسي ذي مسؤولية حتى إذا تحررت سيادة المغرب الخارجية وقع عليه الاختيار ليكون أول سفير للمغرب في السعودية. لست أدري أبطلب منه أم باقتراح من وزير الخارجية، رفيقه في النضال الحاج أحمد بلافريج. ولكني متأكد من أن المنصب صادف منه قلبا خاليا فتمكن. ساعة أسّر إليه الحاج أحمد بلافريج الخبر مترددا... قال الفقيه بفرح: "سأكون فيه قريبا من البيت الحرام ومن روضة الرسول". وكان ذلك إرضاء لجانب مهم من سريرته، فقد كان من بقية الصوفيين الكبار الذين وجدوا زاويتهم في أحضان الوطنية، ومن الوطنيين الكبار الذين إحتفظوا بزاويتهم في أحضان الصوفية.

وتمر الأيام ويعتزل المنصب، ولكنه يأبى أن يعود إلى المغرب. فقد كان يرى مكانه هناك قريبا من الحرمين يصلي ويصوم ويحج... ويقرأ القرآن.

زار المغرب مرة وقد بدأت الشيخوخة تقتحم نشاطه وصحته. كان ذلك في وقت النكبة (1967) والمسلمون جميعهم يعيشون محنة الهزيمة ومأساة احتلال القدس. تحدث الفقيه غازي عن المأساة، يتطلع إلى وجوهنا بعينيه اللتين لم تطفئ الشيخوخة والمرض شعلتهما. وإبتسم ابتسامته العذبة المعبرة ويقول في صوت خافت كسّر توالي السنين من حدته:

- كل ذلك كان منتظرا... الذين يعجبون أويهلعون هم الذين لم يقرأوا القرآن. إقرأوا قوله تعالى يعود بعض الاطمئنان إلى نفوسكم: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)﴾ (سورة الإسراء، الآيات 4 إلى 8).

فكأننا لم نقرأ هذه الآية من قبل.

كان الفقيه يومن بكل القيم المثلى الدينية والتاريخية والواقعية والمستقبلية. لا يجد اليأس إلى قلبه سبيلا. ولذلك كان يتعامل مع الأحداث العظمى بواقعية الرجل الحكيم الذي لا تزيغ حكمته في ظلام الأحداث واصطخاب الأمواج وهلع القلوب ويأس العقول. يهتدي بالقلب إذا ضل العقل. ويعود إلى الله إذا غشي الظلام العقل والقلب معا.

***

إلتحق محمد غازي بالرفيق الأعلى يوم الجمعة 26 مايو 1972 عن سن 71 عاما. وقد دفن بالبقيع.

رحمه الله...

محمد بن العربي العلوي...
شيخ الإسلام
(1885- 1964)

-1-

سبق الخبر عنه الخبر...

كنا نجلس إلى أساتذتنا طلبة علم ووعي وتوجيه وتسييس. كانوا يعلموننا الحاضر قبل التاريخ. يبصروننا بالواقع والمستقبل قبل أن يعرفونا بالذي مضى. كانت طريقة التعليم عندهم تبدأ بالمثال وتنتهي بالمثال. لم يكن المثال عندهم نظريا أو طوباويا خياليا، ولكنه كان بشريا. فالاقتناع الذي يتقصد الفكر الصغير يعتمد على المحسوس أكثر مما يعتمد على النظري غير المجسد.

من هذا المنطلق، كان إسم "الفقيه إبن العربي" يدلف إلى أسماعنا كلما تعلق الأمر بالثورة على التقاليد، والثورة على الطوائف والزوايا، والثورة على الخرافات والمخرفين. كان الخبر عنه يصاغ في صيغته الثورية المتهجمة، ويصحب أو يردف بابتسامة الإعجاب والإكبار. وكنا نأخذ عن الشيخ إبن العربي بالواسطة ونروي عنه رواية عمن أخذ عنه مشافهة. ويبدو أننا في سننا المبكرة كنا نتهيب ولا نطمع في أن نجلس مجالسه. ولم يكن ذلك ممكنا عمليا لأنه كان بعيدا عنا بعد فاس عن الرباط، في ذلك العصر الذي كانت الرباط فيه تمثل ما تمثله اليوم باريس بالنسبة إلى الرباط. وكان مقامه بعيدا عنا بُعْد وزير العدل عن تلاميذ في مدرسة إبتدائية يدرجون إلى الثانوية. والحق أن أحدا لم يكن يتحدث عنه حديثه عن رئيس مجلس الاستئناف الشرعي أو عن وزير العدل . الأستاذ بقي أستاذا عند تلاميذه ومريديه لأنه هو نفسه لم يكن يحفل بالمناصب، على كثرة ما تولى منها، بل كان يسخر من هذه المناصب بصفة علنية سخريته اللاذعة من كل حدث لا يسير مستقيما.

لذلك لم يكن رئيسا لمجلس الاستئناف ولا وزيرا للعدل، وإنما كان الشيخ الأستاذ الذي يحدث بالعلم ويبث الثورة على المجتمع الخرافي ويهاجم الزوايا، ويسوط المتمسحين بجدرانها وخاصة "العلماء" والمتعلمين بسوط لسانه، ويقذف بكلمة الكفر كل من أشرك مع الله أحدا، أو كان وليا أو صالحا أو رسولا، فأحرى إذا كان مشبوها في ولايته أو سيرته أو مجهول النسب إلى الولاية أو الصلاح أو الاستقامة.

وحينما كان أساتذتنا يحدثوننا عن هذه القضايا كانوا يردفون الرأي بالاستدلال وكلمات الشيخ كانت هذه الدليل. لم يكونوا ينقلون عن كتاب، ولكنهم كانوا يروون عن مشافهة. إذا كنت لم أطمح إلى أن آخذ عن الفقيه، فقد كنت أطمح إلى أن أراه. كنت في صغري أمني النفس بأن أمتع نظري بالذين أسمع عنهم ما يكبرهم في فكري. أن أرى، رأي العين، الكثيرين من الرواد: علال الفاسي، عمر بن عبد الجليل، أحمد بلافريج، محمد اليزيدي... وحينما كان يذكر إسم محمد العربي العلوي في الدرس كنت أمني نفسي أن أدخل القرويين، وأنظر في وجه الشيخ لعل وجهه الثائر يرضي في نفسي بعض حب الاستطلاع. لا أدري لم حرمني القدر من ذلك، وأنا بعد صغير السن طُلَّعَة؟

شخص آخر أرضت الأقدار تطلعي الى رؤيته. كان هو الآخر يملأ السمع ويشغل الفكر على فرق بين ما يملأ وما يشغل كل منها هو الشيخ شعيب الدكالي ويوم علمت أنه سيلقي درسه في القرويين وقد حضر إلى فاس في رحلة الربيع التي كان يقوم بها محمد بن يوسف أسرعت وأنا تلميذ صغير مع الطلبة الكبار، وكان فيهم من أشرف على السبعين من علماء القرويين، أخذت مكاني قريبا من الكرسي قبل أن ينادي المؤذن للمغرب "الله أكبر". وكان الدرسان أو الثلاثة التي ألقاها الشيخ المحدث مفتاحا لباب عريضة دخلتُ منها إلى عالم كبير هو عالم الحديث بالسند المتصل إلى الإمام محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي البخاري رحمه الله. ورأيت لأول مرة عالما جليلا أشيب اللحية وقور الوجه يسأل ويستفسر ويعترض... ورأيت لأول مرة الشيخ، وربما كان أصغر سنا من العالم التلميذ، يجيب:

- لا... الحاج عبد القادر... المسألة هي...

هكذا رأينا الشيوخ الكبار والطلبة الكبار.

ونما شوقي إلى رؤية الفقيه إبن العربي والجلوس منه منزلة الطالب الصغير إلى العالم الثائر.

وجاءت الهجرة التي طالت. ولم يخب فيها شوقي ولا ضاع أملي.

وسمعت من أستاذنا علال الفاسي عندما قدم من القاهرة بعد هجرته "المنفى" في قلب أفريقيا الكثير عن الفقيه بن العربي. وكان في مقدمة ما سمعت أنه كان في مقدمة من أيّد وثيقة الإستقلال في المجلس الذي جمعه السلطان المناضل محمد بن يوسف بعد تقديم وثيقة الإستقلال إليه. وسمعت فيما سمعت أنه أبعد عن وظيفته السامية في الحكومة المغربية، وأنه نفي من الرباط إلى قرية بالأطلس ثم إلى مدغرة في تافيلالت. وما دروا أنهم ما نفوه، ولكن أعادوه إلى النبع الذي ورد منه الذكاء والصفاء والاستقامة الفكرية. وسمعت، فيما سمعت، أنه حاول رأب الصدع الذي كان قد حدث في كتلة العمل الوطني (1937)، وأنه لم ينجح رغم جهوده المضنية الصادقة.

عرف الرجل العالم القاضي الوزير الأستاذ المنفى والعزلة والرقابة الإستعمارية الصارمة، ولكنه كان يتخطى ذلك لينفذ في منفاه إلى قلب الحقيقة التي أدركها منذ وجد وهي أن شعبه جميعه يعيش في المنفى. وأنه حين هاجم الإستعمار في المجلس الوزاري وأيّد الإستقلال كان يعلن:

نخرج جميعا من هذا الأسر أو ندخله جميعا.

واسم "إبن العربي" منذ ذلك التاريخ وقبل ذلك التاريخ كان يثير ضجة في الدماغ، دماغ الفرنسيين على الأخص. أما بعد أن نفي فقد أصبح إسمه مما يثير الحذر من أن يدفع إلى التمرد أو يوحي بالثورة. وتتبعته الرقابة على الصحف بعد أن تتبعت الرقابة البوليسية حركاته وسكناته. وعرف إسمه شطبا من الرقيب. فكان كلما ذكرته "العلم" مصحوبا بلقب شيخ الإسلام حذف الرقيب اللقب -حتى

كلمة الإسلام - وترك إسمه دون لقبه. ولكن المواطنين كانوا يقرأون البياض من حيث كان غيرهم لا يقرأ إلا السواد...

وعدت من الهجرة فكانت أول هدية قدمها إليّ وإلى زميلي عبد الكريم بن ثابت المناضل أحمد بلافريج:

- تعالوا لنزور الفقيه إبن العربي.

لا تستطيع الذاكرة أن تنسى. إقتراح يبدو وكأنه تلقائي. ولكن أحمد بلافريج، الأمين العام للحزب، كان يخطط للمناضلين طريق المعرفة ويقدم لهم المثل. وهل هناك مثل يمكن أن يربط به أولى من الشيخ إبن العربي؟

وحسبت أني سأجد شيخا وقورا، وزيرا "سابقا" يحيط به الخدم والحشم، تخيم على وجهه الصرامة، ويعلو عينيه التصنع والجهامة. يمد إليك يده، كأنه يرغمك على تقبيلها، ويخرج الكلمات من بين شفتيه ممطوطة معدودة كما هو الأمر بالنسبة لشيوخ آخرين وضعهم القدر في طريقي. لكن الرجل كان من البساطة وكأنه عاد لحينه من مدغرة يكتسي جلبابه الأبيض الفضفاض، وعلى رأسه عمامته المكورة، تحيط بعارضيه لحيته الكثة الناصعة البياض، تعلو عينيه إبتسامة جميلة تكسب وجهه روعة الكهولة. إستقبلنا كما يستقبل أولاده بالأحضان وبالترحيب وكأنه يعرفنا من زمن بعيد. جلسنا دون إستئذان. كان المنزل متواضعا في بنائه وهندامه وفرشه، نظيفا نظافة هندام الفقيه وحديثه.

بدأ الفقيه حديثه وكأنه يجلس إلى طلبته في درس ينتقل من الواقع إلى الماضي إلى المستقبل، يروي الحادثة التاريخية مع الفرنسيين أو مجلس القضاء، أو في مجلس الحكومة، أو مع شيخ من شيوخ الزوايا، يتحدث في قضية فقهية أو نكتة لغوية نحوية... ولكنه كان يعرف حيث يقف ليروي النادرة والنكتة، ولو كانت مما لا يروى في مجالس الفقهاء وشيوخ العلم. كان يضحك للنكتة، يروي أو تروى له حتى لتبدو ناجذاه. وكان يلقى خصومه في العقيدة أو في الوطنية بلسان حديد. أكثر ما كان يثيره في حديثه الجامدون في العلم أو الدين أو العقيدة. وأكثر الذين

كان يسخر منهم الجاهلون بحقيقة الإسلام، والمتعاطفون مع أرباب الزوايات وتجار الصلاح ممن يلجأون إلى الأضرحة، أو يربطون أنفسهم " بورد" عن إمام أو شيخ.

ويروي الشيخ الحقيقة في صفة النكتة. فقد دخل على نفر من زملائه العلماء الكبار وفي يده كتاب لإبن تيمية. وسأله أحدهم، وكان ينتمي إلى طريقة من الطرق التي عرفها ذلك العصر.

ـ ما ذاك بيمينك...؟

ـ بيدي كتاب لو قرأته لأسلمت...

وضحك العالم الكبير، فقد ألف من الفقيه أن يهاجمه ويهاجم طريقته الصوفية. ولكنها لم تكن نكتة أو "قفشة" من إبن العربي، وإنما كان يعتقدها حقيقة. فقد كان سلفيا متعصبا لا يعتقد في إسلام الطرقيين ولو كانوا من كبار "علماء الإسلام".

-2-

كان إبن العربي داعية من الدعاة الكبار الذين عرفهم تاريخ الإسلام. أدرك الحقيقة عن طريق التجربة. فقد إنتقل من قريته مدغرة إلى فاس ليتعلم في القرويين. وبداية القرن العشرين أدركت كثيرا من التخلف الفكري في المغرب وفي بلاد العالم الثالث جميعها. وكان المتخلفون يحتمون في تخلفهم، أو من تخلفهم، بالأضرحة والأولياء والطرق الصوفية والمتصوفة لعلهم كانوا يجدون من حيث لا يشعرون فيها تعويضا عما إفتقدوه من علم ومعرفة واستقامة فكرية، أو ما عجزوا عنه من الاحتفاظ بسلامة بلادهم. وقد بدأ الإستعمار يطوقها من كل جانب، وينفث فيها الإستنامة والخذلان، والخور والهزيمة.

إندمج إبن العربي الشاب فيما إندمج فيه عامة طلبة العلم. كل منهم كان ينتمي إلى زاوية أو شيخ طريقة. ولكن فكره أخذ يستيقظ مع يقظته العلمية، فكلما درس الحديث والقرآن إنفتحت نوافذ تفكيره على عالم جديد قديم، سلفي مستقبلي هو عالم الإسلام الصحيح. كان قراء لا تمتد عينه ولو من بعيد إلى كتاب

إلا إمتد بصره وبصيرته إلى قراءته والاستفادة منه. ولو كان، حيّا، اليوم، لعرفنا منه كيف إمتدت يداه لأول مرة إلى كتاب من كتب إبن تيمية فقرأه وإهتدى... ومن يومئذ كانت قراءاته غالبا في كتب القرآن والسنة وكتب الثائرين من علماء الإسلام ضد البدع والضلالة والخرافة. وأحسب أنه قرأ محمد عبده وكتب تلميذه رشيد رضا، والمتمردين على الجهل بحقيقة الإسلام من تلاميذ الأستاذ الإمام.

قوى هذا الروح الثوري في نفسه أن الإستعمار وقد رافقه الفقيه الشيخ من قدومه حتى رحيله كان يشجع هذا الروح الإستسلامي المتشبث بالزوايا والأضرحة والخرافات. فكان المرشال ليوطي مدلسا أفاقا يشجع الطرقيين ويمد زواياهم بالمال، ولا يستنكف أن يزور الضريح من بابه، ويقبل الخشب كما يفعل مغفلو المسلمين، ويطلب من الولي الصالح أن يشفيه من مرضه إذا ألم به مرض. وكان المغفلون والمتغفلون يثقون في تدليسه حتى إن بعضهم كان يؤمن بأنه أسلم كما آمن بعض هؤلاء في مصر بإسلام نابليون.

فتحت هذه الأحداث باصرة إبن العربي فكفر بالطائفية والطوائف والطرقية والطرقيين. ولعله لم يكن أقل ثورة من إبن تيمية أو إبن عبد الوهاب فنصب نفسه ليكون داعية الإسلام الصحيح.

السلفية عند الفقيه إبن العربي لم تستند إلى منظور أو إلى دراسة معمقة في المذاهب الإسلامية التي نشأت منذ النهضة الفكرية والفلسفية في الإسلام، ولكنها إستندت إلى معاينة معيشية، وإلى تفكير وتدبر في أوضاع المسلمين في المغرب. الشيخ إبن العربي لم يتجول في العالم الإسلامي إلا من خلال ما كان يقرأ. وإستند، قبل ذلك وبعد ذلك، إلى نصوص القرآن والحديث، ثم إلى المقارنة الذكية بين ما كان يجب أن تكون عليه أوضاع المسلمين وما آلت إليه من خلال الزوايا والطرق والفكر الرجعي المتخلف. ثم، وهذا مهم جدا، إلى إستغلال الإستعمار للفكر التوكلي الاستسلامي الرجعي، واعتماده عليه في تخذيل المواطنين وقتل روح المقاومة فيهم.

وكانت السلفية عنده تستند كذلك إلى قراءاته المتعددة في كتب إبن تيمية ومحمد عبده وسيرة جمال الدين الأفغاني. وكانت سلفيته علمية لا تنظيرية. ولذلك كان مبشرا بالإسلام الصحيح معتمدا في تبشيره على نصوص الكتاب والسنة، وعلى المقارنة بين مفهوم هذه النصوص ومنطوق الحياة المعيشة في المغرب.

وكانت سلفيته ثورة على الحاضر وإرتباطا بالثوابت من الأصول الإسلامية. ولذلك فهي سلفية تقدمية لأنها تهدف إلى تحرير العقل والسلوك من الأضاليل والخرافات اعتمادا على الإسلام الصحيح الذي يعتبر في صميم التقدمية الفكرية والسلوكية.

من هنا جاء إرتباط دعوته السلفية بالتوجيه الوطني.

-3-

ذكاء الشيخ إبن العربي العلوي هداه إلى عقد صلة بين الوضعية الفكرية والإسلامية وبين الإنهيار السياسي. فقد كان عهد إبن العربي أخطر مرحلة في تاريخ المغرب. فتح عينه على عهد السلطان الحسن الأول وقد إمتاز بمحاولة لإعادة البناء بعد الإنهيار العسكري في حرب تطوان (1860). لم يكد هذا السلطان المناضل يودع حتى فتحت المتاعب أبوابها الواسعة، وتجلى الإنهيار السياسي والعسكري والإقتصادي والمالي، وتجلى الصراع على السلطة بين السلطانين الأخوين: عبد العزيز وعبد الحفيظ، وتجلى الخطر أكبر في احتلال الدارالبيضاء ووجدة ثم بدأ الزحف لينتهي بتوقيع إتفاقية الحماية (30 مارس 1912). ومن ثمة، بدأ العهد الإستعماري.

ما من شك أن الطالب الذي كان يتابع دراسته في القرويين كان يتتبع بعض هذه الأحداث، وكان يفتح بصيرته على أبعادها فيرى بعض العلماء وبعض الوجوه والأعيان يغفلون عن كل ما حولهم متشبثين بالفكر الغيبي المتخلف المعتمد على الأولياء والصالحين، وعلى الطرق: (الصوفية)، التوكلية البعيدة عن جوهر الإسلام وجوهر التصوف الإسلامي الحقيقي. وفي الوقت نفسه يرى أن الإستعمار يستغل كل هذه الغفلة ليتوغل فلا يواجهه إلا المقاومون في بعض المدن وفي الجبال والأرياف.

هناك، إذن، إرتباط جدلي بين التخلف العقلي والديني وبين الإستعمار. ولذلك كان إبن العربي يربط الثورة السلفية بمقاومة الإستعمار. إذا لم يتخذ عمله

طابع المواجهة في أول الأمر، فإن دروسه كانت نبراسا لتلاميذه في القرويين ليقوموا بالمواجهتين معا، مواجهة ضد الطرقيين والزوايا والطوائف التي كانت تشوه سمعة المغرب الحضارية والإسلامية، ومواجهة ضد الإستعمار.

وما أشك في أن دروسه الملتهبة في القرويين كانت تثير حفيظة الإستعمار. ولهذا عيّن في وظائف القضاء بفاس. ولم يمنعه ذلك عن ممارسة التدريس كما لم يمنعه عن نقل معركته إلى ميدان القضاء، فهو ميدان للرشوة والفساد وإستغلال ذمة بعض القضاة المنحرفين لتسهيل مهمة الإستعمار.

ضاقوا ذرعا بالشيخ ابن العربي العلوي وهو قاضي كما ضاقوا به وهو أستاذ يكوّن الثائرين من الطلبة. ولهذا جاء التفكير لينقل إلى مجلس الاستئناف الشرعي، وهي وظيفة تشريفية، ثم إلى وزارة العدل. وهي وظيفة مهمة، ولكنهم قادرون على إبطال مفعولها كما كانوا يبطلون مفعول كل أعضاء المخزن.

وإستمر الفقيه الوزير يكافح في الميدان الذي يتقنه رغم الوظائف الرسمية حتى كانت سنة 1944 حينما قدم حزب الإستقلال وثيقة الإستقلال. وكان محمد بن يوسف بحاسته النضالية وباتفاقه المطلق مع حزب الإستقلال، قد جمع يوم الأربعاء 12 يناير 1944 (يوما واحدا بعد التقديم) حول الوثيقة حكومته وكبار القواد في المغرب، الذين كان يعتقد فيهم التأييد المطلق، والذين كان يظن فيهم المعارضة. ولم يكن أحد منهم يستطيع أن يعارض عملا يؤيده. وكان الفقيه في مقدمة المؤيدين المكافحين لقبول ما تضمنته المعارضة.

كانت هذه الفرصة مواتية للافراج عن الكلمة "الإستقلال" التي ظلت إثنين وثلاثين سنة حبيسة الصدور والضمائر. وها هو ذا السلطان المجاهد الذي يتبنى المطالبة بالإستقلال يحتال لتأييدها بجمع مجلس الوزراء والقواد. ولذلك كان إبن العربي وهو الشيخ العالم ووزير العدل في مقدمة المؤيدين حتى لا يترك للمتلاعبين والمتآمرين، والذين يبحثون عن الريح التي تهب من فرنسا أو أمريكا فرصة المعارضة والتلاعب.

- أنتم نظرياً، الحكومة الشرعية لهذا البلد، ولكنكم وهذا ما تعرفونه أكثر من أي مواطن آخر، جُردتم، منذ فرض الحماية، من كل إختصاصات السلطة، وأصبحتم مجرد صور صامتة لا تحصلون على أبسط المعلومات حول ما يجري ويُقرر في غيابكم.. إن ماضينا العريق كدولة مستقلة وواجبنا أمام الله والوطن يفرضان علينا إعلان إرادتنا الجماعية في استرجاع المكانة التي نستحقها بين الأمم الإسلامية الحرة.

ظل محمد المقري الصدر الأعظم صامتا مطأطئ الرأس. الشيخ ابن العربي أخذ الكلمة مباشرة ليقول بصوت متأثر:

- أشكر الله، يا صاحب الجلالة، الذي أمدّ في عمري لكي أشارك في هذه المناقشة التاريخية. إنكم تجسدون الإستمرارية التاريخية لهذه الأمة الإسلامية العظيمة، وتجسدون سيادتها وتطلعاتها الأكثر نبلا وقد إختاركم الله للقيام بهذه الرسالة، رسالة الكرامة والحق والعدل. كل الأمة وراءكم. فقل لنا ما ينبغي علينا أن نفعله. ونحن نعتبر أنفسنا منذ اليوم تحت قيادتكم في طليعة المعركة المجيدة التي تقومون بها. ذلك أن هذه القضية يا مولاي قضية عادلة.

وأدى ابن العربي الثمن مع من أدوه من زعماء حزب الإستقلال والمناضلين في صفوف الشعب، كما سيؤديه محمد بن يوسف نفسه بعد ذلك بتسع سنوات. إستقال الشيخ من الوزارة على إثر الاعتداء على الإستقلاليين، وتقوم السلطة بابعاده إلى الأطلس وإلى مدغرة كما قدمنا. ويكون النفي راحة ضمير وطريق جهاد ووسيلة عمل وعودة إلى الدرس والتوعية.

الذين إمتدت أيدي الإستعمار إليهم فسجنهم أو نفاهم يفتح بينه وبينهم جبهة صراع أبدي ليقضوا عليه أو يقضي عليهم. وإبن العربي من هؤلاء الذين فتحوا النار على الإستعمار منذ دروسه في القرويين. وتبلغ قمة المواجهة حينما تمتد أيدي الإستعمار إلى محمد بن يوسف. كان إبن العربي معتزلا في فاس إلا أن دروسه في القرويين. أعادت إلى الذاكرة أيام كان يثير الطلبة ضد الجهل والخرافة

والأضاليل والأضرحة والطوائف والطرق والزوايا. وأصبح الآن يثير الجمهور بصراحة ضد الإستعمار. فكانت دروسه نارا موقدة ضد الإستعمار وسيفا مصلتا ضد تصرفات الإدارة الإستعمارية.

-4-

كانت الإدارة الفرنسية قد ألفت، في دروس علال الفاسي الليلية بالقرويين، أن تبعث بالعدول ليسجلوا ما قد يقوله خارج الدين "دفاعا منها عن الإسلام"... وكذلك فعلت مع الفقيه إبن العربي فلم تجد منه إلا ما يطعن في شرعية الوجود الفرنسي الذي كان يعتبره من وجهة نظر إسلامية خروجا عن الدين. وكان الإبعاد مرة أخرى. ولم يستكن لهذا الإبعاد. فأينما وجد إبن العربي وجدت الفتنة ضد الاستعمار ووجدت الدعوة إلى الإسلام الصحيح. وعاد إلى فاس يستقبل العاصفة.

الفرنسيون الذين لم يعترفوا بأنه "شيخ الإسلام" إحتاجوا (20 غشت 1953) إلى علماء الإسلام ليؤيدوا جريمة الإعتداء على السيادة المغربية. راودوه فرد عليهم قائلا: "معاذ الله. إن ربي أحسن مثواي"... ومدّ يده إلى رسول الجنرال وهو يقول :

ـ أحب إلي أن تقطع هذه اليد من أن أوقع على بيعة رجل نصبه الإستعمار، وأخلع رجلا أحبه الشعب لأنه أحب الشعب...

ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين. وكان جوابه: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية 33).

ونفي مرة أخرى، وعرف محنة السجن والوحدة والجوع والمرض في تزنيت، وقدم في نفيه، وهو شيخ، درسا للشباب ، والشيوخ والنساء الذين كانت تعج بهم السجون والمعتقلات.

كان يستعين على المكاره بالنكتة. حدثناه مرة عن متاعبه في المنفى فروى لنا النكتة التالية وهو يضحك: "إعتقل شاب متلبسا بصحبته سيدة وسيق إلى الباشا

هو وصاحبته. شاهدهما والده يساقان و"مخزنيان" يعتقلانهما ويمران بهما في الشوارع، فتطلع الوالد الحزين إلى المصاحبة فهتف بإبنه : سير أوليدي ولاعليك... مع المليح وجدوك...".

وأضاف الشيخ جادا :

- حينما يعتقل المواطن أو ينفى من أجل عمل جليل يهون السجن والعذاب والمحنة...

بعد العودة من المنفى إعتزل الشيخ إبن العربي في فاس يجتمع حوله الأصدقاء ويبشر بآرائه ويثير الرأي العام ضد الخرافة والإستعمار، فقد ربطهما في قرن. جاءه مرة أحدهم يقول:

ـ لقد وقف عليّ في المنام سيدي فلان ، (وذكر أحد أرباب الأضرحة) وأمرني أن أطلب منك زيارة قبره.

نظر الشيخ إليه في سخرية وهو يقول له:

ـ إذهب إليه وإطلب منه أن يكتب لي هذا الكلام في رسالة. عد إليّ، بعد ذلك، سريعا فإني في إنتظارك.

أدرك الرجل السخرية فذهب ولم يعد.

-5-

في بداية الإستقلال عاد الشوق بمحمد الخامس ليرى الفقيه قريبا منه فعيّنه وزملاء له وزراء التاج كمستشارين بجانبه. وأدركت إدارة الديوان حفلة التنصيب فلم تجهز ظهائر التعيين. وارتأى محمد الخامس أن يسلم الوزراء ظروفًا فارغة على أن يصلهم الظهير بعد توقيعه. وخشي أن يستغرب الوزراء حينما يكتشفون الظروف الفارغة فأرسل مع مدير التشريفات يخبرهم بالحقيقة .قال الفقيه على الفور:

- محمد الخامس ينظر بنور الله... لو لم يعرف أننا فارغون لما سلمنا أغلفة فارغة...

كان يضيق بتجاوزات أحد الرؤساء في بلد عربي إسلامي، سواء كانت تجاوزات في الدين أو في السلوك السياسي. وكان هذا الرئيس متزوجا أجنبية مسيحية. ودخل عليه مرة أحدهم يبشره بالخبر السار ظانا أن الفقيه سيطرب له جدا:

- خبر إسلامي مهم، السيدة زوجة الرئيس فلان أعلنت إسلامها.

فكان جواب الفقيه على الفور:

- العقبى للسيد الرئيس.

لم يكن يستطيع أن يكتم النكتة لأنه كان معبرا بها كما يعبر بالكلمة الجادة.

عاش بقية حياته قرير العين باستقلال بلاده. حقق الكثير مما كان يبشر به ويدعو إليه ويوجه طلبته إلى القيام به. عاش واعيا برسالته ومسؤولياته متحملا الأذى وهو يجهر بالرأي ويرضى برأيه الضمير، ويدفع الأذى عن الإسلام المسلمين. كان شيخ الإسلام حقا، ولو أن المغرب لم ينصب لهذا المنصب شيخا ولا شابا. ولكنه وصل إلى شيخوخة الإسلام عن طريق الإسلام الصحيح لا عن طريق أمر إداري أو حكومي. وترك بصماته المتميزة في تاريخ المغرب الحديث. وأعطى لهذا التاريخ مدلوله ومعناه. وأدق مدلول ومعنى منحه إبن العربي لتاريخ المغرب أنه لم يعدم المناضلين في سبيل حريته واستقلاله وسلامة عقيدته حتى في أحلك الظروف التي مرت به. لم يعدمهم شبابا ولا شيوخا.

بقي، على وفائه لما آمن به حتى فارق الحياة. وكان قد أوصى أن يستقر جدثه الطاهر في الصحراء، المكان الذي شهد مولده. دفن وسط مقابر المسلمين لا تميز قبره قبة ولا بناية. فقد بنى لتاريخه قبة ما يزال يستظل بها المستظلون.

***

توفي محمد بن العربي العلوي يوم الخميس 4 يونيو 1946 عن سن يقارب الثمانين.

رحمه الله...

محمد الفاسي...
الأستاذ الفقيه
(1991-1908)

-1-

كلاهما كان يستبد بلقب أستاذ. وأحدهما يكون سعيدا بلقب الفقيه، والثاني غضب مرة غضبته الظريفة المحببة حينما ناداه أحد زملائنا، وكان صديقا له:

- آلفقيه... هات سيجارة.

بكرمه الحاتمي دفع إليه بعلبة الدخائن.

- لست فقيها، لا تنادني بها مرة أخرى.

حينما كان المواطنون في الشمال يتحدثون عن الأستاذ... ولا يضيفون كان الحديث ينصرف للأستاذ عبد الخالق الطريس. وحينما كان المواطنون والوطنيون والمثقفون بصفة خاصة في الجنوب يتحدثون عن الأستاذ ولا يضيفون ينصرف الحديث إلى الأستاذ محمد الفاسي.

لمع إسم الأستاذ محمد الفاسي في ذهني قبل أن أتعرف عليه شخصيا بسنوات طويلة. كان ذلك من خلال صورة تسربت إلى يدي نشرتها مجلة "السلام" لمكتب طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا. كان محمد الفاسي يتصدر الصورة باعتباره من أعمدة مكتب الجمعية، قبل أن يتسلم رئاستها.

ولعل لقب "الفاسي" كان يستقر في أذهاننا، نحن صغار التلاميذ آنذاك بغير إستئذان. كان إسم علال الفاسي يملأ الأذن والفكر والقلب. وكان محمد الفاسي يملأ الفكر والقلب. وكنت أتطلع إلى التعرف على الرجل الذي تركت الصورة في

ذهني صورة عنه: باريسي المظهر، أنيق الملبس، وجيه الملمح. تزين وجهه الممتلئ نظارة سميكة. والنظارة في وقت ما كانت مظهرا من مظاهر العلم وطول النظر في المقروءات.

ومرت الأيام، وأقول دون حرج، السنوات. عاد فيها محمد الفاسي من باريس ورحلت فيها إلى مصر، قامت فيها حرب عالمية طويلة الأمد، وعاد فيها سلام عالمي. ووجدتني مرة أخرى في فاس بزمهرير شتائها القاسي، ودعاني وصديقي عبد الكريم بن ثابت وقد عدنا معا من مصر صديقنا المناضل محمد بن سودة إلى العشاء، وكانت المفاجأة أن الضيف الثالث كان هو محمد الفاسي.

-2-

بدا لي في صورته الجديدة، بعمامته وجلبابه وسلهامه، بابتسامته الجذابة، وبقدرته على أن يقول ويسمع، باحتفائه بنا كشابين عادا من القاهرة وعندهما ما يقولان. كان مبتهجا، والجدل يقوم مرة أخرى بيني وبين زميلي عبد الكريم بن ثابت حول موضوعات سياسية عن مصر. كان هو وفديا حتى قنته بحبه الامتناهي للنحاس "باشا". وكنت أنا غير وفدي، أو وفديا ولست نحاسيا لأن النحاس باشا لم يترك لدي إنطباعا جيدا وخاصة في خطبه حينما كنت أحضر التجمعات الكبرى التي كان يقيمها الوفد في المناسبات الوطنية. حينما إلتقينا بالنحاس باشا الحبيب بورقيبة ونحن المغاربة في مكتب المغرب العربي لنعزيه في وفاة صبري أبو علم، أحد أقطاب الوفد. خرجنا من هذا اللقاء، وقد ازداد نقدنا للزعيم النحاس حدة نحن الثلاثة، (عبد المجيد بن جلون ومحمد بن عبود وأنا). إزداد إعجاب بورقيبة وعبد الكريم بن ثابت بالنحاس باشا. كان بورقيبة فيما أذكر متألما لدرجة الغضب على المعارضة التي شرحها أمامنا النحاس، معارضة تجرأ على إنتقاد الزعيم. وكنا نحن غير مرتاحين للطريقة التي يتحدث بها السيد الزعيم عن الزعامة والأمة والمعارضة والحكم... كان الأستاذ محمد الفاسي مسرورا، فيما بدا لي، من المناقشة المحتدة بيني وبين عبد الكريم ابن ثابت. كان يبتسم بانتباه شديد. ما أدري ما تركه عنا هذا اللقاء في نفسه؟ ولكن الذي تأكدت منه أنه كان مسرورا من حيوية شابين

يناقشان موضوعات سياسية بوعي ويبدو فيه الرأي والرأي الآخر، وليس الرأي ولا شيء من الآخر...

-3-

أثناء هذه الفترة الطويلة التي فصلت بين مظهر الصورة الفوتغرافية كنت ألتقي فيها، قليلا جدا مع الأستاذ في أبحاثه أو في أخباره. كانت الأخبار عنه قليلة، ولكنها رائعة. وما وصلنا عنه كان مقترنا بثورة في القرويين عين فيها أستاذ جامعي قادم من باريس على رأس إدارتها. وكان عمل كهذا في مقدمة الصراع الذي احتدم، فيما بعد، بين الماضي القريب، الذي لا يسنده الماضي البعيد للقرويين، وبين الحاضر الذي كنا نرجو ألا يسنده المسقبل، بين قرويين الشيوخ وحدهم وقرويين العلماء سواء ولدوا في نافورتها (خصتها) أو ولدوا في نافورة السوربون. وكان عملا كهذا أيضا في مقدمة الصراع بين السلطان محمد بن يوسف الذي إختاره لهذا المنصب ليؤكد مستقبلية المغرب وتطلعه إلى التغيير وبين الإقامة العامة التي كانت ترى في هذا التعيين، ولو كان داخل أسوار الجامع العتيق، ثورة على الواقع السيء الذي تمثل فيه الإقامة العامة حجر الزاوية.

لم يكن محمد الفاسي غريبا عن القرويين، فكثير هم "الفاسيون" الذين جلسوا إلى أرباضها وأسطواناتها وجهر صوتهم بالدرس والفتوى، وتعلم عنهم الطلبة وغير المطلبة الكثير. جدوده وأعمامه وأبناء أعمامه كانوا علماء وقضاة وخطباء في المساجد. ما أزال أذكر خطيب القرويين سيدي إدريس الفاسي الذي كان يبتدئ خطابه بصوت ممدود: "عب... اد الله...". ما أزال أذكر خطيب العيد في مصلى "باب الفتوح" حينما كان والدي يمسك بيدي صباح كل عيد لنكون في الصفوف الأولى. كنت أتطلع إلى وجهه الصبوح بلحيته الجميلة وهو يخطب في الناس، وكانت أضواء الشعاعات الأولى من الشمس تنعكس على الوجه الجميل يخطب ويتلو الآيات والأحاديث، وتتخللها نداءاته: "الله أكبر....الله أكبر". تنعكس الأشعة من عيني على وجه الخطيب. كان هو أيضا من عائلة أهل الجد الفاسيين.

ما أزال أذكر الشيخ الجليل العلامة سيدي عبد الواحد الفاسي والد علال الفاسي يلقي محاضرة له (كانوا يسمونها مسامرة) في مدرج المدرسة الثانوية مولاي ادريس بمناسبة موسم ثقافي. كان يتحدث بفصاحة وبلاغة. شدّتني كلماته ومنطقه وإن لم أفهم شيئا مما يقول. فقد كان والدي حريصا على أن يدفع بي إلى حضور أي عمل ثقافي أو إسلامي، وأنا دون إدراك أهمية العمل، ليغرس فيّ حب الاطلاع والجرأة على ريادة التجمعات التي لا يحضرها عادة إلا الكبار.

لو لم تزل قدم محمد الفاسي به إلى المدرسة وأظنها مدرسة أبناء الأعيان- لإنساقت به إلى القرويين. ولذلك فلم يكن غريبا عن الجامعة الإسلامية وقد دخلها مديرا، إن لم يدخلها تلميذا أو طالبا.

على أن الأستاذ محمد الفاسي لم يكن غريبا عن علوم القرويين ولو كان مبرزا في علوم السوربون. يتحدث إلى العلماء أو يتحدثون إليه فلا يقصر دونهم في مجمل علومهم اللغوية والنحوية والبلاغية والفقهية، ولو أنه فيما يخيل إليّ - لا يجاريهم في "تحقيق المناط" وفي بحث القضايا الفقهية والأصولية.

يعود تعرف محمد الفاسي على علوم القرويين إلى الدروس التي تلقاها عن عمه القاضي سيدي المهدي الفاسي وعن العلماء الآخرين، وإلى دراسة في المدرسة الثانوية على علماء أحسب أنه كان من بينهم: الشيخ محمد بن العربي العلوي والشيخ السرغيني وغيرهما من الذين كانوا يأخذون تلاميذهم بجدية الدرس والتحصيل. وقد كان تلاميذ ذلك الزمان يصارعون في الواجهتين. كان بعضهم من عائلات العلماء، ولا يريدون أن يكونوا أقل كفاءة من أقرانهم الذين يرتادون القرويين من أبناء العائلة.

هذا هو السر في أن محمد الفاسي ظل فقيها متخرجا من السوربون، يغار على الدين واللغة العربية والأصالة الإسلامية ويتعصب للمغربية، كما يغار ويتعصب أي وطني لم تستلبه الثقافة الأجنبية.

إزدادت صلتي بالأستاذ محمد الفاسي عن طريق ما كان يكتب في مجلة "رسالة المغرب" وقد كنت في فترة من حياتها رئيس التحرير فيها. كانت كتاباته عن الشخصيات الأدبية المغربية، يتتبعها وهو يؤرخ للأدب العربي بالمغرب. وكان يكتب بابا تحت عنوان: "الإفادات والإنشادات"، ويقتنص فيه الطرائف الأدبية العميقة التي تضيع في بطون الكتب.

ثم إزدادت صلتي بالأستاذ محمد الفاسي به بما كتب في شهرية "البينة" التي كان يصدرها علال الفاسي حينما كان وزيرا للشؤون الإسلامية، وكلها كانت تتصل بالأدب العربي المغرب. فقد كنت رئيس تحرير المجلة. وكنت سعيدا أن ألاحق الأستاذ محمد الفاسي لأحصل منه على مقاله الشهري.

والأستاذ محمد الفاسي من الموسوعيين الذين يبهرونك وأنت تتحدث إليهم، في العلم والأدب والتاريخ. ينتقل من فن إلى فن. ويروي لك من الأحداث الطريفة عن شخصيات أدبية وتاريخية وعن مواقف لرجال وقف عندهم التاريخ طويلا. وقد صاحبته قبل الإستقلال من الدارالبيضاء إلى الرباط في الحافلة العمومية ونحن عائدون من إجتماع للمجلس الأعلى لحزب الاستقلال، فما سكت وما نطقت... حتى إذا وصلت بنا الحافلة وهي تسير الهوينا إلى الرباط، إلتفت إلى نفسه وما يزال يتحدث في كل ما هو مفيد. وخاطبني قائلا: "لقد حملتك طيلة الطريق، وما أظنك شعرت بوعثاء السفر"...

كانت مجالسه مجالس علمية غير مملة. يحدثك عن الماضي والحاضر. وقد لا يحدثك عن المستقبل إلا حينما يقسم لك أننا سنحصل على إستقلالنا.

-4-

كان محمد الفاسي يعتقد أن الشعر المغربي لم يبدع إبداعا كاملا في غير الملحون. معذور في هذا الحكم فهو مغرم بالملحون غرام قيس بليلاه. والمغرم أحيانا يدافع عن جمال حبيبته ولو لم يقنع ويكفي أن تقول أمامه: "إن الشعر الملحون سمي بذلك لأنه غير معرب". في الحين يتحرك فكره في واجهتين:

-الإعراب كمال وهو يؤكد علم صاحبه بأصول لغة لا يجوز اللحن فيها.

- إسم أو صفحة الملحون أتت من التلحين للغناء لأن الأصل في هذا الشعر الملحون أن ينظم ليتغنى به.

وفات محمد الفاسي أن يستدل بقول الشاعر، فيما رواه أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني، وهو يصف حبيبته: و"تلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا".

فقد قال صاحب الأغاني فيما أذكر: "إنها تتغنى بالكلام لا أنها تلحن في الحديث".

ولغرامه بالملحون وفرّ له من الجهد ما لا يقوى عليه إلا راهب علم. فقد بدأ إهتمامه به من عهد الطفولة وكتب وحاضر عن الأدب الشعبي عموما، ومنه الأمثال العامية الفاسية، وترجم بعضها إلى الفرنسية والعربية.

وقصة تَعَرُفه على الأدب الشعبي عموما وعلى الملحون وصلته بالسيد درمنكيم حكاها في مقدمة معلمة الملحون التي تنشرها أكاديمية المملكة المغربية. الأستاذ محمد الفاسي الذي ألف البحث والتقصي إعتبر الملحون لونا مهما من فنون القول الجيدة، ولذلك عرض للموضوع بدراسة علمية لم تقتصر على جمع النماذج وترجمة الشعراء وشرح المضامين، لكنه تعدى ذلك ليبحث المصطلحات والعروض، والقصيدة والسرابة ولغة الملحون.

تعتبر معلمة الملحون من أهم الأعمال العلمية التي إضطلع بها وأفنى فيها وقتا طويلا من عمره على إتمام مشروعه الكبير الذي يعتبر إنقاذا لهذا التراث الفني البديع.

وقد عاش الأستاذ الفاسي طالب علم طيلة حياته.

نفي إلى منطقة أمازيغية. وعيبنا في المغرب أننا لا نهتم بتراثنا الأمازيغي إلا بعض الذين وقفوا إلى ذلك. فأخذ يدرس اللغة الأمازيغية، شأنه في ذلك شأن الشهيد عبد العزيز بن ادريس وكوّن لهذه اللغة قاموسا وإكتشف نحوها.

محمد الفاسي طالب مجد حينما يدخل مدينة أو دولة من دول العالم. وأحسبه أنه لم يترك دولا إلا حاول أن يتعرف على قليل أو كثير من لغاتها. لا يسمع الكلمة فيحفظها. ولكنه يقرأ ويحاول أن يفهم ويقارن ويكتشف الخصائص. وما أدري إذا ما كان يسجل ملاحظاته؟ ولكني أدري أنه يتذكرها فيحدثك بهذه الملاحظات كلما قادتكما الصدفة العلمية أو السفرية إلى ذلك.

-5-

طالما قفز إلى فكري إشكال كبير، وأحسبه كبيرا وما هو بكبير ولكنه ليس صغيرا. ذلك أن الأستاذ الفقيه رجل متعصب... على رسلك فمن التعصب ما هو محمود ومطلوب، وتعصب الفقيه الأستاذ[1] من نوع تعصب الفقهاء للمعرفة. وهو كما أسلفت درس العربية وأتقن قواعدها وأصولها وأحبّها حب خبرة لا حب رؤية. ولذلك فهو متعصب للعربية لا يتكلم بغيرها إلا إذا وضعته الأقدار وكثيرا ما تضعه مع الأعجمين، وإلا إذا لم يستطع أن يكرههم على الحديث بالعربية. قد تخالطه مخالطة علم واجتماع وسفر فلا يكاد ينطق بكلمة أعجمية حتى لتحسبه أنه لا يعرف غير العربية. ولكنك قد تفاجأ به وهو "يشقق" الكلمات الفرنسية ويرد بعضها إلى اللاتينية أو إلى التأثير اليوناني. ويتحدث في الموضوع كما يتحدث الفقهاء المتمكنون من "فقههم" فيقرن الكلمة الفرنسية بنظيرتها أو شقيقتها في الإسبانية. وعند ذلك تفاجأ بأن الفقيه يتقن الفرنسية ويطل على غيرها من اللغات الأجنبية.

لم أُرض بعد عجبك من "تعصبه" ولم أجب عن "الإشكال" ...هو متعصب للعربية إلى درجة أن يقفز لسانه بالتصحيح كلما زل لسان أحدهم بخطأ في النحو أو في اللغة. وقد تحسب ذلك منه مقاطعة، ولكنها مقاطعة الغيور. وقد تألفها منه إذا حضرت معه إجتماعات علمية فلا يثيرك بمقاطعته كما أثار مرة زميلا إعتبر مقاطعة الفقيه تنقيصا من علمه فأخذ يدافع عن خطإه ضدا على تصويب الأستاذ الفاسي.

وقد قاطعني مرة فقفز لسانه بالتصحيح وأنا أؤنث كلمة "السلم" فلم أتوقف ولم ترتفع عيناي عن الورقة وإنما قرأت على التو قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (سورة الأنفال، الآية 16).

1- قدمت الفقيه على الأستاذ متعمدا.

ضحك ضحكته الطفلية وهو يضيف:

ـ غلبتني، ما عندي ما نسالك...!

ما يزال الإشكال قائما كيف بالأستاذ، وهو الرجل المتعصب للعربية المدافع عنها، والمومن بأنها يجب أن تكون لغة التعليم والتثقيف والإدارة قبل أن تبقى اللغة الفرنسية في التعليم الابتدائي، لم ينجح في إقرارها يوم كان وزيرا للتربية. بقاؤها في التعليم الابتدائي يجر معها التلميذ حتى يصبح طالبا، ويجر معها المشكلة التي تعانيها الشعوب التي وقعت مثل "وقعتنا" فكانت الفرنسية هي اللغة ذات السيادة في التعليم والإدارة والحياة العامة.

ناقشنا معه هذا الموضوع في ذلك الزمان الذي كان يتسم بالأمل الأخضر. كان يحاول أن يقنعنا أننا لا يمكن أن ننقفل في حدود اللغة العربية ونحن نرتاد ميدان المعرفة الواسع. موقفه صحيح ولكن الاختلاف كان في النتيجة. وتتلخص في أن اللغة لا تتعلم إلا في السن المبكرة، والطفل الصغير يمكن أن يلتقط في دقائق ما لا يلتقط الأكبر منه في أيام.

وكانت مقولتنا أن الإلتقاط يكون لصالح اللغة المدروسة الأكثر تنظيما والأسهل في أسلوب تعليمها والمتوفرة على أساتذة أكفاء متمرسين على التلقين، وعلى كتب تعليمية موضوعة بطريقة تربوية علمية حديثة، على حساب اللغة "العربية" التي تعاني مشاكل الشكل والفقر في المصطلحات وأسماء الأشياء والأسلوب البيداغوجي في التعليم، وتعاني في الكتب المتقدمة بيداغوجيا وتعاني مشكلة أكبر وهي الأستاذ المعلم... لم يقتنع ولم نقتنع. وليست هي المرة الوحيدة التي لم يقنعنا ولم نقنعه...

جانب آخر من الإشكال لم أجب عنه ومن "التعصب" لم أوضحه.

الأستاذ يحرص على أن يستعمل الكلمة المغربية العربية، ولو كانت مجهولة عند العرب الآخرين لأنه يعتبر المغرب أغنى العربية بالكثير من الألفاظ والتعابير، ولو خرجت هذه التعابير عن الأساليب المتعارفة. ذكرت مرة كلمة "الفسيفساء" فأكد لي أن "الزليج" كلمة عربية وهي أجمل منها وأحسن... آمنت. وهو مصر على

أن يقول "الوقود" لا "البنزين" أو "ليصانص" وقد فرض على سائقه مرة ألا يستعمل الكلمات الأجنبية في السيارة: المقود، الحصار... إلخ وركبنا مع الأستاذ مرة في سيارته فغادرنا بباب مكتبه على أن يوصلنا السائق إلى مكان آخر.

قال السائق وقد إختلى بنا في السيارة: "إذا كنتم ذاهبين إلى بعيد فإن الفقود قد لا يوصلنا". إنفجرنا ضاحكين دون أن نقصد الإساءة إليه. إعتذر خجلا وهو يضيف: "الأستاذ يلزمني أن أتحدث بالفاسية وأنا لا أتقنها" ظانا المسكين أن كلمة الوقود التي حرّفها تستعمل فقط في مدينة فاس. هي كلمة فاسية بينما ليصانص كلمة رباطية...

ولم أجب بعد على التعصب الذي ليس بكبير ولكنه ليس بصغير.

الأستاذ الفقيه المتعصب لا يقبل أن ينسب جانب الحضارة المغربية الأصلية إلى غير المغرب. وحينما يتحدث أحدهم مفتخرا، ربما، عن الموسيقى "الأندلسية" يقفز لسانه ليصحح: "الموسيقى المغربية"، وله في ذلك حجته. فهذه الموسيقى إرتبطت بالمغرب كما إرتبطت كل القيّم الحضارية المغربية الأندلسية بالبلدين معا. فقد كنا بلدا واحدا لمدة ثمانية قرون (711 - 1492) تنقلت فيها القيم الحضارية من علوم ومعارف وآداب وفنون وملابس وأذواق وأطعمة. أعطينا وأخذنا... فإذا ترسبت بعض هذه القيم في المغرب فلم تنسب إلى الأندلس ولم تنسب إلى المغرب.

ولذلك يصر محمد الفاسي على أن الفنون المغربية جميعها التي يوجد مثيل لها في بلاد الأندلس وما تزال بعض آثارها محفوظة في القصور والمساجد -التي تحولت إلى كنائس- من نقش على الجبص والخشب والتزليج ومن ملابس وموسيقى وأصناف الطعام كلها مغربية أصيلة ولا معنى لنسبتها إلى الأندلس. ويتساهل محمد الفاسي أن يقال عن الموسيقى أنها موسيقى الآلة دون نسبة. ولعل المجتمع حينما يقبل ذلك سيعود فيفرض مغربيتها لأن أصولها حقا مغربية.

والأستاذ حينما يتحدث عن الموسيقى ينسى أحيانا أنه "مؤرخ" فنون ليتحدث كفنان. ونحن في المغرب لا نستغرب أن يكون الفقهاء ممن يهزهم الطرب. البريهي

كان يلقب بالفقيه، وأظن أننا ونحن أطفال كنا نلقب جارنا في الدرب الفنان المطيري بالفقيه كذلك. ولذلك لا نستغرب أن نجد أن الأستاذ الفاسي حينما يجلس إلى جوق موسيقى الآلة "يتحير" ويوسد وينشد، وإن بصوت خافت، وينفعل ويبتسم طربا، وينسى نفسه، إلا إذا كان جاره من المولعين كذلك فيحدثه حديث الخبير عن "رمل الماية" و "عرق العجم" و "الذيل" و "الإنصراف" وفي فترة الاستراحة يلقي على جاره درسا في الموسيقى الأندلسية-المغربية. يعد أوزانها ويطيل في آلاتها ويؤكد أن موسيقى الآلة لا تعزف إلا بالآلات الوترية. أما الآلات النحاسية والنفخية فهي دخيلة لا تستقيم وهي تؤدي النغم الموسيقي.

وللكلمات حظها من موسيقى الآلة فهي تغنى شعرا رائعا رائقا، يلبس لكل حالة لبوسها - فللصباح كلمات إشراقية وللعشي كلمات منها: "شمس العشي"... ولساعات الفرح كلمات مناسبة، ولساعات الحزن وكلمات. ويروي الأستاذ الفاسي، فيما تذكر الذاكرة، أن جوق طرب الآلة في القصر الملكي بفاس إستقبل السلطان عبد الحفيظ وكان شاعرا وذواق موسيقى - وهو خارج من مكتبه بعد أن وقع عقد الحماية بميزان موسيقي حزين، لم تعرف رحاب القصر قبل ذلك اليوم المشؤوم (30 مارس 1912) إنشادا من ذلك الصنف.

ويبدو أن عائلة الأستاذ كلها من هواة الموسيقى. السيدة للا مليكة، حرمه، كانت تعزف العود وتحفظ موازين الآلة المغربية الأندلسية. وأخوها عبد الكبير بن المهدي الفاسي من الهواة والعازفين. وأحسب أن والدها القاضي سيدي المهدي الفاسي كان من الهواة فتعلم منه أبناؤه وإبن أخيه وصهره الأستاذ هذا الفن.

نحن لا نستغرب أن يكون قاضي جليل من هواة الموسيقى، فأنا أعرف قاضيا كبيرا كان إذا دخل حفل عرس أو حفلة موسيقية لا يجلس حيث إنتهى به المجلس، ولكن مكانه معروف وسط الجوق. لا تكاد العيون تلحظ مقدمه حتى يفسح له رئيس الجوق عبد الكريم الرايس أو أحمد الوكيلي مكانا بجانبه. وينتشي العازفون والمنشدون لوجوده ويلعلع صوته الجميل، وهو يجيل ناظريه في ابتهاج بين كل أفراد الجوق. وويل لمن لم يُجِدْ... ويقدم الجوق أحسن ما عنده. فعادة "المعلمين"

الكبار أن يبخلوا بالجواهر إلا إذا كان بجانبهم الذواقون للفن، العارفون بأسراره. وأعرف أبا بكر القادري يقف على قدميه أمام جوق البريهي والوكيلي، وكأنه في الزاوية القادرية، وينشد مع المنشدين، وعند ذلك تخرج الجواهر من رباب الرايس أو عود الوكيلي. وأعرف طبيبا كبيرا لا يكاد يدخل منزلا به حفلة موسيقية حتى يتنازل عازف "الطار" عن طاره للطبيب الذي ينسى المبضع وآلات الكشف ليدخل في عالم "الكشف" الموسيقي. وقرأت الكثير عن الزاوية الحراقية في تطوان وشيوخها الأماجد الذين كانوا حينما ينتهون من الذكر المعتاد في الزاوية يصعدون إلى الغرفة وقد إحتوت أجمل الآلات الموسيقية وأروعها فيتطيبون ويتزينون ويحرقون العود في المباخر ويبدأ العزف والإنشاد للآلة الأندلسية إلى وقت متأخر...

أتراني أكملت الصورة عن "تعصب" الأستاذ الفقيه أو أجبت على الإشكال الكبير الذي ليس كبيرا؟ ليس بعد. فتعصب الأستاذ يتعلق بعدة واجهات.

إذا ذكرت مدينة فاس أمام الأستاذ فيحسن أن تحضر مذكرة لتكتب ما يملي عليك، أو إذا لم تكن من الكاتبين فارهف السمع. فلفاس في عقله وفكره وقلبه وعاطفته جميعا ما يجعلك تحب فاسا ولو كنت مكناسيا... فليس هو القائل: "فاس والكل في فاس"، وإنما هو ابن عمه عبد الكبير بن حفيظ الفاسي. ومع ذلك إذا حاولت أن تحاجه في مقولة " الكل في فاس" يحاجك وهو يضحك : وهل تشك في ذلك...؟ ثم يأخذ في الحديث عن فاس وتاريخها الحضاري والعلمي والسياسي حديث العالم والمعجب، لا حديث "المتعصب" كما لا أحتاج أن أقول. ولكن حينما يتحدث عن هواء فاس وربيع فاس وأزهارها وأشجارها فإنه ليزعم وبعض الزعم صدق كله أن خضرة أشجار فاس لا توازيها خضرة أية شجرة في العالم.

قلت له مرة ونحن نركب حافلة تنقلنا من قاعة إجتماع أكاديمية المملكة المغربية في فاس إلى حفلة أقيمت تكريما لأعضاء في فندق المرينيين: "لقد كتبت عن فاس في رواية " دفنا الماضي " إنها المدينة التي يعتبر ربيعها ربيعا وصيفها صيفا وخريفها خريفا وشتاؤها شتاء، فالفصول فيها متميزة بشكل يثير الاعجاب". فضحك وأضاف: "وذلك سر جمالها".

لعله قد آن الأوان لأتحدث عن الإشكال.

إعجاب الأستاذ بالعربية وتعصبه لها لا يمنعه من أن يعجب بالملحون ويتعصب له رغم أنه "ملحون" وليس عربيا معربا. هل في هذا الأمر إشكال؟هنا يلتقي الفن بالمنطق والعقل. فالشعر الملحون، وقد بيّنا أنها من التلحين لا من اللحن المغنى، فن رفيع من فنون القول، بل إن المغاربة أبدعوا فيه أكثر ما أبدعوا في الشعر المعرب كما روينا عنه. ولا يضيره في شيء أن يكون غير معرب لأنه فن وليس كتاب فكر أو فلسفة أو تاريخ أو نقد، وإذا كان أحيانا يتضايق من أن يتحادث العرب كل بلهجته الخاصة، فإنه يتضايق أكثر حينما يخطب أحد العرب -من العلماء أو القادة- بالدراجة أو حينما يلحن في كلامه فيرفع المفعول وينصب الفاعل.

ولكن الملحون عنده فن رفيع كما أن شعر موسيقى الآلة فن رفيع، ولو كان ملحونا من اللحن أو التلحين. من أجل ذلك يستحق أن يغنيه وينصفه بتأليف مَعْلمته التي ستكون أهم معلمة كتبت عن الفنون الشعبية.

-6-

- وهل أتاك حديث الرحلة في سبيل الحرية؟

لا أدري أين إلتقيا في الهند أو السند، ولكن الذي أدريه أن حوارا فيه بعض العتب وبعض الحدة قد جرى بينهما إلتقطت منه هذه الفقرات:

- ألم تجد، يا فقيهنا، لك عملا غير أن تحذوني حذو القذة بالقذة؟

إبتسم الفقيه وهو يجيب في شبه إنفعال:

- ولم لا...؟ هل هو عالم إحتِكرْتَه فلا يرحل فيه غيرك...؟

- أرض الله واسعة، ولكني عرفت في بلاد نائية لا أحب أن يختطف أحد وهجي فيها، خاصة من أبناء جلدتي...

ـ أو تظن أني إقتصرت على عالمك الشرقي؟ كُنتَ تنشد الحج فتترك الحج لتتجول في أرض الله، وأنا أطلب علما وأنفع بعلم فيستوي لدي في الشرق والغرب والشمال والجنوب....

بُهِر محمد بن عبد الله وقد إنفرجت أساريره من الارتياح:

ـ أفي دنياكم غرب لا أعرفه؟

ـ هو ذاك، هو ذاك... فقد قدم إلى دنيانا رجل بعدك بنحو مائة سنة أراد أن يصنع صنيعك فيذهب إلى بلاد الهند، لكنه ضل الطريق ودخل بحر الظلمات، وإذا به يكتشف أمريكا...

ـ أمريكا...؟ وما هي الأمريكا هذه؟

ضحك عبد الواحد بن سالم من أعماقه منتصرا على محمد بن عبد الله وأضاف:

ـ وقول باز... أمريكا، يا سيدي، قارة من القارات الخمس الكبرى لو وصلت إليها لما كفتك "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

أخد محمد بن عبد الله نفسا طويلا، وكأنه يتنهد على ما ضاع من أيامه ثم أضاف منتصرا على عبد الواحد بن سالم:

ـ لقد كنّا، في أيامنا السعيدة تلك، نرحل في ظروف يحيط بها الخوف وتكتنفها المخاطر. زادنا قليل ومركبونا راحلة أو حمار أو قارب ذو قلاع فكيف قطع صديقك هذا... ما إسمه؟

ـ كريستوف كولومبس.

ـ إسم غريب عليّ، لا ضير عليه، فأسماء الصينيين صعبة النطق. كيف قطع صاحبك هذا بحر الظلمات وكيف تقطعونه؟

ـ كريستوف كولومبس قطع بحر الظلمات على مركب ذي قلاع. أما نحن فنقطع طريقنا لا برا ولا بحرا...

دهش الرجل وهو يسأل:

ـ لا برا ولا بحرا...؟ أو تطيرون...؟

ـ أتعرف عباس بن فرناس؟

ـ ذلك العالم الأندلسي الذي إختل عقله فحاول أن يقلد الطيور...

ـ يا شيخ الرحالين: لا تقل إنه إختل... بل قل إنه مهد الطريق للطيران. بفضله الآن أستطيع أن أصل من طنجة - بلدك الحبيب- إلى الصين في نصف يوم، وأقطع بحر الظلمات في ربع يوم، وأنزل جنوب إفريقيا وأصعد شمال أوروبا في نصف ليلة وأدور حول العالم في أقل من....

قاطعه الشيخ مستغربا:

ـ تقول: تدور...؟ وهل العالم كعبة يطاف حولها...؟

ـ أصبح كعبة عند الرحالين والعلماء والباحثين عن المال... ويمكنك، يا شيخنا الفاضل، أن تطير مشرقا من طنجة وتعود إليها مغربا من بحر الظلمات. فكر الشيخ طويلا وهو يستعرض رحلاته الثلاث وأنشد:

ليس على الله بمستغرب أن يجمع العالم في كرة

وتصادق الرجلان وكل منهما يكبر الآخر ويعزه، وفي نفس ابن بطوطة من الفقيه الفاسي بعض ما كان في نفسه يوم إلتقى قوام الدين السبتي في بلاد الصين بعد أن إلتقى به والسبتي شاب صغير في بلاد الهند مع خاله أبي القاسم المرسي.

ـ ألا أخْبرني يا فقيهنا العزيز: كيف حال القوم هناك خلف بحر الظلمات وما طريقة الزواج عندهم...؟

ضحك الأستاذ الفقيه وقد فهم ما يدور في خلد محمد بن عبد الله وأجاب:

ـ ذلك شأنهم... ونحن الرحالين في عصرنا، لا نشارك القوم إلا مشاغلهم العلمية أو المالية لا مشاغلهم الزواجية.

ـ أَلم تتزوج منهم...؟

ـ لا... لا يا سيدي القاضي... أكتفي بأم أولادي حرسها الله. واللي كلا حقه كيغمض عينه...

ضحك الرحالة الكبير وهو يقول:

ـ من الرحلات ما لا يتم بغير الزواج من كل بلد حللت به...

حرك رأسه بعمامته المكورة وكأنه يستغرب من غشم رحالة هذا الزمان. أضاف:

ـ فاتتك أشياء كثيرة... معرفة الشعوب لا تتم بغير معرفة نصف الإنسان فيها. وقد عرفت الكثير مما تجده في تحفة النظار وأنا في منزلي أقيم بين أهلي.

فكر قليلا وأضاف:

ـ أنتم رحالون طيّارون. تفطرون في طنجة وتتغذون في مكة... رأيتم السماء ولم تكتشفوا الأرض. ترحلون على بساط الريح كأنكم من قوم ألف ليلة وليلة. إكتفيتم "بتحفة النظار"، وفاتتكم "غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". إلى اللقاء...

كان يحدث لي مع الأستاذ الفقيه ما حدث لابن بطوطة. كنت في القاهرة مرة دخلت حفلة عيد العرش في سفارة المغرب. كانت القاعة غاصة بالوزراء والسفراء وأصدقاء المغرب. فاجأني أني وجدت الأستاذ الفاسي في مقدمة الحاضرين.

في القاهرة أيضا كان ذلك منذ بضع سنوات وأنا في شارع قصر النيل أبحث عن المكتبات الجديدة، فاجأني الأستاذ الفاسي في نفس الشارع وقد خرج من اجتماع مجمع اللغة العربية. ورحلت مع الأستاذ إلى الاتحاد السوفياتي مرة، فكان دليلي العلمي ونحن نزور عاصمة الاتحاد أو عاصمة القياصرة (لينين كراد، سان بيتسبورك حاليا) أو عواصم الجمهوريات الإسلامية.

لا تستغرب إذا كنت في دلهي أو أكرا أو سان فرانسيسكو أو طوكيو وصادفت الأستاذ الفاسي فهو جواب آفاق، رحَالة بغير إستئذان.

ـ ألَم تتزوج منهم...؟

ـ لا... لا يا سيدي القاضي... أكتفي بأم أولادي حرسها الله. واللي كلا حقه كيغمض عينه...

ضحك الرحالة الكبير وهو يقول:

ـ من الرحلات ما لا يتم بغير الزواج من كل بلد حللت به...

حرك رأسه بعمامته المكورة وكأنه يستغرب من غشم رحالة هذا الزمان. أضاف:

ـ فاتتك أشياء كثيرة... معرفة الشعوب لا تتم بغير معرفة نصف الإنسان فيها. وقد عرفت الكثير مما تجده في تحفة النظار وأنا في منزلي أقيم بين أهلي.

فكر قليلا وأضاف:

ـ أنتم رحالون طيّارون. تفطرون في طنجة وتتغذون في مكة... رأيتم السماء ولم تكتشفوا الأرض. ترحلون على بساط الريح كأنكم من قوم ألف ليلة وليلة. إكتفيتم "بتحفة النظار"، وفاتتكم "غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". إلى اللقاء...

كان يحدث لي مع الأستاذ الفقيه ما حدث لابن بطوطة. كنت في القاهرة مرة دخلت حفلة عيد العرش في سفارة المغرب. كانت القاعة غاصة بالوزراء والسفراء وأصدقاء المغرب. فاجأني أني وجدت الأستاذ الفاسي في مقدمة الحاضرين.

في القاهرة أيضا كان ذلك منذ بضع سنوات وأنا في شارع قصر النيل أبحث عن المكتبات الجديدة، فاجأني الأستاذ الفاسي في نفس الشارع وقد خرج من اجتماع مجمع اللغة العربية. ورحلت مع الأستاذ إلى الاتحاد السوفياتي مرة، فكان دليلي العلمي ونحن نزور عاصمة الاتحاد أو عاصمة القياصرة (لينين كراد، سان بيتسبورك حاليا) أو عواصم الجمهوريات الإسلامية.

لا تستغرب إذا كنت في دلهي أو أكرا أو سان فرانسيسكو أو طوكيو وصادفت الأستاذ الفاسي فهو جواب آفاق، رحَالة بغير إستئذان.

- الحمد لله على السلامة... طريق السلامة.

هكذا يحيي الأصدقاء الأستاذ حينما يلتقون به في الرباط. سؤال يلح عليَّ وأنا أفكر في صاحب الرحلة في سبيل الرحلة:

- هل البيضة سبقت الدجاجة أو الدجاجة سبقت البيضة؟

- على رِسْلِك. سأشرح.

هل أغرم الأستاذ الفاسي بالرحيل لأنه أدمن على قراءة الرحلات التي قام بها المغاربة القدماء والمحدثون منهم على الأخص أم إنه أغرم بدراسة الرحلات لأنه جاب الآفاق فتعرف على غرائب الأمصار وعجائب الأسفار...؟

يصح الوجهان كما يقول النحويون الذين لا يدركون أسرار التعبير.

ولكن يبدو أن الغرام بدراسة الرحلات شدد منه العزم على أن يرحل. وينشد مع الشريف الإدريسي :

دعني أجل ما بدت لي　　سفينة أو مطية
لابد يقطع سيري　　أمنية أو منية

أطال الله عمره وأمانيه (بالجمع لا بالمفرد).

أو ينشد مع قيدوم الرحالين المغاربة أبو هارون الأغماتي:

لعمر الهوى أني وإن شطت النوى　　لذو كبد حري وذو مدمع سكب
فإن كنت في أقصى خراسان نازلا　　فجسمي في شرق وقلبي في غرب

ويجد محمد الفاسي في الرحلة متعة العالم لا متعة السائح يتصل، في معظم رحلاته، بالعلماء ويحضر المجامع ويزور المكتبات.

ويقسم الأستاذ الفاسي الرحلات إلى جغرافية وحجية وعلمية وسفارية وسياحية ورسمية وأثرية واكتشافية وزيارية وسياسية ومقامية ودليلية وخيالية وفهرسية وعامة و... فأي الرحالين كان الأستاذ الفقيه؟ وأي نوع من الرحلات قام

بها؟ هل كان السراج ابن مليح القيسي أم كان العبدري الحيحي أم كان الإدريسي أم ابن بطوطة أم كان ابن عثمان المكناسي أم كان محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي؟

يبدو أن الأستاذ الفقيه تحير لأنه تخير فكان كل هؤلاء ولم يكن أحدا من هؤلاء. ليس في الأمر أحجية. ولكن الأمر واضح في تعامل محمد الفاسي مع الرحلات. بحث عن الرحالين المغاربة بالأخص فوجدهم قد برزوا في الرحلة للأسباب التي ذكرنا، ولأن أعظم رحالي العرب من المغاربة: ابن بطوطة كان أهم شخصية عربية عمقت في مجاهل القارات، والإدريسي أعظم جغرافي أنتجه المسلمون في عصور ازدهار الحضارة العلمية، وكان المكناسي من أهم السفراء الذين سجلوا سفارتهم في رحلتهم. ولكن أهم من سفارته، في رأيي، دقة ملاحظاته وجمال أسلوبه.

بحث الأستاذ الفقيه عن الرحالين المغاربة فصرفوه عن أن يكتب رحلاته وأخذ على نفسه نشر رحلاتهم والتقديم لها. هكذا كانت له رحلة في سبيل الرحلة.

وقد بدأها بسلسلة "الرحلات السفارية" نشر منها: "الإكسير في افتكاك الأسير "لابن عثمان المكناسي (1799) و"الرحلة الابريزية إلى الديار الإنجليزية" لمحمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي (1868) ونشر من الرحلات الحجازية" الرحلة المغربية" لمحمد بن محمد العبدري الحيحي (17 ق . م) وأنس الساري و"السارب لابن مليح القيسي (1633) ومن الرحلات الزيارية: "أنس الفقير وعز الحقير" لابن قنفذ (1408).

بذل الأستاذ الفقيه مجهودات مشكورة في البحث عن هذه الرحلات وتصحيحها ونشرها، وبذلك يكون قد وجه البحث التراثي في المغرب إلى جانب لم ينتبه إليه الكثيرون، لا لأن الرحلة فن أدبي مهم فحسب، ولكن لأن رحلات المغاربة سجلت كثيرا من الحقائق العلمية والتاريخية والسياسية وكثيرا من الملاحظات الاجتماعية المهمة كما نجد بالأخص عند العبدري وابن عثمان.

إذا أردت أن تطلق لسان الأستاذ الفقيه بالحديث الممتع، كان عليك أن تذكره بأدب الرحلات. لا يسره شيء كما يسره بالحديث عن الرحلة والرحالين، وقد سر بالكتاب القيم "ملء العيبة"[2] وهي الرحلة العلمية، التي قام بها ابن رشيد السبتي بتحقيق جيد للدكتور الحبيب بلخوجة. كما سر سرورا بليغا حينما قدمت له كتابي "من مكة إلى موسكو". إبتهج للعنوان قبل أن يقرأ الكتاب.

-7-

- وهل أتاك حديث النضال الوطني للأستاذ الفقيه؟

ـ عبد القادر التازي هو الذي علّمني الوطنية.

هكذا قال الأستاذ وهو يتحدث لي عن أولياته.

عبد القادر التازي إسم لم يكن يخطئه السمع وشخص لم تكن تخطئه العين. شاب أشهب مكتمل الجسم، جميل رغم شهبه المفرط. سليل آل التازي، وقد كان لهم صيت في المال أتى من إسم الحاج عمر التازي، أغنى أغنياء الزمان فيما كان يتخيل المتحدثون في المغرب عن الغنى والمال بعد الحرب العالمية الأولى. وكان لآل التازي صيت في السلطة. فقد كان الحاج عمر نفسه في وقت ما وزيرا في عهد السلطان عبد العزيز ثم في عهد الحماية، ثم كان منهم ممثلون للمخزن في طنجة، وكان منهم بعد ذلك باشا فاس الشهير الذي خلف محمد ابن البغدادي. وفي عهده كان الحدث الكبير في فاس (8 - 10 مايو 1934) حينما زار محمد بن يوسف المدينة فاستقبله الشعب بمظاهرات إبتهاج كبرى كانت بمثابة ثورة على الوجود الاستعماري. وكان منهم أيضا العباس التازي الذي كان باشا على الرباط إلى ما بعد الاستقلال. وباشا فاس وباشا الرباط كانا أخوي عبد القادر التازي الذي علّم محمد الفاسي الوطنية. كانوا يمسكون "السلطة" من أطرافها. وكانوا لذكائهم يعرفون كيف يمسكون بالسلطة والمال، وكيف يضعون رجلا في الجنة ورجلا في النار. فقد لعب

2 - ملء العيبج ما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة.

العباس دورا مع سلطات الحماية، في أحرج أوقات الأزمة المغربية، ولكنه، فيما يقال أدى خدمة مهمة لمحمد بن يوسف في نفس الفترة العصيبة.

أعود إلى عبد القادر التازي الذي نبت في هذا الوسط الغارق في السلطة وفي المال لأذكّر بأنه الشاب الوحيد فيما نعرف، بالإضافة إلى السيد محبوب، الذي فرّ من مدينة فاس ليلتحق بالثورة الريفية بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

كان للحادث أكثر الأثر في نفس الفرنسيين الذين كان يطمئنون إلى بعض العائلات البورجوازية، وإلى"أبناء الأعيان"، وبالذات، الذين حاول المرشال ليوطي أن يحتويهم في مدارس"أبناء الأعيان. وأن يكونهم على مزاجه ليكونوا أعوانا للسلطة، يتحدثون الفرنسية ويفهمون عن الفرنسيين.

ولكن عبد القادر، الذي تشرب بذكاء آل التازي، كان في مقدمة الذين خيبوا آمال ليوطي حينما أكد عبقرية المواطنين الوطنية فالتحق بالثورة، وهو شاب طري العود. ولا أدري كيف عاد إلى المدينة ولم يلحقه إلا أذى عديم الأهمية. ولكن الذي أعرفه أنه كان يعيش في فاس متحررا من كل بورجوازية عائلته، وطنيا في أفكاره، متحررا في سلوكه، يزور علال الفاسي في منزله ويتحدث إليه في شؤون الحزب والوطنية، ولكنه لا يسهم في الممارسات النضالية الظاهر منها على الأقل. وظل كذلك حتى توفي في منتصف السبعينات.

عبد القادر الفاسي كان يجتمع مع ثلة من شباب ذلك الزمان، من بينهم محمد الفاسي، ويكتبون المناشير والرسائل ويوزعونها أو يبعثون بها ليعبروا عن الرأي الوطني في القضايا التي تعرض للمغرب.

لا أستطيع أن أحدد الفترة الزمنية، ولكن أستطيع أن أقول إن الأستاذ الفقيه حينما انتقل إلى باريس لإتمام دراسته وليحصل هناك على الباكالوريا كان وطنيا مناضلا.

وفي باريس كان شباب المغرب يتعلم، إلى جانب العلم، الوطنية والنضال، ويتحرر من ضيق الأفق الذي كان يطبع الحياة في المغرب، ويتعرف على الأفكار التحررية للفرنسيين، وعلى التاريخ الثوري للمجتمع الفرنسي.

مصدران إذن طبعا الفكر الوطني للأستاذ الفقيه.

والمصدر الثالث هو البعث الوطني الذي دبّ في المغرب في نهاية الحرب الريفية. فقد كان الشباب الذي سمع عن هزيمة (1912) الشعب المغربي بالرغم عنه يعيش في قلب الحرب الريفية التي حققت إنتصارات عظمى، أنوال في مقدمتها. ويعيش بعد نهاية ثورة الريف في عمق الهزيمة الثانية التي لم تزرع اليأس في قلوبهم بمقدر ما زرعت التصميم على حمل المشعل، سياسيا هذه المرة، بعد أن سقط عسكريا في حادث الاستسلام المأساوي.

واصل الأستاذ الفقيه عمله النضالي في المغرب. بعد أن عاد من باريس أصبح عضوا في "الزاوية" و"الطائفة" الجماعتين السريتين لكتلة العمل الوطني. حددت الجماعتان هدف "كتلة العمل الوطني" وهو الاستقلال في الوقت الذي كانت "الكتلة" تبدو إصلاحية، تقدم المطالب الإصلاحية وتكافح من أجل الحريات العامة وتنشئ المدارس الحرة وتنظم الخلايا السرية وتقاوم الحكم المباشر.

ومن أستاذ في مدرسة ثانوية في الدارالبيضاء، إنتقل الأستاذ الفقيه إلى المدرسة المولوية بعد أن إختاره محمد بن يوسف ليكون أستاذا للأمراء، وعلى رأسهم الأمير الحسن بن محمد وزملائه من أبناء الشعب.

المدرسة دائما هي المَنْفذ للعمل الوطني.

ففي المدرسة المولوية كان الأستاذ الفاسي يلتقي بمحمد بن يوسف كلما زار السلطان القسم ليتفقد سير الدراسة. ومن حديث الدرس الى الحديث عن أحوال الوطن، إلى الحديث عن "كتلة العمل الوطني" التي أخذت إسم الحزب الوطني بعد أن حلّها الجنرال نوكيس كما حلّ "الحزب الوطني" نفسه.

كان محمد الفاسي فأصبح المحمدون كثيرين: محمد اليزيدي ومحمد غازي وأحمد بلافريج عمر بن عبدالجليل وعلال الفاسي بعد تحرره. وكان الاجتماع بين الملك والأستاذ في المدرسة على رؤوس الأشهاد لمناقشة شؤون الدراسة ... أصبح الاجتماع مع القيادة جميعها في المخبأ السري للقصر لمناقشة شؤون الوطن وسياسة

الحماية وضرورة التخلص من العثرة التي اعترضت المغرب. كان الوقت وقت حرب عالمية، وكان المغرب من بين البلاد التي ترنو إليها عيون ثلاثة: زرقاء، خضراء، سوداء. الفرنسيون يتطلعون إلى الاحتفاظ بها بعد تحررها من سيطرة حكومة فيشي (عملية هتلر) والأمريكيون يطمحون أن يجعلوا منها رأس جسر لتحرير أوروبا، ثم السيطرة عليها لإرضاء طموحهم فيما بعد الحرب والإنجليز تراودهم الأحلام لينقضوا حلف (1904) مع الفرنسيين ويجعلوا منها دُرَقَةً ودرأ لجبل طارق.

ضمير متحد كان يتحرك هذه النظرات الشزراء هو ضمير الشعب المغربي. كان يتحرك في مخبأ منعزل في القصر الملكي على لسان محمد بن يوسف وقيادة الاستقلال. كان يترجم حركته في كلمة الاستقلال. ومن هذا المخبأ خرجت الكلمة لتصبح وثيقة 11 يناير 1944 . وكان للأستاذ الفقيه حظه من محنة المطالبة بالاستقلال، فقد أعتقل مع من اعتقل. ولم يعد سرا أنه أحد الذين يتصلون بمحمد بن يوسف.

بعد فترة الانفراج (1946) إرتأى محمد بن يوسف أن يحقق النصف الثاني من لقب محمد الفاسي فعيّنه مديرا للقرويين. وبذلك إكتمل لقباه: الأستاذ الفقيه... كان تعيينه مديرا للقرويين "ثورة" في التعليم بمقدار ما كان تحديا للإدارة الاستعمارية التي كانت تخشى أن يدخل هواء ساخن منعش للجامعة العتيقة.

دخل هذا الهواء فعلا في سنوات ساخنة من تاريخ الحركة الوطنية عرفت فيها المواجهة مع الجنرال جوان ثم خلفه الجنرال كيوم. وكان خروج الأستاذ من الجامعة أحد الأهداف الكبري لجنرال فرنسا الكبير الفونس جوان.

ويستمر الأستاذ قطبا قياديا في حزب الاستقلال ويظل رأيه بين الآراء المنيرة للنضال حتى إذا كانت الأزمة الكبرى كان مقامه في "أغبالو نكردوس"[3] ليقضي مع المجموعة المنفية نحوا من سنتين. وفي أغبالو نكردوس كان يمثل التحدي لسلطات

3 - تتواجد في إقليم الراشيدية حاليا. وهي تبعد عن الراشيدية 130 كلم و70 كلم شرقا عن كلميمة ونفس المسافة غربا عن تنغير.

الاحتلال. كان يثبت على صدره صورة مصغرة لمحمد بن يوسف . وأمره "القبطان السجان" أن ينتزعها فأبى قائلا:

- "إذا كنت قادرا على ذلك فمد يدك لتنتزعها"...

إرتعب القبطان أن يمد يده. فقد كان يرى في معتقليه، أسودا في عرينها ولو أن مفتاحه بيده يخشاها بمقدار ما يحترمها. ويرى في عمله تكليفا خطيرا. إذا كان جنرال فرنسا قد خشيهم فنفاهم. فكيف به "قبطانا" ويحمي منهم فرنسا...؟

وكان محمد الفاسي في مقدمة مستقبلي محمد بن يوسف مع القيادة الإستقلالية، وهو يعود من منفاه السحيق... ولعله كان أسعد يوم في حياته.

محمد الفاسي عميق في وطنيته، قدم في حياته العريضة درسا للمناضلين الذين لم يكتفوا بانعزال العلماء، فكان العلم عندهم عملا أكثر منه علما وعملا.

وليّ وزارتين فكان يتحرك فيهما تحرك الأستاذ المثقف المهتدي بنور الوطنية ومنهج الاستقلالية. النفس العلمي كان يتحرك رغم بلوغه الثمانين. كان يحضر المجامع العلمية ومؤتمرات اليونيسكو وإجتماعات أكاديمية المملكة المغربية. ويعود الى صومعته العلمية شارع عقبة بن نافع بالرباط ليجالس العلماء من خلال الكتب ودوائر المعارف، ويكتب ويملي، ويحضر "معلمة الملحون" أو يكتب بحثا عن اللغات واللهجات لمجمع اللغة العربية في القاهرة أو يجمع أبحاثه القديمة عن الأدب العربي بالمغرب.

***

إلتحق محمد الفاسي بالرفيق الأعلى يوم السبت 21 دجنبر 1991 وسنه يقارب الثالثة والثمانين.

رحمه الله...

عبد السلام بنونة...
العصامي المستقبلي
(1935-1888)

-1-

إسم ملأ فكري وقلبي قبل أن أعرف كثيرا من الأسماء الوازنة. سمعت عنه وقرأت ما أمكنني فتعاظم في فكري وأخذ مكان الصدارة. وزادت قدرته على تمكين محبته مني يوم إجتمعت به في تطوان وأنا حديث السن. كانت زيارة لتلميذ لأحد قادة الحركة الوطنية.

حاولت أن تكون معرفتي به أكثر صدقا ووقعا. إستفتيت التاريخ فأفتى. أفتاني وهو يعود بي إلى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والمغرب يومئذ مطوق بالاستعمار الذي كان ينتظر وفاة السلطان الحسن الأول لتصفية الحسابات وتوزيع الغنيمة بين الدول الكبرى الطامعة في المغرب.

ولد عبد السلام بنونة في بيئة متميزة بتطوان لها صلات قوية بأجهزة الحكم الوطني. جده، الحاج عبدالكريم بريشة، كان من سفراء المغرب المتميزين فيما تقلد والده مناصب سامية في حكومة السلطان الحسن الأول والسلطان عبد العزيز. ومن ثمة، أدرك الفتى عبد السلام الظروف العسيرة السيئة التي مرّ بها المغرب في أوائل القرن العشرين. ما من شك في أنه تتبع عن طريق عائلته، مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906) التي تشيد بإصلاحات سياسية وإقتصادية ولكنها تحمل في طياتها بوادر الاحتلال والاستعمار.

سنوات قليلة، ويعرف المغرب فرض معاهدة الحماية وتقسيم البلاد إلى منطقتين: الجنوبية والشمالية. ويرى الشاب عبد السلام دخول القوات الإسبانية

مدينة تطوان دخول الفاتحين المنتصرين. المغرب وقع فعلا تحت سيطرة "النصارى" والمغاربة وجدوا أنفسهم أمام جندي إسباني وآخر فرنسي يمعنان الاتصال بين المنطقتين ويطلبان جوازا وتأشيرة حتى يتمكن الإخوان من صلة الرحم.

وتتواصل الأحداث التي فتحت عيني عبد السلام بنونة على بعديهما وهو يدرك معنى كل ما حدث حيث تترجمه في ضميره الحي كلمات الإستعمار والتقسيم.

لم يكن عبد السلام بنونة بعيدا عن مناصب المسؤولية مهما تكن الدول المشرفة على إدارة المنطقة. فعائلته ونشاطه الاقتصادي والإجتماعي بوءاه مركز الصدارة في المنطقة الخليفية. ومن ثمة، تولى عبد السلام بنونة منصب محتسب مدينة تطوان، وعمل على بلورة طرق جديدة للحسبة عمّت مختلف مدن المنطقة الخليفية. وسرعان ما نودي عليه لعضوية المجلس البلدي والمجلس الصحي لتطوان حيث عمل على تحسين الواقع الاجتماعي والإقتصادي لساكنة المنطقة.

هذه المهمات زادته تمكنا من التعرف على المجتمع الشمالي من داخله. وبفضل ذلك عهد إليه بمسؤولية وزارة المالية في الحكومة الخليفية. ورغم أن سلطة الوزير المغربي كانت، في مثل هذه الوظائف، شكلية بدون نفوذ حقيقي، قد كان عبد السلام بنونة يضطلع على كثير مما تدبره الإدارة الاسبانية للمغرب. ومن ثمة، أصبح يطالب بتحقيق إصلاحات إقتصادية واجتماعية حقيقية.

وما هي إلا سنوات حتى عمّت البلاد كلمات أخرى: الحرب، الريف، بن عبد الكريم.. الحرب الريفية التي يقودها بن عبد الكريم الخطابي تدور على مبعدة قليلة من تطوان، مسقط رأس عبد السلام، تهز كيان المواطنين جميعهم ويفتحون عيونهم على أبعادها لتؤكد لهم أن المستحيل قد يصبح ممكنا وأن طرد الأجنبي لا يتطلب من الوقت أكثر مما تطلبه إحتلاله وتقسيم البلاد.

هذه المرحلة الحيوية في حياة عبد السلام بنونة فتحت عينيه على ما تحتاج إليه المنطقة في الميدان التعليمي والاقتصادي. ولذلك كان من أوائل مهماته، بعد أن تخلص من وظائفه الرسمية، تأسيس المدرسة الأهلية حتى يعطى فيها المكانة

الأساسية للإسلام واللغة العربية والتاريخ بأساليب عصرية إقتبسها من المدارس المصرية بالإضافة إلى تعليم اللغة الإسبانية.

وقد اشتهرت هذه المدرسة في المنطقة الشمالية حيث تأهل عدد كبير من تلاميذتها لولوج التعليم الثانوي الواعد.

طموح عبد السلام بنونة إلى تزكية التعليم بالاتصال بالمشرق العربي بلغ أشده عندما بحث وإهتدى إلى مدرسة النجاح في نابلس. وفلسطين جميعها يومئذ في يد الفلسطينيين. أرسل إبنه الطيب بنونة ومحمد أفيلال في مهمة تكوينية واستطلاعية لمدة سنة قبل أن يعقد العزم على دعم إرسال عدد من البعثات إلى هذه المدرسة التي استجابت لطلبه بإضافة اللغة الفرنسية إلى برامجها.

إستغل عبد السلام بنونة وظائفه وأعماله الخاصة للقيام بحركة تطهير للمجتمع من العوامل الفاسدة والبدع والخرافات والشعوذة. شكلت هذه الفترة مرحلة من مراحل الإصلاح الاجتماعي. وقد وضع عبد السلام بنونة وصحبه على هذه الحركة الإصلاحية برنامجا مفصلا وطبقوه على الأعراس وغيرها من العوائد.

-2-

كان تفكير عبد السلام بنونة يتجه إلى العمل في سبيل التحرير الاقتصادي بموازاة التحرير السياسي. ولذلك أنشأ عدة مؤسسات بمساهمات مغربية جاءت في مقدمتها تعاونية لإنتاج وتوزيع الكهرباء في المنطقة الخليفية. إستمرت في العمل عشرين سنة بعد الاستقلال. وقد ساهم في هذه التعاونية آلاف من المنخرطين من جميع الطبقات الشعبية ووصل عدد الزبناء إلى حوالي عشرة آلاف عائلة.

إمتد النشاط الاقتصادي لعبد السلام بنونة إلى ميادين مختلفة. وهكذا، تمكن بمساعدة الأمير شكيب أرسلان الذي تفاوض مع بعض المستثمرين في غرناطة، من تأسيس شركة لصنع السكر في تطوان، وإستورد لها بذور قصب السكر من كوبا. وكان عبد السلام بنونة يهدف إلى مواجهة النقص الموسمي الذي تعرفه هذه المادة الحيوية جراء أعمال المحتكرين الأجانب.

وسرعان ما إقتنع عبد السلام بنونة بضرورة مواكبة العمل السياسي بإنشاء مطبعة. ومن ثمة، تأسست "المطبعة المهدية" وقد كانت الوحيدة التي تمتلك الحروف العربية، والوحيدة التي ساهمت في طبع المجلات والكتب والصحف الصادرة في المنطقة الخليفية وسرعان ما تطور عملها إلى طباعة عدد من الإصدارات التي تنشر في المنطقة الجنوبية. وقد إستعمل عبد السلام بنونة وسيلة لترويج بعض النظريات التي أعجب بها. وكان من ضمنها مقال كتبه الأمير شكيب أرسلان في مجلة الفتح تحت عنوان "الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام هي أزمة التعليم". قام بإعادة طبعه في نشرة خاصة، ووزعه مجانا، في المغرب كله حتى تعم الفائدة على جميع المواطنين.

وإهتم عبد السلام بنونة بميدان النسيج. ومن ثمة، أسس مصنعا للثياب الوطنية، واستورد أحدث الآلات الأجنبية في سبيل تعميم إستعمال الأقمشة بأسعار منافسة. وقد لاقى هذا الإنتاج إرتياحا لدى مواطني المنطقتين على السواء. شكيب أرسلان كتب لعبد السلام بنونة منوها: "لقد سررت بآخر منشئة إقتصادية قمتم بها. لم يبق، يا أخي، في الوقت الحاضر إلا هذا السلاح: العمل في إصلاح أمورنا الإقتصادية حتى نصارع بها المستعمرين. فلا تيأسوا وإشتغلوا وواضبوا، وإنها وإن كانت النتائج في البداية ضئيلة فمع الوقت ستزداد إن شاء الله".

هذه الحركة الإصلاحية، المهتدية بالسلفية تارة وبالإصلاح الاجتماعي والإقتصادي تارة أخرى، كان لها صداها القوي بين المواطنين من كل الطبقات.

-3-

لعل الظهير البربري الذي أصدرته سلطة الحماية الفرنسية في المنطقة الجنوبية (16 مايو 1930) كان من الأسس التي فتحت أعين مواطني الشمال على الجنوب مع إختلاف الدولتين الحاكمتين. كان الظهير يمس بوحدة العقيدة ووحدة الانتماء السياسي والوطني ووحدة الكيان العرقي بين سكان المغرب جميعهم. فقد كان يضع للسكان الأطلسيين (البربر) نظاما خاصا لعلاقاتهم الدينية والوطنية مع

بقية سكان المغرب وكان يطمع في أن يجعل من المغرب بلاد عنصرين يفترقان ولا يتفقان في الدين واللغة والانتماء.

في خضم الاحتجاجات التي تلت إصدار هذا الظهير، قام الأمير شكيب أرسلان، هو سياسي محنك وأديب لبناني المولد، بزيارة إلى الأندلس. وإغتنم عبد السلام بنونة الفرصة فدعاه لزيارة المنطقة الخليفية. إحتفل به عبدالسلام بنونة كما لم يحتفل باي زعيم سياسي عربي. ونظم له عدة مهرجانات كان يخاطب المواطنين المغاربة فيها. كانت زيارته التي كان لها مفعول قوي في المغرب دافعا لكثير من المناضلين في جنوب المغرب أن يزوره في الشمال وأن يربطوا علاقات ود مثمرة معه.

وكان لمقاومة الوطنيين في الجنوب لهذا الظهير ما جعله موضعا لمهاجمة الاستعمار الفرنسي للمغرب، وذلك ما فتح عيني عبد السلام بنونة والعاملين معه على زملائهم في الجنوب. كان ذلك بداية إنطلاق فكر وحدوي للمنطقتين.

كانت الحركة الوطنية إلى حدود إصدار الظهير البربري دينية أكثر منها سياسية. إلا أن بعد زيارة الأمير لتطوان، أصبحت هذه الحركة سياسية إصلاحية، يقوم فيها شكيب أرسلان بدور المرشد والموجه لها، والتي إنطلقت بزعامة علال الفاسي، محمد بن الحسن الوزاني وأحمد بلافريج في المنطقة الجنوبية وبزعامة عبد السلام بنونة، عبد الخالق الطريس ومحمد داود من المنطقة الخليفية، يتصل به أفرادها من المنطقتين ويكاتبونه ويطلبون توجيهاته في كثير من القضايا.

آثار المباشرة والسريعة للظهير البربري جعل الحركة الوطنية، في شقيها الشمالي والجنوبي، تسير في إنسجام كامل. كانت الاتصالات متوالية بين القيادتين رغم أن المنطقتين كانتا مفصولتين ويصعب التنقل من إحداها للأخرى. الإتصال كان يتم بزيارة قادة منطقة الشمال للجنوب أو قادة منطقة الجنوب للشمال كلما حصلوا على تأشيرة الدخول إلى هذه المنطقة أو تلك. ويتم كذلك عن طريق طنجة أو التنقل من باريس أو مدريد إلى تطوان، أو عن طريق المراسلات عبر البريد الإنجليزي في المنطقة الجنوبية حيث يسهل إرسالها دون رقابة أو مصادرة.

كان لا بد لهذه الجماعة من الوطنيين أن ينظموا أنفسهم. وهكذا تكونت كتلة الشمال في شبه مؤتمر مصغر حضره ممثلين عن "كتلة العمل الوطني". وضمت اللجنة التنفيذية الأولى بالإضافة إلى مؤسسها الحاج عبد السلام بنونة، عبد الخالق الطريس، الحاج محمد بنونة، أحمد غيلان، محمد طنانة ومحمد داود.

شكل الانقلاب الجمهوري الذي حدث في إسبانيا (14 أبريل 1931) ضد النظام الملكي فرصة للحاج عبد السلام بنونة ولصحبه في الكتلة للاتصال بالمسؤولين الجدد الذين كان له صلة صداقة وتقدير متبادلين خلال وجودهم في المعارضة. سامورا، رئيس الحكومة الأولى، كان ينادي خلال الحرب الريفية بأن تتخلى إسبانيا على منطقة الشمال والاهتمام بحل المشاكل التي تتخبط فيها إسبانيا، وقد اقترح علال الفاسي على عبد السلام بنونة التقرب من المسؤولين الجدد لا لتغيير المخطط الاستعماري للمنطقة فقط الذي تتولاه ولكن أيضا لتعميق الخلاف بين الاستعمارين الفرنسي والإسباني.

وقد كانت زعامة عبد السلام بنونة من الشمولية والتوجه المستقيم إلى حد المحافظة على وحدتها واتصالها المتين بالحركة في الجنوب المغرب بكامله.

ورغم أن المرض داهم عبد السلام بنونة فقضى وهو ما يزال في ميعان الرجولة، فإن نشاطه كان ذا أثر كبير في الشباب الذين إلتفوا حول خلفه عبد الخالق الطريس منذ ذلك الحين وفي مختلف القرارات التي عرفتها الحركة الوطنية. وقد ظلت الحركة الوطنية في الشمال تمتح من معين عبد السلام بنونة في مبادئها ومسيرتها الوحدوية حتى إتفق "حزب الإصلاح الوطني" بزعامة عبد الخالق الطريس مع "حزب الاستقلال" بزعامة علال الفاسي على الإنصهار عقب إستقلال البلاد.

***

توفي عبد السلام بنونة يوم الجمعة فاتح مارس 1935 وعمره لم يتعد 47 سنة.

رحمه الله...

الهاشمي الفيلالي...
المناضل الصبور
(1912 - 2008)

-1-

- هل يستقيل المناضل من تاريخه وضميره ونفسه؟

بهذه الكلمات فاجئني الهاشمي الفيلالي، عندما حدث سوء تفاهم قررتُ فيه الانعزال عن الصحافة والعمل داخل هيئات حزب الاستقلال[1]. كان لها من الأثر في نفسي أقوى مما كانت كلمات أخرى سمعتها من هنا وهناك.

وإذا كنت أومن بصدق الكلمة فإن صدورها عن الهاشمي الفيلالي كان أعمق من الكلمة نفسها، ذلك لأني أعتبر أن الهاشمي الفيلالي يومن بما يقول ولا يقول إلا ما يومن به.

وقد تركت أحاديثه ومناقشاته التي كان يدخر لها من الوقت أكثر مما يتاح له حتى إن أحمد بلافريج الأمين العام لحزب الاستقلال كان يقول في غيبة عنه: "إذا تكلم السي الهاشمي، إستمعوا ...إستمعوا جيّدا فإن كلامه دائما فيه من الحكمة وصواب الرأي ما يجب ألا نضيعه".

كان الهاشمي الفيلالي من أصدق المناضلين الواقعيين والذين يفهمون روح رجل الشعب حينما يتحدث عن الوطنية أو يعمل لها. يرجع ذلك لنشأته في بيئة متواضعة جدا[2] ولمقروءاته التي لم تنقطع منذ بدأ تعليمه في كلية القرويين. ففي هذه الكلية التي تخرج منها كثير من نبغاء المثقفين وعمداء الحركة الوطنية كان

1- إستقالتي من جريدة العلم يوم 11 يوليوز 2004 عقب رقابة مسبقة مورست على ما كتبته حماية لسمعة الجريدة.

2- والده كان دباغا.

العمل الوطني سهلا وكان الاتصال بالشباب يهدف إلى تكوين الخلايا. والوطني المتميز هو الذي يستطيع أن يكثر من عدد الخلايا القادرة على تحمل المسؤولية.

كان الهاشمي الفيلالي يتميز بميزة شعبية تتمثل في تنوع لغته الخطابية: من عمل عضو الخلية إلى لغة الموجه المتنبئ إلى قرار السياسي الصارم.

-2-

تحمل الهاشمي الفيلالي المسؤولية وهو بعد فتى عندما حاولت إدارة الحماية تحويل ماء "واد فاس" (1925) لفائدة الضيعات التي يملكها المعمرون الأجانب. السكان يعتبرون ماء النهر ملكا لكل واحد منهم. ومن ثمة، قامت مظاهرات صاخبة ضد المشروع قادها علال الفاسي بمعيّة الهاشمي الفيلالي والحسن بوعياد. تجمع المواطنون في مسجد مولاي ادريس ليطالبوا بالحريات العامة، ومنها حق الملكية. وكان لصمود المواطنين أن تراجع الحاكم العسكري عن خطته في تحويل ماء هذا الواد. ومن هذا المنطلق، أصبح الهاشمي الفيلالي مسجلا لدى الإدارة الفرنسية، وهو في عداد الفتيان الصغار، وبدأ المشرفون على هذه الادارات يحملون له حقدا دفينا.

سنوات قليلة بعد ذلك إهتمت جماعة من طلبة القرويين، والهاشمي الفيلالي من أعضائها البارزين، بالدعوة إلى إصلاح التعليم بكلية القرويين، كما إهتمت بالدعوة للأفكار السفلية بهدف منع الطوائف المبتدعة، والعادات الاجتماعية المتخلفة. ولأجل توسيع قاعدة الموالين لهذه الأفكار وإبلاغ الخطاب الوطني لفئات واسعة من الشباب، أصدر الهاشمي الفيلالي "الإرشاد"، جريدة خطية كان يسهر على تعميمها لدى فئات واسعة من المواطنين في مختلف المدن المغربية.

هذه الحركة الإصلاحية المهتدية بالسلفية تارة وبالإصلاح الاجتماعي والتعليمي والبلدي تارة أخرى كان لها صداها القوي بين المواطنين من كل الطبقات. فقد لفتت أنظار السكان الذين كانوا يحتفلون مع الفئات التي لم يكن أحد يفكر

من قبل بأنها لا تنتمي للإسلام في شيء ويجب مقاومتها. ولفتت كذلك أنظار الذين إعتادوا أن يشهدوا حفلات الأعراس والمناسبات العائلية الكبرى في كثير من الإسراف والتنافس والمزايدة إلى أن ذلك يخالف سلامة المجتمع ومظهره المتحضر، إن لم يكن يخالف تعاليم الدين الحنيف.

-3-

بدأ الهاشمي الفيلالي حياته المهنية بالتجارة في الكتب في مكتبة متواضعة. وسرعان ما تأكد من أنه لا يتقن التجارة فتحول عنها وحمل كل ما لديه من كتب ومراجع مهمة إلى مكتبة أنشأها في منزله. هكذا، بدأ الهاشمي يُسخر مكتبته لعموم الطلاب من أية مدرسة جاءوا وللإجتماعات الوطنية سواء كان يسيرها أو يقوم بذلك غيره. كان منزله مكتبة عامرة بالمراجع العربية وبالكتب النادرة والمهمة وكان يلجأ إليها الطلاب كأنها مكتبة وطنية عامة بالمفهوم الحديث.

إلى جانب المراجع العلمية التي كانت تغص بها مكتبته، كانت هناك الكتب الحديثة. كان الطلاب يستفيدون ويتعلمون ويدخلون المكتبة دون استئذان ويقضون كل وقت قراءاتهم دون أن يشعروا بأنهم في منزل تسكنه عائلة. كثير من الكتب فُقدت من هذه المكتبة العامرة لأن قراءها لم يقتصروا على القراءة في المكتبة ولكنهم إحتفظوا بما يقرأون من كتب دون أن يستأذنوا صاحب المكتبة. كان الهاشمي بذلك يؤكد لنفسه ولغيره أن الكتاب وُجد ليُقرأ لا ليوضع على رف من رفوف مكتبة صغيرة كانت أو كبيرة.

-4-

وتوالت الأحداث... الإستعمار الذي تغلغل في العقدين الأولين من القرن العشرين أصبح يسيطر على مقومات البلاد الإقتصادية والعسكرية والإجتماعية. ومن ثمة، بدأ يبحث عن وسيلة جديدة يضمن بها البقاء حتى إهتدى إلى أن تحطيم وحدة الوطن المغربي عن طريق التفريق بين العرب والبربر في العرف وفي التشريع، وربما في الدين، هي الوسيلة الناجعة.

وإذا أضيف إلى هذه السياسة التفريقية في اللغة التي تدعم بالتعليم المختلف في المناطق العربية عنه في المناطق البربرية، وتقسيم البلاد عسكريا ومنع الاتصال الإجتماعي والإنساني بين هذه المنطقة وتلك، ونشر الكنائس والمبشرين في المناطق التي يسكنها أغلبية البربر بصورة خاصة وتمكينهم من وسائل التبشير المسيحي، بالإضافة إلى التبشير المستمر في المدن، وفي المستشفيات بصفة خاصة، أمكن خلق شعوب مختلفة في الدين واللغة والجنس والقانون والقضاء والتبعية العسكرية والمصالح الإقتصادية. وبذلك يمكن للاستعمار أن يضمن بقاءه وأن ينمي مصالحه إلى الأبد. هكذا، سيتحطم عنصر الوحدة الذي يمثل الخطر الأكبر على الاستعمار. ذلك هو السبيل لبقائه ولتحويل التواجد من نظام الإستعمار الأبدي على نحو ما هو موجود في الجزائر.

كان الهاشمي الفيلالي، وهو لا زال في بداية مرحلة الشباب، في مقدمة الوطنيين الذين تصدوا لمواجهة هذه من الخطة وبفضل إهتماماته بالنشر، عُهد إليه بإصدار منشور موجه للرأي العام الوطني يفضح من خلاله النوايا الاستعمارية ويدعو إلى المواجهة الصارمة للظهير البربري الذي تمخض عن هذه السياسة. قام الهاشمي الفيلالي بعدة إتصالات مع الوطنيين في سلا والرباط (سعيد حجي، أبو بكر القادري ومحمد اليزيدي) بهدف طباعة هذا المنشور وتوزيعه في مدن الرباط والدارالبيضاء وسلا.

تزعم الهاشمي الفيلالي بمعيّة توأمه عبد العزيز بن إدريس ومحمد بن الحسن الوزاني مظاهرة صاخبة عقب قراءة اللطيف بعد صلاة الجمعة (18 يوليوز 1930). إتجهت المظاهرة إلى مقر الحاكم العسكري الفرنسي فصد المتظاهرين وزعم بأنه لا دخل له في الموضوع وأن الباشا هو المسؤول عن ما يحمله الظهير من قضايا. وسبق الهاتف المتظاهرين فوجّه الباشا (محمد بن البغدادي) إلى اعتقال المتظاهرين. وكانت أولى تجربة يمر بها الهاشمي الفيلالي وأصحابه في العقاب والسجن[3].

3- وُصفت هذه التجربة أحسن وصف في المجموعة القصصية "**سعادة الباشا**"، عبد الكريم غلاب، نشر دار المعرفة، الرباط (2017).

إنتهت حركة الاحتجاجات والمظاهرات بالتدخل العنيف الذي مارسته السلطات الإستعمارية ضد المواطنين في مختلف المدن. وبدأ العمل بين المسيرين الذين لم تشملهم الاعتقالات. هكذا، إلتقت الجماعات من مختلف المدن، وبدأت تبحث لنفسها عن منطلق بعد أن وجدت الملتقى. وكان تكوين خلايا لتعمل في السر بإعداد محدودة، ذلك أنه تأكد للوطنيين أن إدارة الاحتلال لن تسالم الحركة الوطنية إذا ظلت أعمالها في واضحة النهار. ومن ثمة، تم تأسيس مؤسسة سرية تحمل إسم "الزاوية" وروعي في إختيار أعضاءها العشرين الاستعداد للتضحية وكتمان السر. وكان أن إنضم إلى التنظيم الجديد الهاشمي الفيلالي مباشرة بعد الأداء الكامل للعقوبة الحبسية الناتجة عن إحتجاجه ضد الظهير البربري.

في نفس هذه المرحلة، كان السلطان محمد بن يوسف قد قرر القيام برحلة كل ربيع إلى مدينة فاس، كما سبق القول. أضرب السلطان عن الاستمرار في رحلته بعد أن "منعته" السلطات الإستعمارية من الصلاة في القرويين.

كان لإضراب السلطان عن زيارة المدينة للصلاة في القرويين وقع كبير على المواطنين. ومن ثمة، نظم الوطنيون، والهاشمي الفيلالي في مقدمتهم، مظاهرات إحتجاجية صاخبة قبل أن يتشرفوا بزيارة السلطان في عاصمته، أياما بعد الحدث، للتأكيد له عن مدى تعلق المواطنين بشخصه وبعرضه.

في هذه المرحلة كانت الحركة الوطنية مهتمة بوضع مطالب الشعب المغربي، وهي مجموعة من المطالب تتعلق بكل مناحي الحياة في المغرب (التعليم، الشغل، حرية الصحافة، والحريات العامة). كان الهاشمي الفيلالي، كعادته في مثل هذه المواقف، أحد العاملين في بلورة هذه المطالب وعضو الوفد الذي قام بتقديمها إلى السلطان.

تقديم "مطالب الشعب المغربي" شكلت تطورا مهما في الفكر الوطني الذي تحول من الموقف الذي يمكن أن يُتهم بأنه سلبي إلى عمل إيجابي تعجيزي. ومن ثمة، وجدت الحركة الوطنية نفسها أمام برنامج إصلاحات، ولكنه برنامج لتحقيق

الاستقلال وإن لم يتلفظ بالكلمة، ووضع إدارة الحماية والحكومة الفرنسية نفسها أمام التحدي التي لم تعد معه تدعي بأن الوطنيين سلبيون.

-5-

كان للصدفة التي حدثت يوم تعرف عبد اللطيف الصبيحي على الظهير البربري أثرها لدى المواطنين. ومن ثمة، أصبحت الجريدة الرسمية تراقب دوريا من خلايا متعددة بهدف رصد أي إجراء قد يباغث الوطنيين. وهكذا إستصدرت الإقامة العامة قرارا نشر (13 فبراير 1937) يقضي بالاستحواذ على مياه مدينة مكناس الواردة من واد بوفكران لأجل سقي أراضي المعمرين وتبقى الأراضي التي يملكها المغاربة لا تسقى إلا بأمطار السماء ويعم مكناس وضواحيها فقدان الماء الشروب والعطش. إدعت إدارة المكلفة عقب الاحتجاجات الأولى أنها تقوم بإصلاح القنوات التي تزود المدينة بالماء. للمرة الثانية يقف الهاشمي الفيلالي للدفاع عن الماء وينظم المظاهرات التنديدية التي أدت في نهاية المطاف إلى مواجهات خطيرة مع الإدارة الفرنسية.

كان من نتائج هذه المعاناة أن قامت الإدارة الفرنسية، تحت إشراف الجنرال نوكيس، بحملة إعتقالات واسعة وحملات نفي. كان نصيب الهاشمي الفيلالي النفي إلى كلميمة بينما نفي علال الفاسي إلى الغابون.

-6-

كان التعليم الحر في كل المدن التي نشأ فيها وترعرع هو السبيل القويم لمواكبة الحركة الوطنية. في كل مدينة أنشأ فيه فرع لحزب الاستقلال، أنشأت فيه مدرسة إبتدائية حرة.

من هذا المنطلق، إهتم الهاشمي الفيلالي بالتعليم، شأنه في ذلك شأن أبي بكر القادري في سلا وعبد السلام بنونة في تطوان ومحمد غازي في مكناس. ومن ثمة، أنشأ الهاشمي الفيلالي مدرسة "النجاح" واهتم بتربية الشباب وتكوينه لمواجهة متطلبات الحياة. وإستمر في اهتمامه بميدان التعليم لعقود طويلة. وهكذا نجده،

عند استقراره في الدارالبيضاء عقب إطلاق سراحه (1946)، يعمل على توسيع نسيج المدارس الحرة إلى جانب إهتمامه بتنظيم هياكل حزب الاستقلال وتطويرها.

كان الوطنيون، والهاشمي الفيلالي من بينهم، عندما يفكرون في مسيري العمل السياسي، يبدأون بالتفكير في المعلم الذي يمكن أن يواصل العمل في المدرسة بأجر محدود وعزم صارم وأداء مرفوع القيمة.

الإدارة الاستعمارية كانت عاجزة عن الوقوف ضد إنشاء هذه المدارس في أغلب المدن رغم أنها حاولت بطريقة أو بأخرى إقفال بعضها.

لم ينحصر إهتمام الهاشمي الفيلالي في المدرسة بل تعداه إلى ميدان الأدب والثقافة. وهكذا أصدر جريدة "الإرشاد" ومجلة "أم البنين". ونشر عددا من المقالات في جريدة "الأطلس" التي كان يصدرها الحزب الوطني ثم في مجلتي "رسالة المغرب" و"المغرب الجديد" وفي جريدة "العلم" في السنوات الأولى لإصدارها.

إلى جانب الصحافة، إهتم الهاشمي الفيلالي بالآداب والتاريخ والحضارة المغربية والتراث الوطني. وقد عمل في هذا الصدد على تحقيق بعض المؤلفات التراثية ذات القيمة العلمية الثابتة مثل كتاب "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس".

-7-

رجاحة تفكير الهاشمي الفيلالي وحرصه على كتمان الأسرار هي التي إعتمدها الملك الحسن الثاني (مارس 1979) حينما عيّنه عضوا في مجلس خاص ناط به مهمة مؤازرته في تحديد وتطبيق السياسة الهادفة إلى المحافظة على الصحراء المغربية والدفاع عن حوزتها. وقد عاينت، وأنا الممثل الثاني لحزب الاستقلال في هذا المجلس، كيف كان الهاشمي الفيلالي مثال العضو المتميز لابتكار الفكرة الصائبة والجهر بالقول الفصل في القضايا الأساسية المتعلقة بالصحراء وإستقلال المغرب ووحدة ترابه.

وبرزت شخصية الهاشمي الفيلالي من جديد في النيابة البرلمانية حيث انتخب نائبا عن مدينة الدارالبيضاء مرتين (1963) و (1977) قبل أن تعرض عليه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (نونبر 1981). فوجئت بأني مرشح لمنصب وزاري في نفس الحكومة. إمتنعت داخل اللجنة التنفيذية للحزب عن المشاركة إمتناعا صارما. وأصرت اللجنة على أن أقبل الوزارة. وظل إصراري قويا حتى أقسم الهاشمي الفيلالي أنه لن يشارك في الحكومة إذا لم أقبل المنصب. لأول مرة تفيض دموعي في موقف كهذا. فقد إعتبرت أني أحد الذين قيل فيهم: "إن لله أناسا يساقون إلى الجنة بالسلاسل".

تحمل الهاشمي الفيلالي، إذن، مسؤولية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وهي وزارة لا يليها رجل يحمل من الأفكار الثابتة والتصميم الوطني وهي الصفات التي يمتاز بها ولايستطيع أن يتحمل غيرها في وزارة تتدخل في مراقبتها وزارة الداخلية، ولذلك لم يعمر في الوزارة طويلا (نونبر 1981 - مارس 1984).

-8-

وتبرز الشخصية القوية لدى الهاشمي الفيلالي في مواقف عديدة عقب الأحداث الدامية التي تلت تقديم وثيقة الاستقلال.

كان نصيب قادة الحركة في فاس: الهاشمي الفيلالي، وأحمد مكوار وعبد العزيز بن ادريس إثر تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال التعذيب والمحنة والانتقام. وكانت التهمة تهمتين:

أولاهما الاتصال بعملاء المحور (ألمانيا وإيطاليا). كان الاستنطاق بالعنف والتعذيب والضرب والتعليق من الأرجل والتجويع. وقد أشرف المعتقلون الثلاثة على الموت عدة مرات بعد أن لم يظفر المحققون منهم بأي اعتراف. لعلهم كانوا يعرفون أن ألمانيا لم تكن لتتعامل مع الوطنيين الذين تأكدت مطالبهم في الاستقلال، ولكنهم مع ذلك كانوا يريدون أن يظفروا باعتراف ولو تحت الإكراه ليصدروا حكما قاسيا ضد الثلاثة الذين كانت السلطة في فاس تحمل لهم حقدا دفينا وتعتبرهم مسؤولين عن كل التنظيمات الاستقلالية، التي جعلت المدينة تتظاهر بكل رجالها

ونسائها وشبابها مطالبة بالاستقلال في تنظيم محكم وجعلتها تصمد في وجه محنة المحاصرة والجوع والعطش والظلام بضعة أسابيع.

أما التهمة الثانية، فلم يكن هناك شيء يستطيع أن يبرئ منها الأبطال الثلاثة، ذلك أن "رابطة الدفاع عن المغرب" بالقاهرة قدمت وثيقة المطالبة بالاستقلال في نفس الأسبوع الذي قدم فيه حزب الاستقلال وثيقته (11 يناير 1944) دون تنسيق مسبق. وإذا كانت مواصلات المغرب مع العالم مقطوعة بسبب الحرب، فلا شك أن هناك إتصالا سريا بين فاس والقاهرة سعت إدارة التعذيب أن تكشف عن قنواته.

كان الإخوان الثلاثة، وهم تحت العذاب، يُسألون عن عمل الرابطة وهم يجهلون عنه كل شيء، ومع ذلك يعذبون حتى نضجت جلودهم وتركت السياط على ظهورهم وأرجلهم عاهات دائمة. وبعد أن يئس التحقيق العسكري من أن يظفر بحجة ضدهم، أحالتهم على المحاكمة وكان نصيبهم السجن سنتين في سجون مختلفة عبر المغرب.

سنوات بعد الاستقلال، عاتبني الهاشمي الفيلالي بابتسامته العذبة الودود وهو يريني إحدى العاهات على جسمه :

- "كُنتَ أحد المسؤولين عن عذابي في مركز الشرطة الفرنسية... سامحك الله".

الهاشمي الفيلالي، بنشأته الأسروية المتواضعة، وفي المدينة التي تربى بين أحضانها، وبتعليمه وثقافته التي أخذ نفسه منذ صباه وشبابه الأول، وبرغبته في أن يناضل من أجل البلاد ، إختارته الوطنية ليكون بين روادها، وإختار الحركة الوطنية ليكون من خدامها المخلصين الثابتين. ما كان له أن يختار غير ذلك وما كان للوطنية أن تختار إلا رجالا ممن تتوفر فيهم خصوصيات الهاشمي الفيلالي.

***

إنتقل الهاشمي الفيلالي إلى الرفيق الأعلى يوم الأحد 20 يوليوز 2008 وعمره يقارب 96 سنة.

رحمه الله ...

عبد الله كنون...
المثقف الملتزم
(1908 - 1989)

-1-

- عبد الله كنون...

هكذا أكتب إسمه دون كُنية ولا لقب تعودت ذلك منذ عرفته.

يكفي أن تذكر إسم عبد الله كنون في مشرق الوطن العربي أو مغربه لتتداعى صورة الرجل كما أودعها الله ذاته وعقله وأدبه ووقاره وجلاله، دون أن تخطئه العين أو الفكر أو القلب جميعا. فقد كان عبد الله كنون متكامل الشخصية، يؤكد وجهه البشوش المبتسم دائما، ومنطقه العذب بلغثة "الراء" كأحلى ما تكون الراء في مفردات العلم والأدب، وفكره النيّر، وقوة شخصيته، وعلمه الواسع، وأدبه الجم، وقلمه النابض بالحياة، وإلتزامه الوطني في البحث والأدب والعلم على السواء.

عرفته مبكرا، وودعته متأخرا. وبين المعرفة والوداع لم ألبث على صحبة معه، على بعد الدارين أحيانا، وعلى غير معرفة شخصية في بداية الطريق، وعلى صلة قريبة وحميمة في نهاية الطريق.

لا أدري كيف دلف إليّ بصورته في شبابه الغض وبشعره المبكر. ولكني أعرف أن سبيلي إلى هذه الصلة المبكرة كانت كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى". كان هو المرجع الأول لكل الذين أغواهم الأدب أو حب الاطلاع والتعرف على رواد ما يزال الكثير منهم في فتوتهم أو شبابهم. في هذا الكتاب تعرفت على أسماء ظلت منقوشة في الذاكرة في صورتها تلك، رغم الصلة القوية التي متنت بيني وبين أصحابها. في هذا الكتاب تعرفت على علال الفاسي وعبد الله كنون ومحمد بن

المأمون البلغيثي، وكثير من شيوخ الأدب وشبابه. وكان إسم عبد الله كنون من الأسماء التي نقشت في الذاكرة، لا لأنه كان من بين الشعراء الذين بدوا لي، في سني تلك، عمالقة، ولكن لأنه كان من بين الكتاب والشعراء الذين واصلوا عطاءهم، رغم ظروف الجفاف التي لم تكن تبشر بعطاء في ذلك الزمان السيء الطالع.

كنت أبحث عن إسم عبد الله كنون في كل مجلة أو صحيفة تصدر آنذاك في المغرب. وقد لبى نداء البحث في مجلة "السلام" التي كان، وما يزال، لها صدى في نفوس كل الذين تابعوا حياتها القصيرة، وكل الذين إتخذوها مرجعا موثقا، بعد ذلك، وهم يبحثون عن الماضي القريب، الثقافي منه والسياسي لبلادنا. في "السلام" بدأ عبد الله كنون يكتب عن شخصيات المغرب الأدبية الشعراء والكتاب بصفة خاصة. ثم في "العَلم" أخذ يكتب عن بعض هذه الشخصيات ويناقش قضايا ثقافية ويجادل عنها.

شعرت وأنا أتابع هذه السلسلة أن عبد الله كنون رسالة ثقافية وطنية وليست رسالة علم تجريدي فحسب. فقد أخذته العزة بالدفاع عن المقولة المغلوطة التي ألصقت ظلما بالمغرب والتي تقول: "إن المغرب أنتج فقها وفقهاء، ولم ينتج أدبا وأدباء". ولذلك أخذ، كزميله محمد الفاسي، يزيح الغبار عن ماضي المغرب الأدبي، ويكشف عن شعراء ومثقفين وأدباء، أكثر بعضهم وأقل آخرون، أجاد بعضهم وقصر آخرون، ولكنهم مثلوا عطاء لم يكن باهتا، وإنما كان نيّرا على نحو ما يكون النور في بلاد عاشت ظروفها التعريبية والثقافية والعلمية والسياسية ما بين الأدارسة والعلويين.

لقد إعتاد الذين يحاكمون تاريخ المغرب الأدبي أن ينظروا إلى المغرب من خلال الأندلس أو العراق أو بلاد الشام، ولكنهم، في اعتباري، أخطأوا من جهتين:

- التاريخ الثقافي للوطن العربي لا يقاس بالشعر فحسب. فالإبداع الشعري لم يكن المظهر الأول ولا الوحيد للثقافة العربية. قلة الإبداع الشعري في بلاد المغرب العربي جميعا ومصر والسودان والجزيرة، بعد عهد الازدهار الجاهلي والجزء الأول من صدر الإسلام، لا يعني ضعف الثقافة العربية ولا التخلف المعرفي، ولو كان دليلا

على أن مثقفي هذه البلاد فضلوا فنا آخر من فنون القول كفن الترسل والرحلة والتاريخ وكتابة سير الرجال.

- عصور إزدهار الشعر العربي في الشام والعراق والأندلس إقترنت بظروف سياسية وثقافية وإجتماعية. كان الشعر فيها معبرا عن الفكر القبلي تارة، وعن الصراع السياسي تارة وعن الوضعية الاجتماعية في جديتها ولهوها، في إستقامتها وانحلالها تارات أخرى. وكما إزدهر الشعر في العراق تخلف في مصر مثلا، وكما إزدهر في الأندلس تخلف في بلاد المغرب. وليس يضير ذلك في شيء مصرَ وما جاورَها والمغرب وما جاوره، إذا هما لم يعيشا نفس وضعية بلاد الشام والعراق والجزيرة في بداية عهدها. بل ليس يضير في شيء البلاد التي تخلف فيها الشعر أنها لم تنتج شعرا في مستوى شعر جرير والفرزدق، أو أبي تمام والبحتري، أو المتنبي وأبي العلاء، أو ابن زيدون والمعتمد ولسان الدين.

ومع ذلك كان من حسن حظ هذا الماضي الأدبي المغمور في المغرب أن قيّض الله له شخصيتين: عبد الله كنون ومحمد الفاسي والحركة الوطنية في مفتتح تأججها للكشف عنه وإستخراج نماذجه من بطون الكتب وتقريبه لعموم المثقفين والدفاع عن المغرب الأدبي ومركزه الثقافي من خلال الكشف عن شخصياته الأدبية.

وقد كان عبد الله كنون ومحمد الفاسي مدفوعين بروح وطنية نضالية بمقدار ما كانا مدفوعين بروح علمية رائدة. التنكر لتاريخ الأدب المغربي بجرة قلم دفع بهم إلى استخراج نماذج هذا الأدب من بطون الكتب المغمورة للتأكيد على أن المغرب كان له ماض، ولذلك يجب أن يكون له مستقبل يستمد جذوره من هذا الماضي المشرق. الإنصراف عن البحث إعتمادا على أن المغرب لم يشتهر بالأدب، مثل ما إشتهر بالفقه، دفع بهما إلى تأصيل منهج البحث العلمي في الدراسات الأدبية بالمغرب، على غرار ما عرف عن المغرب من المنهج العلمي في الدراسات الفقهية والعلمية والتاريخية.

لذلك كانت سلسلة المشاهير التي كتبها عبد الله كنون -ونشرها مسلسلة في كراسات رائدة- في مجال البحث الأدبي والعلمي، سواء من حيث المعلومات

والنماذج المغمورة التي كشف عنها أو من حيث المنهج العلمي الذي اتبعه في البحث، أو من حيث الدفاع، ذي الطابع الوطني، عن ماضي بلادنا الأدبي.

نفس الفكرة دفعته إلى التفرغ لكتابة معلمته "النبوغ المغربي في الأدب العربي" ودراسته عن "الأدب العربي الحديث في المغرب"، وكتبه الأخرى التي كتبها عن الإسلام والتاريخ والأدب.

-2-

وأنت تجلس إلى عبد الله كنون أو تستمع إليه في محاضرة أو بحث أو مراجعة في أكاديمية المملكة المغربية، يتحدث إليك بهندامه مثل ما يتحدث إليك بلسانه. فهو العالم الذي لم يكن يفارق سلهامه وجلبابه وعمامته الخفيفة ولحيته الأنيقة وحديثه التلقائي، ولكنة الموثق. أما مضمون هذا الحديث أو تلك المحاضرة فهو الذي يتفق مع كل ذلك.

حينما يقف عبد الله كنون ليتحدث تشعر بأن رجل علم سيتحدث إليك، وحينما يتكلم بصدق الخُبْر الخَبَر: يناقش قضايا الفكر والأدب، قضايا الإسلام والعقيدة، قضايا علوم الإسلام قرآنية وحديثية وفقهية. قضايا التاريخ -تاريخ المغرب على الأخص- يُحلي حديثه بنوادر الفقهاء والعلماء ورجال السياسة والحكم، ينقلك من الماضي إلى الحاضر ليؤكد الفكرة المستقبلية التي يريد أن يصل إليها. كثيرا ما يتحدث بأسلوب العلماء في طرح القضايا والبرهنة عليها، ولكنه مجادل من طراز علماء الأصول، ولو كان حديثه أدبيا أو تاريخيا أو إسلاميا. حينما يجادل من طراز علماء الأصول، ولو كان حديثه أدبيا أو تاريخيا أو إسلاميا. حينما يجادل لا يشعرك بأنه أمام خصم بمقدار ما يشعرك بأنه أمام فكرة أو نظرية يريد أن يصل إليها. غير أن الغضب يدلف أحيانا إلى ثنايا كلماته حينما يجادل في قضايا تمس الإسلام أو تمس الوطن. وقد شهدت رحابُ أكاديمية المملكة المغربية مواقف صارمة وتاريخية له حينما كان يقتضي الأمر أن يصحح مفاهيم إسلامية أو يرد على مغالطات كنيسية أو يؤكد موقف الإسلام من قضايا معاصرة. كان ينضو عنه سلهامه ويقف الموقف الصارم ليجادل أو يصحح أو يرد الكيد.

والحق أنه كان لسان الإسلام الصحيح في إجتماعات الأكاديمية، وخاصة حينما تطرح قضايا للعلم والدين فيها رأي. ما أزال أذكر هذه الفقرة من رأيه في"ندوة القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب".

قال: "وهذا الذي عرض علينا من أنواع التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب، هو مما يؤدي إلى محاذير كثيرة ونتائج خطيرة تنعكس على حياة الأسرة والأوضاع الاجتماعية والخلقية والدينية مما يبيح الممنوعات ويحل المحرمات، وينقض أحكام الشرع في الزواج والنسب والعدة والاستبراء والميراث والمصاهرة وتحليل الفروج والوطء الموجب للحد وغير ذلك، مما هو في الواقع هدم للشريعة المطهرة التي حافظت على كيان المجتمع الإسلامي النقي قرونا عديدة، وميزته بصفاء الدم وبراءة الأرحام وسوية الخلقة، حتى إنه كان يستغني عن التطبيب والعلاج من كثير من الأمراض والعقد النفسية التي ما عرفها إلا مؤخرا عند اختلاطه بالأجانب عنه ومس تيار الحضارة الغربية له".

هذه الفقرة على قصرها تؤكد شمولية الفكرة التي عبّر عنها في تركيز واختصار، وحدد في كل كلمة منها فكرة أو رأيا. إقرأها مرة أخرى فستؤكد لك كل كلمة منها قضية للإسلام فيها رأي.

هكذا كان تفكير عبد الله كنون في القضايا الإسلامية والأدبية والتاريخية على السواء.

وإذا كان عبد الله كنون يغضب للعلم، فإنه كان يغضب لكرامة لعلماء. ولذلك كان موقفه دائما في كل المناصب التي شغلها، وبعضها مناصب غير علمية، يعتبر نفسه ممثلا للعلماء، فلا يقبل أن يعتبر إداريا أو وزيرا حينما عّين وزيرا في الشمال أو عاملا على طنجة. كان العالم الذي يلي المنصب، ولم يكن الإداري الذي يمارس مسؤوليته في جبة العالم. أعتقد أنه لم يقبل المنصبين إلا ليكون لسان العلماء في الوزارة أو العمالة. وحينما لم يتفق العالم فيه مع الإداري ترك المنصب الإداري ليتفرغ لمركز العالم.

هكذا عرفناه حتى في أكاديمية المملكة المغربية التي لا تختلط فيها العضوية إذا أراد العضو بأي ممارسة لا تتفق مع مركز العالم عضو أكاديمية العلماء.

سعدت أكاديمية المملكة المغربية كمعجمي القاهرة ودمشق بعبد الله كنون. كان يملأ مكانه العلمي في كل ندوة يحضرها حتى أخذ المرض يقعده فيتخلف. حرمت الأكاديمية من أبحاثه وتدخلاته. وحرم أعضاء الأكاديمية من أحاديثه حينما يلتقي به بعضهم في جلسات على هامش الاجتماعات. فقد كانت أحاديثه لا تقل عن أبحاثه ومحاضراته فائدة ومتعة وظرفا.

ودّع الأكاديمية في آخر إجتماع حضره في ندواتها العلمية بطنجة (أبريل 1988) وداعا كريما شيقا، كان موضوع الندوة: "خصاص في الجنوب، حيرة في الشمال: تشخيص وعلاج". في إحدى الأمسيات دعا أعضاء الأكاديمية جميعهم إلى منزله في القصبة. منزل أنيق قديم، لو سألت رجلا غريبا عن طنجة: "لمن هذا المنزل؟" لما أخطأه الحدس وهو يجيبك: "إنه لعبد الله كنون".

بيت ينطق بالحكمة كما يقول التعبير المغربي الدقيق. فيه من الأناقة والأصالة ما يحببه إلى مرتاده. خلا من "الخزانة" التي نقلها إلى مكان أوقفها فيه على مدينة طنجة. ولكن المنزل يشعرك بأنه مكان علم ومعرفة. وقد سعد أعضاء الأكاديمية وضيوفها وهم يصعدون درجه الضيقة إلى الطابق الفوقي بعد أن اجتمعوا في باحة المنزل الذي سلكوا إليه شوارع طنجة القديمة الضّيقة، والرجل العالم يستضيفهم في تواضع العالم ويفرح بوجودهم في منزله فرح الكريم.

هكذا ودّع عبد الله كنون أكاديمية المملكة المغربية فلم يحضر إجتماعاتها بعد ذلك.

كان لا يفتأ يتابع النشاط الفكري والثقافي في المغرب والوطن العربي. وحينما بعثت إليه بكتابي "مجتمع المؤمنين" أجابني برسالة مؤثرة، أكد لي أنه اشترى الكتاب عقب صدوره، وتأسف أن "الجلالة" التي خيمت على عينيه تمنعه من مواصلة القراءة. ولكنه يعد أن يقرأ الكتاب ويكتب عنه بعد إجراء العملية.

شعرنا بالتقصير عن عيادته حينما منعه المرض من أن يواصل نشاطه. تواعدنا على ذلك حتى علمت بأنه في أحد مستشفيات الرباط. كانت ساعة لقاء لم نتحدث فيها كثيرا عن المرض والصحة. أكد لي أنه بلغ الواحدة والثمانين، وأنه يعرف ماذا تعني الثمانون.

وخضنا في قضايا ثقافية واجتماعية.

كان هذا اللقاء الوداعي قبل بضعة أيام من انتقاله إلى الرفيق الأعلى. شعرت معه بالأنس الذي كنت أحس به كلما زرته أو جلست إليه. كانت الإبتسامة العذبة ما تزال تطل من وجهه الصبوح، رغم الإرهاق البادي على ملامحه. كان حديثه ما يزال طليا شهيا. كان قلبه ما يزال عامرا بالإيمان، باليقين، بالتفكير في وطنه ومواطنيه. كان يزال يشعر بالأنس وهو يتحدث إليّ أو يستمع إلى حديثي. لم يتركني حديثه ولا محاولته أن يقف لوداعي أن أشعر بوداع أبدي. إنحنيت وطبعت قبلة على رأسه وأنا أمسك بكتفيه مخافة أن ينتصر على رغبتي فيقف.

خرجت من المستشفى وأنا أزعم لنفسي أنه سيكون لنا بعد ذلك لقاء. وما كنت أدري أن القدر كان أصدق مما زعمت أو أمّلت. فقد فجعت عند عودتي من الديار المقدسة أنه رحل.

-3-

وإنا لنعترف بأن عبد الله كنون أدى الرسالة وأننا، والأجيال معنا وبعدنا، وعينا هذه الرسالة وأحسنا الاستفادة منها. كان، طوال حياته، من الذين يتحملون الرسالات ويؤدون واجبها. ولعله وجيله كان من المحظوظين في تاريخ هذه البلاد الذين وضعت بين أيديهم رسالة وطولبوا بأدائها، فالرسالات لا تكون دائما متاحة لكل الناس، وفي جميع الحالات وفي جميع الأزمان، ولكنها منحة من الله يختار لها المخلصين من عباده، ويختار لهم الزمان والمكان ومسؤولية الرسالة.

كثير من الناس إعتبروا أنفسهم أشقياء حينما ولدوا مع الاستعمار، وكان واقع المغرب ينغص عليهم حياتهم ويصيب بعضهم بالغم والكمد إلى درجة الإحباط.

وما دروا بأنهم كانوا محظوظين يوم ولدوا في الوقت الذي بلغ الاستعمار أعلى ذروته فسيطر على بلادهم، ذلك أنهم لو وجدوا في غير هذه الفترة من تاريخ المغرب لكانوا في الغالب، كما كان الكثيرون، من الذين يمر التاريخ على رؤوسهم أو من تحت أرجلهم فلا يصنعونه ولا يصنعهم، لا يبصمونه ببصماتهم ولا يترك فيهم أثرا. وتمر الأحداث بهم أو بدونهم، وتطوي حياتهم الأيام، يرين عليهم وعليها النسيان، ويصبح التاريخ حاضرا ثم مستقبلا. والمستقبل لا يذكر من الماضي إلا ما صنعه، فهو مقوم يتمتع باستقامة فكرية لا يحابي ولا يجامل ولا ينافق.

جيل عبد الله كنون وجد في مرحلة التحدي.

والاستعمار قمة التحدي لأنه يستهدف تغيير الهوية، وسلب السلطة، وإحتلال الأرض، وتحويل مجرى الفكر، وسرقة اللغة، وتهجين القيم، والسيطرة على الروح قبل الجسد، وإغتصاب الحرية، وإستعباد الأحرار، وتحريف المسيرة التاريخية نحو طريق منحرف. وهذا ما كان يريده بالمغرب، فكان تحديا لهذه البلاد التي عاشت آلاف السنين معتزة بهويتها بكل ما يطبع هذه الهوية من قيم وطنية ودينية وأخلاقية ولغوية وعلمية وتاريخية. تحدي، إذن، خطير. لم يكن الإنسان العادي ليشعر بفداحته. ولكن الذين هيأهم الله ليحملوا رسالة في الحياة كانوا أول الذين شعروا بهذا التحدي فواجهوه بتحدي مماثل قوامه الحفاظ على الهوية بكل مضامينها. من هؤلاء الذين تحملوا الرسالة من أدوها في الجبال وفي السهول وفي الصحراء وفي المدن يتحدون النار بالنار والمدفع بالمدفع والرشاش بالرشاش، ومنهم من دخلوا المسجد والمدرسة وخرجوا إلى الشارع أو التجأوا إلى الصحيفة أو الكتاب يواجهون التحدي الاستعماري بالكلمة وبالتصحيح وبتعبئة الجماهير وبالدعوة إلى العصيان، وبوضع السد في وجه التيار. كلا العملين كان له أثره في صد التحدي بالتحدي وكان له أثره في إفشال خطة التحدي الاستعماري.

كان عبد الله كنون من هذه النخبة الثانية التي حمّلت الكلمة مسؤولية كبرى هي التحدي المضاد. وكان من الذين نجحوا في صد التحدي لأنه كان ممن

يحملون الرسالة ويحسنون أداءها ويؤمنون بأثرها. ومن ثمة، كان ميلاده هو وجيله مع الاستعمار نعمة يمكن أن تحسدهم عليها الأجيال السابقة واللاحقة.

وهكذا، نرى أن الإنسان في عبد الله كنون لا يتمثل في الرجل الطيب، ذي الأخلاق الفاضلة، الودود، البشوش المبتسم دائما، المجامل دائما، المعتز بكرامته، المدافع عن شخصية العالم وعزم المثقف فحسب، ولكن الإنسان في عبد الله كنون هو أيضا صاحب الرسالة التي أداها فأحسن الأداء بعد أن تحملها دون أن يعيي بها عاتقه أو تضجر منها نفسه.

ويوم عرف أن والده الشيخ عبد الصمد كنون، هجر فاس، مدينته، إلى طنجة فرارا من أن يلوث عينيه بمناظر الاستعمار بذرت في نفسه بذرة الحرية ، فأخذ على نفسه أن يهب حياته للكفاح عن طريق الكلمة وعن طريق الفكر.

أن يكون الطالب فقيها في الوقت الذي بدأ فيه عبد الله كنون حياتها لعلمية فذلك ليس بغريب على الحياة الثقافية بالمغرب. فقد كانت مراكز العلم في فاس ومراكش وبعض المدن الأخرى في الشمال والجنوب التي ينتمي العلماء فيها إلى مدرسة القرويين وابن يوسف، ما تزال تزخر بالثقافة الفقهية.

أن يتجه الطالب إلى ثقافة والده الفقهية فذلك أيضا ليس بغريب، لأن الولد سر أبيه، ولأن العلماء في ذلك العصر كانوا يعملون على تنشئة أبنائهم على غرارهم في الغالب. وأن يكون الطالب أديبا يتعاطى فن الكلمة شعرا ونثرا فذلك أيضا لم يكن غريبا في بداية الثلاثينات. كان بالمغرب مجموعة من الشيوخ يقولون الشعر، ومجموعة من المترسلين يحاولون أن يكتبوا أدبا منثورا، وكان مشهودا لهم بالبيان وبراعة الأسلوب. ثم كان المغرب قد بدأ يتفتح على المشرق وأخذت بعض المجلات والصحف العربية تفد على المغرب منها "الهلال" و"المقتطف"، ومن حين لآخر جريدة "الأهرام". وكانت إلى جانبها صحف ومجلات تفد من تونس ومن الجزائر. ثم أخذت الكتب الأدبية التراثية والحديثة تفد من مصر وسوريا والعراق، فيها دواوين شعرية للبارودي وشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي والكاظمي. وكل ذلك منح الطلبة والمتأدبين وكان عبد الله كنون من جملتهم أمثلة تحتذى.

ومن المؤكد أن المطبعة التي بعثت كثيرا من كتب الجاحظ والقالي والمعري والمتنبي وأبي تمام وابن الرومي، وقبلهم معلقات الجاهليين وشعر الإسلاميين، وضعت بين يدي الأدباء زادا ضخما من النماذج الأدبية الممتازة على غرار ما وضعت بين يدي الأدباء في مصر والشام والعراق وبقية بلاد المغرب العربي.

هذه هي المدرسة التي كوّنت عبد الله كنون.

أعتقد أنها كنت مدرسة واعدة. ولذلك لا نستغرب إذا رأيناه، ككثير من زملائه الذين كانوا في مثل سنه، يتأرجحون بين الشعر والنثر، في الوقت الذي لا يفرطون في ثقافتهم الأصيلة: دراسة القرآن والحديث والفقه وعلوم العربية. كان كنون نموذجا لهذه الثقافة الشاملة التي يتجاور فيها الفقيه مع الشاعر الأديب. وهي نموذج المدرسة الإسلامية التي لا تعترف بالتخصص الضيق: ابن سينا مثلا كان فيلسوفا وفقيها وطبيبا وشاعرا، وابن رشد الفقيه العالم الأديب الفيلسوف، وابن حزم الفقيه عالم الأديان وهو صاحب طوق الحمامة. وقس على ذلك الكثيرين.

كان جيل عبد الله كنون رمزا للمثقف بالمعنى الحقيقي الشامل للثقافة.

السؤال الذي يمكن أن نطرحه: هل المغرب كان آنذاك في حاجة إلى مثقفين من نوع عبد الله كنون أم كان في حاجة إلى متخصصين في الفقه كما في الأدب، في العلوم التجريبية كما في الفلسفة؟

معادلة ربما كانت تنظيرية. ولكني أعتقد أن وضعية المغرب كانت تفرض أن يكون بالمغرب مثقفون لا متخصصون.

وأغامر بالقول بأن المثقف الشامل يمكن أن يقف من وضعية البلاد الثقافية والسياسية مثل الموقف الذي وقفه عبد الله كنون وعلال الفاسي والمختار السوسي وأحمد بلافريج الإختصاصي أو المتخصص يمكن أن يسرقه اختصاصه من بلاده. أولئك وقفوا متواضعين مع شعب بلادهم يناضلون في جبهات مختلفة: سياسية واجتماعية وتعليمية وفكرية. أنشأوا المدارس، وقاوموا البدع والتخلف الاجتماعي والفكري، وناهضوا الظهير البربري، وطالبوا بمطالب الشعب المغربي، وإرتقى بهم

نضالهم إلى المطالبة بالاستقلال. وأسهموا في تأسيس المقاومة المسلحة وتنظيمها وتسييرها وفاوضوا من أجل الاستقلال والوحدة، ونادوا باسترجاع الصحراء وطالبوا بالديمقراطية ثم قاوموا الانحراف السياسي والديمقراطي...

أرأيت، لو كان جيلهم من المختصين والاختصاصيين، هل كانوا يقفون هذه المواقف النضالية التي يمسك بعضها برقاب بعض؟

أشك في ذلك.

-4-

جيل هؤلاء الرواد وظفوا نضالهم هذا في إعطاء مفهوم لثقافتهم.

حينما يكتب عبد الله كنون "النبوغ المغربي" أو "مشاهير رجال المغرب" أو غيرهما من كتبه العديدة ومقالاته تشعر وأنت تقرأ هذا الإنتاج أنك أمام مناضل في واجهة الثقافة. فهو لا يكتب تاريخ الأدب العربي بالمغرب كباحث محايد، كما يكتب مغربي مثلا تاريخ الأدب اليوناني أو الفارسي، ولكنه محام يبدأ مرافعته بكلمتي "النبوغ المغربي". قد تكون مقولة قابلة للمناقشة، ولكنها تدعوك لأن تستمع إلى المرافعة ثم تحكم، بدلا من أن تحكم بأن المغرب لم يكن منتجا في الأدب كما كان يزعم الزاعمون. ولو لم يكن عبد الله كنون مناضلا لما كتب "النبوغ المغربي" ولا "مشاهير رجال المغرب". هو إذن ليس قاضيا ولكنه محام.

بعض الاختصاصيين والمنطقيين منهم يقولون إن العلم في غير حاجة إلى المحامي بمقدار ما هو في حاجة إلى القاضي. قد أسايرهم في هذه المقولة. ولكن حينما يكون المغرب موضع هجوم من وكيل نيابة، يتسم بما يصف به بعض المغاربة وكلاء النيابة (المُغَرِّق) وهو ليس وكيل نيابة واحد.

فلوا كان سهما واحدا لا تقيته ولكنه سهم وثــان وثالث

كان هناك عديد من وكلاء النيابة بعضهم يؤيد استعماره للمغرب بمحاولة التنكر لكل تاريخه السياسي، بل والثقافي والعلمي. وبعضهم يبرر جهله بمحاولة

إلغاء هذه الجهة من العالم العربي من نطاق بحثه وعلمه، وبعضهم... الأمر إذن يحتاج إلى محامين كبار من أمثال عبد الله كنون ليكتب "النبوغ المغربي". هكذا بصيغة التحدي، وعلال الفاسي ليكتب "النقد الذاتي" و"دفاع عن الشريعة"و المختار السوسي ليكتب "المعسول" و"إيلغ" و"سوس العالمة" وغيرهم كثير.

هذه المقولة تسلمنا إلى مقولة أخرى نستعير لها تساؤلا معروفا في عالم الأدب والفن : هل الثقافة للثقافة أم هي نضالية لإثبات الذات؟.

لا أريد أن أدخل معركة إنتهت، على الأقل فيما يتعلق بالأدب والفن، ولكن أومن بأن الفكر المتحرك لا يمكن أن يجمد عند منطق الثقافة للثقافة، فلسنا نحن البشر، وبخاصة في عالمنا الثالثي موكلين بالصلاة في محراب الأفكار التحريرية. لسنا رهبان فكر وثقافة ومحاصرة بين جدران "المحراب"، ولكنا موكلون للنضال الفكري من أجل الفكر، ومن أجل تصحيح الانحرافات الفكرية، ومن أجل الدفاع عن الذات وطرد "الإحباطات".

لهذا كان عبد الله كنون مثقفا فاعلا، مناضلا بالثقافات لإثبات الذات.

جاء في وقته، ولو كان غير عبد الله كنون كما هو لكان متأخرا عن وقته أو متقدما عنه، وكلاهما شذوذ بالنسبة لتاريخ الفكر والثقافة والعلم.

حينما ولع عبد الله كنون بالأدب والتاريخ اكتشف ظاهرة غريبة هي تنكر الآخرين لمشاركة المغاربة في الحياة الأدبية والفكرية، ثم ظاهرة تنكر بعض المغاربة لأنفسهم، جهلا أو قصورا أو اتباعا، إكتشف عبد الله كنون هذه الظاهرة بحسه الذكي وتفتق ذهنيته وهو بعد شاب لم يتجاوز العشرين من عمره. قرأ تاريخ المغرب فوجده في أغلبه تاريخ سياسي، وجانب خاص من التاريخ السياسي فحسب هو جانب الصراع القبلي، والصراع على الحكم، ووجد لغته لا تتفق مع المضمون الحقيقي لهذا التاريخ. فإذا إجتاز يوسف ابن تاشفين المغرب إلى الأندلس، فإنما ليقضي على ملوك الطوائف ويمتلك الأرض التي سمع عن خضرتها وبهائها وإنتاجها، كأن المغرب آنذاك صحراء من موريطانيا حتى الزقاق. وإذا قامت دولة

الموحدين فإنما لتقضي على المرابطين وتشتت شملهم وتريح المغرب من وجودهم. وإذا أحرق كتاب "الإحياء" للغزالي فإنما ذلك لأن جماعة من الفقهاء كانت تسيطر على السياسة والحكم في البلاد بعقلية متخلفة دفعت إلى إحراق كتاب...

وإذا كتب عن تاريخ المغرب فمن السهل أن يزعم أنه لم يعرف إبداعا أدبيا في الشعر والنثر، ولم يعرف نهضة فكرية وعلمية في الفلسفة والرياضيات، وإذا ذكر أحد من مشاهير المغرب ينسب للأندلس، ولو لم يعرف من الأندلس إلا ما يعرفه زائر عابر...

الأمثلة كثيرة من هذا الظلم للتاريخ الأدبي والفكري والحضاري، إذا كان لغير المغاربة ضلع فيه فإن للمؤرخين المغاربة أيضا اليد الطولى.

عبد الله كنون كان مغرما بدراسة الأدب والتاريخ المغربيين على الأخص، في وقت كانت تتكون عنده حاسة أخرى هي حاسة الوطنية التي عرفها جيل ما بعد الهزيمة، وبالأخص الجيل الذي استيقظ وعيه مع الحرب التحريرية الريفية كما كان يفضل قائدها المجاهد البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي أن يسميها.

عبد الله كنون أدركه هذا الوعي من منطلقين:

أولهما: هجرته مع والده من فاس مسقط رأسه، وهو بعد يافع لم يَعْدُ السادسة من عمره. ولا شك أن والده الفقيه الورع الذي أقدم على هذه الهجرة (1914) كان يحدثه عن أسبابها، ويحدثه أن احتلال الفرنسيين للمغرب من شأنه أن يدفع إلى الهجرة إلى المشرق فقعدت به الحرب في طنجة.

وثانيهما: الحرب الريفية، إلى جانب المقاومة المسلحة التي كان يقوم بها أبطال الأطلس. هذه الحرب أيقظت الوعي في شباب المغرب الذين كوّنوا الخلايا الأولى للحركة الوطنية في منتصف العشرينات، والتي شملت في نفس الوقت شباب الجنوب، أو ما كان يسمى جنوبا في فاس والرباط، وشباب الشمال في تطوان وطنجة. وكانت الصلة محكمة بين هذه الخلايا جميعها.

هناك، إذن، ميدان يجب أن يقوم فيه الشباب بواجبهم النضالي لتحرير المغرب من ربقة الاستعمارين. ولكن تحرير المغرب والدفاع عنه عند الواعين من شبابه آنذاك الذين شغفوا بدراسة تاريخ بلادهم وآدابها وحضارتها يجب أن يكون سياسيا وثقافيا في آن واحد. ومن هنا نجد أن الذين كانوا مولعين بالتاريخ السياسي لم يكونوا فقط يواجهون سياسة الحماية بالانتقاد والفضح والعرائض والمظاهرة، ولكنهم أيضا كانوا يواجهونها بالتعريف بالتاريخ السياسي لبلادهم، وبالكشف عن المؤامرات التي قام بها الأجانب للتدخل في الشؤون الداخلية لبلادنا ولانتقاص من السيادة المغربية، وإحتلال أجزاء من المغرب تدريجيا حتى أجهزوا عليه بالاحتلال الثنائي (1912). أما الذين كانوا منهم مولعين بالأدب والتاريخ فقد وجدوا مكانهم للدفاع عن هوية المغرب الثقافية والحضارية في الكشف عن مشاهير رجاله ونبوغ أبنائه في الأدب العربي. وكان قد مقدمتهم عبد الله كنون.

هناك حقائق لابد أن أشير إليها:

أولى هذه الحقائق، أن الدفاع عن المغرب في هذا الميدان لم يكن في مواجهة المستعمر الذي كان ينكر على المغرب أن يكون له كيان أمة أو شعب أو دولة، فأحرى أن يكون له كيان علمي وأدبي، وإنما كان أيضا في مواجهة لكثير من دارسي التاريخ العربي الذين لم يكونوا يعرفون مكان المغرب، من تاريخ العرب والإسلام، وكانوا يقفزون من المشرق أو من القيروان إلى الأندلس، وكأن الزقاق بدأ هناك.

ولهذا إستقبل "النبوغ المغربي" وذكريات مشاهير المغرب بإعجاب كبير إن لم يكن باستغراب. ونجد رجلا كالأمير شكيب أرسلان، يقول عند قراءة الجزء الأول من الكتاب: "كنت أعهد نفسي من بين المشارقة الرجل الذي اطلع أكثر من غيره في تاريخ المغرب وأهله، وأمعن النظر فيما يتعلق بثقافته وسياسته وسائر شؤونه، ولكني رأيت نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغير حجمه الكبير قدره كأني لم أعلم عن المغرب قليلا ولا كثيرا، وكدت أقول أن من لم يطلع على هذا الكتاب لا يحق له أن يدعي في تاريخ المغرب الأدبي علما ولا أن يصدر على حركاته الفكرية حكمًا".

هذه الفقرة، التي كتبها الأمير شكيب أرسلان، تشير بصدق مدى جهل أهل المشرق بالتاريخ الأدبي والعلمي للمغرب، وتؤكد من خلال ذلك قيمة هذه المرافعة الدفاعية الكبرى التي قام بها عبد الله كنون عن كيان بلاده المعرفي والأدبي.

وثانية هذه الحقائق أن عبد الله كنون لم يكن يمتح وهو يكتب المشاهير والنبوغ من عين ثرة أو من نهر فيّاض، وإنما كان يستقرئ بطون الكتب المخطوط منها والمطبوع ليؤلف بين الشذرات المتفرقات هذا التاريخ الحافل الذي ظلمه أهله كما ظلمه الغرباء عنه على السواء. ولم يكن ليستطيع ذلك لولا ثقافته الواسعة ومعرفته بمظان المعرفة أولا، ولولا تقديره لأهمية الخطة الدفاعية التي يقوم بها لإخراج الحجج القاطعة من التاريخ العلمي والأدبي لهذه البلاد.

وثالثة الحقائق أن الباحث الملتزم تعمد أن يكون كتابه دفاعا لا بحثا محايدا، فهو، وقد أخلص للبحث العلمي واعتمد على مصادر دقيقة، ولم ينسب للمغرب إلا ما كان له، أعطى لبحثه عنوانا فيه كثير من التحدي حينما سماه "النبوغ المغربي" أو حينما سمى أبحاثه عن الشخصيات المغربية "مشاهير".

ورابعة الحقائق أن عبد الله كنون أخذ نفسه بالمركب الصعب، كتاب "النبوغ المغربي" كتاب أدب. يجد المؤلف نفسه مدفوعا بحسه النضالي مضطرا أن يقدم بين يدي الصورة الأدبية الصورة السياسية. يتحدث عن الفتح الإسلامي للمغرب، عن انتشار الإسلام، عن استعراب المغاربة، ويناقش هذه القضية مناقشة علمية لا يستثني في ذلك بحث الصراع بين العرب والمغاربة وأسبابه الحقيقية. هكذا يفعل في فصل المرابطين وفي فصل الموحدين إلى آخر فصول الكتاب.

لم يستهدف عبد الله كنون من إهتمامه بالجانب السياسي كتابة التاريخ السياسي لهذه الدولة أو تلك. ولكن، وقد تملكه روح الدفاع عن المغرب، إستهدف إثارة قضايا في حاجة إلى دفاع، وفي حاجة إلى إنصاف. من هنا نرى أن عبد الله كنون، وهو يناقش مثلا قضية الصراع بين العرب والمغاربة ترك الأحداث، وموضوعها التاريخ السياسي، ليناقش ما وراء الحدث، ليؤكد أن "مثار النزاع أولا إنما كان لأجل استبداد العرب بوجوه المنافع، واختصاصهم بالمناصب العالية في الدولة، فبدأت

المطالبة بالمساواة في الحقوق، ثم استفحل الداء فبدأ المغاربة يشعرون بخطر يتهددهم، وأنهم، إن لم يتلافوا الحال، ربما أفضى الأمر إلى محو وجودهم السياسي. ثم لما استحلوا الظفر واستمرأوا طعم الظهور، لم يبقوا قانعين بما حصلوا عليه فتعلقت آمالهم بالملك والإمارة وساروا في سبيلهم متحمسين"...

هذا الدفاع المنصف لم يكن دفاع محام يريد أن يكسب القضية لأنه موكل بكسبها، ولكنه كان دفاع عالم يبحث عن الحقيقة بين ترهات كثير من المؤرخين فوجدها. وظهرت وهو يجدها شخصية الوطني الغيور على وطنه إلى جانب العالم الباحث الغيور على الحقيقة، المتفهم لأسرار النفس الإنسانية المغربية في آن التي تفرق بين الامتثال للإسلام والثورة لكرامة المواطنين. واختفى من هذا البحث المتعدد الأبعاد التقدير للعرب وكثير من جوانب البحث تنبئ عن ذلك والتعصب للوطن والمواطنين المغاربة، وكثير من جوانب البحث تشير إلى ذلك.

ومثل هذا البحث العلمي نجده في قضايا مهمة، مثل قضية إستعراب المغرب وقضية الفكرة الإصلاحية التي قامت عليها دعوة الموحدين ومناقشته العلمية القوية لآراء المستشرق الهولندي دوزي[1] الذي زعم أن مبدأ اضمحلال الأندلس يعود إلى استيلاء المرابطين عليها. وهي قولة وجدت أصداءها عند كثيرين من الذين كتبوا في التاريخ السياسي والتاريخ الفكري للأندلس، وخاصة من المشارقة. وجدت أصداءها لمجرد أن دوزي هو قائلها. وفي زماننا ذاك يوم كتب عبد الله كنون هذا البحث كان المستشرقون مقدسين، وكلامهم يؤخذ مأخذ الوحي، لأنهم كانوا يعرفون كيف يسبغون على أبحاثهم لباس العلم والبحث، وكيف يتطاولون على بعض المسلمات فينقضونها. ولذلك كان الرد عليهم وتسفيه مقولاتهم مما يعبر عن شجاعة أدبية وعن قدرة على التفوق في التحليل العلمي. وهذا ما قام به عبد الله كنون حينما أكد بالأدلة أن "الازدهار الذي عرفته الأندلس أيام المرابطين ثم الموحدين بعدهم يكاد يفوق ما كان لها منه في أيام الخلفاء وملوك الطوائف

1- Reinhort Pieter Dozy (1820-1883)، مستشرق هولاندي إشتهر بدراسته لتاريخ إفريقيا الشمالية والأندلس من أشهر مؤلفاته "تكملة المعاجم العربية أو المستدرك".

وخاصة في ميدان العلوم والآداب"، وذهب يعدد أسماء الفلاسفة والأطباء والعلماء والفقهاء والصوفية، واللغويين والنحاة والمفسرين إلى آخر القائمة.

ويأخذ عبد الله كنون بخناق دوزي بمناقشة هفوتين، إذا أخذتا على دولتين عظميين كالمرابطين والموحدين، فقد أخذت غيرها كثير على كل الدول الإسلامية والمسيحية. وهما حادثة إحراق كتاب "الإحياء" في عهد علي بن يوسف، وحادثة الإساءة إلى الفيلسوف ابن رشد في عهد الموحدين.

تكاد تشعر وأنت تقرأ هذا الفصل بتجليات المحامي الكبير وهو يترافع عن قضية حق آمن بها وهاله ظلم المتهم فيها. ولكنك وأنت تشعر بحماس الخطاب تعترف في نفس الوقت بقوة العالم، وقدرته على استخدام أدوات البحث.

وأذكر أني إكتشفت هذا الخط الدفاعي في أبحاث عبد الله كنون يوم قرأت في مجلة "السلام"حول إنصافه ليوسف بن تاشفين في قضية المعتمد بن عباد. وكنا يومئذ مغرمين بالشعر الوجداني العاطفي، كما كنا نقرأ عند بعض الكتاب الشرقيين الذين صوروا حياة المعتمد كرجل مظلوم سيق إلى الأسر لأن يوسف بن تاشفين تآمر عليه وأسره وساقه مكبلا إلى أغمات حتى مات فقيرا، أسيرا يندب حظه العاثر. ولا أكتم أني ظللت على تعصبي لابن عباد رغم دفاع عبد الله كنون. وحينما عدت إلى هذا الموضوع بعد أن نضج مني الفكر والرأي تساءلت مع عبد الله كنون:

- ماذا يكون مصير الأندلس لو استمع يوسف بن تاشفين إلى أبيات شعرية تافهة كان يجيد كتابتها المعتمد ، وهو يتآمر على بلاده مع الزاحفين على الأندلس ضد ملوك الطوائف الآخرين؟

ونفس الاتجاه الدفاعي نجده في دعوى تقاعس يعقوب المنصور الموحدي عن نجدة صلاح الدين الأيوبي في حربه ضد الصليبيين. رفض عبد الله كنون أن يكون السبب هو اللقب الذي أسبغه صلاح الدين على يعقوب فلم يخاطبه بأمير المؤمنين. ومن بطون التاريخ، إستخرج كنون الحقيقة وهي أن صلاح الدين بعث بمولاه قراقوش إلى بلاد المغرب ففتح طرابلس ووضع يده في يد خصوم الموحدين

مما سبب متاعب كثيرة ليعقوب المنصور، صرفته عن صد الهجمات التي كان نصارى إسبانيا يقومون بها على أطراف الأندلس منتهزين فرصة انشغال دولة الموحدين بقضايا المغرب العربي للهجوم على أطراف أخرى، وكما انتهزوا قبل ذلك فرصة ضعف ملوك الطوائف لمحاولة إسترجاع الأندلس جميعها.

فهذا ليس دفاعا لمجرد الدفاع، ولكنه دفاع لإثبات الحقيقة التاريخية التي تضع أحداثا مهمة في التاريخ تتصل بهجوم الصليبيين في المشرق والمغرب. وكل من يعقوب المنصور وصلاح الدين الأيوبي قام بواجبه. ومن لا يدرس الحروب الصليبية بشمولية تصل ما بين شرق العالم الإسلامي وغربه لا يمكن أن يصل إلى هذه الحقيقة.

أعتقد أن المؤلف ظلم الكتاب حينما أسماه "النبوغ المغربي في الأدب العربي". فقد كان منهجيا في بحثه أكثر ما عبّر العنوان. ذلك أنه يضع الأدب في مناخه السياسي والعلمي، والأدب في مختلف العصور وعند جميع الشعوب وفي كل اللغات مرتبط بالحياة السياسية والفكرية والثقافية عموما. ولذلك نجد عبد الله كنون يخلص لتأريخ الأدب في المغرب من الباب الواسع فيتحدث مثلا عن نشأة الموحدين السياسية ابتداء من نشأة محمد (المهدي) بن تومرت في قبيلة هرغة بالسوس إلى قيام عبد المومن بتوحيد المغرب العربي والمنصور الذهبي بتوحيد بلاد المغرب بالأندلس إلى واقعة العقاب على عهد الناصر.

في هذا المناخ السياسي تتضح الحركة العلمية والثقافية عموما. وكان ذلك هو التمهيد الثاني في كل عصر من العصور التي تدارسها عبد الله كنون في كتاب النبوغ. وقد خص عهد الموحدين بفصل منهم عن الحياة العلمية والفكرية ناقش فيه كثيرا من القضايا الأساس التي ميّزت الفكر الموحدي التقدمي الرجعي في آن، المناهض لعلوم الفروع، والمؤيد لعلم الكلام والفلسفة والاجتهاد.

في هذا المناخ السياسي والعلمي يدرس كتاب "النبوغ المغربي في الأدب العربي" الحركة الأدبية ويترجم للأدباء والعلماء والفلاسفة على السواء.

ومن هنا جاء كتاب النبوغ شاملا للبحث في قضايا السياسة والفكر والعلم والأدب على السواء. وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الطبعة الأولى وهو يعرف بالكتاب حينما قال: "هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة، ورمينا بذلك إلى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة، من لدن قدوم الفاتح الأول إلى قريب من وقتنا هذا...".

ويبدو أن عبد الله كنون بقي في نفسه شيء من هذه الجملة الأخيرة "قريب وقتنا هذا" كما بقي في نفس بعض كبار النحاة شيء من "حتى"... ولذلك إدخر له القدر أن يحذف من الجملة كلمة "قريب" فيصل الماضي بالحاضر، ويكتب أحاديث عن الأدب المغربي الحديث رغم أنه تملص عدة مرات من إكمال الحلقة لأن الأدب الحديث ليس من اختصاصه. فقد طلب إليه "معهد الدراسات العربية العالية" التابع للجامعة العربية أن يلقي محاضرات على طلبته عن الأدب الحديث في المغرب، فكان هذا الكتاب الجيد الذي إعتبره الجزء الأخير من "النبوغ المغربي" وقد جاء هذا الجزء إحياء لفترة مهمة من تاريخ الأدب المغربي كان يمكن أن تضيع لو لم يتداركها عبد الله كنون. فبعض الفترات التي تحدث عنها كانت قريبة من جيله، وكانت بعض الإسماء ما تزال تتردد بين طلاب العشرينات. إستطاع أن يستفيد من المصادر التي استقرأها. هذا الجهد لا يقوم به إلا من تعشق البحث عن الشوارد، واعتبر عملا كهذا يلقى على طلبة من مختلف البلاد العربية يدرسون في القاهرة ثم ينشر في كتاب مهمة وطنية علمية من نوع المهمة الدفاعية التي قام بها وهو يكتب "النبوغ المغربي".

هذا الكتاب وثيقة عن فترة مهمة، رغم ظلامها. وهي الفترة التي أخذ فيها الاستعمار يهيئ للانقضاض على المغرب في أواخر القرن التاسع عشر. كان الجانب السياسي والثقافي في هذه الفترة متكاملا، وهو الذي مهد للفترات التي تلت ذلك حتى بداية الاستقلال حينما ألقى هذه المحاضرات في بداية الستينات.

والدراسة التي قام بها تجمع بين التاريخ والتسجيل والنقد. وقد استطعنا أن نتعرف على شخصيات أدبية مهمة، ما تزال في حاجة إلى إفراد بالدراسة، سواء من

الكتاب والشعراء الذين تحدث عنهم في الفصل الأول على عتبة العصر الحديث "أو الذين تحدث عنهم في فصلي فجر النهضة".

إذا كان عبد الله كنون قد سكنه روح الدفاع عن كيان الوطن الفكري والثقافي والمغرب يومئذ مسلوب السيادة منزوع الإرادة، فإنه وقف في الثمانينات على منبر أكاديمية المملكة المغربية ليقدم أبحاثه بنفس نضالي وبقدرة على البحث والمحاجة العلمية والمنطقية. فأعطى للأجيال المتعاقبة الدرس في الالتزام العلمي، والاستقامة الفكرية، والممارسة المستمرة للعمل الذي نصب نفسه له منذ تفتق شبابه عن عالم باحث مناضل.

***

إلتحق عبد الله كنون بالرفيق الأعلى يوم الأحد 9 يوليوز 1989 وعمره 81 سنة.

رحمه الله...

المختار السوسي...
الفقيه الشاعر
(1963-1900)

-1-

لو سألت أحدا من المتعلمين ولا أقول المثقفين فحسب في الربع الثاني والثالث من القرن العشرين عن من هو الفقيه السي المختار؟ لأجاب على الفور: السي المختار السوسي.

ذلك لأن إسمه كان يسبق رؤيته. ولأنك وهي حالتي تسمع عنه وتقرأ له كثيرا، وقد لا يسعفك الحظ برؤيته إلا لماما. وقد عرفت إسم الأستاذ المختار السوسي منذ وعيت. قرأت بعض شعره وبعض كتاباته، وسمعت أساتذتي علال الفاسي، عبد العزيز ابن ادريس، بوشتى الجامعي، إبراهيم الكتاني يتحدثون بإكبار عن زميلهم السي المختار قبل أن يسعفني الحظ برؤيته في آخر الأربعينات. وأذكر أن ذلك كان في إدارة "العلم". وأذكر أن اجتماعا تم معه لأول مرة كان بمحضر عبد العزيز بنعبد الله وعبد الكريم بن ثابت. وكان من حظي أيضا أن جمعت بيننا لجنة مصغرة كونتها "العلم" لاختيار الفائزين في مباراة أدبية بمناسبة عيد العرش. والمثقفون الكبار هم الذي تستفيد منهم، ولو جمعتك معهم لجنة عمل أو مائدة غذاء...

الصورة التي كوّنتها عن المختار السوسي هي نفس الصورة التي يمكن أن تكونها عن كبار العلماء الذين لا يضيق رحابهم عن أن يجمع المعرفة إلى جانب التصوف، والسلفية إلى جانب "الزاوية" والعلم وإلى جانب الأدب، والفقر إلى

جانب المال، والزهد إلى جانب السعي، والتواضع إلى جانب الاعتزاز بالشخصية، والوطنية والتضحية إلى جانب "التقية" والبعد عن الجحود وعن الجمود بقدر ما يسمح ميزان العالم الفقيه المتمكن من الماضي المتطلع للمستقبل.

عند إحتفالنا (2000) بالعيد المئوي لميلاد المختار السوسي، وكثير من الرواد ولدوا في نفس الفترة أو قريبا منها، إحتفلنا بقرن أنجب كثيرا من رواد العلم والمعرفة والوطنية والنضال والتضحية. وكان محمد المختار السوسي في مقدمة هؤلاء. أنجب هذا القرن كثيرا من الرواد، ولم يكن له إلا أن ينجب مثلهم لأنه قرن التحول الذي عرفه المغرب من عهد التخلف والتمزق إلى عهد الاستعمار والطغيان، إلى عهد الاستقلال والتحرر. هو قرن مليء بالحركية، ولن تكون هذه الحركية جمادا إذا لم تكن فكرا، ولن تكون وطنية إذا لم تكن وعيا، ولن تكون انتصارا إذا لم تعرف هزيمة، والمغرب كان من بين البلاد التي تحركت بعنف، وتحركت بسرعة واجتازت المراحل بفاعلية. وفي نصف قرن (18.263 يوما فقط) عرف العالم الكثير من التغييرات والتقلبات والاضطرابات والصراعات، فعرف الهزيمة ثم عرف النصر. وقليلة هي البلاد التي إجتازت هذه المراحل بالسرعة التي إجتازها المغرب. والفضل في ذلك فيما أعتقد يعود إلى الرواد الذين عرفتهم هذه المرحلة. وإلى الروح النضالية التي اتسموا بها وقبلهم وبعدهم يعود إلى الشعب الذي لم يعرف الهزيمة الساحقة في حياته قط.

فتح الفقيه المختار السوسي عينيه على عائلة درقاوية علمية في نفس الوقت. كثير من المتفتحين والعلماء .كانت نفوسهم تتقبل الانتماء إلى الزاوية والمدرسة في نفس الوقت. فالعلم لا يتناقض عندهم مع الطريقة. ولذلك تجد كثيرا من علماء القرويين وابن يوسف والمدارس الأصيلة من الشمال حتى الجنوب ينتمون إلى طريقة من هذه الطرق التي عمّت البلاد واتسعت دائرتها مع اتساع دائرة الفراغ العلمي.

من هذا المنطلق، كانت الزاوية في الغالب مدرسة. وقد إستغلت الحركة الوطنية هذا الاتجاه منذ بداية عملها فأصبحت في فاس مثلا "الزاوية الناصرية" مدرسة حرة ناضلت في سبيل التعليم والتوجيه حتى أقفلتها الإدارة ونفت رائدها

محمد غازي وفيها علم كثير من المناضلين من المختار السوسي وعلال الفاسي وغيرهم كثير. ومدرسة سيدي بناني كانت "زاوية" فتحولت إلى مدرسة من أولى المدارس الحرة التي علّم فيها الشهيد عبد العزيز بن ادريس وغيره كثير.

وكانت الزاوية الدرقاوية في "إيلغ"[1] بمثابة مدرسة علّم فيها والد الأستاذ المختار الصوفي المربي وعلى يد تلاميذه تعلم المختار، الذي تركه والده ابن عشر سنوات. وكانت زاوية الرِّميلة في مراكش هي التي اتخذها المختار مدرسته ليعلم فيها أبناء مراكش وأبناء إقليم سوس بعد أن عاد إلى مراكش في نهاية المطاف، وقد انتقل من مراكش إلى فاس ثم إلى الرباط وأخيرا إلى مراكش.

إلتقت في نفس الأستاذ المختار الطريقة الدرقاوية والسلفية. لم يكن يمكنه أن يكون إلا سلفيا، وقد درس في مراكش على شيخ الجماعة الشيخ أبي شعيب الدكالي وتتلمذ في فاس على يد "موقظ الهمم" كما كان يسميه شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي.

والطلبة في سوس كانوا يتفهمون الحضارة الفكرية الإسلامية تفهما شموليا. فدراسة القرآن والحديث والشريعة لا تبتعد كثيرا عن دراسة اللغة العربية وإتقان أدواتها والبراعة في إبداعاتها. ولذلك لا غرابة أن ينبغ من سوس كثير جدا من علماء اللغة العربية وآدابها الذين ألقوا في نحوها وصرفها ومتن لغتها. ولا غرابة أن نجد من شيوخ مدرسة "تافكرت" بإقليم سوس التي تلقى فيها المختار السوسي أولى دروسه الطاهر بن محمد اليفراني، وكان يلقب بشيخ الأدب العربي، وعبد الرحمن البوزاكاري وكان أديبا لغويا يهتم بدراسة الأدب العربي. وقد درست في القسم الابتدائي بالقرويين الأدب العربي على يد الفقيه الرسموكي ما أزال أذكر كان أستاذا أديبا لغويا يحفظ الكثير من أشعار العرب، ولو أنه لم يكن يبين وهو ينطق العربية.

من كل ذلك ندرك أن المختار السوسي أُشرب حب اللغة العربية وتقديسها، وأتقنها متنا وأدوات، وحفظ كثيرا من أشعارها. ولذلك كان من فحول شعراء

---

1 - زاوية إيليغ زاوية صوفية أسسها أبو حسون السملالي.

عصره. ومن أجل ذلك كانت تسند إليه رئاسة الجمعيات الأدبية التي كان يؤسسها الطلبة في القرويين في العشرينات، وكان من أعضاء هذه الجمعيات علال الفاسي وإبراهيم الكتاني وعبد العزيز بن إدريس وبوشتى الجامعي ومحمد غازي ومحمد القري. وكلهم من رواد الأدب العربي في وقتهم وسنهم. بينما أسندت رئاسة أول جمعية وطنية أسست في القرويين (1925)، كان المختار السوسي من أعضائها - إلى الزعيم علال الفاسي، وكان أصغر الجماعة سنا، كان المختار السوسي يومن بالعربية كلغة ثقافة وحضارة ودين. كان يتجاور في عقله السمح الإسلام والعروبة والمغربية والأمازيغية. كان عقله متفتحا فلم تستلبه الدعوة العنصرية، رغم الحملة التي قام بها الاستعمار بمختلف أساليبه لبث روح الشقاق بين أبناء الوطن الواحد على أساس عنصري، مدخله الأول اللغة. حكى زميل له في منفى "أغبالو نكردوس" الذي قضى فيه نحو سنتين، أن الجماعة قررت أن تنظم دروسا كل يدرس ما يعرف، فالذين يتقنون الفرنسية يدرسون للذين لا يعرفون، والذين يتقنون العربية يدرسون للذين لا يتقنون... وإقترح أحدهم على المختار السوسي أن يتولى تلقينه اللغة الفرنسية. قبل "التلميذ المختار" العرض بشغف كبير.

أملى المدرس على المختار السوسي قطعة فيها كلمة Beaucoup فما كان من التلميذ إلا أن كتبها Boco. عند التصحيح، عدّ التلميذ عدد الحروف الكلمة الصحيحة فوجدها ثمانية، رمى بالورقة من يديه وهو يقول:

- دعوني من لغة تحتاج الكلمة فيها إلى ثمانية بينما في العربية تحتاج فقط إلى حرفين وكتب كلمة الفرنسية هكذا "بُكُ".

حينما كنا نجلس إلى المختار السوسي نجد أنفسنا أمام دائرة معارفه عربية إسلامية تاريخية. فلعل اشتغاله بالتدريس منحه القدرة على إستقصاء القضايا التي يدرسها. ولكن شيئا مهما لا تكاد تجده إلا في حياة العلماء الكبار هو أنه كان قارئا مهما يقرأ ويدرس في نهار طويل. يبدأ قبل الفجر ولا ينتهي إلا مع صلاة العشاء.

كان عمله في المدرسة كعمل المشرف على "الرباط" كما عرفته الحضارة الإسلامية، وخاصة في شمال إفريقيا من الإسكندرية حتى الشواطئ الجنوبية من المغرب. " الرباط" كان يضم الطلبة من مختلف المستويات، الأستاذ يدرس للكبار منهم، والكبار يدرسون للصغار. وفي الرباط المكتبة وحلقات المناقشة والمدارسة. كانت الرباطات في الماضي تقوم بمهمة الجهاد كذلك. ولكنها في عصر المختار السوسي لم تكن تقوم بعمل كهذا، ولو أنها كانت تقوم بمهمة التوعية الوطنية والتوجيه.

وما أظن المختار السوسي، وقد كان عضوا في أول جمعية وطنية تأسست في فاس، يبخل على طلبته بتوجيه وطني. ظل يتابعه مع أصدقاء الدراسة حتى آخر مرحلة من حياته. وما أظن حياته المضطربة، التي كان يتعاورها النفي والإبعاد والاضطهاد وإقفال المدرسة من حين لآخر، تضيف بهذا التوجيه الذي كان جزء من العِلم الذي يعلمه لتلاميذه وطلبته.

دائرة المعارف إكتملت حينما أرادت الإدارة الفرنسية أن تجهض العمل الذي كان يقوم به المختار السوسي في مدرسة "الرميلة" بمراكش. كانت الإدارة تضيق بهذه المدارس، لأنها لم تكن تنجب طلبة ومتعلمين فحسب، ولكنها كانت تنجب مناضلين. ويوم ضاقت الإدارة الاستعمارية بالمدرسة الناصرية في فاس فأقفلتها تعلمت أن تقفل كل مدرسة تضيق بها. وكانت مدرسة "الرميلة" في مقدمة هذه المدارس التي لم ترتح لها فاتجهت الإدارة وعميلها في مراكش للتخلص من المختار السوسي. عرضوا عليه وظيفة بعيدة عن مراكش وعن عمله فأبى، لأنه رجل دين وتعليم. وهو لا يريد أن يبتعد عن نشاطه العلمي والديني... واقترحوه أمينا للجمعية الخيرية، وهو عمل خيري، ولكنه كان يقف في وجه المراقب الفرنسي الذي كان يعمل للتخلص من حرصه الشديد على مصالح الفقراء والمعوزين.

لم يبق أمامهم إلا أن يعبدوه عن مراكش وعن نشاطه العلمي. سلكت الإدارة الفرنسية هذا العمل مع كل الذين تمكنهم وضعيتهم من الإبعاد والنفي من الذين اشتغلوا بالتعليم. نعرف أنهم نفوا الفقيه غازي ليبعدوه عن المدرسة الناصرية وليتمكنوا من إقفالها. وأبعدوا بوشتى الجامعي عدة

مرات عن فاس، وكان يشرف على مدرسة "رحبت القيس" إلى مسقط رأسه أولاد جامع وغيرهم كثير.

كان نصيب المختار السوسي الإبعاد أيضا إلى "إيلغ" وإيلغ، مثل أولاد جامع، بادية لا عمل بها إلا أن تكون الفلاحة، رغم أنها عاشت حياة طلب وعلم ومعرفة وسكن إقليمها عدد من العلماء والطلبة، ولم يخلق الأستاذ المختار السوسي ولا الأستاذ بوشتى الجامعي لذلك.

أبعد المختار السوسي إلى "إيلغ" (1935) وقضى في منفاه نحوا من تسع سنوات بعيدا عن التعليم وبعيدا عن الحركة الوطنية، ولكنه كان قريبا مما يريد. فانتهزها فرصة للتعرف على تاريخ سوس العلمي والسياسي. وكانت نتيجة تسع سنوات من المنفى أكثر من تسع مجلدات عن جانب من حضارة المغرب الفكرية، لم يكن ليكتب لولا المنفى، ولولا أن المنفي كان هو المختار السوسي.

-2-

حينما تجلس إلي "سي المختار" تحتار في الاختيار مع من تجلس؟ هل أنت مع فقيه أو أديب أو صوفي أو وطني أو لغوي أو رجل دين... يقول الفقهاء ومن تحير تخيّر... ولكن الحيرة لا يطول بك أمدها، فأنت واجد إختيارك بالسهولة التي يمنحك إياها من اختار لنفسه كل هذه الاتجاهات دون أن يضل الطريق.

بالنسبة لي، وقد جلست إلى المختار السوسي في فترات مهمة ،قليلةولكنها مجزية .كان إختياري واسع الأفق. فقد كنت أستمتع به فقيها وعالما ولغويا وشاعرا منشدا، كان يروقني إنشاده الشعر بالشكل الذي لم يألفه الشعراء حينما يتملقون مشاعر السامعين، وإنما كان ينشده إنشاء المعلم الأستاذ الذي يريد أن يبلغ العقل، ولو لم يأخذ بمشاعر أحد. كانت الكلمة تروقه فيؤكد عليها تأكيد اللغوي، وتستهويه الجملة، بكل قيمها البلاغية، وقد عانى في صياغتها، فيود أن يشرك سامعه في معاناته. والمضمون يأخذ بمجامع قلبه، ولو كان صاحبه، فيركز عليه، وقد يعيد البيت والفقرة دون أن يستحثه تصفيق على إستعادة.

شُغف بالشعر منذ كان طالبا في القرويين. ويذكر أن الجامعة الثقافية الأولى كانت تهتم فيما تهتم به بالمساجلات الشعرية. ولذلك كان المختار كثيرا ما يساجل علال، أو يجيز أحدهما الآخر فيكتبان معا قصيدة أو قطعة شعرية في الموضوعات التي كانت تشغل أفكار الطلبة آنذاك، موضوعات اجتماعية وسياسية أو قريبا منها.

وتقرأ شعر المختار السوسي فتروقك منه بلاغته وروعة أدائه ومشاعره الذاتية كمشاعره نحو الآخرين. يعود بك شعره أحيانا إلى العصر الأموي والعباسي بمضمون حديث. وأروع شعره ما قاله في منفاه. وتقرأ في إحدى زفرات هذا المنفى:

في كل هاجسة أحس بلاذع	أمضى كوقع الصـــارم المسنـون
ماذا عرى قلبي فعاد كأنما	يبري من الجنبات بالسكـــين
ينزو علي الأضلاع نزوة ثائر	عان يصادم سجنــه بجـــبين

ويذكر حياته في مراكش فيقول:

فهل كانت - الحمراء- لي غير جنة	فزحزت عنها ثم أنبذ في صحـــرا
وهل كان أهلوها سوى خير إخوة	فبدلت منهم من على الصفة الأخرى
فمن كان منكوبا نظيري فإنـــــه	حقيق بوثب يهتك الصمت والصبرا

وفي المنفى يقول في إحدى الزفرات:

يعز عليّ أن أرى موطني منفـى	وأن لا أرى فيه أنيسا ولا إلفا
خرجت وأني في التعالي تشامـخا	وأرجع والإذلال يرغمني أنفا
أروح وأغدو في ملاقاة أهلـه	كما يعتل السجان مسجونه عنفا

شعره الذاتي من أحسن شعره. يوظفه في موضوعات ذاتية إخوانية ووطنية ويضمنه كثيرا من النظرات الإنسانية. خاطب تلاميذه بكثير من القصائد والمقطعات. كان فيها شاعرا وأستاذا وأبا وصديقا. وهذه الحنانية من أجمل ما يجذبك في شعره.

ولعل المختار السوسي كان يعتبر شعره في مقدمة فنونه القولية، قبل أن يغرق به النفي في تسجيل مظاهر الثقافة والفكر في إقليم سوس، وقبل أن ينصرف إلى كتابة ما سجل فأخرج مجموعة المعلمات التي أصدرها في أخريات حياته، وبعد أن استقرت أوضاعه واطمأن من مصادرة إنتاجه وإبداعه، فكانت مجموعة كتبه من"سوس العالمة" حتى "المعسول" و"الألغيات"، و"إيلغ" قديما وحديثا ثم معتقل الصحراء وعلى مائدة الغذاء وعشرات أخرى من الكتب والدواوين الشعرية.

تجلس إليه وكأنك تقرأ كتبه. فهو محدث يروي كثيرا من الأحداث ويتحدث عن كثير من الشخصيات، ولكنه في كتبه أكثر جمعا وأقوى حافظة.

كان يستفتي المصادر والكتب النادرة التي عثر عليها في مكتبات سوس المهجورة، ولكنه كان كذلك يستفتي التاريخ الحي، فلم يترك إقليما من أقاليم سوس إلا طاف مدنه وقراه، ولم يترك زاوية أو مدرسة إلا جلس إلى رجالها وسجل كثيرا من المعلومات عن السابقين من علمائها، وعن عادات مجتمعها وبيئتها وصلات سكانها العلمية والاجتماعية بالحواضر والبوادي على السواء.

وقد كتب الله للمختار السوسي أن يعيش بعد الاستقلال ثمان سنوات. وهي الفترة التي عرف فيها الاستقرار والاطمئنان. كان قبل ذلك يقيم طالبا متنقلا أو أستاذا مدرسا في الزاوية والمدرسة. لا يكاد يستقر به مقام حتى يُبْعَد عن مقامه ليقيم في مكان آخر من سوس أو مراكش. كانت هذه الفترة مرحل الجمع والاستقصاء، رغم ما كابد من عدم الاستقرار والاطمئنان. ولكن بعد الاستقلال هيأ له القدر حياة الاستقرار والتفرغ فكان وزيرا للتاج واستطاع في مقامه ذاك أن ينصرف إلى الكتابة والتأليف واستفتاء مدخراته من المعلومات والملاحظات والسجلات. وإشتغل في هذه الفترة كعالم أكاديمي جمع حوله تلاميذه وحوارييه فأملى على بعضهم ، وكلف بعضهم بكتابة ما سجل وما وعت أضابيره، وكان يلاحق المطابع. ليخرج في هذه السنوات الثمان معظم المجلدات التي كتبها أو سجلها، ما أنتج منها بخط يده وما أملى على تلاميذه أو كلفهم باستخراجه. وقد كان يستحثهم على العمل ويرهقهم أحيانا وكأنه يدرك أن أجله قريب.

وأعتقد أن الفترة التي عاشها بعد الاستقلال كانت فترة حاسمة في التاريخ الحضاري والاجتماعي والعلمي لإقليم سوس. فما أظن أن عالما غير المختار السوسي كان يمكن أن ينهض بعمل كهذا، لا لأن المادة العلمية التي توفرت له لا تتوفر لغيره، ولكن لأن الظروف المتقلبة أو المستقرة في آن، التي عاشها المختار السوسي لم تكن لتتكرر بالنسبة للآخرين، ظروف كان له ولحياته وبداياته العلمية والحياتية حظ كبير في إيجادها. فقد كان في الحلقة الوطنية الأولى التي نشأت حول القرويين في فاس عندما كان طالبا. وكان في الجماعتين الطلابيتين: السياسية التي كان يرأسها علال الفاسي والثقافية التي كان يرأسها. وهذه اللمحة من حياته إلتصقت بسيرته وبتعامل الاستعمار معه إلى النهاية. عرف عنه أنه وطني مناضل. ورغم أنه، منذ البداية اختار الجانب الثقافي من العمل الوطني السياسي، واتجه إلى التعليم فكان ينشئ المدرسة حيثما قطن وأقام. فقد كان مطبوعا بالطابع الوطني السياسي، لا تكاد الأوضاع السياسية تظلم ويشتد الصراع فيها بين الحركة الوطنية والاستعمار حتى تمتد إليه يد الإدارة فتبعده أو تعتقله أو تنفيه. وبذلك هيأت الإدارة له من حيث لا تريد فترة البحث والاستقصاء وتملي التاريخ العلمي والحضاري لسوس.

والمبدأ نفسه هو الذي تحكم في توجيه حياته في سنواته الأخيرة، فلولا أنه كان وطنيا ملتصقا بحزب الاستقلال لما خدمته ظروف الاستقلال ليكون وزيرا. ولولا علمه ومكانته ومركزه الوطني لما كان وزير التاج، من بين الوزراء الشرفيين أو المستشارين عندما يقتضي الأمر الاستشارة. كان المنصب تفرغا للعمل العلمي ليكمل الرسالة التي بدأها، في الظروف المتقلبة التي أشرنا إليها، فيجمع ما سجل وأخرج ما حفلت به أضابيره فكانت المعلمات التي تعتبر السجل الكبير للحياة العلمية والثقافية في سوس.

إنتاج المختار السوسي يتعلق في غالبه باستثناء شعره بإقليم سوس. تلك ظاهرة قد تختلف عن موسوعيته، ثم تختلف عن عموم مغربيته فلعله عاش معظم حياته الواعية في غير سوس، فهو في مراكش وفاس والرباط والدارالبيضاء، وقد اتصل علميا بزملائه في القرويين وابن يوسف والمدارس التي درس فيها أكثر

مما اتصل علميا بهذا الجانب الذي شغل به وكتب عنه، ومع ذلك إهتم بسوس ومناطق "محلية"من سوس "إيليغ" مثلا أكثر مما شغل ببقية أنحاء المغرب، وببقية التاريخ العلمي والحضاري للمغرب ككل.

وقد تعود هذه الظاهرة إلى ما شغل به علماء معاصرون له ممن كتبوا عن مراكش أو تطوان أو مكناس أو آسفي أو الصويرة أو الرباط، وهي ظاهرة عرف بها المغرب قديما وحديثا. ولكني أعتقد أن الدافع المحلي أكثر من ذلك بكثير ولا أقصد الدافع الإقليمي أو العنصري أو القبلي الضيق فقد إطلع في سوس على كنز مدفون. شَعَر المختار السوسي، عن طريق البحث، أن هذا الكنز من التاريخ العلمي والاجتماعي سيضيع، إذا لم يتفرغ له شخص مثله رُزق من حب الاستطلاع ما تبين عنه كتبه، ومن الصبر والاحتمال والتفرغ ما تميزت به حياته. ولذلك اندفع دون أن تكون النزعة المحلية هي الدافع الأكبر والملح في ذلك.

وتبقى بعد ذلك المناقشة التنظيرية للموضوع المحلي، والوطني والقومي من كتابة التاريخ السياسي فأحرى العلمي والحضاري للغرب أو للمنطقة العربية أو الإسلامية عموما. كنت دائما أنتقد الذين يتجهون إلى كتابة هذا التاريخ المحلي، وقد كتبت في ذلك انطلاقا من الوطنية المتسعة الآفاق، ونفورا من الإقليمية التي حاول الاستعمار أن يركزها بالسياسة والتنظير الفكري تارة وبالممارسة تارة أخرى وإيمانا مني بأن تاريخ شعب ووطن لا يكتبه إقليم دون إقليم، ولا تعبر عنه فترة من حياة الوطن، وإنما هو الشعب كله، إن لم تكن الأمة جميعها.

لكل ما سبق، كان من رأيي أن الذين كتبوا تاريخ مدينة أو إقليم، سواء كان تاريخ سياسة أو حضارة وثقافة كانوا مخطئين في المنهج، وإن بذلوا جهدا علميا لا يقدر أهميته إلا الذين إطلعوا على هذه الكتب، وتعرفوا على المصادر النادرة التي لجأ إليها هؤلاء المؤلفون. كتبت في ذلك لا تقليلا من أهمية العمل العلمي الذي قام به مؤرخون المدن والأقاليم والقبائل، ولكن رغبة في إبراز التاريخ الوطني كما أريد أن يتعرف عليه المواطنون والأجانب على السواء، ودفعا لكل زعم حاول الاستعمار أن يصم به الوجود المتكامل للمغرب. وناقشت في هذا الرأي علال

الفاسي، فلم يقرني على ذلك مؤكدا أن ما يستطيعه أولئك المؤلفون هو ذاك، وهو كثير. وتبقى بعد ذلك حجة كتاب هذا التاريخ والمختار السوسي من بينهم وهي أن كتابة التاريخ في عمومه في حاجة إلى مرحلة جمع ما يمكن جمعه من تاريخ أو حاضر سيصبح تاريخا - لتكون هذه المادة مصدرا للمؤرخين والباحثين.

وأحسبني أتفق مع هذا الرأي دون أن أتبناه. فصنيع المختار السوسي في "المعسول" و "خلال جزولة" و"الألغيات" و"سوس العالمة" وغيرها من معلمات سوس، وصنيع محمد داود في "تاريخ تطوان" وصنيع العباس التعارجي في "الأعلام" وابن زيدان في " الأعلام" و "العز والصولة" ولو أن كتب الكبير بن زيدان مما يدخل في التاريخ العام وبوجندار في تاريخ الرباط كلها جهود تمهيدية لعلها تتفوق بكثير عن صنيع الناصري في "الاستقصاء"، الذي حاول كتابة التاريخ العام، ولم يكن له في ذلك إلا مجهود النقل والتسبق، وهو مجهود يقدر ويشكر.

ولعل المختار السوسي أجاب عن "هذا الرأي الاعتراض" حينما قال: "أفيمكن أن يكون التاريخ العام للمغرب تاما غدا إذا لم يقم أبناء اليوم بجمع كل ما يمكن جمعه وتنسيق ما لا يزال مبعثرا بين الآثار ومنتشرا أثناء المسامرات؟. لو قام من كل ناحية رجال باحثون ببذل الجهود لتكونت، بما سيهيئونه من التاريخ الخاص لكل ناحية مراجعة عظيمة سيتكئ عليها الذين سيتصدرون للتاريخ العام المستوعب في العلم العربي المغربي غدا، بله الحوادث والأطوار المتقلبة. وما هذا الغد ببعيد، وتباشير فجره تلوح الآن في الأفق".

ويبدو لقارئ كتب المختار السوسي أن اعتماده على الرواية كان أقوى من إعتماده على الكتب. وهو مجهود لم يكن يتاح لغير المتفرغين الذين يمتازون بصبر العلماء وهم يتجولون في القرى ليستنطقوا الأحياء والمواقع والآثار بدلا من إستنطاق الكتب والسجلات فحسب، وتلك قدرة تميز بها المختار السوسي.

إختار المختار السوسي منذ يفاعته أن يكون رجل علم وتصوف. وقد كان له ما أراد فهيأت له إدارة الحماية، كما هيأ له عهد الاستقلال كل الظروف ليكون رجل علم، ينفي مرارا في عهد الحماية إلى حيث تمكن من جمع مادة كتبه في تاريخ

الثقافة والفكر بأقاليم هامة من أقاليم المغرب. وهيأ له عهد الاستقلال ظروفا من التفرغ لكتابة ما جمع في العهد الأول. وودع الحياة وهو عن نفسه راض بما كتب وما جمع وما أرخ.

ولعله لو سئل وهو طالب في القرويين بعد أن تفتحت منافذ تفكيره عن الحياة التي يختارها لما اختار غير ما عاش، رغم ما لقي من عنت ومحن كانت له زادا أكثر مما كانت أسى ولوعة وشقاء.

***

إلتحق المختار السوسي بالرفيق الأعلى يوم الأحد 17 نونبر 1963 وعمره لا يتجاوز 63 سنة.

رحمه الله...

أحمد بلافريج ...

المفكر الاستقلالي

(1908-1990)

-1-

ربما كان أسعد يوم، وقد أدى أعظم واجب في حياته، وهو يقود حركة المطالبة بالإستقلال والديمقراطية، وإنه كان يوما خالدا في تاريخ المغرب لن يغيب عن ذاكرة المجاهدين الذين عاشوه، ولا عن ذاكرة الذين قرأوا عنه أو سمعوا الذين يتحدثون عنه... إنه يوم الثلاثاء 11 يناير 1944.

صبيحة ذلك اليوم على الساعة العاشرة صباحا قصد وفد[1] عن "حزب الاستقلال" القصر الملكي برئاسة أحمد بلافريج الأمين العام حيث إستقبله السلطان محمد بن يوسف.

بتأثر شديد، قام أحمد بلافريج بتسليم السلطان وثيقة المطالبة بالاستقلال الموقعة من 66 شخصية من ضمنها سيدة واحدة. خاطب رئيس الوفد جلالته قائلا: "جلالة الملك، لنا عظيم الشرف، أن نقدم لجلالتكم، وثيقة صادرة عن "حزب الاستقلال" الذي يجمع كل الإرادات الوطنية بالبلاد. خلال قرون عاشت بلادنا في كرامة، بفضل معارك تاريخية، بدون انقطاع. وقد فرضت علينا الحماية بالقوة ضد إرادة الشعب. إننا مقتنعون أشد الاقتناع بأن الله يؤهل الشعب باستئناف المعركة من أجل استرجاع سيادتنا الكاملة، تحت قيادة جلالتكم الرشيدة".

1- الوفد ضمّ، بالإضافة إلى رئيسه، أحمد بلافريج، تسع شخصيات السادة: محمد اليزيدي، عبد العزيز بن إدريس، الهاشمي الفيلالي، أبو بكر القادري، عبد الله ابراهيم، إدريس المحمدي، عبد الكريم بن جلون، أحمد الحمياني وعبد الحميد الزموري.

وقد رد العاهل على كلمة رئيس الوفد قائلا: "إن هذا اليوم سيبقى في تاريخ بلادنا يوما مجيدا. وباعتبارنا عاهلا للبلاد، فإننا واعون تماما بالمهمة التي أوكلها الله إلينا. وسنقوم بواجبنا كسلطان منذ الغد، بعد دراسة الوثيقة التي قدمتموها إلينا. سنستدعي المخزن والسلطات العليا لهذه البلاد، لاتخاذ القرار، في إطار الإيمان والوفاق، للقيام بكل المجهودات، وبذل كل التضحيات، من أجل إسترجاع سيادتنا التامة، وكرامتنا الكاملة، كأمة إسلامية مخلصة للمبادئ الخالدة لديننا الحنيف".

المقابلة إستغرقت زهاء الساعة كان خلالها مستشار الإقامة العامة جان بيير موريز في إنتظار الاستقبال الأسبوعي لجلالة الملك له. تمكنت الدهشة منه وهو يشاهد حركة غير إعتيادية حين خرج الوفد من غرفة الاستقبال الملكية.

-2-

الكلمة التي خرجت من فكر بلافريج ورفاقه في الجهاد ظلت حيّة لتنداح في عموم المغرب كما لم يحسب الاستعمار لذلك حسابا. أصداء " برزافيل" في الكونغو ثلاث سنوات قبل ذلك وهي تخرج من فم علال الفاسي[2] على بعد الدارين وعزلة المنفى والمعتقل، ولترددها أصداءها القاهرة في نفس الوقت على لسان الشباب الوطني في "رابطة الدفاع عن المغرب" على بعد الدارين وانقطاع الصلة بسبب الحرب. ولكنه سحر الكلمة التي عاشت في ضمير جميع المواطنين منذ توقيع المعاهدة المشؤومة (30 مارس 1912). رددت أصداءها مذابح فاس ومقاومة الأطلس وحرب الريف، ولتتلقفها بعد ذلك الحركة الإستقلالية، جاهرة بها في وجه فرنسا ودول الحلفاء جميعا، من فم بلافريج وصحبه في الكفاح الإستقلالي، والحرب يومئذ مستعرة، وفرنسا الجريحة متنمرة، والغضب الاستعماري آخذ مداه، تعربد

2- أمر ممثلوا "فرنسا الحرة" (يونيو 1941) بنقل علال الفاسي من قرية "مويلا" بالغابون إلى برزافيل عاصمة الكونغو حيث إستقر هناك الجنرال دوغول لمقاومة الاحتلال النازي لبلاده. ساوم هؤلاء علال الفاسي لمساندة فرنسا. قبل علال الاقتراح شريطة حصول المغرب على الاستقلال فورا. نتيجة المفاوضات كانت نفيا آخرا لمدة دامت خمس سنوات في قرية "مایاما" بالكونغو في ظروف أكثر حدة. رواية "المنفيون...ينتصرون" للمؤلف تصور هذا الوضع (ص 165-181).

جيوشه في المدن والقرى، تشفي غليلها من المتظاهرين العزل، مظهرة شجاعة في شوارع الرباط وسلا وفاس إفتقدتها في "ماجينو" ومشارف باريس.

ثلاثة أسابيع (29 يناير 1944) بعد تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، إمتدت يد الطغمة المستعمرة إلى أحمد بلافريج ورفاقه في التفكير والتدبير. إعتقلتهم السلطة وجندلت الكثيرين والكثيرات منهم وعذبتهم وسجنتهم ونفتهم بعيدا عن ديارهم. إنطلقت المظاهرات في سلا والرباط وفاس وسقط عدد كثير من الشهداء والشهيدات.

كان أحمد بلافريج في مقدمة الزمرة الأولى التي أدركت أن مستقبل الشعوب المستضعفة لن يكون مع النازية، سواء إنتصرت أو إنهزمت، وأن المغرب يجب أن يعتمد على نفسه إذا أراد أن يخطط لنفسه مستقبلا بعد الحرب، في الوقت الذي بدت فيه دولتا المحور وقد حققتا إنتصارا ضخما في أوروبا وإفريقيا. كان تفكيره واضحا في أن المغرب لا ينبغي أن يراهن على دولة عرقية تحتقر الشعوب القوية المؤهلة اقتصاديا وعسكريا وعلميا، فأحرى الشعوب السامية التي تعدها في مؤخرة قائمة شعوب الدنيا. ولهذا بعث إلى "الحزب الوطني" ينبه ألا أمل في ألمانيا، وبالتالي في فرنسا "الفيشية" [3]التي أصبحت تحت حكم النازيين. أكد بلا فريج أكثر من مرة "على الحزب أن يحتفظ باستقلاليته في التفكير وفي التخطيط للمستقبل".

كان بلافريج، آنذاك، ينتقل بين أوروبا وشمال المغرب. لم تفقده الحرب توازنه في التفكير، ولم تغّره الهزيمة التي لحقت بفرنسا ولا الآمال التي علّقها بعض قادة الشعوب المستعمرة على ألمانيا وانتصاراتها.

هذه النقطة مهمة جدا في التعرف على إستقامة تفكير بلافريج من جهة، وعلى بعد نظره وعلى إيمانه بمستقبل بلاده من جهة ثانية، مهما كان ظلام الحاضر وقتامة الظروف الدولية التي كانت تنشر ظلالها السوداء على المغرب.

3- إستقرت حكومة المرشال بيتان Pétain في مجتمع فيشي Vichy الشهير بمياهه المعدنية لمدة أربع سنوات (1940-1944) إثر الإحتلال النازي لفرنسا.

هذه الإستقامة الفكرية والوطنية هي التي ستجعله مع النخبة الصغيرة من أعضاء الطائفة، وهي الخلية السرية للحزب الوطني، يتجهون بتفكيرهم إلى المطالبة بالإستقلال، والمغرب لا يزال في غمرة الظروف القاتمة التي أشرنا إليها.

كان من الممكن أن تكون ظروف الحرب ظروف إحباط لهذه النخبة الواعية من أعضاء الحزب، وكان من الممكن أن يتجه التفكير إلى التريث إلى أن تنتهي الحرب، وكان من الممكن أن يكون تضافر الحلفاء الأمريكيين والبريطانيين. والفرنسيين ضد كل الشعوب المستعمرة بدعوى المحافظة على المجهود الحربي مانعا لكل تفكير في المطالبة بالإستقلال. ولكن أحمد بلافريج كان في مقدمة النخبة التي كان الاختيار واضحا في فكرها. ولم يكن هذا الإختيار إلا المطالبة بالإستقلال.

وقد عرف الفرنسيون قيمة الرجل الذي وجه "الحزب الوطني" بعد أن عاد إلى المغرب (أوائل 1943) إلى المطالبة بالإستقلال، فكانت البداية في الهجوم على الحزب وأطره في مختلف أنحاء المغرب من منزل أحمد بلافريج حين إعتقل (صباح 29 يناير 1944) بعد أن مرت نحو من ثلاثة أسابيع على تقديم وثيقة الإستقلال. الشعب كان في مستوى الحدث. فقد عبأته فكرة المطالبة بالإستقلال وبرهن على أن إثنتين وثلاثين سنة من الحماية لم تنل من روحه المعنوية ولا أفقدته إيمانه بأنه سيستعيد، في يوم قريب، هذا الإستقلال المعتدى عليه.

روح الشعب القوية هذه هي التي كانت وراء الرجال الأفذاذ الذين أنجبتهم بلادنا في الصحراء من أمثال الشيخ ماء العينين وإبنه الهبة، وفي الأطلس من أمثال موحى وحمو الزياني وباسلام، وفي الريف من أمثال ابن عبد الكريم الخطابي، وفي المدن من أمثال علال الفاسي وأحمد بلافريج وعبد الخالق الطريس.

روح قوية ظلت تضيء الطريق أمام الشعب وزعمائه الأبرار وتلمع في فكرهم كومضة من نور إلهي، يهتدى بها فكرهم ليحول حياة البلاد من ظلام اليأس إلى نور اليقين، ومن الاستسلام والإحباط إلى المقاومة والمواجهة. هذه الومضة الإلهية هي التي قادت الشعب ليسير مع زعمائه في طريق النضال من أجل الإستقلال والحرية والديمقراطية.

الاعتقاد جازم أن روح الشعب هي التي تخلق الزعامة والزعماء، وأن علاقة روحية بين الشعب وأبنائه المخلصين هي التي وجهت هؤلاء الأبناء إلى الاهتداء إلى الاستقلال، الطريق السليم.

جن جنون السلطة الاستعمارية وهي تحاول أن تبرر بطشها بالزعيم بلافريج وبقية قادة الحزب، بأنه كان عميلا للمحور، وأنه كان يعمل ضد المجهود الحربي، وكانت الدعاية التي حاولت أن تشوه بها سمعته هي خلاصة ما نشرته الأنباء العالمية التي كانت تستقي من بلاغات الإقامة العامة. وما أزال أذكر نص الخبر المختصر الذي تناقلته بعض الصحف المصرية وكنت في مصر آنذاك عن أحداث الأيام الدامية. قالت الأخبار (13 يناير 1944) :" إن اضطرابات حدثت في الرباط وسلا وفاس يقودها مدرس في مدرسة ابتدائية كان المتظاهرون فيها يطالبون بالكسكس". وقد قرأنا الخبر كما يجب أن يقرأ، رغم إنقطاع المواصلات مع المغرب، فعرفنا أن المدرس هو أحمد بلافريج وأن الكسكس هو الإستقلال، وأن الاضطرابات كانت تعني تدخل جيش الاحتلال وسقوط الشهداء. كنا مَعبئين نحن أيضا بفكرة الإستقلال، وقدمنا في نفس الأسبوع مذكرة إلى ممثلية فرنسا وسفارات إنجلترا وأمريكا ونطالب فيها باسم شعب المغرب بالإستقلال.

أذكر بهذه النادرة لأؤكد الرابطة الروحية التي كانت تجمع بين الشعب وقيادته وبين أعضاء الحزب الوطني جميعهم، ولو كانوا بعيدين بعد القاهرة عن الرباط في زمن إنعدمت فيه المواصلات البشرية والبريدية والبرقية والهاتفية.

وكان أحمد بلافريج، وهو يتزعم المطالبة بالإستقلال، يعرف ما سيصاب به الاستعمار من سعر حينما تطرق أذنيه الوثيقة التاريخية. فقد عرف نتائج تقديم المطالب المستعجلة (1936) والإلحاح على حرية الصحافة والحريات العامة. عرف كيف كان يضرب المقيم العام بيروتون على مكتبه بقبضته القوية وهو يصرخ صراخ الجريح، في وفد "كتلة العمل الوطني" الذي إستقبله: "الصحافة لا... الصحافة لا.... الصحافة لا".

وعرف كيف وقف خلفه الجنرال نوكيس في ساحة النجارين بفاس وهو يضرب بحذائه العسكري يخاطب الجموع التي جمعها المقدمون والشيوخ صارخا فيهم زئير الأسد المفجوع: "سأسحق أنصار علال بقدمي هاته".

حدث هذا بعد حوادث المظاهرات في فاس والرباط وسلا مراكش وغيرها من المدن والقرى (أكتوبر 1937) إحتجاجا على إعتقال الزعماء بعد حوادث بوفكران وبني يازغة ومراكش الدامية. كان يعرف السعار الذي يصيب إدارة الحماية من مجرد المطالبة بالحريات أو الاحتجاج على سرقة الماء، ومع ذلك أصر ورفاقه في قيادة الحزب على أن الطلب هذه المرة يجب أن يرقى إلى الإستقلال، رغم ما يتبع ذلك من تضحية كبرى.

ـ لنفرض أن سيارة دهمتنا عند خروجنا من هذا المكان. ألا يكون في ذلك حتفنا...؟

هكذا أجاب أحد الذين استعرضوا أمامه ما قد يحدث بعد المطالبة بالإستقلال. ولم يستبعد المتحدث أن تقدم الإدارة الفرنسية على إصدار أحكام بالإعدام لأنها جريحة من هزيمة، ولأنها تحرص على إمبراطورية إعتزم هتلر على أن يجردها منها، فأبى أحرارها الذين أعلنوا المقاومة فكيف يقبل أن تسعى ثلة من أحرار المغرب لقيادة الشعب للقضاء على درة تاج الإمبراطورية...؟

كان بلافريج، بإحساسه العميق ومعرفته بحقيقة شعبنا وحقيقة الاستعمار، كان متأكدا من أن الإستقلال لا يمكن أن يتحقق بغير تضحية بالأرواح، ويجب أن يكون المطالبون به في مقدمة المضحين. تلك المزية الكبرى للحركة الإستقلالية المغربية كما ظهرت في مختلف الأقاليم وبين مختلف مستويات الشعب، وبلورها حزب الإستقلال من خلال أبطاله الذين أعدوا وثيقة الإستقلال، والذين قدموها بشجاعة المؤمنين بالله وبشعبهم وتضحية الموقنين في مستقبل بلادهم.

تألق أحمد بلافريج بهذه الحاسة الوطنية النيّرة الحاسمة التي تميزت بالعنف كموقف المطالبة بالإستقلال، وفي المواقف التي إقترنت بالحوار والمراوغة كالمواقف التي عرفتها فترة ما بعد العنف.

حينما عاد أحمد بلافريج من منفاه في كورسيكا (يونيو 1946) وجد المقيم السفير إريك لابون في الشهور الأولى من تسلم مهامه (مارس 1946)، وكان يريد بقفازه الحريري أن يأخذ من المغرب ما عجز المقيمون العسكريون أن يأخذوه بقفازهم الحديدي. طمع لابون، كما يطمع بعض السفراء الذين يثقون في دبلوماسيتهم، أن يحتوي حزب الإستقلال وأن يحوله عن فكرة الإستقلال إلى فكرة مزيد من التسليم في السيادة، ومزيد من تركيز المصالح في يد الرأسماليين الفرنسيين والحكومة الفرنسية لقاء "المشاركة" بين الوطنيين -ومنهم الإستقلاليون- وبين الفرنسيين في حكومة مغربية فرنسية وفي مجالس مشتركة. ولكن هذا المقيم الدبلوماسي المغرور نسي أن "حزب الإستقلال" ليس حزب صغار الدبلوماسيين، ولكنه حزب كبار المجاهدين. ويوم كان يتحادث مع بلافريج في هذه النظريات، التي يحسبها مبتكرة خلابة جذابة، كان يجد أمامه رجلا يعرف كيف يقول: "لا".... بكل اللغات، ومن بينها اللغة الدبلوماسية كان بلافريج أكبر محاور وأدق سياسي وأبرع دبلوماسي. وكان المقيم السفير من الغرور بحيث طمع في أن يغري بلافريج ليكون رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات الاستغلالية التي تسيطر فيها الرأسمالية على ثروات المغرب. وقد عرف بلافريج كيف يلقن المقيم درسا في الفشل حتى أجهز عليه محمد بن يوسف بالدرس العظيم الذي لقنه إياه في طنجة (أبريل 1947) والذي أدى إلى عزله شهرا بعد ذلك.

ولم تكن حاسة بلافريج السياسية تخطئه حينما ولى الإقامة العامة الجنرال جوان ثم الجنرال كيوم من بعده. فقد عرف أن المغرب دخل مرة أخرى في نفق مظلم، وأن نضال الحزب يجب أن يتجدد لمواجهة المعركة التي كان يحسبها، صادقا، ضارية وفي منتهى خطورة الضراوة.

-3-

نتوقف قليلا هنا ونعود إلى الوراء لاستشفاف روح نضال أحمد بلافريج. كان يقيم أكبر وزن للكلمة. وكان يعرف أن الصحافة هي رسالة المناضلين إلى العقود المفكرة والقلوب الواعية، بل كذلك إلى العقول المتحجرة والقلوب المقفلة. ولهذا حرص دائما على أن يؤدي الحزب رسالته عن طريق الصحافة كما يؤديها عن طريق الحوار، وعن طريق تجنيد المواطنين بالوعي وإعدادهم للتضحية، وعن طريق النضال العملي في الشارع. وحرصه على تأسيس وإدارة مجلة "مغرب"[4] في باريس كحرصه على تأسيس "العلم"[5] في الرباط نابع من إيمانه بمفعول الكلمة في الصديق والخصم على السواء، كانت "مغرب" رسالة "كتلة العمل الوطني" إلى الدوائر الفرنسية المسؤولة وغير المسؤولة تقرأها وقد أبت أن تسمعها.

الفكر الاستعماري كان مغلقا ومتكبرا في نفس الوقت، وإذا كان مغلقا عن فهم رأي المناضلين في سبيل حرية بلادهم، فهو يأبى أن يسمع منهم الكلمة. ولكن حينما تبلغه هذه الكلمة، وقد وقعها إسم فرنسي وصدرت في مجلة مطبوعة في باريس فهو مضطر أن يقرأها. والقراءة هي مفتاح للعقل المقفل والأذن الصماء. هذه هي الوسيلة التي سهر بلافريج على استعمالها ليقرع بها باب الدوائر الفرنسية المتحجرة. ورغم أن "مغرب" لم تعمر إلا سنتين فقد أدت رسالة كبرى لأنها فتحت الأذان الصماء لتسمع بعد ذلك ما تضمنه دفتر الإصلاحات المغربية من مطالب الشعب المغربي، حتى قبل أن يقدم هذا الدفتر رسميا إلى الحكومة الفرنسية والإقامة العامة ومحمد بن يوسف (1934)، ولأنها منحت الوطنية مكانة المناضل الذي يقول ما يمكن أن يسمع، وفتحت أمام الوطنية نافذة للتفكير في القضايا المغربية.

أعتقد أن "مغرب" هي التي ربطت الصلة بين "كتلة العمل الوطني"، ثم "الحزب الوطني" وأخيرا "حزب الإستقلال"، وبين مجموعة من المتحررين وأشباه

4- أسست في يوليوز 1932 وتم منعها للتداول في المغرب في وسط 1934.

5- أسست يوم 11 شتنبر 1946.

المتحررين من الفرنسيين والإسبان. فقد وجدوا في المقولة المغربية كثيرا من المنطق وكثيرا من الصدق والحق، ولو أنهم لم يكونوا من الشجاعة بحيث يدفعون بهذا الصدق والحق إلى الواقع المعيش متسلحين بالمنطق الذي أقنعهم.

ثم جاءت "الأطلس" أسبوعية مناضلة، كان يديرها محمد اليزيدي رفيق أحمد بلافريج من بداية النضال الوطني ويكتب فيها بلافريج بتوقيع مستعار، أو بالحرفين الأولين من اسمه (أ.ب). وأخيرا جاءت "العلم" يومية مناضلة وكان وراءها الرجل الذي يملك حاسة وطنية وسياسية وصحفية نادرة. يعتبر الكلمة تصدر في "العلم"، ولو إحتفظت بها الإقامة العامة برقابتها دون سائر القراء، رسالة في إتجاهين: إتجاه الشعب الذي يعي بالكلمة ويستنير بها ويحفظها عن ظهر قلب ليعمل بها، وإتجاه الإقامة العامة التي تحفظها هي أيضا عن ظهر قلب لتعرف ما يريده الحزب وما فيه يفكر، ولتعرف أيضا ردود فعل سياستها الاستعمارية في الشعب قاطبة عن طريق صحافة الحزب.

وقد رعى أحمد بلافريج " العلم" كما يرعى بناته. يوجه سياستها، كما لو كان ربان سفينة يخوض بها بحرا، تتلاطم أمواجه أحيانا، ويستنيم ليهدأ أحيانا أخرى.

الذين لم يعيشوا عصر الجنرالين جوان وكيوم وصراعهما ضد السيادة المغربية ممثلة في محمد بن يوسف، وضد الشعب المغربي ممثلا في "حزب الإستقلال"، لا يقدرون هذا البحر اللجي الذي كان المغرب يخوضه لينجو بنفسه حتى لا تبتلعه أمواجه العاتية. وفي وسط هذا البحر كان بلافريج يوجه سياسة الحزب ويوجه جريدة "العلم" وأختها جريدة "الإستقلال" الأسبوعية. وقد أدت صحافة الحزب بفضله رسالتها، كما لم تؤد هذه الرسالة أية صحيفة في أي بلد عاش مثل وضيعة المغرب. لم يكن يستهين بالكلمة تكتب مستقيمة، ولا يهدأ له بال ولا يزور النوم عينيه إلا بعد ميلاد كل عدد من أعدادها، وقد كان الرقيب يتأخر بالعدد، في أغلب الأحيان إلى ما بعد منتصف الليل.

كان مجلسه في "العلم"، وهو يفكر لعدد الغد، يضم أحيانا إلى جانبه محمد اليزيدي والمشرفين الرئيسيين على التحرير، تتقرر فيه سياسة الصحيفة، وأحيانا سياسة الحزب وموقفه من عديد من القضايا. يعتبر الرأي تعبر عنه "العلم" رأيا للحزب، ولذلك لا يتهاون ولا يتساهل في أن تنشر الجريدة، في الفكر السياسي، ما ليس برأي الحزب، ولا أن يرعى الحزب رأيا لا يجد صداه في "العَلم". لم يكن أحمد بلافريج يعتبر مهمته إنتهت بأخذ الرأي السياسي والاتفاق على طريقة تحريره، وإنما كان يطوف بأقسام التحرير ليطلع على أهم المراسلات ويتعرف على المقالات الأدبية والإجتماعية منها ويستمع إلى القصائد ويتعرف على مضمون المراسلات الرياضية.

-4-

كان تفكير أحمد بلافريج يتجه إلى محاصرة الاستعمار وتطويقه من الداخل والخارج معا. ولذلك كان يعمل في الداخل ولا يغفل الخارج. وقد قضى فترة طويلة من حياته متنقلا بين فرنسا وسويسرا وإسبانيا والولايات المتحدة. في كل مكان كان يعمل من أجل المغرب وتحريره سواء قبل المطالبة بالإستقلال أو بعد ذلك. وقد إستطاع أن يكسب للمغرب كثيرا من الأنصار بين الخصوم والأصدقاء على السواء. وإذا ذكرنا لجنة الرعاية المجلة "مغرب" التي كوّنها من عدد من الأحرار الفرنسيين والإسبان[1]، فإنما لنذكر مثلا من هؤلاء الذين أكتسبهم لقضية المغرب. وإذا ذكرنا الأمير شكيب أرسلان الذي كان يعتبر أحمد بلافريج مثل إبنه، وذكرنا ممثلي الدول الصديقة في الأمم المتحدة من عرب وغير عرب الذين كانوا يعتبرونه عضوا في وفدهم[2] فإنما لنذكر مثلا من الرجال الذين إستقطب ضميرهم وعقلهم ونضالهم جميعا للدفاع عن المغرب.

1- Robert-Jean Longuet (1901 -1987)، أحد كبار المحامين والصحفيين الفرنسيين ورجل سياسة ذي ميول إشتراكية. دافع عن عدد من المواطنين في المغرب والجزائر، أحد أحفاد كارل ماركس من جهة أمه الألمانية الأصل.

2- منحت الباكستان جوازا ديبلوماسيا لأحمد بلافريج، وبه تمكن من حضور إجتماعات الأمم المتحدة في نيويورك.

ولم يكن الاستعماريون يضيقون صدرا أكثر مما يضيقون بهؤلاء الذين يتحدثون عن القضية المغربية وكأنها قضيتهم الوطنية. ولذلك كانوا يحسبون ألف حساب للرجل الذي كان وراء إستقطاب هؤلاء الأصدقاء.

-5-

لم يكن أحمد بلافريج أسعد منه، وهو يناضل لاستكمال استقلال المغرب ووحدته، بعد أن إعترفت فرنسا وإسبانيا بالإستقلال. فقد كان تحرير السيادة الدبلوماسية للمغرب في مقدمة الجهود التي بذلها. وتولى من أجل ذلك وزارة الخارجية وأذكر أنه أسر إليّ بما عرضه جلاله الملك من إنشاء وزرة الخارجية وولاية شؤونها (20 مايو 1956)، ولعله إختصني بهذه الاستشارة لما كنت أعتز به من وده وتقديره. وحينما عبرت عن إرتياحي الكبير لاختياره للقيام بهذه المسؤولية الوطنية قال لي مبتسما: "إعتبر، إذن، نفسك معي في إنشاء وزارة الخارجية".

وأشهد أنه إعتبر من مهماته الأساسية في هذه الوزارة توحيد بقية المناطق المغتصبة من المغرب. وقد بذل جهدا كبيرا في تصفية الاستعمار الدولي بمنطقة طنجة وكان يجد كامل الاحترام والتقدير من ممثلي الدول الذين طالما ضيّقوا عليه الخناق حينما كان يقيم أحيانا في طنجة، أو يدخلها قادما من منطقة الحماية الفرنسية. ولم تكن مهمته في تحرير طرفاية من الإحتلال الإسباني في مثل السهولة التي حرر بها طنجة. كان وزير خارجية إسبانيا آنذاك من التعصب بحيث لا يستطيع أن يسمع حديثا عن تحرير الصحراء أو جزء منها. وكان يعرف أن طرفاية سيتبعها إفني، ثم بقية الصحراء، لأن لكل من المناطق نظاما خاصا، ولذلك سعى المغرب إلى تحريرها، جزء جزء. ورغم حَرَن وزير خارجية إسبانيا وعصبيته وغضبه، فقد كان يجد أمامه الرجل الهادئ المتحلي بالصبر والحكمة، والمتشبث في نفس الوقت بالمبدإ الذي صمم على أن يأخذ ولا يعطي. إنتهى الوزير الاسباني إلى طلب التعهد بألا يتقدم المغرب بأي طلب ترابي إذا ما إعترفت إسبانيا بتحرير طرفاية. كان الوزير الاسباني يقصد طبعا بقية الصحراء المحتلة وسبتة ومليلية. ولكن أحمد بلافريج، بصفته أمينا عاما لحزب الإستقلال ووزيرا للخارجية، جعله يتأكد، بكلماته الهادئة الموحية، بأن دور بقية الصحراء وسبتة ومليلية آت لا ريب فيه.

-6-

عرفت الحاج أحمد بلافريج في مقدمة من عرفت من قادة الحزب. كان ذلك في فاس يوم فتحت "كتلة العمل الوطني" أول مركز لها في المدينة (1934). وفي مركز الكتلة، إلتقينا به نحن شبيبة الكتلة فارتسمت ملامح شخصيته القوية والهادئة والمتبصرة والألفية في عقولنا الفتية. وفوجئت بعد ذلك ببضعة أشهر، في باريس (أكتوبر 1937) وأنا أزور القسم المغربي في المعرض الدولي، بحضوره. إلتف حوله المغاربة جميعهم يسألونه ويسترشدون برأيه. كان الجو يومئذ مكفهرا، والجنرال نوكيس مُصَمِّم على أن يسحق تحت قدمه العسكرية "كتلة العمل الوطني" كما خيّل إليه. وكنت، كتلميذ صغير، أحاول أن أجد عنده تفسيرا لما يحدث. كان بتواضعه الجم يحاول أن يجد عندي الصورة الحقيقية لما قد يحدث في المغرب باعتباري رحلت عن الوطن في ذلك الأسبوع. وحينما أكدت له أن الجنرال مصمم على أن يسحق الكتلة بدا على وجهه كثير من الأسى وقال: "الكُفر ملة واحدة، لا ثقة في حكومة الجبهة الشعبية التي تحكم فرنسا باسم الديموقراطية والتقدمية".

إستدعاني للغذاء في مطعم يديره مواطن مغاربي. وفي ضيافته كان هناك الحبيب بورقيبة أحد زعماء المغرب العربي. وأراد صاحب المطعم، فيما خيّل إليه، أن يكرم الزعيمين، فدفع براقصة جزائرية إلى وسط المطعم تمارس رقصها. تغيرت ملامح بلافريج وإنتصب قائما يطلب صاحب المطعم ليؤدي واجب الغذاء، ولم نتغذ بعد. ظن الرجل أن الطعام غير جيّد فأكد أنه مستعد لتغييره، ولكن بلافريج أفهمه بأنه وضع ثقته في أن المطعم المحترم لا ترتاده الراقصات. إعتذر الرجل في خجل وسحب الراقصة من يدها وهي تجرر أذيالها.

الأخلاق الوطنية عند أحمد بلافريج مستمدة من الأخلاق الإسلامية. فلا وطنية بدون إسلام ولا قيّم للوطنية إلا القيّم الإسلامية. ولهذا لم يقبل قط أي تصرف في وطنه يخالف القيّم الإسلامية. كان أكره الناس إليه المرتشون والعملاء والمتآمرون على الوطن، ولو باسم الوطنية، والمنحرفون أخلاقيا ولو بشرب كأس خمر.

أذكر أنه إعترض على تعيين أحدهم في مسؤولية حكومية مهمة لا لشيء إلا لأنه مرتش. وقد لقى العنت في اعتراضه هذا، ولكنه أصر على رأيه فلم يعين الشخص المذكور في عهد وزارته.

وأذكر أن أحد الوطنيين سلم عليه ذات يوم فشم فيه رائحة خمر، فبعث إليه من يحذره أن لا يسلم عليه مرة أخرى إذا كان قد ذاقها.

وأذكر أن جاءه مخبر وهو رئيس للحكومة ليبلغه خبرا لصالح الحكومة فاستقبله على مضض. وعندما ذهب الرجل قال لنا: "لا تثقوا بهذا الرجل فهو مخبر كذاب".

وحينما وضعت وثيقة الإستقلال أصر على أن تعرض على محمد بن الحسن الوزاني، وهو خصم من خصوم الحزب السياسيين. فلا يجوز في عرف الوطنية أن ينسى وطني من المشاركة في أعظم عمل تقوم به الحركة الوطنية.

بهذه الأخلاق يزن أحمد بلافريج الناس ويمنحهم من إحترامه أو إحتقاره.

-7-

كنت معه في زيارة للسيد محمود فوزي وزير خارجية مصر. كانت العلاقة بين البلدين تتخللها غيوم خفيفة، ولكن الوزيرين إستطاعا أن يدعما الثقة بين البلدين بجديتهما الذي كان يطبعه التقدير لدوري البلدين التاريخي والأمل في دوريهما المستقبلي.

وكان بين الرجلين كثير من أوجه الشبه. فهما الخبيران بقضايا العالم وبخلفيات السياسة الخارجية. هادئان، ناعما الملمس، يزنان الكلمة، لا يرتفع لهما بها صوت. يناقشان القضايا الصعبة في هدوء ويصلان إلى إتفاق وأحدهما يقترب من الآخر، أو إلى خلاف دون أن يشعر أحدهما بأنه يبتعد عن الآخر.

وتقديرا منه لي، تلميذا وصديقا، سألني أحمد بلافريج واستطلع رأيي بعد أن خرجنا من وزارة خارجية مصر، في كل الموضوعات التي تناولتها المحادثات.

صحبته في زيارة لتونس، وهو رئيس للحكومة، وكانت المحادثات السرية التي دارت بينه وبين بورقيبة رئيس الحكومة آنذاك وقيادة الثورة الجزائرية تتعلق بقضايا الكفاح الجزائري وفي مقدمتها تكوين حكومة جزائرية في المنفى. ولم يكن يستغني عن رأيي فيحادثني سرا بعد أن ينفَضّ كل اجتماع، ويناقش الرأي كشريك في إتخاذ القرار.

قدمت مرة حديثا سياسيا في الإذاعة، وأنا يومئذ مسؤول في وزارة الخارجية، التي كان وزيرها. وكان يتعلق بالثورة الجزائرية. أغضب الحديث السفارة الفرنسية، التي كانت ما تزال تحسب نفسها إقامة عامة، وأبلغ السفير غضبه واحتجاجه إلى وزيرين مهمين في الحكومة، ولعله لم يكن يجرأ أن يتقدم به إلى وزير الخارجية فقد كان يعرف أي رجل هو، وأنه لا يستطيع أن يتدخل إليه في موضوع يتعلق بحرية الرأي والإعلام في بلاد أصبحت مستقلة. فلجأ إلى وزيرين يستطيع أن يقتحم عليهما مسؤوليتهما، وقد قدر على ذلك. جاء الوزيران معا إلى وزارة الخارجية وقد انتقل غضب السفير إلى وجهيهما ينقلان إلى الوزير ما لم يجرؤ السفير أن ينقله بنفسه. إستدعاني من مكتبي لأحضر الحديث الثلاثي حتى إذا إنتهيا من تقريرهما لم يزد على أن يعد بالتفكير في الموضوع، وإيجاد حل لطلبهما إيقافي عن الاستمرار في إذاعة الأحاديث السياسية. فلما ودعهما نظر إليّ بابتسامته الإيجابية قائلا: " إستمر في عملك. فليس الوقت وقت ترضية المعتدين".

وكما يعتز بكرامته كان أحمد بلافريج يحترم كرامة الآخرين لا تكاد تسمع منه كلمة سوء حتى في خصومه السياسيين. ولذلك كانت لغته السياسية مهذبة، يقول ما يعتقده حقا، وأحيانا يلمح ولا يصرح، وأحيانا يعبر بابتسامته العذبة دون أن يقول : "لا"... أو يقول "يجب" ... ولا يضطرك أن تقول "لا". إذا عرف أنك ستنتهي إلى أن تقولها.

لعله لم يكن رجل صراع ومواجهة. ولكنه كان رجل مبادئ. حينما يؤمن بمبدإ لا يمكن أن يتخلى عنه، ولو اتخذ إلى تنفيذه كل السبل، لا يلتجئ من بينها

إلى سبيل المواجهة العنيفة. يومن بالحوار، ولا ييأس من الوصول إلى الهدف، وقد يكون عدم الإلحاح من بين سبل الإقناع.

كل الذين عملوا مع أحمد بلافريج، في الحقل الوطني أو الحقل الحكومي، قدروا وفاءه وتقديره لجهود الآخرين وثقته في مساعديه، وإحترامه لآرائهم. أذكر أنه كان له مجلسان في مكتبه بوزارة الخارجية: مجلس في آخر الصباح وآخر في آخر المساء، مع نخبة من مساعديه الأقربين. كان يعرض فيهما لكل القضايا السياسية التي يعالجها المغرب مع مختلف الدول. يعطي بمقدار ما كان يأخذ، ويعرض على بساط الدرس كل القضايا المعقدة التي كانت الدبلوماسية المغربية تعالجها مع الدول الشقيقة والصديقة، في بداية عهد المغرب بالدبلوماسية. ولشدّ ما كانت هذه القضايا حرجة في وقت كان فيه استقلال المغرب طري العود أملده، ولكنه كان يومن بشيئين : الصبر والحكمة. بهما كان يتغلب على كثير من المصاعب الداخلية والخارجية.

-8-

كان أحمد بلافريج يحتكم في نضاله إلى العقل والقلب والعاطفة جميعا، ولذلك ملأ رحابه الواسع من حياة أمته، فلا يذكر إسمه إلا إقترن بهذا النضال، ولا يذكر نضال شعب المغرب إلا ذُكر بلافريج في مقدمة من يذكر من المجاهدين الذين بصموا إستقلال المغرب بجهادهم المستميت.

وكان بلافريج في مقدمة الذين أدركوا أن مصير الحماية الفرنسية والاسبانية إلى زوال. كان إدراكهم هذا في الوقت الذي دعمت فيه الحماية كيانها بالجيش والإدارة والاقتصاد وطائفة المستوطنين - المعمرين الذين استولوا على الأرض وكل إمكانات البلاد. في هذا الوقت كان المرشال ليوطي يفخر بأنه أقام مملكة إمبراطورية شريفة لفرنسا فيما وراء البحار. وجاء ليوطي والمرشال بيتان وعشرات الجنرالات والضباط يفخرون بأنهم انتصروا على ثروة الريف وطوّعوا معظم الأطلس، ووضعوا سكان السهول والوهاد والمدن في قفص الاحتلال.

كان قادة حزب الإستقلال جميعهم يتحدثون عن الإستقلال والوحدة، كان بعضهم يراهن عليه لسنوات معدودات وبعضهم يراهن عليه لوقت أطول، ولكنهم جميعهم كانوا يؤكدون أنهم سيحضرون الإستقلال وسيشاركون في بنائه.

كان أحمد بلافريج يؤكد أن المغرب لا يمكن أن يبقى تحت الحماية، ذلك أن المغرب لم يخضع قط، كله ولمدة طويلة، لأية سلطة عظمى في التاريخ. والتاريخ لا يحكم حكما حتميا، ولكنه مؤشر على طبيعة الشعب وقدراته وقيّمه وأخلاقه. الاستعمار الجديد ليس أقوى من إستعمار الرومان والوندال. ومن هنا كانت حتميته في أنه لا يملك أن يغيّر طبيعة هذا الشعب. ذلك أن الاستعمار الحديث عثرة في تاريخ الإنسانية. كان بحسه السياسي يدرك أن إستعمار المغرب جاء في آخر مرحلة هذه العثرة، من حسن حظه. ولذلك قد يكون في مقدمة من يتحرر من الاستعمار.

كانت الحرب الكبرى الثانية فرصة المغرب. وبلافريج ليس مؤرخا، ولكنه يستفيد من التاريخ إستفادة السياسي الخبير بتقلبات الحاضر. منذ وعى سياسيا أخذ يدرك التغيرات التي أحدثتها الحرب العظمى الأولى. كان نضال الهند ومصر ومنطقة الهلال الخصيب بما فيها العراق يرن في أذنيه. وكانت الحرب الريفية تؤكد له أن التاريخ يصنع ولا تفرضه دولة أو قوة عسكرية، وكان شعب المغرب يؤكد له أنه شعب متحضر، والحضارة تأبى العبودية، ولذلك كان يستنتج أن الحرب الثانية فرصة لصناعة التاريخ. بحسه السياسي، أدرك أحمد بلافريج ضرورة التعرف على اتجاه الرياح. السنوات الأولى من الحرب كانت عاصفة، فوجهت الكثيرين في الاتجاه الذي فرضته العاصفة. ولكنه كان من قلة السياسيين الذين أدركوا أن العاصفة قد تعبث بالسفينة فتضطرب، ولكنها لا تخطط لها طريقها.

أدرك أحمد بلافريج أن العاصفة قد تعبث بالسفينة فتضطرب، ولكنها لا تخطط لها طريقها. أدرك أن دول المحور لن تربح الحرب. ولكنه في الوقت نفسه لم يراهن على الحلفاء، وبينهم الدول الاستعمارية الكبرى، فاهتدى هو وزملاؤه في "الحزب الوطني" إلى أن الإستقلال هو الهدف، وأن المطالبة بالإستقلال يجب

أن تعلن والحلفاء في الحرب. ليس هذا الموقف مساومة، ولكنه لوضع الهدف -الإستقلال- أمامهم وهم يخططون لما بعد الانتصار في الحرب.

-9-

الحس السياسي هو الذي طبع حياة أحمد بلافريج السياسية الفاعلة لمدة ثلث قرن. وكان زملاؤه وتلاميذه يفكرون طويلا في المشكل يعرض أمامهم، ولكنهم كانوا أخيرا يتطلعون إلى خيط الهداية ينبع من عقل علال وحكمة غازي وحس بلافريج.

تعامل أحمد بلافريج بهذا الحس الذي لم يكن يكذبه مع رجال متناقضين في طبيعتهم تناقض الاستعمار الفرنسي، كان منهم بونصو وإيريك لابون الدبلوماسيان الهادئان الماكران، وكان منهم نوكيس، الجنرال العنيف الأملس، وكان منهم بيو وجوان وكيوم العسكريان الأهوجان. معهم جميعا تعامل أحمد بلافريج وهو ضمن القيادة الإستقلالية، وهو أمين عام لحزب الإستقلال، وهو يبصم وثيقة الإستقلال ببصماته الملونة، وهو يقرر مع زملائه: "لا نحالف من ينكر حقنا في الحرية والإستقلال".

كان حسه السياسي، يحدد مسار العمل وهدف النصر. إصطدم عدة مرات، ولكنها لم تكن صدمات قاتلة. حتى عندما إتهم بأنه إتصل بالألمان، وإتهم، عسكريا، بأنه قاد حركة المطالبة بالإستقلال. وهو عمل ضد المجهود الحربي، حتى في هذه اللحظات الحرجة، كان يستطيع أن ينفذ بجلده فكان السجن والنفي بدل الإعدام، وكانت النقمة تتجاوزه أحيانا على عهد جوان وكيوم إلى زملائه، وهما يعرفان أنه على رأس المدبرين.

بحسه السياسي إستطاع أحمد بلافريج أن يجلس في صفوف أعضاء الأمم المتحدة، ولا تستطيع أية قوة أو نفوذ أية دولة أن تبعده عن مكان يستطيع فيه أن يرفع صوت بلاده في مكان لم يكن يدخل حرمه إلا مندوبو الدول المستقلة.

وبحسه السياسي إستطاع أن يؤسس الدبلوماسية المغربية ويربط صلات المغرب بكل دول العالم. كثير من الدول آنذاك لم تكن تثق كامل الثقة في أن فرنسا وإسبانيا قد إعترفتا كليا بهذا الإستقلال.

بحسه السياسي إستطاع كذلك أن يحاور مجموعة الدول التي كانت تحتل طنجة تحت الحكم والاحتلال الدوليين، وأن يستعيدها للوحدة، وبحسه السياسي كان يستطيع أن يكسر حرن إسبانيا الفرنكاوية لتعترف باستقلال طرفاية وأن يمتنع عن التعهد للاسبان بأي شيء لقاء ذلك.

كان حسه السياسي يفرض عليه أن يكون هادئا يحسب لكلماته حسابها، تحسبه لا يواجه، ولكنه يتقن اللغة التي يرفض بها قطعيا، ولا يجرح خصمه. بحسه السياسي إستولى على قلوب كل الذين تعامل معهم إنسانيا أو سياسيا.

كان إسمه يؤكد شيئا في عقل مستمعيه وقلوبهم. قد لا يستطيعون أن يعبروا عنه إلا بذكر أحمد بلافريج. ومن هنا كان محبوبا، لا كوطني أو سياسي أو مناضل فحسب، ولكن كذلك كإنسان. وكان خصومه من الاستعماريين يكنون له الاحترام والتقدير، ولم يكونوا يستطيعون أن يكنوا له الحقد، ولم يواجههم بكلمة الإستقلال.

هو مدرسة في العمل السياسي والدبلوماسي عزّ نظيرها. وأشهد أننا نحن تلاميذه ومريديه إستفدنا من مدرسته وتعلمنا على يده الكثير من سبل معالجة المشاكل دون أن نحتاج فيها إلى مبضع لنقوم بعملية جراحية. تعلمنا بالمثل يقدمه، والرأي يدلي به، والأسلوب يمارس به القضايا الحرجة دون أن نتعلم بالقول: "إفعلوا... لا تفعلوا".

هذه القيم أعتبرها مدرسة للذين كانوا رفقاء طريقه وأرجو أن تكون مدرسة للأجيال التي تتخرج في مدرسة الوطنية.

***

إنتقل أحمد بلافريج إلى الرفيق الأعلى يوم الخميس 19 أبريل 1990 وعمره 82 سنة.

رحمه الله...

التهامي الوزاني...
صاحب الزاوية
(1972 - 1905)

-1-

لا أكاد أعرف مثقفا جمع أسرار الحياة في تناقضاتها كما عرفت الشيخ التهامي الوزاني. ولعل الذين عايشوه وصاحبوه وعملوا معه وعمل معهم لا يكادون ينتهون في التعرف إلى شخصيته أكثر ما إنتهيت إليه. وكثير من الناس تغمرهم الحياة ولكنهم يستقطبونها، فيظفرون منها بأكثر مما تظفر منهم، ويعبون من رحيقها أكثر مما تعب منهم، وينتصرون على مباذلها أكثر مما تنتصر على محاسنهم. ولعل الشيخ التهامي الوزاني كان من هؤلاء الذين تعرف على الحياة فحاول أن ينفذ إلى أسرارها، ويتجنب مباذلها، وحاولت الحياة أن تحتويه فما ظفرت منه بغير ما تظفر من ذكي لا تنطلي عليه حيلها، وزاهد لا تغويه مفاتنها، وطموح لا يتذلل لمحاسنها، ومحب لا يفتنه جمالها.

كان ذكي القلب، مرح النفس، قوي الإيمان، نبيل الخلق، سامي الروح. عاش طفولته وفتوته في عصر اللجوء إلى الله، وكان ذلك يعتبر قوة عند الكثيرين من الذين انهزمت عقولهم أمام طغيان التخلف والبؤس وزحف "الكافر" وضعف الدولة وفساد الإدارة... والذين إنهزمت عقولهم ولم تنهزم نفوسهم قليلون، ولكنهم يكونون ظاهرة في فترة من حياة المغرب تملأها الظاهرات التي ما تزال في حاجة إلى تفسير نفسي واجتماعي. نفس الظاهرات حدثت في كثير من البلاد التي انهزمت أمام طغيان الاستعمار وضعف الدولة وسيادة الجهل، الأندلس أو فلسطين أو مصر أو الشام أو المغرب أمثله منها. في المغرب كثير من هؤلاء الذين تاقت أرواحهم إلى الحرية. هاجروا، ولو إلى بلاد يظنون فيها الحرية، ولم تكن هذه الحرية في مفهومها

عندهم إلا لأن هذه البلاد "المهجر" أقرب إلى الحرمين. وفي الجوار إلى الحرمين إلتجاء إلى الله وفرار من لعنة الكافر...

وكثير من هؤلاء الذين تاقت أنفسهم إلى الحرية من لعنة "الكافر" اختاروا "السجن" فلجأوا إلى بيوتهم يتعبدون، حتى لا يروا الكافر بأعينهم، ولم تراود فكرهم حقيقة خطيرة، وهي أنهم في هروبهم للحرية أوقعوا كل مواطنيهم في الأسر. وأن الاستعمار لم يصب غيرهم فحسب، ولكنه إمتد إليهم كجزء من المجتمع الأسير، يتنفسون رائحة محنة الاستعمار، ولو تواروا في قبور يحسبونها تنجيهم من لعنة كفره.

آخرون كانوا يفرون إلى الله في المسجد يلجأوا إلى جدرانه الأربعة تحرزا من أن تقع أعينهم على كافر، أو تسمع آذانهم نفير سيارة يسوقها كافر. وهم، بعد ذلك، راضون على أنفسهم مستجيرون بأرواحهم من رمضاء النار... وخارج المسجد أو منزلهم الذي يجاور المسجد دنيا الكفر والفسق والانحراف لتأكلها النار أو ليلطف بها رب السماء، ذلك عندهم سواء.

آخرون مرجون لأمر لله وجدوا في الحياة الروحية متعة. إطمأنت نفوسهم إلى الزاوية، يذكرون الله ويعيشون متعتها وبهاء الروح فيها، ويبنون مجتمعها على نحو يبتعد بها عن مجتمع الناس ومشاكل الحياة، ولكنه مجتمع الزاوية الذي يحفل بكل ما في مجتمع الناس على نحو آخر يجمع بين كثير من المتناقضات، كل متناقضات الحياة الدنيا. ومع ذلك فهم داخل الزاوية وخارجها لهم رؤياهم الخاصة للحياة والناس والمجتمع وتناقضاته.

لعل التصوف الروحي في الإسلام على الأخص نشأ من هذا المنطلق الرافض لما في الحياة من زيف، والعجز فكريا وجسميا وربما نفسيا كذلك عن مواجهة الزيف بالتحدي. ظهر الزيف في صورة حكم جائر لا ينتمي إلى جوهر الإسلام، أو إنهيار أخلاقي أو إجتماعي أو إقتصادي، أو حكم أجنبي زحف على بلاد الإسلام فأذاقها لباس الجوع والخوف والذل، وسلبها روح المقاومة وإعادة الاستقامة إلى الحياة، فانهزمت معنوية السلطة، وخابت آمال الجماهير. ولجأ المثقفون الأكثر

تدينا إلى الله، وخيّل إليهم أنهم لن يجدوا الله في الالتجاء إلى العزلة، والابتعاد عن الجهاد العسكري للمعتدين أو الظالمين إلى الجهاد الذاتي، جهاد النفس ورفض العقل لصالح الروح. والمثقفون العلماء منهم رفضوا الفلسفة كوسيلة أو درقة لرفض العقل والالتجاء إلى الروح كوسيلة للالتجاء إلى الله، كأن الله لا يوجد إلا في الروح.

ظاهرة التصوف في تاريخ المغرب الإسلامي تقترن بفترات الأزمات السياسية، ليستغلها الأذكياء من هؤلاء المتصوفين الملتجئين إلى الزاوية أحيانا للتمرد على السلطة، فهي ظاهرة مزدوجة الفاعلية: ثورة على الوضع والالتجاء إلى الروح هروبا من طغيان أو فساد. ولكنها ثورة مرحلية لمحاولة التغيير عن طريق الثورة على الحكم القائم.

وربما كان المغرب العربي قد تفرد بهذه الظاهرة بين البلاد الإسلامية، أو على الأقل نجحت فيه هذه الظاهرة بشكل واضح.

نعود إلى عصر الهزيمة السياسية والعسكرية والفكرية بالمغرب في أوائل القرن العشرين، والتي إنتهت بالحماية، لنجد أن الذين وضعوا أنفسهم وعقولهم في متاهات مواجهة التيار الزاحف قليلون. بعضهم إرتقى الجبال وأشهر الحرب ودخل أتونها ومعتركها. وبعضهم خاض معركة فكرية، لا عسكرية أو في انتظار العسكرية، ضد الانحراف والهزيمة النفسية وضد الضلال الفكري والعقدي وتفاهة الممارسة. من الأولين تكونت فيالق المجاهدين في الأطلس والريف والجبال والسهول. ومن الأخيرين، تكونت جماعات الحركة الوطنية التي نبذت الزاوية وقاومتها باعتبارها مظهرا للهزيمة والتخلف والاستسلام والزيف، لأن لله عندها يوجد في نضال الشارع والمسجد والخلية والخطاب والمحاضرة والدرس والصحيفة والكتاب، كما يوجد في كل مكان وعمل شريفين.

ولكن شخصا إستطاع أن يجمع بين الزاوية والحركة الوطنية، بين الالتجاء إلى الله في زاوية تجمع بين الدين والدنيا، تعمل لدنياها وطيباتها كأنها تعيش أبدا، وتعمل لآخرتها كأنها تموت غدا. ترى في الحياة الدنيا جانبا من عبادة الله، وترى في الفن وسيلة للوصال، أو هو وسيلة للمتعة النفسية والروحية الموصلة إلى الله.

هذا الرجل هو الشيخ التهامي الوزاني، صاحب الزاوية، الذي عرّف بنفسه وبسلوكه وبخبايا وأسرار الفكر والقلب والسلوك لكثير من الذين عايشهم وتتلمذ عليهم في الزاوية، و"جاهد" حتى اقترب من "سرهم"... ولكنه عاش الحياتين كأروع ما يمكن أن يعيشها. ذكي ثقف نفسه، وجرب الثورة والاستسلام والتمرد والانطواء والانتشار وفقه الأفكار والسلوك وتجاهلها. رجل المسبحة و "العكاز" ولباس الصوف، والتجمل والتزين والتمتع بكل ما أحلّ الله.

-2-

كنت قد تعرفت إلى الأستاذ الوزاني في نادي جمعية الطالب بتطوان، وشاركت في رحلة الى المناطق الجبلية نظمها النادي تحت رياسته وقيادته، فعرفت في الرجل نشاطا وحركية وخفة دم وتواضعا وهياما بالمرح والنكتة والمداعبة. وتعرفت عليه في مناسبة أخرى تعرفا عابرا فوجدت الرجل يعتنق سبحة كبيرة طويلة ويتكئ، وما يزال قوي البنية، على عصا أطول من قامته، يغرسها في الأرض، يضبط بها خطواته كما لو كان عازفا يضبط حركة موسيقية. في وجهه وقار أهل العلم وفي نظراته سبحات أهل الحال وأصحاب القول. يوحي منظره وحركاته بالسماح. تبدأك ملامحه "بالسلام" قبل أن يهتف به لسانه. لم تغير السن من جمال وجهه غير بياض اللحية الذي طبع هذا الجمال بظاهرة جمالية جديدة هي الوقار.

في رحلتنا معه جمعنا بين الشاطئ والجبل، أو لعلهما رحلتان فما أنساني وشككني في الحقيقة إلا الزمان، في الشاطئ كان الشاب المرح الذي ينزع عنه لباس الوقار والعلم، ويلبس لباس البحر، يسبح بمهارة ويلعب بالرمل يصنع منه ما شاء له العبث أو يصنع، ويضحك ملء قلبه ومرح روحه، ويعبث مع زملائه وأصدقائه، وينضو عنه التصنع في القول والسلوك، لا يتحرج أن يفوه بالكلمة الخجلة، ينجذب إليه الشباب ولا يهرب من شبابه الكهول.

كان جمال وجهه يطفح مع لمعان الشمس، وكانت العافية بادية على جسمه الممتلئ فلا تهدأ حركته، ولا يترك زميلا في الرحلة إلا داعبه وغالبه وتسرب بحديثه العذب إلى قلبه وروحه.

وكانت الرحلة في الجبل من نوع آخر. كان يلبس جلبابه الصوفي ويعتم بعمامته البيضاء. كان شخصا آخر يطبع الجد محياه، وتتبع لحيته بالوقار والشرف، وتؤكد حركته بأنه شريف وازًان.

هرع سكان القرية جميعها إلى إستقبالنا دون سابق إعلام. تداعي الرجال والشيوخ والشباب والأطفال إلينا كما يتداعون إلى موسم ولي صالح، زغردت النساء، وابتهج الجبل كما يبتهج في كل ربيع. كانت زيارة عابرة، كل أملنا منها أن نحيي ونشرب لبنا مخضوضا ثم ننصرف. وكان الجائعون منا يفكرون في "الحرشة" الطرية الساخنة محشوة زبدا، أو جبنا أبيض مع كأس شاي أحلى من العسل، ولكن القوم أقسموا أن يذبحوا ويطبخوا. الشريف زارهم مع صحبه، حمل إليهم البركة والدعاء الصالح، وكرامتهم لا تسمح بغير الذبيحة والطبخ والأكل.

ما أدري كم كان يفصلنا عن تطوان، ونحن نركب سيارات متهاوية من نوع ما كان مستهلكا في ذلك الزمان؟ ولكنا كنّا مرغمين أن نقضي يومنا فيه السمع والبصر والروح جميعا مع شريف وازّان في ضيافة القبيلة الجبلية.

وبين "التعرفين" قرأت له في صحيفتي "الحياة" و"الريف" فتعرفت عليه كاتبا لامعا ينبض قلمه بصدق الحديث، ويحلل الموقف بصدق، ويعبر عن الحرية في إسهاب من القول، ويحدثك عن كل شيء دون أن يضبط قلمه منطق أو تحد منه "نقطة" أو"فاصلة" .تتابعه ولو كنت لا تصل معه إلى فكرة يريد تحديدها. تحسبه يمسك بقلمه دون أن يحدد ما يريد أن يقول، ولكنه لا يعدم ما يقول، ولا يعجز عن أن يجتذبك لتستمتع بأسلوبه العذب وحديثه الرائق، ولو لم ينته معك إلى نتيجة محددة.

وكان، وهو يصطنع الصحافة، يأخذ فيها مكان الكاتب يملأ الصفحة والصفحتين، إذاإ ستمتعت بهما، وإهتديت إلى فكرة أساس، وهي تمجيد المغرب والدعوة إلى الحرية، فلا يضيره في شيء أنك لم تلتق معه فيها على فكرة محددة، ولو أنها مجموعة أفكار عائمة.

لعل الصحيفة كانت عنده كالزاوية تدخل بابها فتجد كل شيء، ولا تجد شيئا. ليس ثمة إلا الله... تشطح وتردح وتتغنى وتسمع الموسيقى وتتحدث في كل شيء وتأكل وتتطيب وتلبس الجيد من الثياب، والخرقة الممزقة، وتظل تبحث عن الهدف فتجده بعد عناء، أو لا تجده في نفسك وموعدك معه ينتهي، ولا ينقطع رجاؤك في الوصول.

صاحب الزاوية كان ينطلق عن طريق الصحافة والعمل السياسي إلى الحياة، التي لا توفر الزاوية إلا جانبا منها. لا يحجب نفسه الطموح عن جوانبها الأخرى، التي يجدها في العمل السياسي، وفي الصحافة، وفي الكتابة عن تاريخ المغرب، أو تاريخ المجتمع، أو سيرة ذاتية لنفس غير معذبة تسلك الطريق إلى الوصول، وتتأكد بأنها واصلة.

وكان صاحب الزاوية غير "منقطع"، قد يخرج من الزاوية إلى النادي، وإلى مركز الحزب. ومن حلقة الذكر إلى مجلس السياسة. ومن "حضرة" الشيوخ الذاكرين إلى مجلس الشباب العابثين الضاحكين الذين يعيشون حياتهم، ومن مقام الشيخ الروحي إلى مجلس العلم ومكتب الإدارة. إجتمع فيه ما إفترق في غيره، كان نسيج وحده يعيش الحياة بكل أبعادها المادية والروحية، يمكن أن تحسبه مع المتصوفين الغائبين عن الكون، ويمكن أن تعتبره من الوطنيين المناضلين في الحقل السياسي، ويمكن أن تعده من الشباب الذين يعيشون عصرهم في غير تزمت، ولكن في غير تبذل، ويمكن أن تعتبره من الزاهدين، وتجده مع ذلك من الساعين إلى الوظيفة المتقربين إلى السلطة...

قد يعود ذلك كله إلى حياته الخاصة، وقد يكون طبيعة شرفاء وزّان الذين كانوا يجمعون بين المتناقضين أو بين الحسنيين، وقد يعود إلى طبيعة الزاوية الحراقية التي كان ينتمي إليها. وقد يعود، بجانب كل ذلك، إلى الفترة التي عاشها، فترة كانت الحركة الوطنية فيها، هي البديل من الاستسلام للاستعمار فانزوى وما انزوى. وجد نفسه تفر من لعنة وجود الكافر، ولكنه لا يستطيع إلى الفرار النهائي سبيلا. يفر من زيف الدنيا، والزاوية الحرّاقية لا تفر من كل زيفها،

فهي آخذة منها بضبع. والحركة الوطنية تجتذبه، ولكنها في بدايتها السلفية لم تستطع أن تستبد به.

صاحب الزاوية خلاصة لعصر المتنافضات. ولكنه بذكائه كان في كل منها مبرزا ولعلك لن تجد بين الصوفيين مثلا له في إقباله على جانب مهم من الحياة، وهو جانب العطاء الفكري والسياسي والحياتي. ولعلك لن تجد بين السياسيين والوطنيين مثلا له في إقباله على جانب مهم من الحياة الروحية، في نفس الزاوية التي تهيئ الجو الروحي للإقبال على الله والجو الدنيوي للإقبال على الحياة.

شيء جديد في الحياة الصوفية والوطنية لا تكاد تجده في غير الفترة التي عاشها الشيخ التهامي الوزاني في عصره، ولا تكاد تجده في غير المغرب بين فترتي الاستسلام والمقاومة للاستعمار. ولعلك قد لا تجده في غير مدينة تطوان التي تعرفت على عصر مماثل هو عصر الاستسلام الذي عرفته الأندلس، والنهوض بالإسلام ومقاومة الاستسلام في الضفة الجنوبية للأندلس وهي المغرب.

هذه الظاهرة، ظاهرة الازدواجية الفكرية والنفسية والروحية، جديرة بالتحليل. وأغلب الظن أن التحليل قد ينتهي بنا إلى القول بأنها أثر من آثار أزمة الأندلس ومحنتها. فالأندلسيون، الذين عاشوا حياة اللهو في عصورهم المتأخرة، كانوا متأجحين في اللجوء إلى الله من المحنة، والتثبت بدنياهم ما اهتدوا أخيرا إلى الجمع بين الحسنيين: يعبون في دنياهم في تصوفهم، ويتصوفون في دنياهم. وقد وجدوا ذلك في الزاوية يوفرون فيها الذكر والالتجاء إلى الله بالذكر والتبتل، ثم يلجأون داخل الزاوية إلى الآلات الموسيقية ينشدون ويطربون بـ "طباع" الموسيقى الأندلسية المغربية الرائعة الجميلة، وهي لا تخلو من غزل في الذات الإلهية أو في الإنسان، بعد أن يتطيبوا ويلبسوا أجمل ما عندهم، ثم يتجمعون حول أحفل الموائد بالطعام الدسم والمتنوع.

ألا يكون ذلك من تأثير تناقضات حياة الأندلس في أواخر عصورها؟ ألا تكون تطوان بالأخص قد عبثت من هذه التناقضات حتى الثمالة؟

كتب الشيخ التهامي الوزاني كثيرا من الكتب، ومقالاته أكثر مما يمكن أن تحصى. غير أن أهم كتبه على الإطلاق السيرة الذاتية "الزاوية".

الذين تعرفوا إلى التهامي الوزاني في بعض فترات حياته، ولم ينفذوا إلى الظروف النفسية والفكرية والدينية التي يعيشها، لا يمكن أن يجزموا بأنه هو صاحب هذا الكتاب. ولعله من حسن حظ هذا الكتاب أن الفكر التشككي لم يسد بين الكتاب بالمغرب، وخاصة شريحة "النقاد" منهم، وإلا لسلبوا التهامي الوزاني من "زاويته" ونسبوها إلى شخص آخر قد يكون إسمه الحراق أو الدرقاوي أو الكتاني...

قرأت للشيخ الوزاني في "الحياة" و"الريف" فتعرفت عليه كاتبا لامعا ينبض قلمه بالحيوية والحركة، يتحدث بقلبه ومن قلبه، لا يكاد يواري أو يلغز أو يستعير أو يكني. وعلمت في يوم ما من زمن ما أنه أصدر كتابا عنوانه "الزاوية". ترجمت الكتاب في "خزانتي" الفكرية بأنه كتاب يصف زاوية الصوفيين في تطوان. وصرفني عن الكتاب بعد الشقة فقد كنت بعيدا بعيدا عن المغرب، بعدا حددته الحرب الكونية بمقياسها الزمني والمكاني، ثم طواه النسيان عن الذاكرة، ويوم كنت أذكر أو أرى الشيخ التهامي الوزاني لم يكن يتمثل لي معه كتاب "الزاوية".

وكذلك هي كثير من الكتب الفريدة ينساها الناس، وحتى القراء منهم، فلا يذكرونها إلا بعد رحيل كاتبيها بزمن غير يسير. كان هذا في زمن الخط، ولكنه ما يزال في زمن المطبعة في البلاد التي لا تقدر الكتاب، ولا يأخذ الكتاب من إهتمام القارئين وغير القارئين إلا كما تأخذ دفقة نور تلمع ثم تختفي...

بعد رحيل صاحب الزاوية أخذت أبحث عن نسخة من "الزاوية" أقرأها. أنا ممن تستيقظ الذاكرة عندهم أحيانا على شيء أنسيته فتحن إلى العودة إليه، ولو لم تكن لديها صورة محددة عن هذا الذي تذكرته بعد نسيان. إكتشفت الزاوية ولا أقول وجدتها.

سيرة ذاتية وغيرية. ولكنها تؤكد حقيقة أومن بها هي أن الواقع والمعيش يوحي للكاتب الموهوب بما لا يمكن أن يوحي به خيال ولا علم ولا مدروس.

وقد عاش التهامي الوزاني حياة التدرج في مراتب الصوفيين هو ومجموعة من خلانه ورفاقه في الدرس، ولعله بدأ الخطوة الأولى في المسيرة النفسية الرائعة منذ رأى الحياة، فهو من عائلة تقوى وفقر وجهاد نفس. ثم هو من الذكاء بحيث يدفعه إلى البحث عن الطريق في غير ما سلك الناس من طريق، وإلى اكتشاف النفس التي خفيت عن الكثير إلا عن رجال العلم والبحث والكشف.

وإذا لم يكن، وهو في ريعان فتوته وشبابه، من رجال علم النفس فقد حاول أن يكون من شباب البحث والكشف.

كان من الطبيعي، وهو المتمرد على المألوف في الحياة، وحتى في عالم الدرس أن يتلمس طريقه نحو "الزاوية" ليس بالمفهوم المكاني فحسب، ولكن قبل ذلك بالمفهوم النفسي والحياتي. ولم تكن هذه الزاوية التي يبحث عنها مشتقة من الانزواء، رغم أنه تلمس طريقه إليها في صبر ومجاهدة وتضحية ولكنه عاش باحثا مكتشفا مع خلان له صورهم في كتابه وحلل نفسياتهم فأحسن صورهم.

عاش التهامي الوزاني مع شيوخ الزاوية ورجالها فرسم الحراقيين شيوخا وأتباعا ومكانا وزمانا وذكرا وشطحات، فكان أروع رسام يستبطن النفس ليحللها بالكلمة، وكأنك تراها تحت المجهر بألوانها الزاهية والقاتمة، بعقليتها المتفتحة المنغلقة، بحياتها المتهجدة العابدة المتمتعة بالفن، المتذوقة لمباهج الحياة.

نوع خاص من التصوف ما أعتقد أن الباحثين في علم التصوف وسلوك المتصوفين يعثرون على نماذج كثيرة منه، ولكنه عاش، ولعله ما يزال، في الزاوية الحراقية بتطوان. ولم يكن التهامي الوزاني باحث علم حتى يحلل هذا السلوك الصوفي ولكنه كان أكثر من باحث علمي. كان أديبا متذوقا لما يكتب عنه ويصفه ويحلله. بل عاش هذه الحياة، فانطبعت صورة ما عاش في القلم الذي كتب. شيخ الزاوية الحراقية بكل الحياة التي يعيشها، نفسيا ووجوديا وفكريا ومعيشيا، داخل

حلقة الذكر والاستغراق في الحب الإلهي أو في مجلس الطرب والموسيقى، أو في رحلة الدعوة والاتصال والنزهة، أو في صراع المتقولين ومجادلة العلماء واستقطاب المريدين، أو في مباهج الحياة وجمال الملبس والتطيب بالعطر وبهاء المركب، ومداراة الحاكم... هذا النموذج البشري الفريد بين النماذج البشرية أحياه الشيخ التهامي الوزاني كأروع ما تكون الحياة بالكلمة المصورة المعبرة المتواضعة في تعبيرها الدالة كأصدق ما تكون الدلالة في بساطتها وإشراقها وحيويتها.

وقد سبق أن قلت إن صاحب الزاوية كان غيريا أكثر منه ذاتي. عشرات الشخصيات صوّرها في طريقه إلى الزاوية وشيخها الحراق منهم شيوخ علم ودرس، ومنهم رجال في السوق وأصحاب دكاكين تبيع الفقر، ومنهم شباب ورجال يجترون البؤس والبطالة ويتدبرون لقمة خبز، إلا أن شخصيتين حللهما أصدق تحليل لا يمكن أن تغفلهما الذاكرة الناسية هما شخصية الكحاك ومحمد بنونة. كلاهما زميل له في الدراسة. كلاهما سارا معه خطوات في الطريق إلى الزاوية، وكلاهما فارقاه في بداية الطريق أو في منتصفه، ولكنهما معا كانا ذا أثر كبير في مسيرته العلمية والوجدانية. أحبهما حب زمالة وإخلاص، وعاش مع أولهما حياة الدرس والعلم والمنافسة العلمية، وعاش مع الثاني حياة الوجد والرغبة في الوصول إلى الله عن طريق الزاوية.

كافح التهامي الوزاني مع الحاج محمد بنونة كفاح المستميت ليدخل معه الزاوية، واجها معا مقاومة الحاج عبد السلام بنونة شقيق الحاج محمد وهو يعمل على إبعاده عن طريق القوم إلى طريق العلم، وحاول أن ينفيهما معا إلى مدرسة في المشرق العربي ليصرفهما عن طريق القادري والحراق. وعاشا معا أزمة نفسية رائعة إن كانت هناك أزمة رائعة يأمل الإنسان أن يعيشها. كان فيها الحاج محمد بنونة يتحدى العائلة ليدلف سرا إلى الزاوية ولو ليلا وهو يخاتل الرقباء الذين يترصدون خطواته ليشتكوا به إلى العائلة. عاش بين الخوف من الله والخوف من العائلة، وبين حب الطريقة وطاعة والده وأخيه. كانا معا يجاهدان ليصلا... والطريق طويل.

وتنتهي الصورة بخيبة أمل في الرجلين معا، فقد إنفصل عن الكحاك، وقد أخذ طريق العلم. وإنتهى الشاب بموت مبكر فتم بذلك الانفصال إلى الأبد...

وإنفصل عن الحاج محمد بنونة يوم نجح عبد السلام بنونة في إغرائه بطلب العلم في فاس. وكانت بيئة الطلبة في القرويين آنذاك تعيش حياة انقلاب تاريخي يتمثل في الحركة السلفية التي كان يقودها الشيخ محمد بن العربي العلوي، وكان من طلبة ذلك الزمان: علال الفاسي وإبراهيم الكتاني وعبد العزيز بن ادريس وبوشتى الجامعي والمختار السوسي. إندمج الحاج محمد بنونة في زمرة الطلبة رواد السلفية، ونسي التصوف والزاوية، وكان للحاج عبد السلام بنونة ما أراد حتى إذا عاد من فاس من عطلة عيد أو رمضان، عاد وهو شخص آخر لا يحمل السلفية كمذهب عقلي فحسب، ولكنه يحمل خصومة للتصوف. وإبتعد عن الصديق الزميل الصاحب بالجنب وهو يرفض في حماس الطريقة والزاوية والدروشة، ويختار طريق المدرسة والعلم والكتاب...

صورة الزميلين كانت أروع صورة رسمتها ريشة فنان أداته الكلمة وليس الألوان وبيده قلم لا ريشة.

وبدا التهامي الوزاني متواضعا وهو يكتب سيرته الذاتية. وقد تشعر وأنت تقرأ بأنه يريد لها أن تكون سيرة الزاوية ولا سيرته، ولكنه موجود من أول سطر حتى آخر كلمة. أكد حضوره طفلا في العائلة، وفتى في المدرسة والجامع ويافعا مع الطلاب والشيوخ، تتابعه بعد ذلك في فصل مهم: "كيف أخذت أطلب شيخ التربية، حتى وفاة الشيخ الأكبر سيدي محمد الحراق. روعة الكتاب أنه يأخذ بيدك ليقودك في هذه السيرة وهي تنتقل نفسيا ومعنويا من الفكر إلى الفعل، من الرغبة في التصوف إلى الاندماج في مقال رجال الحال وكانت خلوته الكبرى أروع ما كتب. أحسست بأني أصبحت رجلا آخر، وفي عالم آخر، فإذا بنور ألطف من نور القمر قد غمر على المكان، فأصبحت أشاهد الأشياء كلها، وربما شاهدت ما خلف الجدران، وسمعت أصواتا، وكلمت رجالا وكلموني. وسواء أغلقت عيني أو فتحتها، وسواء كانت أذني صماء أو سامعة، فهذه الحواس أصبحت تؤدي مهمتها دون أن

تحول بينها وبين ذلك حوائل، وكنت أرى نفسي بين جملة الحاضرين. وإذا كان الناس يضربون المثل بأن العين لا ترى نفسها فإني كنت أرى عيني بعيني كأنما أنظر نفسي في مرآة مجلوة صقيلة. ولم أكن بحالم ولا بنائم ولا بساه. ولكني شاعر بكل شيء. وجدت نفسي كأنني خلقت في ذلك من أول يوم فتحت فيه عيني على نور الشمس، وعبثا كنت أحاول أن أضبط نفسي لأعود إلى ما منت عليه قبل الرياضة والخلوة. على أنني لم أكن في حاجة إلى ذلك فإنني في عالم لذيذ لا شر فيه ولا كلفة، لا يحتاج إلى طعام أو شراب، وإنما هو حالة لم أعرفها في شيء إلا وفي بعض قطع الموسيقى التي ينسى الإنسان فيها أنه موجود، وليس اللذة والألم، ويصبح صوتا من تلك الأصوات... ولم أشعر بالزمان ولا بالمكان فلا أدري ألحظة كانت أم دهرا أم كنت في الدنيا أم في الآخرة، إلا أنني مع هذا كله صحيح الإدراك سالم التفكير لا أشعر بتنقل ولا خوف ولا حيرة...".

هذه الشفافية النفسية لا يمكن أن يعبر عنها إلا قلم موهوب كان يرصد نفسه ويعيش في الذاكرة الواعية وهو يكتب.

وتبقى "الزاوية" بعد هذا وذاك أروع ما أنتجه الأدب المغربي، وعمرها يقارب الثمانين سنة. والذين يحاولون أن يكتبوا السيرة الذاتية كفن من فنون القول عليهم أن يقرأوا "الزاوية".

ويبقى الجزء الثاني من هذا الإبداع المبدع في عالم الغيب لا ندري عنه إلا كلمة وعد في آخر الكتاب: "ويليه الجزء الثاني".

***

توفي التهامي الوزاني يوم الجمعة 22 دجنبر 1972 عن عمر لا يتعدى 67 سنة.

رحمه الله...

عبد الرحيم بوعبيد...
المفكر السياسي
(1992-1922)

-1-

أن تدرس آثار الرجل، سياسية أو فكرية أو ثقافية، فتلك عملية سهلة للباحثين والدارسين الذين مارسوا العمل الدراسي والبحث في الآثار والمخلفات، وخاصة الذين يتمكنون من إعادة إنتاج ما يدرسون، وكأنهم المؤلف الأول.

وأن تدرس شخصية المفكر أو الوطني والسياسي فتلك عملية صعبة إلا على الذين يعايشون الشخصية، من الداخل، أثناء الممارسة الطويلة التي قد تستغرق الحياة جميعها. فالشخصية خلاصة حياة لا تتكون في بدايتها دون نهايتها، مرورا بأجمل ما فيها وأخطر ما فيها، بنجاحاتها وفشلها، بأحلى ما فيها وأشد ما فيها مرارة.

ولعل شخصية المناضل والسياسي من أكثر الشخصيات الإنسانية تعقيدا. لا يعود ذلك إلى طبيعة الشخصية الإنسانية الذي يستغرق الحياة التي كانت إنسانية. وتزداد شخصية المناضل والسياسي تعقيدا كلما تعقدت ظروف العمل الوطني والسياسي. وأكثر ما يكون "التعقيد" واضحا في البلاد التي كان من قدرها أن تناضل في سبيل الحياة الكريمة، في سبيل التحرر من الإستعمار والتخلف والرجعية، في سبيل التحرر الديمقراطي، في سبيل بناء عالم جديد لا ينتمي إلى الماضي، المتجذر، بصلة، إلا صلة الأصالة والعراقة.

أعتقد أنه من حسن حظ الأجيال التي تعايشت منذ كان التحرر من الإستعمار الطارئ هدف هذا الوطن- أنها وُجدت في بؤرة النضال الوطني والسياسي. ولعله

كان من حسن حظ الوطن أن تكونت فيه هذه الأجيال من المناضلين الوطنيين والسياسيين. وفي خضم معركة النضال الوطني والسياسي تكونت مجموعة من الشخصيات صقلها النضال وكوّن منها شخصيات متفردة، كل منها ذات خصوصية، تتفق ولا تختلف في أصالة الشخصية التي طبعت نضالها الوطني والسياسي بطابع التفرد، لا تستغني عنها أخواتها. كل منها مكملة للأخرى، ومنها جميعها تتكون الكتيبة ذات الإختصاص المتنوع والتفرد في بلاط النضال الوطني والسياسي.

أستعرض الشخصيات القيادية التي عرفتها الحركة الوطنية منذ نشأتها في أواسط العشرينات، وقد رحلت واحدة بعد الأخرى فأجدها شخصيات متفردة تختلف فيها شخصية علال الفاسي عن شخصية أحمد بلافريج، عن شخصيات الحاج عمر بن عبد الجليل، عن محمد اليازيدي، عن عبد الخالق الطريس، عن محمد غازي. وأنتقل إلى الجيل الثاني فأجد شخصية أبو بكر القادري تختلف عن شخصية عبد الرحيم بوعبيد، عن شخصية الهاشمي الفيلالي، عن شخصيتي عبد الله إبراهيم أو المهدي بن بركة. وأنتقل إلى الجيل بعده فأجد شخصية مَحمد بوستة تختلف عن شخصية عبد الرحمن اليوسفي عن شخصية علي يعتة، كل منهم متفرد في تفكيره ووسيلة نضاله بقدر ما هو متفرد في ثقافته ومنظوره الوطني السياسي. ولكن كل واحد منهم يؤمن بالمبادئ الأساسية للتحرر الوطني السياسي ولبناء الوطن على النموذج العصري المعاصر. كل منهم يمنح مفهوم الوطن المستقبل نكهة خاصة نابعة من خصوصية شخصيته، ولكنها لا تغير في شيء المضمون العام للوطن المستقل، بل تزيده تنوعا ومسايرة لروح العصر.

من هنا كان طبيعيا أن تتفق العائلة الإستقلالية أثناء النضال الوطني من أجل الإستقلال، فكل خصوصيات الشخصيات كانت تذوب في الإستقلال المنبع والمجرى والمصب. ولعله كان طبيعيا أن "تنفلق" العائلة الإستقلالية، إنفلاق الحب والنوى، بعد الإستقلال حينما تبرز خصوصيات الشخصيات لتتمرد على الذوبان الذي عرفته من قبل. وتبقى الأصالة الوطنية صامدة في وجه عوادي الزمان، وفي وجه العدوان الذي يواجه الوطن في الصحراء، وفي وجه إنتكاس الديمقراطية لتبرز

في شكل الكتلة تارة أخرى، وفي شكل لجان التنسيق والعمل المشترك تارة أخرى. ومن يدري فلعل الخصوصيات تذوب مرة أخرى لتجتمع العائلة الوطنية مستمدة تجمعها من قيمها الأصلية في الكفاح من أجل وطن المستقبل حتى النصر؟

-2-

من الشخصيات التي تفردت في النضال الوطني، عبد الرحيم بوعبيد. لا يكاد يختلف إثنان في أنه قيادي إستقلالي ديمقراطي من الطراز الأول في القيادة، ولا يكاد يختلف إثنان في أنه شخصية متميزة ذات خصوصية في التفكير وأسلوب النضال وطريقة الحوار، وحتى وسائل التعبير الشكلية عن هذا الحوار: اللغة، الأداء، الصوت، الحركة، النظرة، الإبتسامة، التكشيرة، طريقة القبول، طريقة الرفض، طريقة الإقناع، الإلحاح، التنازل، التشبث بالأساسيات، التضحية بالشكليات...

بشخصيته هذه، إستطاع عبد الرحيم بوعبيد أن يتصدر منذ إلتحق بحلبة النضال الإستقلالي، وهو يوقع على وثيقة الإستقلال. قد لا يكون أخذ وقتا طويلا بين الإلتحاق بالحركة وإحتلال مكان الصدارة فيها. وقد لا يكون أخذ وقتا طويلا بين السجن، لأول مرة (فبراير 1944)، بعد أن قاد بعضا من تظاهرات سلا وبين قيادة الطلاب والعمال والتجار الذين إلتحقوا بفرنسا عقب الحرب الكونية الثانية.

إنتقل عبد الرحيم بوعبيد في بضعة أشهر، من مدارس فاس وسلا، إلى قائد في باريس وبروكسيل. وبشخصيته المتفردة إنتقل بنفس السرعة بعد أن عاد من باريس[1] إلى شخصية بارزة في اللجنة التنفيذية يتكفل بقيادة الحركة العمالية ويقدم تقريرا أسبوعيا عن القضايا العالمية الكبرى في الصحافة الفرنسية وعما له صلة منها بالمغرب العربي، ويتابع مواقف الدول الأجنبية عن المغرب، ويرأس تحرير جريدة "الإستقلال" ويستقبل، بمعيّة المهدي بن بركة، الوافدين على المغرب من الصحفيين والسياسيين الأجانب، والفرنسيين بخاصة، الذين يمكن توظيف الإتصال بهم لصالح

---

1 - عدنا معا في نفس الأسبوع إلى المغرب هو من باريس وأنا من القاهرة. وإلتحقنا معا في نفس ذات يوم (يناير 1949) باللجنة التنفيذية لحزب الإستقلال.

النضال الوطني. ولم يستغرق كثيرا من الوقت، بعد أن خرج من السجن (1954) حتى كان مع الحاج عمر بن عبد الجليل ثم مَحمد بوستة على رأس مكتب الحزب في باريس يناضل من أجل الإستقلال وعودة محمد بن يوسف. ولم يستغرق كثيرا من الوقت وهو يقود بحذر شديد محادثات إكس ليبان.[2] وكانت مرحلة محفوفة بالمخاطر، كما كانت محدثات فاصلة في تاريخ المغرب وتاريخ فرنسا. فلم تكن لتتكرر في فرنسا حكومة مثيلة بحكومة إدغار فور[3]، كما لم تكن لتتكرر قبلها، بالنسبة لتونس، حكومة مثل حكومة منديس فرانس ...

-3-

إحتل عبد الرحيم بوعبيد مركزه في القيادة لا يستطيع أن ينوب عن غيره من الشخصيات القيادية في مختلف هذه المراحل، ولا يستطيع غيره أن ينوب عنه إنطلاقا من شخصيته المتفردة.

مكانته القيادية لم ينازعه فيها أحد من زملائه القياديين، ولم ينكرها عليه أحد من خصومه ومحاوريه الفرنسيين. فقد كانت له طاقة متميزة ينفذ بها إلى صميم الخصم والمحاور، ولو كان من أشدهم خصومة وعداء. ولعل المرحلة التي قاد فيها الحوار الذي أفضى إلى إكس ليبان، مرحلة بروز هذه الشخصية كانت مرحلة مليئة بالمتناقضات، حافلة بالأشواك والمصاعب والإحباطات. كان الحزب والشعب يطالبان بالإستقلال وعودة محمد بن يوسف، يقرن بينهما ولا يقبل إنفصالا أو تعاقبا. وكانت السلطة الإستعمارية التي نفت محمد بن يوسف لارتباطه بالحزب والمطالبة بالإستقلال لا تقبل أيّا منهما. فاستقلال المغرب كارثة لفرنسا لا تحتملها الجمهورية الرابعة، التي تشبتت بمبادئ الجمهورية الثالثة في الاحتفاظ بالإمبراطورية الكبرى. عودة محمد بن يوسف، عمل لا تحتمله هيّبة فرنسا، التي لم يسبق لها أن تراجعت عن موقف خطير، كإبعاد سلطانه عن عرشه،

2- Aix les Bains (25 - 28 غشت 1955).

3 - Edgar Faure (1908-1988) تقلد عدة مناصب وزارية من ضمنها رئاسة الحكومة في الجمهورية الرابعة. كان عضوا في أكاديمية المملكة المغربية عند تأسيسها (أبريل 1980).

لم تقدم عليه إلا بعد أن دبرت له في داخل المغرب ولدى الدول الأجنبية وأعدت له سياسيا وإداريا وعسكريا.

كيف يقنع حزب الاستقلال حكومة فرنسا بهذين المطلبين الخطيرين، وهي تعاني من عقدة تشرذم الإمبراطورية في الشرق الأوسط، في الشرق الأقصى، في إفريقيا، في الجزائر؟

كيف تقنع حكومة بهذين المطلبين الخطيرين والجيش الذي كان له ضلع في عملية عزل السلطان وإبعاده يعاني من الثورة الجزائرية، بعد أن إنهزم في معركة ديان بيان فو الفيتنام[4]؟

كيف تقنع حكومة فرنسية بهذين العملين الخطيرين والمغرب المقاوم يشدد الخناق على المستوطنين الفرنسيين: المعمرين والإداريين. الدارالبيضاء تنتفض إنتفاضتها الكبرى، المدن تتحرك ليصرع فيها حكام فرنسيون وجنرالات، وادي زم تثور فتصبح بالطا لآلاف الشهداء وقتلى الجيش الفرنسي؟

كيف تقنع حكومة فرنسية بهذين المطلبين ومن أعضائها الرئيسيين الجنرال كونيج[5] وأنطوان بيني[6]: أولهما عسكري إستعماري وثانيهما مدني متعصب رجعي واستعماري يعد نفسه ليعود إلى رئاسة الحكومة بعد أن عصف به تيار الإنقلابات الوزارية، وهو الآن يدير وزارة الخارجية لا يستطيع فيها أن يلمع فيها شخصيته من جديد؟

---

4 - معركة Diên Biên Phu (نونبر1953 - مايو 1954) واجهت فيها القوات الفرنسية المدعومة من قوات حلف الناتو قوات إتحاد تحرير الفيتنام. إنتهت بهزيمة نكراء للفرنسيين.

5- Pierre Kœning (1898 -1970)، وزير الدفاع في فرنسا. إشتهر في قيادة حرب بير حكيم بليبيا (1942) في مواجهة الجنرال الألماني روميل، وكذلك باعتقال المرشال بيتان وقيادته إلى السجن (يونيو 1945)، منحه الرئيس ميتران رتبة مرشال بعد الوفاة (1984).

6- Antoine Pinay (1891-1994)، كان وزيرا للخارجية في حكومة إدغار فور ولكنه سبق وأن تقلد منصب رئيسا للحكومة لمدة قصيرة (1952) كما تقلد لاحقا منصب وزارة الإقتصاد والمالية في الجمهورية الخامسة تحت إمرة الجنرال دوغول.

كيف يستطيع الحزب أن يقنع حكومة فرنسية بهذين المطلبين وهي لا تملك في البرلمان أغلبية تفرض بها موقفا إتجاه إحدى محمياتها فأحرى اقتلاع الدرة من تاج الإمبراطورية هذا البرلمان الذي يملك بسهولة أن يسحب الثقة من الحكومة، ويفعلها بنفس السهولة التي يشرب بها أعضاؤه قهوة الصباح؟

أي رئيس حكومة يستطيع أن يضحي بشهر من وقته على رأس حكومة فرنسية في سبيل استقلال المغرب وعودة محمد بن يوسف؟.

وكان الحزب لها: علال الفاسي من القاهرة ومدريد وروما يوجه الحزب بالرأي الذي لا يقبل بغير الإستقلال الكامل الناجز بديلا. أحمد بلافريج من جنيف يُستشار فيشير، وينتقل مَحمد بوستة يوميا بين فرنسا وسويسرا لينقل له الخطوات والمراحل التي وصلتها المحادثات ويتلقى منه التوجيه والرأي. بقية اللجنة التنفيذية في الرباط تصدر القرارات فيتلقها وفد الحزب في فرنسا بالهاتف. والمهدي بن بركة ينتقل بين الرباط وباريس كلما أمكنه أن ينتقل. وكان عبد الرحيم بوعبيد رأس وفد الحزب المفاوض في باريس .

وتأتي مذبحة "وادي زم" (20 غشت 1955)، خمسة أيام قبل موعد المحادثات فيشعر معها عبد الرحيم بوعبيد بالإحباط، ولكنه يعرف كيف يضع المذبحة الرهيبة في برشامة يبلعها لمخاطبيه.

حينما كان يتحدث عبد الرحيم مع إدغار فور كان الرئيس يستمع، ربما بدافع من زوجته[7] التي إقتنعت قبل أن يقتنع الرئيس ذي الرأس الضخمة والعقلية المتفتحة والشخصية المليئة بالثقة بالنفس والأسلوب المراوغ واللغة التي تعني فيها الكلمة كل شيء إلا مدلولها اللغوي والسياسي والدبلوماسي. كان إذغار فور يواجه بوعبيد وبوستة: "أنتم الإستقلاليون رجعيون. أمامكم فرصة لتقنعونا بنوع ما من الحكم الذاتي. وتأبون إلا أن تربطوا عملكم هذا بالمستحيل، عودة محمد بن يوسف".

7- Lucy Meyer، يهودية الديانة، وأفكارها متحررة آنذاك. كان لها تأثير كبير على زوجها.

ويجيب مندوبا الحزب: "لاشيء غير عودة محمد بن يوسف".

عبد الرحيم بوعبيد كان يعرف كيف يبلغ إدغار فور الفكرة باللغة التي لا تجرح ولا تؤدي الكبرياء، وتقول الكلمة فيها كل شيء إلا مدلولها الفارغ فيفهم الرئيس ولا يملك أن يتعرض وهي تنتزع من لغته كلمة "رجعيون".

تلك كانت بعض سمات شخصية عبد الرحيم بوعبيد.

ولكن إذا أقنعت الرأس الضخمة على الجثة الضخمة المتفتحة فكيف تنفذ إلى الرأس المنغلقة، التي تتربع على الجسد القصير، المليئة بالعقد: رأس أنطوان بيني؟

- إستمع إليهم وفي إمكانك ألا تتعهد لهم بشيء.

هكذا أجابه إدغار فور وهو يمتنع عن أن يخاطب الإستقلاليين المغاربة "الإرهابيين" الذين يمارسون "إرهابهم" ضد معمرينا وجنودنا وجنرالاتنا وحكامنا في المدن المغربية.

إستمع أنطوان بيني إلى الأطروحة الإستقلالية يقدمها إليه عبد الرحيم بوعبيد بلغته الفرنسية التي رضعت من لبان الدبلوماسية الفرنسية وتغذت بالأصالة الإستقلالية، فانحلت عقده وهو يكتشف ما كان غائبا عن معارفه في السلطة منذ كان وزيرا أو رئيسا للوزراء وهو يقول: "هؤلاء يتكلمون لغة فرنسية راقية كلامهم لا يخلو من منطق".

وبدأ أنطوان بيني يبتلع "الإستقلال" المر في برشامة "الأنتر ديباندديس"[8]. (الإستقلال المتداخل) لعله إنتقل بذلك من عدو للمغرب إلى صديق .

قد لا يكون عبد الرحيم بوعبيد أرضى كل القيادة الإستقلالية وهو يجازف بقبول فكرة "الإستقلال المتداخل". ولكنه كان يعرف أنها كلمة لا مضمون لها في القانون الدولي، وأن الكلمة التي تولد ميتة لن تكون لها قدرة على الحياة.

8- Interdépendance.

ما أظن أن شخصية أخرى من شخصيات الحزب كانت قادرة على أن تتحمل مثل هذه المسؤولية الخطيرة. ولكن كان يشفع لأسلوب عبد الرحيم بوعبيد في نضاله السياسي أنه كان يستطيع أن يقنع شخصيات أمثال أنطوان بيني أو إدكار فور أو بيير جولي وإن لم يستطع أن يقنع الجنرال كونيغ أو الجنرال "بوايي دولاتور"[9]. المنطق الإستعماري الفرنسي كان يمكن أن تخترقه باللغة الفرنسية التبليغية، التي قد تقول الكثير ولا تقول شيئا في نفس الآن، والتي عرف بها المفاوض الفرنسي دائما، كما عرف المفاوض الإنجليزي بالعبارات الملغومة التي تقول الشيء وضده. تثبت وتنفي... وتبقى العبارة مفتوحة لكل الإحتمالات.

وكان عبد الرحيم بوعبيد يجيد لغة الحوار الفرنسية. وإذا لم يقنع محاوره فلا يجرح ولا يغضب أحدا. ويبقى على الباب مفتوحة للإقناع مرة أخرى.

-4-

تجلت شخصية عبد الرحيم بوعبيد هذه في كل مراحل حياته النضالية والسياسية حتى في أحفل مراحل هذه الحياة بالأشكال والتعقد: في الحكومة أو في المعارضة، في الحزب أو في حركة الإنفصال عن الحزب، في واجهة قيادة الحركة النقابية، في تكوين "الإتحاد الوطني للقوات الشعبية" أو في التخلي عنه لتكوين "الإتحاد الإشتراكي للقوات الشعبية". في تكوين الكتلة أو في قبول الأمر الواقع الذي فرضه عبد الله إبراهيم بإيقاف نشاط الكتلة، في دخول السجن رافضا لفكرة الإستفتاء، وفي قبول منصب وزير دون حقيبة في حكومة مرقعة لإجراء الإنتخابات...

هل هي مرونة؟

هل هو التفكير العملي البرجماتي؟

9- Pierre Boyer de la Tour du Moulin (1896 -1976) المقيم العام الرابع عشر. تولى الإقامة العامة عقب نهاية محادثات إكس ليبان لمدة لم تتجاوز أربعين يوما. عمل في ديوان الجنرال نوكيس، المقيم العام السابع (1936 -1943). وظف محمد أوفقير مدير ديوانه. وقد كان هذا الأخير من الضباط الأوائل في إستقبال محمد الخامس عند رجوعه من المنفى.

هل هو الإستهانة بالوسيلة للوصول إلى الغاية؟

قد يكون بعض ذلك أو كله أو غيره. ولكنه أسلوب طبع شخصية عبد الرحيم بوعبيد طوال قرابة نصف قرن من النضال. عرفت ذلك فيه وأنا أستمع إليه في أول جلسة حضرناها معا في اللجنة التنفيذية للحزب (يناير 1949) وعرفته في آخر جلسة حضرناها في منزل مَحمد بوستة في إطار لجنة التنسيق بين الحزبين قبل أن يدهمه المرض بأيام (نونبر 1991) أكدت لي هذه الإستمرارية طابع الشخصية المتفردة وخصوصيتها في آن.

قد يكون من ملامح هذه الشخصية المتفردة إعتزازه برأيه، وإيمانه بصواب إستنتاجاته. وأعتقد أن ذلك جزء من تفرد شخصيته ولو لم يكن ذلك لما كان عبد الرحيم هو عبد الرحيم.

ما مفتاح هذه الشخصية؟

سيقول كثيرون: "إنها الطبيعة التي لا تستعصي عن تقديم نماذج من أمثال مكيافيلى أو أمثال كليمانصو أو أمثال علال الفاسي أو أمثال تشيرشل أو أمثال دوغول أو أمثال محمد الخامس"...

عبد الرحيم بوعبيد جمع من كل هؤلاء في نموذج.

وسيقول آخرون : "إنه الذكاء الذي يهتدي به إلى الإدراك المبكر فيفهم ما في رأس مخاطبه ويستعد مسبقا لمواجهة الرأس اللينة والرأس الحرنة. ويهتدي إلى ما يريده العصر وما تتطلبه المرحلة".

وسيقول البعض: "إنها ثقافة الرجل، الفرنسية في الأساس، التي إمتلأ بها وخاضت في مرحلة من أخطر مراحل فرنسا، سنوات قليلة بعد الحرب التي كانت فيها فرنسا تتكون من جديد بعد أن صرعتها الهزيمة".

وقد يعلق آخرون: "إنها الممارسة الذكية لقضية من أخطر قضايا العصر في المغرب إختلطت فيها الأوراق، وكان فيها الصراع غير متكافئ في الأدوات والوسائل، بينما كانت الظروف مواتية لا تتكرر في مرحلة قريبة من الزمن".

جماع كل ذلك هو مفتاح شخصية الرجل. والذين يحاولون أن يدرسوا هذا القائد المتميز من "حزب الإستقلال" و"الإتحاد الإشتراكي للقوات الشعبية"، بعد أن رحل إلى دار البقاء فرحلت معه كل المؤثرات الشخصية والذاتية، عليهم أن يعودوا إلى مكونات الشخصية. وإذا كان من الصعب أن يلتمسوا ذلك من خلال آثاره المكتوبة، لأنها قليلة بالنسبة لما فعل، فيمكنهم أن يلتمسوها في الفعل، في النضال المستمر الذي بدأه يافعا وأغمض عينيه لآخر مرة وهو يناضل.

كان عبد الرحيم بوعبيد مناضلا ترك بصماته في تاريخ المغرب الحديث، وترك أبرز هذه البصمات في علاقات بين دولتين تميزت بالعداء قرابة نصف قرن وتحولت إلى علاقات متراوحة بين الصداقة وخصومات الأصدقاء يذكر فيها عبد الرحيم كلما كانت فيها مرحلة الصداقة ويرجى لها عبد الرحيم كلما كانت في مرحلة التراجع. وإذا كان ما يمكن أن تأسف له هذه العلاقات فهو أن عبد الرحيم لم تتح له فرصة واسعة لخدمة بلاده من خلال المسؤولية في الحكم نتيجة للتسلقات والإحباطات فحرمت بلاده من شخصيته المتميزة في وقت كانت أحوج فيه إلى شخصيات عديدة قادت الحركة الوطنية حتى أوصلت البلاد إلى شاطئ الإستقلال.

ليس الذنب ذنب هذه الشخصيات التي ملأت دنيا الوطن منذ منتصف العشرينات، وليس الذنب ذنب الوطن. وحسبها وحسبه أنهما تعاهدا على العمل يدا في يد حتى تحقق الإستقلال وتحققت بعض خطوات الديمقراطية.

***

إلتحق عبد الرحيم بوعبيد بالرفيق الأعلى يوم الأربعاء 8 يناير 1992 عن سن السبعين.

رحمه الله...

مَحمد بوستة ...

الدبلوماسي الحكيم

(2017-1922)

-1-

- يتحتم أن نُلغي الحدود بين موريطانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا بهدف إنشاء إتحاد الشمال الافريقي، وهي مرحلة أولى قبل إنضمام مصر والسودان في مستقبل الأيام.

بهذه العبارات تحدث مَحمد بوستة بانفعال وتأثر، قبل وفاته بأيام قليلة، وهو يؤكد إفريقيته منذ كان طالبا في باريس يعمل في إطار "جمعية طلبة شمال إفريقيا" (1946 – 1950) مرورا بعمله في أول وزارة خارجية المغرب المستقل حيث شارك تحت ريادة أحمد بلافريج لوضع اللبنات الأولى لسياسة المغرب الإفريقية في ظل كفاح شعوب ودول إفريقيا لانعتاقها من ربقة الاستعمار وتكوين مستقبلها.

إيمان مَحمد بوستة بإفريقيا تبلور أيضا خلال مشاركته الفعالة في إعداد أول مؤتمر قمة للدول الإفريقية المتحررة المنعقد في الدارالبيضاء (يناير1961) تحت رئاسة محمد الخامس. وتكرس عند ترأسه لبعثة مدنية مهمة مكثت شهورا في الكونغو عقب محاولة إنفصال إقليم كاتنغا عن الوطن الأب، وقُدِّر له أن يطوف إفريقيا حينما وُلّي مسؤولية وزارة الخارجية (1977–1983) دفاعا عن الصحراء المغربية غداة إسترجاعها بالمسيرة الخضراء. وكان له خلال كل هذه المهمات حظ العمل مع كبار الوطنيين الأفارقة الذين قادوا بلادهم نحو الاستقلال من أمثال: كوامي نكروما، كنيت كواندا، باتريس لومومبا، فرحات عباس، أحمد سيكوتوري وغيرهم كثيرون.

هذه المواقف شكلت حجر أساس لسياسة المغرب في إفريقيا التي إستمرت منذ إستقلال البلاد حتى ومَحمد بوستة يودع ويعاين، قرير العين، عودة المغرب إلى عائلته الإفريقية بعد غياب إضطراري دام ثلث قرن (1984-2017)، ويشاهد عاهل البلاد يُوطد، وقد أصبحت إفريقيا متحررة متماسكة بإمكاناتها، علاقات التعاون بين مختلف دولها وبين المغرب بهدف تنمية إقتصادية وإجتماعية وثقافية، فاعلة ومستدمية.

فقد أصبحت بذلك مقولة الحسن الثاني "المغرب يشبه شجرة تمتد جذورها المغذية إمتدادا عميقا في التراب الإفريقي، وتتنفس بفضل أوراقها التي يقويها النسيم الأوروبي ...الويل كل الويل لشعوب إجتُثت جذورها، ذلك أن الشجرة التي لا جذور لها لا تنبت ورقا ولا ثمرا، إنها شجرة ميّتة"[1]، إتجاها واضحا يبشر بمستقبل واعد للمغرب في إطار قارة متكاملة وفاعلة.

-2-

بدأ الوعي الوطني عند الفتى مَحمد بوستة منذ يفاعته وهو يساهم في مظاهرة صاخبة في مراكش إحتجاجا على مصادرة مياه واد بوفكران لصالح أراضي المعمرين على حساب صغار الفلاحين وسكان مدينة مكناس. مراكش عبّرت هي الأخرى، شأنها شأن القنيطرة والخميسات وفاس وغيرها من المدن، عن إستنكارها لاستمرار الاستعمار في سياسته الإنتقائية والإبتزازية ضدا على مصالح الطبقات العاملة والفلاحية في المغرب.

كان نصيب المتظاهرين، والفتى مَحمد من بينهم، الضرب والجلد والتنكيل من العسس العاملين تحت إمرة التهامي الكلاوي، باشا المدينة واليد اليمنى للإستعمار وممثل الإقطاع الذي كان يضاهي إقطاع المعمرين.

كانت هذه البذرة الأولى التي زُرعت في الوعي الوطني للشاب مَحمد بوستة. رجة أخرى تصطدم بها نفسية الفتى عندما علم بنفي علال الفاسي ومحمد

1- الحسن الثاني، التحدي، ص 295-296.

غازي. كان الفتى مَحمد قد تعرف على هذه الشخصيتين، صدفة، عندما زار مع العائلة مدينة فاس، وقد كان خاله المهدي بن سليمان قيّما على المركز العام للحزب الوطني. تسائل في نفسه:

- هل يمكن لشابين نحيفي الجسم وسالمي المظهر أن يزعجا نظاما إستعماريا يتوفر على قوات هائلة كنظام فرنسا وأن يبعدا إلى أدغال إفريقيا وإلى الصحاري القاحلة؟.

ظل السؤال يراوده حتى إنفجر الوضع في مراكش يطالب المتظاهرون فيه بعودة الرواد إلى معاقلهم.

وتمر الأيام - طويلها وقصيرها - وتحتضن فاس، مرة أخرى، مَحمد بوستة حيث عُيِّن والده، أحمد بن عمر بوستة، مراقبا للدروس إثر صدور قرار سلطاني لتنظيم الدراسات في جامعة القرويين الإسلامية.

ويجد الشاب مَحمد نفسه تلميذا في ثانوية مولاي إدريس وسط مجموعة من التلاميذ الجدد يختلفون، نوعا ما، عن التلاميذ الذين غادرهم في مراكش. ويشاء القدر أن يجتمع هؤلاء الفتيان، بعد ذلك بسنوات، في مسؤوليات مهنية وسياسية ووطنية.[2]

كان التلاميذ في ثانوية مولاي إدريس يشكلون جماعات صغيرة فاعلة ومنفعلة، تجمع رواد فصل معيّن لينتظموا في فريق مصغر يشتغل بالدراسة والتحصيل. معظم التلاميذ كانوا يساعدون تلاميذ الصفوف التحتية في المرحلة الإبتدائية أو الثانوية. تعمل هذه الجماعات لتحفيز التلاميذ على تحصيل الدروس والفوز بأعلى الرتب عند الامتحان. هكذا، كان التلاميذ ينوبون عن أرباب عائلاتهم في المراقبة المدرسية والإنضباط الخلقي. وتشتغل الجماعة أيضا في التكوين الوطني والسياسي على قدر مستوى تلاميذ كل فصل بهدف مساعدتهم على تتبع التطورات السياسية في المغرب. ولذلك لا غرابة في أن توفر هذه الثانوية مجموعة من الفاعلين

2- يتصدرهم مَحمد الدويري، بن سالم الكوهن، مَحمد بنيس، محمد القصري، والفاطمي الإدريسي.

اللذين وقعوا على وثيقة المطالبة بالاستقلال، بعد ذلك بسنوات.

في هذه البيئة، تألق محمد بوستة بين خلاّنه في الدراسة وفي أنشطة رياضية ثقافية وترفيهية إلى جانب العمل في التوعية الوطنية والسياسية.

كانت الحركة الوطنية في هذه المرحلة تكوّ ن الشباب بطريقة منظمة وبأسلوب فاعل، تعدهم للمستقبل الذي سيكون عليه المغرب: دولة حرة مستقلة. كان معظم التلاميذ مؤطرين على شكل خلايا للدراسة والتوعية الوطنية. في هذه الظروف، أدى الفتى مَحمد ، وهو دون العشرين من عمره، قسم الإلتحاق بالحزب الوطني على يد قاسم بن عبد الجليل.

وتعرف الشاب مَحمد على قائدي "الحزب الوطني" في فاس : الهاشمي الفيلالي وعبد العزيز بن ادريس. وقد تعلم منهما الكثير من أهداف الحركة وطريقة تكوين خلايا من الحرفيين والتجار.

كانت الحركة الوطنية تستهدف، قبل الإعلان عن تأسيس "كتلة العمل الوطني"، تنظم العمال ليس فقط للدفاع عن حقوقهم ومصالحهم كحرفة، ولكن كذلك تكوينهم ليصبحوا في مقدمة العاملين في تنظيماتها. وقد ساهمت هذه الطبقة بالفعل بقسط كبير في الاصطدامات التي حدثت عقب تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، ومن أعضائها تكوّنت خلايا المقاومة المسلحة بعد نفي محمد بن يوسف.

سنوات بعد ذلك، يعود الشاب مَحمد إلى مراكش لمتابعة دراسته الثانوية. ولم يحرز على شهادة البكالوريا حتى كان فكره ناضجا لولوج الدراسات العليا خارج المغرب. كان التوجيه الذي يعطيه حزب الاستقلال، الذي تأسس رسميا قبل ذلك بسنتين، للتلاميذ المتخرجين من الثانويات يرتبط أساسا بالاحتياجات المهنية المستقبلية للبلاد. وكان توجيه مَحمد بوستة هو أن يلج مدرسة فلاحية في فرنسا لتعويض النقص الذي يشكو منه المغرب في هذا الميدان. وكان من الذين يساعدون

على هذا الاتجاه جاك بيرك[3]. كان أمام الموجه مثال عمر بن عبد الجليل، أول مهندس فلاحي الذي أصبح أحد رواد حزب الإستقلال.

في الطريق إلى باريس يغيّر بوستة، صدفة، إتجاهه إلى الدراسات الحقوقية والفلسفية. صار يطمح لأن يصبح محاميا يدافع عن المظلومين، ويقاوم الميز والعدوان الذين يطبعان السياسة الاستعمارية في كل اتجاهاتها بالمغرب.

في مدينة الأنوار، يجد الشاب نفسه في الحي اللاتيني حيث توجد كبار المدارس والكليات المتخصصة وجامعة السوربون التي سيلتحق بقسمي الحقوق والفلسفة فيها. وفي هذا الحي تتصارع الأفكار التقدمية، تبحث عن العقول الواعدة وفيها ينمو طموح الشباب إلى العمل المشترك. كان الحي يضم عددا من النوادي ومراكز الجمعيات المناضلة. وكان من بينها "جمعية طلبة شمال إفريقيا" التي أسسها الطلبة المغاربيون في باريس في آخر العشرينات من القرن العشرين و"نادي حزب الاستقلال" وعددا من النوادي المناضلة للطلبة الأفارقة، تلتقي أفكارها جميعا في نضال مشترك لصالح إيجاد وضعية مغايرة لشعوبها المتطلعة إلى الحرية والسلام.

في جامعة السوربون يجد الطالب مَحمد بوستة ضالته: أساتذة كبار في العلوم السياسية والقانونية والفلسفية يحاضرون عن الوضعية العالمية وخاصة الفرنسية آنذاك. فرنسا خرجت من الحرب العالمية الثانية، تبحث عن مستقر لها، والحكومات تتعاقب بدون استقرار لمواقف سياسية أو إقتصادية حتى إن بعضها لم يعمر أكثر من يومين.

وموازاة مع تكوينه الجامعي، بدأ بوستة يناضل مع إخوانه الطلبة المغاربة المنتمين إلى سائر الكليات في إطار فرع حزب الاستقلال. كان الفرع يعمل من أجل إشعاع الأفكار الوطنية التي تتصل برغبة المغرب والمغاربة في الاستقلال وإدارة الحياة بأنفسهم.

3- Jacques Berque (1910-1995)، مستشرق فرنسي. إشتغل في إدارة الحماية بفاس، وما لبث أن تعاطف مع الوطنيين. كتب تقريرا عن أخطاء الحماية. ومن ثمة، أبعدته الإقامة العامة إلى منطقة إيمنتانوت إلى حيث لا يستطيع أن يجد أنصارا لأفكاره المتحررة. قدم إستقالته إثر نفي محمد بن يوسف وهاجر إلى مصر.

في هذه الظروف تعرف مَحمد بوستة على عبد الرحيم بوعبيد الذي رحل، هو الآخر إلى باريس، لدراسة الحقوق في نفس الكلية بعد أن مرّ بتجربة السجن عقابا له على مشاركته في توقيع وثيقة المطالبة بالاستقلال ومساهمته في المظاهرات التي تلت هذا الحدث.

وقد اشتغل مَحمد بوستة مع مَحمد الدويري وعبد الرحيم بوعبيد بدور أساسي في تكتيل المغاربة بمختلف اتجاهاتهم الدراسية وتعليمهم ما لم يكونوا قد أدركوه من مبادئ وتوجهات الحركة الوطنية. وكان الأغنياء من الوطنيين يتبنون الإنفاق على الطلبة الذين يعجز آباؤهم عن تغطية مصاريف دراستهم في الخارج. سُرَّ السلطان محمد بن يوسف بالفكرة وصار يتبنى، هو الآخر، نفقة عدد كبير من هؤلاء الطلبة طيلة دراستهم الجامعية. وعمل الثلاثي كذلك على مساعدة العمال المغاربة لتعلم اللغة الفرنسية واجتياز المصاعب التي تعترضهم في حياتهم العملية.

وكان من حظ بوستة وبوعبيد أن يشتركا معا في العمل الوطني، بعد العودة إلى المغرب، لأكثر من أربعين عاما، رغم إختلافهما في الانتماء الحزبي.

وقد ساعدت هذه الحركة على الإدراك الكامل لأهداف المغرب من الاستقلال والعمل كبلاد صديقة لفرنسا، وتفنيد مزاعم الإقامة العامة التي تدعي أن حزب الاستقلال والوطنيين أصبحوا شيوعيين ملحدين يواجهون فرنسا بالعداء بعد أن كانوا خلال الحرب يُتهمون بأنهم من أنصار تدعيم النازية في المغرب. وأضاف الشباب الثلاثة إلى ذلك الاتصال بشخصيات سياسية وصحافية نافدة (لومند، لوبسرفاتور مثالا)[4] لمدهم بالخبر اليقين لما يجري في المغرب.

هذا العمل الذي قام به مكتب فرع الحزب في باريس يُشبه ما قام به "مكتب المغرب العربي" بالقاهرة، ومنها تحرير محمد بن عبد الكريم الخطابي زعيم الحرب الريفية عند عبوره قناة السويس، وبما قام به فرع الحزب في نيويورك حيث مقر الأمم المتحدة.

4- حاليا Le Monde, Le Nouvel Observateur.

كل هذا العمل الذي قامت به فروع حزب الاستقلال في كل من باريس ونيويورك والقاهرة شكل رافعة قوية للعمل الذي سيقوده قادة الحزب في مرحلة لاحقة لتحصيل الاستقلال الفعلي للبلاد.

-3-

عاد مَحمد بوستة إلى أرض الوطن تحذوه فكرة فتح مكتب للمحاماة في مراكش حيث نشأ وترعرع وحيث عائلته في إنتظاره، معتبرا أن مستقبله المهني والوطني سيكون فيها. وعند أول مقابلة له مع عمر بن عبد الجليل، إنتقل بفكره إلى الدارالبيضاء، حيث سيجد ما يرتضيه في مدينة دائبة الحركة ووطنية بامتياز.

المدينة، بثقلها الاقتصادي، مشجعة على الإرتماء في أحضانها. أكد له عمر بن عبد الجليل أنه سيجد في الدارالبيضاء عددا من المحامين الفرنسيين المتعاطفين مع قضية المغرب. وفي مكاتب هؤلاء الأساتذة الكبار، يمكن له أن يقوم بواجب التمرين قبل التفكير في إنشاء مكتب خاص له. ومن ثمة، تغلبت فكرة الإقامة بالدارالبيضاء لما للمدينة الكبيرة من ممكنات عملية ومهنية واعدة ولما لها من آفاق واسعة.

- من الضروري أن تزور السي الهاشمي[5]، قد يساعدك على الاستقرار بالمدينة. ولا بأس أن تعود بوشعيب[6] في المركز العام للحزب فهو يسأل عنك كثيرا.

قالها الحاج عمر بلهجة محببة حنّية وهو يربت على خد مَحمد مودعا.

ويحمل مَحمد بوستة هذا التوجه، ويبدأ التفكير في المستقبل الواعد الذي ينتظره.

وما هي إلا أيام قليلة حتى إلتقى مَحمد بوستة بالأستاذ أنطوان رينيي[7]، أحد كبار المحامين المتنورين المتعاطفين مع القضية الوطنية :

5- الهاشمي الفيلالي.

6- محمد اليزيدي.

7- Antoine Regnier.

- البداية من يوم الإثنين القادم... عليك أن تؤدي اليمين القانونية بمحكمة الاستئناف. لديّ قضيتان جاهزتان للعمل. الأولى في تارودانت حيث إستولى "جرماني"، أحد المعمرين المعروفين هناك، عُنوة على أراضي صغار الفلاحين. الثانية عقارية كذلك تتعلق بنزع ملكية ظُلما من أحد الفلاحين الصغار في النواصر.

عاد به التفكير إلى خمس عشرة سنة خلت لأحداث بوفكران حيث ساهم بالتنديد بها في مراكش:

- تاريخ الاستعمار يشبه بعضه بعضا.

قال بوستة لنفسه.

كانت زيارته لبوشعيب مناسبة أخرى ليتعرف على وضعية المغرب أثناء ولاية الجنرال جوان.

- أتعرف، يا سي مَحمد، أن الجنرال جوان ترك منصبا رفيعا في باريس حيث كان رئيسا لأركان الجيوش الفرنسية ليأخذ مركزا أقل أهمية، وهو مركز المقيم العام بالمغرب؟

- ولِمَ؟

- لأنه يعتبر المغرب درة تاج الامبراطورية. هذه الدرة التي يحتقر رواد الاستعمار أبناءها ويمنعون عنهم العيش الكريم ويسلبون رزقهم في نفس الوقت.

- ليس ذلك ببعيد عن دولة تنقض بنود معاهدة الحماية وتسعى إلى تطبيق الاستعمار الفعلي على نحو ما تفعله في الجزائر.

- إقرأ مقدمة آخر خطاب للجنرال المقيم الذي ألقاه أمس في جموع من المعمرين الفرنسيين، سيعطيك فكرة واضحة عمّا آلت إليه فلسفة الذين يتحكمون فينا باسم فرنسا.

ومكنّه بوشعيب من صحيفة السعادة.

بدأ بوستة يقرأ بصوت مسموع:

- "إنني مصمم على التفرغ لمهمتي دون نفاق ولكن أيضا دون ضعف. يتذكر الكثيرون منكم، أيها الحضور، العهد الذي كان فيه سكان هذه البلاد يموتون ميّتة الذباب، بينما كان قوتهم الوحيد هو الجراد الذي كان يسقط عليهم من السماء إلى أن حضرنا وأنقذناهم من الفناء ".

- تكفي هذه المقدمة فهي معبرة لباقي الخطاب.

إستهجن مَحمد، الذي عاد منذ أيام من مدينة الأنوار، بهذا التفكير العنصري المليء بالضغائن والاحتقار للمغرب وللمغاربة.

قاطع بوشعيب تفكيره مضيفا بنوع من الحدة:

- منذ حلول هذا العسكري الأهوج إلى المغرب والأزمة تستفحل بينه من جهة وبين السلطان وحزبنا من جهة أخرى. حضر إلى المغرب وفي خطته القضاء على الحزب وأنصاره في كل مكان من البلاد. لم تنفع الرسالة التي بعثها السلطان إلى رئيس الجمهورية لتغيير عقليته وأساليبه.

- ألا يعرف هذا المستبد أن الجنرال دوغول وشح صدر السلطان بوسام رفيق التحرير إعترافا بمساعدة المغرب لفرنسا في تحررها من العدوان النازي؟

تسائل بوستة بنوع من الاستهزاء.

- لا تهمه مصلحة فرنسا في شيء فهو يخبط خبط عشواء، لاتربية له سياسيا ولا أخلاق. لقد طرد منذ أيام رفاقنا من المجلس الإستشاري الذي يحدد ميزانية الدولة لهذه السنة وأوعز إلى الكلاوي، بعد ذلك بأسبوع، أن يستفز السلطان ويتهمه بأنه سلطان لحزب شيوعي ملحد. تصور، يا سي مَحمد، حزب الإستقلال حزب شيوعي وملحد! أي تفكير هذا؟

- هذا الذي يقال عنه يضحك ويبكي في آن واحد.

- كل ذلك يدفعنا إلى مزيد من التصميم على مقاومة هذا الطاغي وأذنابه كما قاومنا صورا مثيلة له من قبل.

عند نهاية الزيارة بادر بوشعيب بالقول وهو يودع بوستة:

- أو ستقيم في الدارالبيضاء؟ غلبني الحاج عمر! حبّب إليك الإقامة والعمل فيها. أرجو لك كامل التوفيق.

توقف بوشعيب قليلا وهو يسترجع ذاكرته:

- يوم السبت عطلة في مكاتب المحامين. أليس كذلك؟

لم ينتظر جوابا وأضاف بلهجة أب ملحاح:

- عليك أن تخصص هذا اليوم للعمل مع عبد الرحيم في تحرير جريدة الاستقلال. لن يجد أحسن منك... فقد كنتما تعملان معا في باريس ويُستحب أن تستمرا.

وفي الدارالبيضاء ، فاجأ الهاشمي الفيلالي بوستة بالقول :

- الدارالبيضاء مدينة كبيرة تحتاج إلى شباب نشيطين مثلك. سمعت كثيرا مما كنت تقوم به في باريس. أطمع أن تعمل مع زملائك في الفرع.

هكذا إستقر مَحمد بوستة في الدارالبيضاء. لم تجتذبه مراكش وفرعها الذي كان يشرف عليه وطنيان عبد الله إبراهيم وعبد القادر حسن منذ تعرف عليهما يوم ساهم في المظاهرة ضد الاستحواذ على مياه واد بوفكران، ولا الإقتراب من العائلة والأصدقاء.

-4-

السنوات الأربع التي قضاها الجنرال ألفونس جوان في المغرب (مايو 1947-يوليوز 1951) كانت حافلة بتدبير الضربات القاضية ضد الشعب المغربي وسلطانه. كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة في هذه الفترة تحبب إلي الجنرال أن ينتقل إلى باريس ليشغل مهامات عسكرية عليا. لكن الجنرال جوان كان يرفض باستمرار بدعوى أن مخططه في المغرب لم يكتمل بعد. ولم يعد إلى باريس إلا تحت الشرف الذي سيحصل عليه بقيادة الحلف الأطلسي وسط أوروبا تحت

قيادة الجنرال أيزنهاور بطل الحرب العالمية الثانية. وكان مما شجعه على الاستجابة لمطالب باريس أنه وُعد بترقيته إلى رتبة المرشالية والحصول على مقعد في الأكاديمية الفرنسية.

وقد بادر الجنرال جوان، قبل مغادرته المغرب، إلى إختيار الجنرال كيوم خلفا له، وهو أحد تلاميذه المعروفين بالولاء له وبتطرفه الشديد، وقد كان يجد تجاوبا كبيرا لدى المعمرين الفرنسيين.

كان كيوم من العارفين بالمغرب. فقد إنتقل، فور تخرجه من مدرسة سان سير الشهيرة، إلى مكناس لقيادة جيش الاحتلال (1919) تحت ريادة المرشال ليوطي وتدرج للعمل في مناصب عسكرية مهمة مع عدد من المقيمين العامين. وخلال الحرب العالمية الثانية، قاد معركة مونتي كاسيني الشهيرة بإيطاليا على رأس كتائب مغربية (يناير- مايو 1944)، في إطار مخطط دقيق وضعه الجنرال جوان، وفيها حصل على أعلى رتبة في الجنرالية.

بدأ الجنرال كيوم يقلم أظافر حزب الاستقلال في كل مدينة تقترب أو تبتعد عن العاصمة من أكادير حتى وجدة. كان الحزب حاضرا في هذا الصراع. الفروع تشتغل بسرية كاملة عن طريق الخلايا، والمناضلون في كل أرجاء البلاد يُحضرون أنفسهم للقيام بالأدوار الحاسمة التي يخططها لهم الحزب إستعدادا ليوم الفصل.

ولم تمر إلا أشهر قليلة حتى إنفجر الوضع على إثر مقتل الزعيم النقابي الشاب التونسي فرحات حشاد (38 سنة) على يد عصابات اليد الحمراء (5 دجنبر 1952). إرتأى حزب الإستقلال أن يعبر عن تضامنه مع تونس في كفاحها، وقررت اللجنة التنفيذية – وأنا عضو فيها - تنظيم إضراب شامل يوم ثامن دجنبر 1952.

كان من الذين نقلوا القرار عبد الله إبراهيم إلى فروع الدارالبيضاء ومَحمد بوستة إلى فروع مدينتي الجديدة وآسفي.

شمل الإضراب جميع المعامل والمتاجر ووسائل النقل ومراكز صناعة وتوزيع المواد الغذائية وكل نشاط مهني. أصبحت جميع المدن المغربية ميّتة دون حراك.

إمتعضت الإدارة الاستعمارية من ضراوة الإضراب وشساعته. فلم تهتد. زاد من حنقها أن مصالحها الاستخباراتية لم تتمكن من الاستعلام عن مصدر هذه الحركة.

في نفس اليوم، نظمت إجتماعات في مركز "الاتحاد المغربي للشغل"، تحدث فيها الخطباء عن الشهيد حشاد وعن نضال تونس من أجل الحرية والكرامة... لا شيء غير التضامن مع تونس، لا شيء ضد الإقامة العامة والفرنسيين. تفرق الاجتماع بغير إثارة وعاد العمال إلى مساكنهم دون هتافات عدائية أو أعمال إفتزازية.

بأمر من المقيم العام الجنرال كيوم، نظم باسكال بونيفاس[8]، رئيس الحامية العسكرية للدارالبيضاء، إحدى خطط الانتقام الجاهزة للتنفيذ التي قام الجنرال جوان بهندستها قبل تسليم السلط إلى خلفه. ومن ثمة، تجولت سيارات "سيتروان تراكسيون أفان" سوداء[9] دون لوحات أرقام ولا علامات. وكان يجلس في المقاعد الخلفية مرتزقة يرتدون قبعات ونظارات سوداء ويحملون رشاشات سريعة الطلقات.

إخترقت السيارات شوارع منطقة "كاريير سنطرال"[10]، وهو الحي الذي يسكنه معظم العمال المضربين، تحصد عشرات الأطفال والشباب والرجال وهم مجتمعون في لقاءات عفوية. أُخذوا على غِرّة، فلم ينج إلا القليل منهم. إنتشرت رائحة الموت تزكم الأنوف، الدمار واليتم يتلصص إلى منازل العائلات.

كانت هذه الأحداث نموذجا آخر يماثل المجزرة التي وقعت في حي "درب الكبير" بالدارالبيضاء (7 أبريل 1947) عشية زيارة السلطان لطنجة، نظم العمل الفاجع فيها باسكال بونيفاس، نفس المسؤول عن فاجعة "كاريير سنترال".

كان شباب الحي في مستوى الحدث. خاض معركة الدفاع عن النفس ونجح في إصابة بعض المهاجمين إصابات مميتة.

8- Pascal Boniface.

9- Citroën Traction Avant، وهي فرنسية الصنع.

10- Carrières centrales، الحي المحمدي حاليا.

قررت قيادة "الاتحاد المغربي للشغل" إجتماعا عاجلا في مركزها العام. فتحت الأبواب لدخول العمال دونما إعتراض. وما أن إمتلأت القاعة حتى حضرت الشرطة وأحكمت إقفال الأبواب. جماعات من المستوطنين الفرنسيين، شبابا ورجالا ونساء، كانوا بالمرصاد، مسلحين بالهروات والأسلحة البيضاء، منظمين منتظمين لخوض معركة الفصل.

بدأت الشرطة تفرغ المكان من المجتمعين واحدا بعد الآخر، وتسلمهم لمجموعة من القتلة تملأ قلوبهم الأحقاد والضغائن للقيام، بكل انتظام، بعملية تقتيل منظمة وممنهجة.

أول رد الفعل جاء من أكادير حيث قامت خليّة من فرع الحزب بهجوم مسلح على منزل الحاكم العسكري للمنطقة. وكان هذا العمل بداية لثورة عارمة أصبح التحقيق فيها من اختصاص المحكمة العسكرية بالدارالبيضاء إلى حيث نقل كل المعتقلين المتهمين من جميع أنحاء المملكة.

كانت التهمة الموجهة إلى جميع المعتقلين : المس بأمن الدولة الداخلي والخارجي إعتبارا بأن العمل عسكري فيه أسلحة وقنابل وقتلى من الفرنسيين إلى جانب إضراب شلّ الحركة الاقتصادية وأثار فتن أدت إلى إراقة الدماء، دماء المستوطنين الفرنسيين.

كانت "هيئة أركان الحرب" تواصل تنفيذ مخططها في غرفة العمليات. فقد صدرت الأوامر، بعد إعتقال مآت من الشباب المتظاهر والعمال الذين سلموا من القتل والشنق، لإعتقال قيادة حزب الاستقلال[11] وكل مسيري فروعه في مختلف أنحاء المغرب. وعرف فجر عاشر دجنبر 1952، وما بعده من أيام، إختطافات الرجال من منازلهم وتصرفات وحشية مع الذين صدرت الأوامر باعتقالهم في الدارالبيضاء والرباط وفاس ومختلف مدن المغرب.

وصدرت قرارات منع "حزب الاستقلال " و"الحزب الشيوعي " وتوقيف صحيفتي " العلم" و"الإستقلال " وإقفال مكاتب إدارتهما . وفتحت المحكمة

11- محمد اليزيدي، الحاج عمر بن عبد الجليل، أبوبكر القادري، قاسم الزهيري، محمد غازي، وعبد الرحيم بوعبيد.

العسكرية بالدارالبيضاء أبوابها لتحاكم جميع المعتقلين وفي مقدمتهم اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال والأعضاء البارزين في النقابة وفروع الحزب.

كان مَحمد بوستة، مع مجموعة من المحامين المغاربة المتمرنين يتصدرهم البشير بلعباس، هناك، يقفون في مراحل الإستنطاقات في مواجهة قضاة التحقيق: جيليزو في مقدمتهم. كان جيليزو يربط "الفتن" التي عرفها المغرب بعلاقات حزب الاستقلال مع منظمات شيوعية تسعى إلى زعزعة السلم والأمن في الأمبراطورية الفرنسية. بدأ جيلزو يبحث عن منابع المال، عن مصادر السلاح، عن علاقات الوطنيين بالأوساط اليسارية في فرنسا، عن مدى قوة الفكر التحرري في تنظيم وتوسيع دائرة نفوذ الحزب. لم يكن للقانون المغربي وجود إلا في ثنايا ظهير ينص على زجر المظاهرات المخالفة للنظام العام وردع ما يمس الاحترام الواجب لولاة الأمر[12]، ولذلك فالمتهمون معرضون لأقسى العقوبات في القوانين الفرنسية.

أدرك بوستة خطورة وصعوبة التهم الموجهة إلى الوطنيين وبدل جهودا كبيرة لممارسة القضايا الحقوقية التي تختلط فيها القيّم والمسؤولية بين حماة الفرنسيين وبين الفرنسيين القتلة.

كانت هذه الأحداث مفاجئة لبوستة في عمله، كمحامي متمرن، ليعالج قضايا جنائية خطيرة فردية وجماعية مثل الأحداث التي أصبحت الدارالبيضاء مسرحا لها، وقد كان يهتم أساسا بقضايا إستحواذ المعمرين على أراضي الفلاحين الصغار.

ومما زاد في تعقيدات العمل الدفاعي الذي قام به الثنائي بوستة - بلعباس التنقل بين أعضاء اللجنة التنفيذية المعتقلين واللجنة التنفيذية السرية[13] لاستمرار مواصلة العمل، وكذا نقل الأخبار بين المسجونين، وهم في زنازن مختلفة، حتى لا يقع المعتقلون في تصريحات متناقضة.

12- حسب ظهير (29 يونيو 1935).

13- ضمّت عبد الكبير الفاسي، مَحمد الدويري، عبد الله إبراهيم (أياما معدودات قبل أن يعتقل) ، البشير بلعباس، مسعود الشيكر وعبد الكريم غلاب.

وكان عليهم كذلك أن يواسوا العائلات التي كان معظمها لا تجد لها دخلا ماليا تسد به الرمق وبالأحرى مواجهة المصاريف القضائية وأتعاب المحامين.

وتحمل بوستة إعداد الحيثيات القانونية للمحامين المرافعين[14] وأغلبهم من الفرنسيين المتعاطفين مع القضية المغربية حتى يخففوا من العقوبات التي قد تبلغ السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة أو الإعدام.

وتعاقبت الأحداث في تصاعد خطير لمدة ثمانية أشهر لم يهدأ عمل المحامين في مواجهة المحاكمات. وكان أبرز نتائجها الأولى الحكم بالإعدام على عبد اللطيف بن قدور ولحسن إيدر وأحمد الحنصالي. وما لبث الجنرال كيوم أن قرر تنفيذ الشطر الثاني من المؤامرة التي خطط لها جورج بيدو[15] وزير خارجية فرنسا باتفاق مع الجنرال جوان. إعتقل السلطان وولي عهده وأفراد من عائلته ليلة عيد الأضحى (20 غشت 1953)[16] وتم نفيهم على التو إلى جزيرة كورسيكا قبل نقلهم إلى مدغشقر المستقر الأخير. ومن ثمة، بدأت المقاومة في عملها... وكان فاتحة عهدها العمل الجريء الذي قام به علال بن عبد الله محاولا تصفية الدمية التي نصبت على عرش المغرب. وإنطلق الصراع بين الوطنيين والفرنسيين وجيش التحرير لمدة جاوزت السنتين حتى عاد السلطان إلى عرشه معززا مكرما.

ويجد المحامي بوستة نفسه من جديد، وقد كوّن خبرة عالية في معالجة قضايا "الإرهاب"، أمام عدد كبير من قضايا الدفاع عن الوطنيين في الإتهامات الخطيرة التي كانت سلطات الاحتلال توجهها إليهم. وبصفته محاميا مغربيا كان عليه أن يكون حذرا وسط عدد من المحامين ينتصبون من جديد أمام المحاكم العسكرية والمدنية الفرنسية ويواجهون قضاة أشداء متعصبين، من صنف القاضي جيليزو يخضعون لأوامر صادرة عن الإقامة العامة، لا عن روح القانون.

14- كان من ضمن الأساتذة الفرنسيين لوغران، ريني، لويدجي، روسلي، بوتان وداركوس ومن المغاربة الأساتذة الطاهري وعاشور.

15- Georges Bidault، (1899-1983)، سبق وأن تولى رئاسة الحكومة لفترتين. وكان رئيسا للحركة الجمهورية الشعبية، وهو حزب مسيحي متطرف. وعقب نفي محمد بن يوسف صرح بمقولته الشريرة: "اليوم إنتصر الصليب على الهلال إلى الأبد".

16- تاسع ذو الحجة 1372.

في كل هذه القضايا، إرتبط إسم بوستة ونمت تجربته الميدانية العملية حتى إذا ما بدأ الجو يصفو سياسيا وبدأت تباشير إنفراج الأزمة، إثر إقالة الجنرال كيوم من منصبه والإفراج عن قياديي حزب الاستقلال، إستدعته قيادة الحزب[17] وكلفته بالمساهمة في المحادثات التي أبدت حكومة إدغار فور[18] الفرنسية إستعدادا لإجراءها مع ممثلين عن الأوساط المغربية وحزب الاستقلال من ضمنها.

-5-

كان مَحمد بوستة مع عبد الرحيم بوعبيد على رأس الوفد الذي مهد لتحقيق هدفي المغرب الأساسيين: عودة محمد الخامس والاستقلال. إختارت قيادة الحزب شخصيتين بارزتين من شبابه لمفاوضة إدغار فور نظرا لتكوينهما المزدوج القانوني والسياسي، ونظرا كذلك لمعرفتهما بالعقلية الفرنسية. بدأت المحادثات بين الحكومة الفرنسية و"الشخصيات" والهيئات الممثلة للرأي العام لحل ما سمي بالمشكلة المغربية، بعد تولي إدغار فور مسؤولية رئاسة الحكومة الفرنسية (مارس 1955). كان بعض المتنورين الفرنسيين[19] يعملون بجد لفتح باب الحوار من أجل معالجة قضيتين هامتين: قضية العرش التي تعقدت بعد نفي محمد بن يوسف، وقضية إنشاء علاقات جديدة تعوض العلاقات السيئة التي جمعت البلدين طيلة فترة الحماية (43 سنة).

كان المهم، في نظر إدغار فور، هو تهدئة الشارع المغربي وضبط ما سميّ بالفوضى الأمنية التي فشل المقيمان العامان السابقان (لاكوست وكرانفال[20]) في السيطرة عليها.

فكر إدغار فور تفكيرا مركزا في هاتين المشكلتين، ولا شك أن ثلاثة أمور إعترضت تفكيره " المتفتح". ذلك أن المقاومة المسلحة إتسعت دائرة نشاطها

17- محمد اليزيدي وعمر بن عبد الجليل.

18- Edgar Faure.

19- من ضمنهم جاك لوميكر دوبري Jacques Le Maigre Dubeuil الذي قتلته منظمة اليد الحمراء (11 يونيو 1955).

20- Francis Lacoste، مكث سنة كاملة في مهمته بينما لم تتجاوز مهمة Gilbert Grandval 55 يوما.

وأصبحت تعمل بصورة أكثر حدة منذ نفي محمد بن يوسف وقرار القضاء على حزب الاستقلال. ثاني الأمور، أن منديس فرانس[21]، رئيس الحكومة السابقة تمكن من الاستجابة لمطالب تونس إنطلاقا من مفهوم الاستقلال التدريجي. ثالثها أن إدغار فور كان يتخوف من سقوط حكومته نظرا لهشاشة أغلبيته في الجمعية الوطنية. ذلك أن نظام الجمهورية الرابعة الذي كان آنذاك يُعمل به في فرنسا عرف، خلال عشر سنوات، تعيين أكثر من عشرين حكومة عمّرت أقصرها يومين وأطولها 13 شهرا، ولم تدم الحكومة الأولى التي ترأسها إدغار فور، قبل سنتين، إلا شهرا واحدا.

كان إدغار فور يتطور تدريجيا في تفكيره في القضية المغربية رغم أنه كان يعاني في حكومته من متعصبين في مقدمتهم أنطوان بيني وزير الخارجية والجنرال بيير كونيغ[22] وزير الدفاع.

بدأ إدغار فور يفكر في تكوين حكومة تمثيلية في المغرب لتقوم بإصلاحات إجتماعية وإقتصادية مع الإبقاء على محمد بن عرفة على عرش البلاد. وكان لضغط المقاومة المسلحة التي إشتدت في المغرب (الدارالبيضاء وواد زم مثالا) أثر في تطور فكره. مرّ في تفكيره هذا بنظريات إحداها بعد الأخرى لإخراج المغرب من عهد الحماية إلى عهد ما كان يفكر فيه : الاستقلال المتداخل.[23]

واهتدى أخيرا للتفكير في الإستغناء عن ابن عرفة وتنصيب مجلس للعرش في إنتظار البحث عن رجل ثالث يلي العرش. لكن الثنائي الاستقلالي "بوعبيد - بوستة" كان في المواجهة. وكان الجواب الصارم: رجوع محمد بن يوسف إلى عرشه أولا، والإستقلال التام ثانيا، ولاشيء غير ذلك.[24]

21- لم تعمر حكومة مندس فرانس (Mendès France) إلا سبعة أشهر وبضعة أيام (يونيو 1954- فبراير 1955).

22- Antoine Pinay et Pierre Kœning.

23- Interdépendance.

24- راجع ما كتب عن الطريقة التي كانت تجرى به المحادثات بين إدغار فور والوفد الاستقلالي في: "عبد الرحيم بوعبيد....المناضل السياسي" صفحة 158-162 من هذا الكتاب.

عيّن أحمد بلافريج أول وزير للخارجية في ظل المغرب المستقل (26 أبريل 1956) ووجد نفسه مطوقا بمجموعة من القضايا منها ما يتعلق بتنفيذ إتفاقيتي الاستقلال مع الدولتين المحتلتين: فرنسا (2 مارس 1956) وإسبانيا (7 أبريل 1956).

وكان على الوزير الجديد أن يربط صلة المغرب مع عشرات دول العالم بتعيين سفراء لتمثيل المغرب واستقبال نظرائهم من نفس الدول وكذلك الإسراع بانضمام المغرب إلى الهيئات الدولية الهامة وفي مقدمتها الأمم المتحدة والجامعة العربية.

وتأتي قضية إسترجاع طنجة التي كانت تحت نظام دولي[25] وقضايا جلاء الجيوش الفرنسية والاسبانية واسترجاع القواعد الأمريكية[26] من القضايا الآنية التي على وزارة الخارجية معالجتها حتى يكون للاستقلال مدلوله الحقوقي.

وقدر بلافريج صعوبة المحادثات التي كان يتطلع إلى إجراءها مع إسبانيا بانسحاب جيوش إحتلالها من الأقاليم الجنوبية: سيدي إفني، طرفاية والصحراء الغربية. إنه يعرف مدى تعنت السلطات الإسبانية وعلى رأسها الجنرال فرانكو في مثل هذه القضايا.

على أن إسترجاع أقاليم الساورة والقنادسة وتيدكلت وبشار التي كان الاستعمار الفرنسي قد إقتطعها من التراب المغربي وضمّها إلى الجزائر، في الوقت الذي كان يعتبر الجزائر قطعة من الأراضي الفرنسية، كان يقض مضجع بلافريج منذ اليوم الأول من إستقلال البلاد. فقد كان الفقيه محمد غازي يحث صديقه الحميم أحمد بلافريج، صباح مساء، على ضرورة التوصل إلى إتفاق مع فرنسا

25- تم إقرار نظام دولي لطنجة في مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906) غير أنه لم يتأكد إلا في اتفاقية دولية (1924) وقعتها بريطانيا، إسبانيا، بلجيكا، هولاندا، البرتغال، السويد، إيطاليا، فرنسا، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وتم إلغاء النظام الدولي إثر مؤتمر فضالة (المحمدية) الذي إنعُقد (8-9 أكتوبر 1956).

26- نشأت هذه القواعد عقب الإنزال العسكري في المغرب (8 نونبر 1942) في إطار عملية "الشعلة". كان الهدف الأساسي من تواجد هذه القواعد في المغرب سيطرة دول الحلفاء على البحر الأبيض المتوسط في مواجهة ألمانيا النازية.

وعدم تأجيل حل هذه القضية إلى ما بعد حصول الجزائر على إستقلالها كما كانت تلح قيادة الثورة الجزائرية على المغرب مخافة أن يأثر ذلك على مسيرتها التحررية.

ثم كان على بلافريج أن يجد المقر المناسب لإيواء المكاتب والبحث عن الأطر الصالحة لمساعدته في هذه المهمة. خلافا لباقي الوزارات التي كانت مديريات، لم يكن لوزارة الخارجية وجود في فترة الحماية ذلك أن الإقامة العامة كانت تضطلع بهذه المهمة بمقتضى معاهدة الحماية[27].

لم يطل تفكير أحمد بلافريج وهو يبحث عن الشخص الصالح لمساعدته في مسؤولياته الجديدة. كان بلافريج قد تعرف جيّدا على بوستة خلال محادثات إكس ليبان حيث كان صلة الوصل بينه وبين الوفد الذي قاد المحادثات. وقدّر الخبرة القانونية العالية التي إكتسبها من خلال دراسته ومن خلال دفاعه المستميت في الأحداث التي تلت إضراب 1952 ونفي محمد بن يوسف. وكان لنجاح المحادثات التي جمعت الوفد الاستقلالي، وبوستة أحد عضويه، مع إدغار فور أثر كبير في نفسية بلافريج. هذا الرصيد كان دافعا لأحمد بلافريج ليختاره ليكون سنده الأول في وزارة الخارجية[28].

دامت ولاية أحمد بلافريج على وزارة الخارجية زهاء سنتين (أبريل 1956 - مايو 1958) في ظل حكومتي البكاي الأولى والثانية، كان مَحمد بوستة خلالها يتقلد مسؤولية المساعد الأول لبلافريج. وقد تميزت هذه الفترة بربط العلاقات الديبلوماسية مع عدد كبير من الدول وفي مقدمتها الدول الأعضاء في مجلس الأمن وعلى رأسها فرنسا، الدولة التي كانت إلى عهد قريب حامية للمغرب.

على أن أهم الإنجازات الأولى لوزارة الخارجية كان إسترجاع طرفاية.

27- تسلم أحمد بلافريج من الحكومة الفرنسية، في حفل رسمي بباريس، كل الوثائق التي تخص الشؤون الخارجية التي باشرتها الإقامة العامة خلال فترة الحماية، بعد تعيينه بأسابيع قليلة.

28- كان الطاقم الأول يضم بالإضافة إلى مَحمد بوستة كلا من : مولاي أحمد العراقي، محمد الجعيدي، بن سالم الكوهن، المهدي زنطار، أحمد السنوسي وعبد الكريم غلاب.

فتح بلافريج، بمعيّة بوستة، محادثات سرية مع وزير خارجية إسبانيا في مدينة سنترا البرتغالية لاسترجاع طرفاية. وظل وزير خارجية إسبانيا يقاوم ويراوغ أثناء المحادثات. ولعل هذه المحادثات كانت أصعب من محادثات الاعتراف بالاستقلال مع إسبانيا حتى أذعنت أخيرا لإرجاع طرفاية (أبريل 1958) باعتبار هذا الجزء كان تابعا لمنطقة الحماية الاسبانية في الشمال. أما قطاع إفني فقد ظلت إسبانيا متشبتة به مُدعية أنه كان أرضا خلاء ولم يسترجع إلا عشر سنوات بعد ذلك (30 يونيو 1969).

وجاءت حكومة بلافريج (مايو- دجنبر 1958) حيث إحتفظ بمسؤولية وزارة الخارجية إلى جانب رئاسته للحكومة. وعهد إلى بوستة بمسؤولية كتابة الدولة في الخارجية. ورغم قصر حياة هذه الحكومة فقد أرسى بوستة قواعد إدارية وتنظيمية حديثة ساهمت في بلورة عمل هذه الوزارة لمدة طويلة.

وينسحب بوستة من العمل الحكومي إثر تولي حكومة عبد الله ابراهيم الحكم (دجنبر 1958 - مايو 1960) في الظروف التي نعرفها. عاد بوستة إلى العمل في مهنة المحاماة. ولم تدم هذه المدة طويلا. ذلك أنه تم الاستجابة إلى ترشيح الحزب له في الحكومة التي ترأسها محمد الخامس (27 مايو 1960) لمنصب وزارة الوظيفة العمومية.

كان إهتمام الملك محمد الخامس، قبل وفاته بأسابيع قليلة، منصبا على المشاكل التي تواجهها إفريقيا أمام الاستعمار التقليدي المكشوف وأمام الاستعمار الجديد المقنع الذي صار يهدف إلى الاستغلال والتقسيم وبث العنصرية في الدول الذي كان يحتلها إلى عهد قريب.

قضيتان أساسيتان كانتا تأرق بال الملك محمد الخامس : قضية وحدة الكونغو، الحديث بالعهد بالاستقلال عن الاستعمار البلجيكي، حيث يواجه باتريس لومومبا، رئيس الحكومة، ضغط إنفصاليي إقليم كاتنغا، وقضية مساندة الثورة الجزائرية التي كانت قد صعدت من وتيرتها ودخلت عامها السادس.

ومن هذا المنطلق، عمل محمد الخامس على عقد مؤتمر قمة إفريقي كان الأول من نوعه في تاريخ القارة السمراء.

إنعقد مؤتمر القمة الإفريقي بالدارالبيضاء (3-7 يناير 1961) وحضرته عدد من الدول الإفريقية الحديثة العهد بالاستقلال: غينيا، غانا، مالي، الجمهورية العربية المتحدة، الحكومة الجزائرية المؤقتة والمغرب.

وإهتم المؤتمر، بالإضافة إلى قضيتي الكونغو والجزائر، بدراسة قضايا الاحتلال الذي يهم فلسطين والصحراء المغربية وموريطانيا، كما ناقش المؤتمر قضايا تنظيمية ومنها وضع هياكل لمنظمة توحد الدول الإفريقية ومؤسسات تابعة لها.

وبصفته وزيرا للخارجية بالنيابة[29]، قام مَحمد بوستة بعمل جاد لتحضير المؤتمر والخروج بمقررات واضحة لبلورة طموحات المغرب لوضع إفريقيا في الموقع الذي تستحقه.

وتحمّل المغرب، قبل إنعقاد المؤتمر ببضعة أسابيع، مسؤولية مساعدة الكونغو بتسيير شؤون الدولة، فكُلف مَحمد بوستة على رأس وفد من عشرات الأطر المغربية بتقديم مساعدة فنية وإدارية لمدة تقارب ثلاثة أشهر. وترأس خلالها مؤتمرا للدول الإفريقية. وكان المغرب يسعى إلى تقارب وجهات النظر بين حكومة باتريس لومومبا والأمم المتحدة من أجل تقديم الدعم والمعونة له. وكان هذا الوفد رديفا لوفد عسكري من مئات الجنود والضباط المغاربة لاستتباب الأمن في الكونغو تحت ريادة الأمم المتحدة.

هذا النشاط كوّن به مَحمد بوستة رصيدا مهما لتحمل مسؤولية وزارة الخارجية (1977-1983) عقب إسترجاع إقليم الساقية الحمراء. وقد جعل منه شخصية ديبلوماسية محترفة على مستوى دولي إستفاد منها المغرب في الدفاع عن حقوقه ومصالحه.

29- إدريس المحمدي، وزير الخارجية، كان في عطلة مرضية لمدة طويلة.

إنغمر مَحمد بوستة، بعد الاستقلال في مسؤوليات حكومية أبعدته عن كرسي المحاماة كما سبق القول. لم تدم المدة طويلا إذ عاد إلى العمل بها لمواجهة الانحراف الذي حدث إثر الانتخابات التشريعية التي عرفها المغرب (مايو 1963).

ويبدأ عمل بوستة القانوني في إطار آخر يتمثل في المشاكل التي واجهت المغرب في عهد الاستقلال. وكان أن تعرضت الحريات العامة للاضطهاد. عادت الرقابة على الصحف والحريات العامة، وأصبحت خطرا يهدد المبادئ الأولى للاستقلال، وينسف جذورها من الأساس. طالت المحاكمات الصحفيين والكتاب وأعضاء الجمعيات الحقوقية. وكان مَحمد بوستة مرة أخرى في مقدمة المدافعين عن المتهمين.

دافع بوستة عن صحافة حزب الاستقلال "العلم" و"الأمة الافريقية" و"الرأي".

محاكمات " العلم" التي عايشتها شخصيا كانت عديدة. فمن "محاكمة المس بالذات العلية " إلى "محاكمة الألف شاهد" إلى "محاكمة المس بالقضاء" إلى " المحاكمة الغيابية " إلى " محاكمة السوق الأوروبية " إلى " محاكمة الفكر" إلى "محاكمة الحليب" إلى غيرها ... في كل هذه المحاكمات، كان مَحمد بوستة حاضرا، بثقله، في مختلف المراحل من التحقيق إلى المرافعة، إلى النطق بالحكم، إلى الإستئناف، إلى التأجيل لأجل غير مسمى...إلى قضايا أخرى.

لم ينحصر هذا الاهتمام على صحافة الحزب بل إمتد دفاع بوستة عن كل صحيفة تساق إلى المحاكمة.

دفاع بوستة عن الصحافة جرّه للدفاع عن السياسيين الذين يعتقلون والذين تنصب لتهمهم فخاخ من نوع المس بالأمن العام أو ما "من شأنه"[30]. مثال من ذلك الدفاع عن علي يعتة، وكان وقته الكاتب الأول "لحزب التحرر والاشتراكية".

30- ظل ظهير (29 يونيو 1935) الذي عرف فيما بعد بظهير "ما من شأنه" قائما في المغرب المستقل إلى أن نجحت "الكتلة الديمقراطية" في إلغاءه في البرلمان (1996).

إعتقل علي يعتة (شتنبر 1969) بتهمة بعث الحزب الشيوعي في المغرب، وقد سبق للحكومة أن أصدرت أمرا بحله.

كتب علي يعتة، من سجنه، رسالة إلى مَحمد بوستة يطلب منه الدفاع عنه لما عرف عنه من إقتدار ووعي بالقضايا الوطنية. أمام الحرج الذي قد يوجد فيه محامي في قضية يختلف مع أصحابها في المذهب السياسي، إستشار مَحمد بوستة علال الفاسي في الموضوع، فأجابه مبادرا بابتسامة ودود وهو يربت على كتفه:

- للحرية جهادنا حتى نراها والتضحية سبيلنا إلى لقاها[31].

تحمل مَحمد بوستة مسؤولية عشرات القضايا السياسية وكلها تتفق في تهمة واحدة : "ما من شأنه المس بالأمن العام للدولة". فمن الدفاع عن معتقلي "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية" (1963) إلى معتقلي منظمة "إلى الأمام " (1974) إلى مناضلين سياسيين (نوبير الأموي، عمر الخطابي، سعيد بونعيلات) وغيرهم كثيرون، كان مَحمد بوستة في طليعة المحامين المآزرين الذين يبرزون في المحاكمات التي تهم القضايا السياسية والديمقراطية.

لم ينحصر عمل بوستة الدفاعي في المغرب بل إمتد نشاطه الدفاعي إلى مصر حيث إنتصب للدفاع عن سيد قطب. كان ذلك بتوجيه من علال الفاسي قبل أن يعدم نظام مصر الناصري الداعية الإسلامي (1965) بأسابيع قليلة.

ونظرا لمسؤولياته في الأمانة العامة لحزب الاستقلال بعد وفاة علال الفاسي، إعتزل بوستة مهنة المحاماة بعد كفاح دام زهاء ربع قرن (1951-1974)[32] ذلك أن مسؤولية الأمين العام قد تتنافى مع المرافعة أمام القضاء، إلا أنه لم يمتنع من تقديم إستشاراته القانونية للمحامين عن كل القضايا السياسية والديمقراطية التي تحتاج إلى نصيحة أو توجيه. كان له الرأي السديد، وكان له التوجيه السليم.

31- بيت شعري من نشيد حزب الاستقلال.

32- ما عدا فترة (1956-1962) التي تحمل فيها مسؤوليات حكومية.

بعد رحيل علال الفاسي (13 مايو 1974)، إجتمعت اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال بجدول عمل محدد في نقطة واحدة: خلافة علال الفاسي. بادر محمد اليزيدي إلى القول:

- أقترح أن يُحتفظ بلقب رئاسة الحزب للراحل علال الفاسي ويلقب الذي سنرشحه مؤقتا بالكاتب العام للجنة التنفيذية على أن ينتخب المؤتمر المقبل أمينا عاما للحزب.

وافقت اللجنة على إقتراح محمد اليزيدي، وخلصت إلى إختيار الكاتب العام المؤقت. لم يرشح أي من الحاضرين نفسه. بادر الحاج عمر بن عبد الجليل إلى إقتراح مَحمد بوستة. تمنع بوستة، وكان من الطبيعي أن يفعل:

- هذه المشكلة ثقيلة وصعبة عليّ. وبينكم من يستطيع أن يتحملها أحسن مما أستطيع. لهذا أقترح أن تغيروا وجهة النظر هذه.

إعترض عليه الحضور فأكدوا أن إختياره مصيب وأنه لا سبيل لإطالة الحديث في الموضوع.

إنعقد المؤتمر التاسع لحزب الاستقلال (13-15 شتنبر 1974) وإنتخب مَحمد بوستة أمينا عاما للحزب بالإجماع. عمل مَحمد بوستة في هذه المهمة أربع وعشرين سنة (1974-1998). وفي هذه المرحلة الطويلة، صمد بوستة إلى الأعاصير التي واجهت الحركة الوطنية وحقق عددا من الخطوات التي حافظت على ثوابت الاستقلال الداخلي والخارجي للمغرب والتي كان حزب الاستقلال فيها قويا أمام الرياح المعاكسة. وانتهت مهمة مَحمد بوستة بانعقاد المؤتمر العام الثالث عشر (20-21 فبراير 1998) حيث إنتقلت الأمانة العامة إلى عباس الفاسي.

عند إنعقاد المؤتمر العام الخامس لحزب الاستقلال (فبراير 1960)، إعتمد علال الفاسي على جيل جديد من الشباب لتكوين مؤسسات الحزب التقريرية للدفع به في طريق النمو والتطوير ولتجاوز الشرخ الذي أصاب هياكله إثر انفصال جماعة

من أعضاءه. كان مَحمد بوستة في طليعة الذين إنتخبوا في اللجنة التنفيذية للحزب.

وعمل بوستة في إطار توجهات الحزب على إعداد مشروع أول دستور للبلاد (7 دجنبر 1962) في إطار لجنة جمعت عددا من المختصين المغاربة والأجانب في القانون. ورغم ما تميز به هذا المشروع من نواقص، فإن الحزب قرر التصويت عليه بالإيجاب. هدف الحزب من هذه المساندة كان يتمثل في الخروج من الحكم المطلق إلى وضع أسس الحكم الديمقراطي.

وجرت الانتخابات البلدية (1960) في المغرب في جو مشحون بالاضطراب والتوتر السياسي. لم تسلم مدينة مراكش من عواقبه. وكان أن إنتخب مَحمد بوستة رئيسا للمجلس البلدي بأقلية صوت واحد. وقد نجح في خلق جو من التعاون والتوافق وتجاوز الخلافات الحزبية الضيّقة بين الفريقين المتنافسين لما فيه مصلحة المدينة وسكانها.

وكان من البديهي أن يتقدم بوستة إلى الانتخابات التشريعية الأولى (17 مايو 1963) إثر إقرار الدستور الجديد، فله رصيد شعبي ووطني في مسقط رأسه. ولكن جهاز وزارة الداخلية[33]، المتحكم في الانتخابات ونتائجها، أعلن بشكل واضح ومفضوح نتيجة الانتخابات قبل إنعقادها[34].

كانت هذه الانتخابات البرلمانية تجربة مهمة وخطيرة مع الحكم اللاديمقراطي سارت فيها البلاد جميعها في طريق مسدود لم تتحقق فيها أية خطوة إصلاحية أو ديمقراطية. وهذا ما خلق صراعا جوهريا بين الديمقراطية التي يقررها الدستور والتنفيذ الذي تقوم به حكومات مصطنعة لا تستند إلى إنتخابات نزيهة.

وساهم بوستة في بلورة وثيقة التحرر الاقتصادي التي قُدمت إلى الملك الحسن الثاني (11 يناير 1963). الوثيقة مثلت برنامجا واضحا لبناء الدولة على أسس تعادلية بما من شأنه أن ترفع مستوى أفراد الشعب وتعوض السنوات التي

33- كان أحمد رضا كديرة يتولى شؤون هذه الوزارة بالإضافة إلى مسؤوليتي وزارة الفلاحة والمديرية العامة للديوان الملكي.

34- أعلنت النتائج الرسمية "فوز" مولاي إدريس الدباغ عن جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية.

مرت منذ الاستقلال ولم يحقق المغرب التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المنشود. كانت هذه الوثيقة بالنسبة لبناء صرح المغرب المستقل بمثابة وثيقة المطالبة بالاستقلال التي قدمت إلى السلطان محمد بن يوسف قبل ذلك بتسع عشرة سنة.

وإهتم الحزب بقيادة علال الفاسي بوضع لبنات لَمٍّ صفوف الوطنيين، الذين ساهموا في تحقيق الاستقلال وذلك بتكوين "الكتلة الوطنية" بين كل من "حزب الاستقلال" و"الإتحاد الوطني للقوات الشعبية" (يوليوز 1970). وقد جاء التفكير في إيجاد هذا التنظيم عقب عرض تعديل للدستور يعود بالديمقراطية إلى الوراء مقارنة مع مكتسبات الدستور الأول.

وكان بوستة عَضُدا فاعلا لعلال الفاسي. فقد كان يعمل بدون إنقطاع، وينوب عنه في كثير من الاجتماعات النضالية ويرافقه في معظم الرحلات داخل البلاد وخارجها حتى الرحلة الأخيرة للرجلين إلى طهران، ثم الكويت فبوخاريست وفيها أسلم علال الفاسي الروح وهو يتحدث إلى رئيس جمهورية رومانيا عن قضيتي فلسطين والصحراء المغربية.

-9-

كان إكمال مفهوم الاستقلال الحقيقي والقضاء على الرواسب التي بقيت بعد اتفاقية الاستقلال تهدد سلامة المغرب ووحدته العقبة الأولى في تنمية البلاد وتطورها. وكانت قضية الصحراء في مقدمة القضايا حيث إن إسبانيا أصرت ألا تعتبرها منطقة حماية كما إنتهت في شمال المغرب بل إعتبرتها أرضا خلاء وقد إحتلتها فأصبحت لها كامل السيادة فيها.

حاول المغرب، منذ إعلان الإستقلال، أن يعالج هذا الموضوع بالمفاوضات والمحادثات التي إستمرت قرابة عشرين سنة دون الحصول على نتائج ملموسة.

بدأ الحسن الثاني يفكر في عمل جديد لحل مشكل الصحراء مع إسبانيا نهائيا في إطار العلاقات الطيبة التي تربطهما. ولهذا إرتأى تنظيم مسيرة خضراء

يقوم فيها ممثلون عن المواطنين جميعهم ليدخلوا الصحراء في مظاهرات سلمية يحملون فيها المصحف والعلم المغربي.

إرتأى الحسن الثاني قبل الإعلان رسميا عن المسيرة الخضراء إخبار مَحمد بوستة وعبد الرحيم بوعبيد بما ينوي القيام به والاعتماد عليهما لتجنيد أحزابهما. وكانا قد أديا القسم التالي :

- "أقسِم بالله العظيم أن أكتم السر، وأنفد الأمر لانجاح عملية القدر بقيادة صاحب الجلالة الحسن الثاني، والله ولي التوفيق والنصر".

فوجئ العالم بهذه الطريقة الفريدة والمتحضرة في استرجاع أقاليم محتلة. كان العالم ينتظر عواقب خطيرة من جراء، ما إعتبره معظم الملاحظين، عمل فردي إستفزازي. وسارع مجلس الأمن إلى إنذار المغرب بشدة وحثه على إيقاف المسيرة على التو.

كل ذلك لم يثن الحسن الثاني عن تحقيق أهدافه. وما أن جاء اليوم الثالث حتى أعلنت إسبانيا قبولها المفاوضة على مصير الصحراء، وهذا ما جعل الملك يأمر بإيقاف المسيرة والرجوع إلى نقطة البداية. وانتهت القصة بأن تم الجلاء عن إقليم الساقية الحمراء (28 فبراير 1976) وإلحاقه بالوطن المحرر.

وبدأت المسيرة (6 نونبر 1976) ونجحت المسيرة في تنظيمها وسلميتها. كانت أعظم عمل التي إسرتجعت بها دولة إقليما محتلا دون إراقة دماء. وحققت المسيرة نتائج لم يكن في استطاعة أية عملية تحريرية - عسكرية أو مدنية - أن تحققها في وقت وجيز (أقل من خمسة أشهر).

شارك مَحمد بوستة في المسيرة مع ثلة من قيادة الحزب وآلاف من المتطوعين الإستقلاليين والإستقلاليات.

وبدأت المشاكل الخارجية الناتجة عن إعتراض الجزائر، الدولة الشقيقة التي شارك المغرب في الكفاح لتحريرها مشاركة فعالة. إعتبر حكام الجزائر أن إسترجاع الصحراء يمس بمصالح الدولة الجزائرية وبدأت قصة مواجهة أخرى عمّرت، إلى اليوم، أربعين سنة ونيف.

إبتعد حزب الاستقلال عن الحكم لمدة خمس عشرة سنة. وقد قبل الحزب الدخول الحكومة بعد إنفراج سياسي عرفته البلاد عقب استرجاع الصحراء. وتحمل الطاقم الحكومي الذي وليّ وزارات مهمة في الحكومة أحمد عصمان وهو يستحضر الوصية التي جهر بها علال الفاسي قبيل وفاته بأيام قليلة :

- علينا، التعامل بالمرونة، مستقبلا، مع القصر عند تقديم مطالب الحزب ونظرياته في القضايا الكبرى تلافيا لطغيان أعداء الوطن في تسيير البلاد والوصول بها إلى الباب المسدود. ثم لا بد من لَـمِّ شتات الوطنيين من جديد لإحداث ذلك الإجماع حول القضايا الأساس وحتى لا يبقى مجال للتدخل السيء.

إتسمت المرحلة التي تولى فيها مَحمد بوستة مهام وزارة الخارجية بأحداث عالمية معقدة ومثيرة. كان العالم يعيش دورة جديدة بعد أن مرت الدول الغربية بالسنوات الثلاثين المجيدة، عقب الحرب العالمية الثانية، حيث إستفادت من نهضة متميزة ووضعت الأسس الكفيلة لتوحيدها سياسيا وإقتصاديا.

وُلِيَ مَحمد بوستة المسؤولية بعد توقيع معاهدة مدريد بسنتين وتفعيلها بانسحاب القوات الإسبانية من الصحراء. وكان من الطبيعي أن ينتهي المشكل الاستعماري عند هذا الاتفاق ويدخل المغرب في مرحلة تنمية أقاليمه المسترجعة إقتصاديا وإجتماعيا ويبدأ مرحلة تعاون مع الجزائر لبناء أسس المغرب العربي.

وكان للجزائر رأي آخر...

ذلك أنها كانت تعول على أن المغرب لم يعد يتوفر على جيش قادر على حماية الصحراء إثر المحاولتين الإنقلابيتين ولا على حكومة قوية كفيلة ببلورة إجماع وطني حول استرجاع الصحراء ولا على تأييد خارجي. وكانت تعتقد كذلك أن إتفاق المغرب مع موريطانيا مستحيل نظرا لأن للدولتين نفس المطالب الترابية. وأخيرا كانت تطمع في أن "إسبانيا-فرانكو" التي تجمعها مع الجزائر مصالح إقتصادية واعدة لن ترضخ إلى حل سياسي واضح مع المغرب.

عايش بوستة قيام الثنائي "بومدين - بوتفليقة"، حاكما الجزائر، بمناورات قوية وشرسة متزعمين دولا تحسب نفسها على ما كان يسمى، آنذاك، اليسار الدولي التقدمي بدعوى محاربة الأمبريالية والرجعية ومساعدة الشعوب في تقرير مصيرها.

في هذه الفترة بدأت الجزائر تنمي علاقاتها بالبوليساريو وتنشر عليه ظلال الأبوة بالتدريب والسلاح والمال والمؤن. كان على المغرب مقاومة هذا العدوان بكل إمكاناته العسكرية والبشرية والسياسية دون الإنجراف إلى حرب مباشرة مع الجزائر.

كان الأمل معقودا عند وفاة بومدين وانسحاب بوتفليقة من العمل السياسي (دجنبر 1978) أن يجد البلدان حلا لمشاكلهما في عهد الشاذلي بن جديد. ولكن الجزائر أضحت، بعد الارتفاع الهائل الذي عرفته أسعار النفط إثر نجاح الثورة الإسلامية في إيران، تتوفر على إمكانات مالية هائلة شجعتها على تصعيد الوضع السيء الذي تكوّن في عهد الزعيمين السابقين.

أضافت الجزائر، إلى هذا النشاط العدائي، تقديم أموال طائلة للدول الإفريقية للاعتراف بالجمهورية الصحراوية الوهمية ومعاكسة المغرب في مختلف المنظمات الدولية. وتناست الجزائر أن مساندة المغرب لها في أيام ثورتها، وهو حديث العهد بالاستقلال، كادت تعصف بمصالحه العليا. وتناست الدول الإفريقية المغرر بها أن المغرب ساند، مباشرة بعد إستقلاله، نضال كل الحركات التحررية بالمال والسلاح والمتطوعين رغم إمكاناته المحدودة وأنه كان النواة الأولى في توحيد هذه الدول في إطار منظمة قارية فاعلة.

وإنضم إلى الجزائر العقيد معمر القذافي الذي كان كرمه حاتميا في تدعيم عدد من رؤساء الدول لتبني سوء العلاقات مع المغرب، وبلادهم تعج بحروب التفرقة والانقلابات والحركات الإنفصالية على حساب التنمية الاقتصادية والبشرية.

كان على مَحمد بوستة، المطلع على شؤون إفريقيا وخباياها، مقاومة هذا النهج السياسي والعسكري الذي لجأت إليه الجزائر بمعيّة ليبيا والحالة أن الإمكانات

المالية التي كان يتوفر عليها المغرب، آنذاك، شحيحة وأن التواجد الديبلوماسي المغربي في إفريقيا كان ضعيفا جدا.

وعايش بوستة إنضمام موريطانيا إلى الأطروحة الجزائرية بعد إنقلاب عسكري على المختار ولد دادة. عقد النظام الجديد في موريطانيا إتفاقا مع البوليزاريو تحت ضغط الجزائر لتسليمه إقليم واد الذهب.

كان الحسن الثاني بالمرصاد، يتابع التطورات التي تحدث ضد المغرب، وعرف كيف يسترجع إقليم واد الذهب ويوحد أقاليم الصحراء أبديا كجزأ لا يتجزأ من المغرب.

وعايش بوستة أحداثا عالمية مثيرة كان خلالها الوزير الأمين للملك الحسن الثاني.

أعلن أنور السادات، في برلمان مصر العربية، عن أمله في توقيع معاهدة سلام دائم مع إسرائيل. وما هي إلا أيام قليلة حتى كان يلقي خطابا في الكنيست (20 نونبر 1977) شكل بداية لاهتزازات خطيرة في الجسم العربي.

عايش بوستة وضعية خطيرة للدول العربية، وهي تعاني من مشكلة مبادرة السادات وإهمال قضية فلسطين. كانت الجامعة العربية مسرحا لهذه التناقضات وانتهى الأمر بنقل مقر المنظمة من القاهرة إلى تونس العاصمة وطرد مصر من حظيرتها إثر مؤتمر القمة المنعقد ببغداد (2 نونبر 1978) بعد التوقيع على معاهدة كامب دافيد بأسابيع قليلة.

عاشت الدول العربية مرحلة مخاض كان المغرب يسعى خلالها إلى بلورة حل دائم لمشكل الشرق الأوسط يأخذ بعين الاعتبار مصالح فلسطين.

وجاء أخيرا، "مخطط فهد"[35] الذي يأخذ بعين الإعتبار مختلف قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن. كان المخطط ينبني على سبع نقط أهمها إنسحاب إسرائيل إلى حدود خامس يونيو 1967، وإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية تتخذ

35- وضعه الأمير فهد بن عبد العزيز، ولي عهد المملكة العربية السعودية آنذاك.

القدس عاصمة لها، وضمان الحق لكل دول المنطقة (بما فيها إسرائيل) العيش في سلام دائم.

وإجتمعت قمة فاس (27 نونبر 1981) لدراسة مخطط فهد أساسا. وكان أن إعتذر حافظ الأسد عن الحضور في آخر لحظة. وقرر الحسن الثاني على التو تأجيل القمة. كان رأيه أنه لا يمكن لمؤتمر عربي أن ينظر في مستقبل صراع الشرق الأوسط في غياب أحد الأطراف الذي تغتصب إسرائيل جزءا مهما من أراضيه.

أوفد الحسن الثاني مَحمد بوستة إلى الرئيس حافظ الأسد لإقناعه بضرورة الحضور في الدورة المقبلة لقمة فاس. دامت المحادثات خمس ساعات إستطاع بوستة، بحنكته وصبره، أن يقنع الرئيس السوري بجدوى حضوره بجانب أشقائه رؤساء الدول العربية. وكان ضمن هؤلاء صدام حسين، رئيس جمهورية العراق، الذي كان نظام البعث السوري يتهمه بأنه هو صاحب المبادرة في الحرب الإبادية التي كانت تجمع العراق وإيران.

إلتئمت قمة فاس الثانية (9 شتنبر 1982) وعمل بوستة على إنجاحها. كان من أهم مقرراتها الدعوة إلى إنشاء دولة للشعب الفلسطيني تتخذ من القدس عاصمة لها، والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد للشعب الفلسطيني، وأخيرا دعوة مجلس الأمن لضمان السلم والعيش في حدود معترف بها دوليا لجميع دول المنطقة.

عايش بوستة إختصار السياسة الخارجية للولايات المتحدة في قضيتي الشرق الأوسط ومقاومة الاتحاد السوفياتي مع إهتمام قليل لبقية القضايا العالمية والصحراء من ضمنها. كان جيمي كارتر يولي كل جهوده لتوقيع معاهدة سلام دائم بين مصر وإسرائيل دون إعتبار مصالح الشعب الفلسطيني إلى أن فاجئته أزمة إعتقال الرهائن في السفارة الأميركية لمدة 444 يوما[36] وعصفت بمسعاه للفوز بولاية ثانية. وجاء ريغان بعده، وكان الأمل فيه أن يولي للشرق الأوسط وللصحراء المغربية

36- (4 نونبر 1979 - 20 يناير 1981).

ما يستحقناه من إهتمام، إلا أنه سرعان ما إتجه مع حليفته الليبرالية، مارغريت تاتشر الوزيرة الأولى البريطانية، إلى مواجهة الإتحاد السوفياتي في حرب باردة أدت في آخر المطاف إلى إنهيار النظام الشيوعي بسقوط جدار برلين (نونبر 1989).

وعايش بوستة بداية تدهور للعلاقات السياسية بين فرنسا والمغرب عقب إنتخاب الرئيس فرانسوا ميتران وانحيازه للأطروحات التي كان تروج لها الجزائر بعد علاقات متميزة كانت تجمع الحسن الثاني بالرئيس جيسكار ديستان. كان على الملك ووزيره في الخارجية أن يضعا حدا لغلواء الرئيس الفرنسي ولتأثير زوجته، السيدة دانييل، عليه حتى ينظر بنوع من الحياد لمشكل الصحراء المفتعل.

وعايش بوستة، من موقعه كوزير لخارجية المغرب، أحداثا عالمية فريدة كان على المغرب أن يتخذ منها مواقف حاسمة.

إستبدلت الثورة الإيرانية نظام الشاه رضا بهلوي بنظام جمهوري إسلامي تحت ريادة آية الله الخميني وبدعم من العديد من المنظمات اليسارية والإسلامية والحركات الطلابية الإيرانية (فبراير 1979). وما هي إلا أسابيع قليلة حتى بدأت إشتباكات في الحدود أدت إلى إندلاع حرب ضروس بين البلدين كلفتهما ما يقارب المليون قتيل وأضرارا بعشرات الملايير من الدولارات. وكانت هذه الحرب بداية لمسيرة لا زالت المنطقة تعاني من آثارها إلى اليوم.

-11-

كان الحسن الثاني قد أعلن عن مرحلة جديدة من الديمقراطية السلمية تتمثل في وضع دستور جديد (4 شتنبر 1992) يعوض به الدستور الثالث (1972). وقد جاء هذا الدستور إستجابة لطلب مَحمد بوستة وعبد الرحيم بوعبيد في مذكرة مشتركة رفعاها إلى الملك، باسم حزب الاستقلال والاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية (9 أكتوبر 1991) والذي أكدته لاحقا الكتلة الديمقراطية.[37] كان الأمل في

---

37 - كانت الكتلة مكونة من حزب الاستقلال، الإتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، الإتحاد الوطني للقوات الشعبية، حزب التقدم والاشتراكية، منظمة العمل الديمقراطي الشعبي (26 مايو 1992).

أن يوضع دستور جديد يضمن للبلاد حرية الانتخاب وسلامة المؤسسات.

أعضاء الكتلة[38] صوتوا ضد الدستور. ورغم ذلك فقد أنجح وزير الداخلية الدستور بنسبة 99,96%، وهي نسبة غنية عن كل تعليق.

وجاءت الانتخابات التشريعية (25 يونيو 1993) اللاحقة لتؤكد سيرورة مسلسل التزييف إذ حصلت مكونات الكتلة الديمقراطية (الأحزاب والنقابات المؤيدة لها)، رغم لجوئها إلى المرشح المشترك، على 125 مقعد نيابي من أصل 333 مقعد بنسبة لا تتعدى 37.50% .

وكان أن طلب الحسن الثاني مكونات الكتلة المشاركة في الحكومة مع تنازلها عن أربعة مناصب سيادية (الوزارة الأولى، وزارة الخارجية، وزارة الداخلية، وزارة الاقتصاد والمالية) ليحتفظ بها لشخصيات مستقلة. إعتذرت الكتلة، على لسان مَحمد بوستة، عن المشاركة وعللت قرارها بأنها لا تستطيع المساهمة في العبث بمصالح الدولة عبر مجالس تشريعية نابعة من إنتخابات مغشوشة وبالتالي غير جديرة لتسيير البلاد.

وتقدم محمد كريم العمراني، الوزير الأول، بعرض برنامج حكومته أمام البرلمان وعبّر عن أمله في أن يكون النقاش عميقا وهادفا تدشن به الحكومة حوارا صريحا ومثمرا مع ممثلي الأمة من أجل معالجة القضايا العامة بتضافر الجهود المشتركة. وسبق للحكومة، في إجتماع مجلسها، أن نوهت بحرارة بجهود وزارة الداخلية في إنجاح الانتخابات.

وعند مناقشة المجلس التصريح الحكومة نيابة عن الفريق الإستقلالي خاطب مَحمد بوستة الوزير الأول ووزيره في الداخلية قائلا: "الصراحة تقتضي كذلك أن أقول لك السيد الوزير الأول وسيادة وزير الداخلية، عفوا السيد وزير الدولة في الداخلية والباقي (ما قدوا الفيل، زادو الفيلة[39])، أن الإنتخابات في المغرب

---

38 - ما عدا حزب التقدم والاشتراكية الذي صوت لفائدة المشروع.

39 - مثل عامي يقال للاستهزاء. إستعمله بوستة لإستنكار ترقية إدريس البصري إلى وزير الدولة في هذه الحكومة وإحتفاظه بوزارة الإعلام التي عهدت إليه في الحكومة السابقة. وكانت إضافة مسؤولية الإعلام قد أثارت إستياء عميقا لدى فئات واسعة من الشعب ولدى العاملين في قطاع الإعلام.

لن تستقيم ولن تكون لها نتائج صحيحة وسليمة ما دام نفس الجهاز الذي يقوم بها منذ ثلاثين سنة هو نفسه الذي يقوم بها خصوصا وأنه، بعد أن كان جهازا إداريا، أصبح الآن، بحمد الله وقوته، جهازا حكوميا".

وزاد بوستة، معللا إعتذار أحزاب الكتلة الديمقراطية عن المشاركة عند تذكيره بطلب الملك للمشاركة في الحكومة : "إن أحزابنا حريصة على أن تكون مواقفها السياسية متطابقة مع أحكام الدستور التي نظمت العلاقات بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية وحددت كيفية تشكيل الحكومة واختصاصاتها وذلك من أجل تدعيم الأسس الدستورية للمملكة وترسيخ تقاليد ديمقراطية متينة لحاضر المغرب ومستقبله".

كان للتصريح الذي أدلى به مَحمد بوستة وقع كبير لدى المواطنين الذين قدروا الصراحة التي يتوفر عليها قادة الأحزاب الوطنية.

وكان هذا التصريح تأكيدا لما سمعاه، محمد كريم العمراني وإدريس البصري، وهما يتقلدان نفس المسؤوليات الحكومية قبل ذلك بتسع سنوات عقب الانتخابات التشريعية (شتنبر 1984) حين أدلى أحد وزراء الفريق الاستقلالي بتدخل أثار إنزعاج الوزيرين : "...إن حزب الاستقلال يؤكد أن عملية الانتخابات لم تكن في المستوى المطلوب لما صاحبها في مختلف مراحلها من تجاوزات ومخالفات ليس من شأنها أن تحقق ما كانت بلادنا ترجو لها من نزاهة وإستقامة ومصداقية. وقد أظهر هذا التجاوز بكل أسف أن الإجراءات التي إتفق عليها في اللجنة الوزارية لضمان نزاهة الانتخابات واستقامتها لم تطبق. وكل ذلك أضرّ بالممارسة الديمقراطية وزعزع ثقة الشعب في المؤسسات التي كان يعلق عليها أكبر الآمال".

لماذا الإلحاح على سلامة الانتخابات؟

زاد مَحمد بوستة في الاقتناع، خصوصا بعد تجربته في وزارة الخارجية، أن وضع المغرب، المعروض على أنظار الدول والشعوب الديمقراطية، أصبح مهزوزا ومثيرا للشكوك، وهذا ما يضر بقضيته الأولى : الصحراء وبتنمية البلاد اقتصاديا واجتماعيا. ولاشك أن البلاد التي تحافظ على نزاهة إنتخاباتها تجد الاحترام والتقدير ممن يتعامل معها.

أكدت الانتخابات التشريعية (شتنبر 1993)، كما سبق القول، مدى تزييف إرادة الشعب وتلاعب المسؤولين بتنظيمها لمبادئ الديمقراطية ولحق الشعب في مزاولتها، ذلك أن جهاز تدبير الانتخابات "منح" عضوية البرلمان لـ 208 من ممثلي الأحزاب الإدارية بينما لم تحصل الأحزاب الأربعة المكونة للكتلة الديمقراطية والمنظمات النقابية المتحالفة معها إلا عددا ضئيلا من النواب (125 مقعد)[40].

وعرضت المشاركة في الحكومة على أحزاب الكتلة الديمقراطية، باستثناء أربعة مناصب.[41] وإعتذر مَحمد بوستة، الناطق باسم الكتلة، عن عدم المشاركة في الحكومة لأن النتائج في طرفيها تؤكد من جديد عدم مصداقية الانتخابات وبالتالي تواجد مؤسسات مغشوشة مما يهدد تسيير الحكم. ومن ثمة، تشكلت حكومة محمد كريم العمراني[42] وضمت عددا من المستوزرين القدماء والجدد بدون أي إنتماء حزبي. وتقدمت الحكومة إلى البرلمان، وهي غير منبثقة منه، تطلب منه التأييد والتزكية.

ولم يفت مَحمد بوستة، وهو يناقش التصريح الحكومي التأكيد : "إن الحكومة مزجت في هيكلتها وتركيبها بين القدماء والجدد، وفي توجهاتها لم تأت بشيء جديد. والغريب في الأمر هو أنها، رغم أنها غير منبثقة من البرلمان، فإنها ولا شك ستجد أغلبية في البرلمان لمساندتها".

وإستسمح بوستة الوزير الأول حتى يستوعب ملاحظته : "إنني راجعت كل الدساتير، وبعد التمعن في الأعراف والممارسات البرلمانية، خلصت بأن حكومتكم أعجوبة من أعجوبات الزمان لم يسبق لها مثيل في أي بلد من بلدان الدنيا بدأ بمثلها حياته النيابية والبرلمانية، ولن يكون لها نظير ما دامت النظم الديمقراطية

---

40 - كان البرلمان يشتمل على غرفة واحدة من 333 نائبا. الثلثي منهم (222 عضو) ينتخبون عبر إنتخاب مباشر، والثلث الباقي عبر إنتخاب غير مباشر.

41- الوزارة الأولى، وزارة الخارجية ، وزارة الداخلية، وزارة الاقتصاد والمالية.

42- هي المرة السادسة التي يؤسس فيها محمد كريم العمراني الحكومة، وقد سبق وأن أسس حكومته الأولى (4 غشت 1971) عقب محاولة إنقلاب الصخيرات.

تعتمد على أغلبية وأقلية وما دام التداول يتطلب فئتين تتناوب على الحكم".

وختم بوستة تصريحه قائلا: "إن حكومتكم هذه تكون سابقة فريدة من نوعها في حياتنا الدستورية لذلك أرجو من الله تعالى أن يعجل، في يوم الجمعة هذا، بذهابها ويقينا شرورها وأن لا يمد في عمرها".

ولبى القدر رجاء بوستة، فبعد أقل من ستة أشهر من حصول الحكومة على تزكية البرلمان، أُعفي محمد عبد الكريم العمراني من الوزارة الأولى وتولى المسؤولية عبد اللطيف الفيلالي (25 ماي 1994).

ولم تمر إلا شهور قليلة حتى أعلن الحسن الثاني عند إفتتاحه الدورة البرلمانية (14 أكتوبر 1994) عن قراره تأسيس حكومة التناوب على أن تتألف من أحزاب المعارضة وأحزاب أخرى التي ترغب في الإنضمام إليها لتضمن لها أغلبية داخل البرلمان.

وكان أن عهد إلى محمد بوستة بتأسيس أول حكومة تناوب.

وكان لبوستة لقاءات عديدة مع أحمد رضا كديرة مستشار الملك، بمحضر ممثلي الكتلة الديمقراطية لبحث سبل تنفيذ الرغبة التي عبّر عنها الملك. وتسائل بوستة في إحدى هذه اللقاءات:

- أَأُسِسُ حكومة ليست لها أغلبية في البرلمان؟

- سنطلب من أحزاب الأغلبية أن تساندكم ريثما...

أجاب المحاور.

إعترض بوستة بكلام جدي وهازل في نفس الوقت :

- هذا قمة التلاعب ! مساندة الأغلبية لأقلية في البرلمان لم تكن، فيما أعلم، من أعراف الديمقراطية وحتى في البلاد الهشّة ديمقراطيا.

- وماذا عن وزارة الداخلية؟

- من المؤكد أن إدريس البصري سيكون عضوا في حكومتكم!

- الدستور ينص على أن الوزير الأول يقترح الوزراء على أنظار الملك وهو يعيّنهم. ومن البديهي أنني لن أقترح إدريس البصري لهذا المنصب وقد قدمت فيه، السنة الماضية، طعنا أمام البرلمان، وإلا لكنت من المتلاعبين بمبادئ النزاهة والديمقراطية وبأمانة الحزب الذي إئتمني إياها.

وبعد التشاور مع حلفائه في الكتلة الديمقراطية إعتذر مَحمد بوستة عن عدم إستطاعته تكوين حكومة بدون سند قوي من البرلمان ومن أعضائها المهيمنين إدريس البصري وزير "أم الوزارات".

وعقب إعتذار مَحمد بوستة عن تأسيس الحكومة صدر بلاغ رسمي شديد اللهجة عن الديوان الملكي جاء في خاتمته: "إن جلالة الملك نصره الله يدرك أسباب معارضة قادة الكتلة لكنه يعتبر أن النزول عندها قد يمس مساسا خطيرا بحسن سير المؤسسات المقدسة، وقرر في الوقت الحاضر العدول عن إنشاء حكومة التناوب وبدلا عنها قرر تأسيس حكومة جديدة تشكل فيها الأغلبية البرلمانية الحالية العنصر السائد. وإذا كانت المساعي التي بذلت في هذا السبيل لم تفض إلى ما كان يرغب فيه جلالته فإن أسباب الأمل في إقامة حكومة تناوب خلال هذه الدورة التشريعية تظل واردة ومرغوبا فيها".

وجاءت الانتخابات التشريعية الموالية (14 نونبر 1997) وهُزم الحزب فيها شر هزيمة عن قصد وسابق إصرار[43] عقابا له عن موقف أمينه العام، مَحمد بوستة، لاعتذاره عن تأسيس أول حكومة تناوب تحت شروط مجحفة (برلمان مزور وعضوية إدريس البصري في الحكومة.

قدمت هذه "الهدية" لمَحمد بوستة عشية إنعقاد المؤتمر العام الثالث عشر

43- حصل حزب الإستقلال على 32 مقعد من أصل 325 نائب المكون في مجلس النواب. وجاء في الرتبة الخامسة مناصفة مع الحركة الديمقراطية الاجتماعية التي يترأسها محمود عرشان. وكانت النتائج قد أفرزت النتائج التالية: الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية (57 مقعد)، الاتحاد الدستوري (50 مقعد)، التجمع الوطني للأحرار (46 مقعد)، الحركة الشعبية (40 مقعد).

لحزب الاستقلال، وكان معروفا أنه قرر عدم الترشح من جديد وإعطاء الفرصة لجيل شباب الحزب لتحمل المسؤولية.

ولم يتأت لما كان يسمى حكومة التناوب أن ترى النور إلا إثر الانتخابات التشريعية الموالية التي جرت بعد إذاعة بلاغ الديوان الملكي بثلاث سنوات عندما عيّن عبد الرحمن اليوسفي، الكاتب الأول للإتحاد الإشتراكي للقوات الشعبية، في منصب الوزير الأول (14 مارس 1998). وكان في مقدمة وزرائه إدريس البصري وزير الدولة في الداخلية. وظل هرم مهندس التزوير قابعا في الحكومة، ولم تنته أسطورته إلا بعد ولاية محمد السادس عرش البلاد بمائة يوم (9 نونبر 1999) .

-13-

إستوعب مَحمد بوستة الصراع العربي الصهيوني يوم كان طالبا بباريس ووعى الخطر المدلهم المنتظر على المسجد الأقصى بعد إعلان قيام الكيان الإسرائيلي (15 مايو 1948) وتهافت الدول العظمى على الاعتراف به.

ولم تكن القضية الفلسطينية بالنسبة للطلبة الاستقلاليين في باريس قضية خارجية تستحق المساندة والترويج لها لدى المحافل اليسارية (وأغلبها كانت من المؤيدية للكيان الصهيوني) فقط، ولكن كانت مثلها مثل قضية إنعتاق المغرب من ربقة الاستعمار الفرنسي.

وكان مَحمد بوستة، في كل المهام الرسمية التي تقلدها بعد الاستقلال، يعتبر القضية الفلسطينية من الثوابت التي على المغرب أن يضعها في قمة إهتماماته شأنها شأن قضية إسترجاع الصحراء المغربية ومدينتي سبتة ومليلية.

وجاءت نكبة خامس يونيو 1967 حيث إحتلت إسرائيل، إضافة إلى الضفة الغربية والقدس، أجزاء واسعة من مصر العربية وسوريا. وها هو ذا بوستة مع عدد من العاملين في الحقل الوطني، وعلى رأسهم علال الفاسي وأبو بكر القادري، يساهم في تأسيس الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني ويصبح من

المدافعين الداعمين للقضية الفلسطينية داخل المغرب وخارجه.

وعند توليه وزارة الخارجية، كان مَحمد بوستة من المبشرين بالقضية الفلسطينية في لقاءاته بالمسؤولين الأورُبيين والأسيويين والأفارقة. وكان يحذر نظراءه الأفارقة من عواقب إختراق الصهيونية لدولهم. وكان له دور أساسي في بلورة القرارات التي تقوي الجانب الفلسطيني في مختلف المؤتمرات العربية والإسلامية - ومنها لجنة القدس - التي نظمت داخل المغرب وخارجه، وبالأخص في مؤتمر فاس الثاني الذي إعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد للشعب الفلسطيني.

ومن هذا المنطلق، كان بوستة يحظى في كل زيارة ياسر عرفات للمغرب باستقبال خاص يضع فيه زعيم المنظمة حزب الاستقلال في صورة الوضع الفلسطيني ويستمع لآراء ومقترحات الحزب.

وكان لهذا العمل الدؤوب والمتواصل صدى لدى المسؤولين الفلسطينيين حيث وسّم محمود عباس مَحمد بوستة بوسام "نجمة القدس" (16 فبراير 2012) تقديرا له على دوره المتميز والمتواصل في نصرة القضية الفلسطينية.

-14-

سهر محمد الخامس، عقب حصول المغرب على إستقلاله، على وضع مدونة للأحوال الشخصية حتى لا يبقى الأمر بين القضاة والعدول، كل يحكم بما درسوه في كتب الفقه. وقد ساهم علال الفاسي في صياغة هذه المدونة التي شكلت، رغم ما واجهها من معارضة، لبنة أساسية في توحيد الأحكام الخاصة بالأسرة ورفع الضيم الذي كان يطال المرأة في إطار دولة تسعى إلى استتباب الحق والقانون.

وعرف المغرب، خلال عهد الملك الحسن الثاني، تقليصا تدريجيا للفوارق الاجتماعية والإنسانية بين الجنسين مكّن المرأة من تحريرها من عدد من القيود الاجتماعية وحصولها على عدد من الامتيازات منها الإستقلالية في تدبير مصالحها وحقها في الدراسة والعمل وكسب معاشها على قدم المساواة مع الرجل.

وأولى الملك محمد السادس عناية خاصة بقضايا الأسرة في إطار الإصلاح الشامل والتقدم الفعّال الذي قاد سياسته نحو بناء مجتمع تعادلي تسوده المودة والمساواة والمعاشرة بالمعروف والتنشئة السليمة للأطفال.

وفي هذا الإطار، كلف جلالته لجنة ملكية إستشارية مكونة من علماء وخبراء، متعددة المشارب والتخصصات، وفيها سيدات مثقفات[44] في مجال الطب والأدب والتاريخ والقانون بهدف إعداد مشروع مدونة جديدة للأسرة المغربية، ووضع قضاء أسري متخصص، منصف ومؤهل عصري وفعّال. وقد دعا العاهل الكريم اللجنة، عند تنصيبها إلى: "الإلتزام بأحكام الشرع ومقاصد الإسلام السمحة والإجتهاد في إستنباط الأحكام مع الاستهداء لما تقتضيه روح العصر والتطور وإلتزام المغرب بحقوق الإنسان كما هو متعارف عليه عالميا ".

وإقتضى نظر الملك أن يعهد برئاسة هذه اللجنة إلى مَحمد بوستة وتكليفه بوضع مدونة حداثية للأسرة، أبا وأما وأطفالا، والحرص على أن تجمع بين رفع الحيف عن النساء وحماية حقوق الأطفال وصيانة كرامة الرجل. وكان من أهم ما زوّد العاهل الكريم الرئيس الجديد للجنة قوله: "لايمكنني، بصفتي أميرا للمؤمنين، أن أحل ما حرّم الله وأن أحرّم ما أحلّه".

وقد قامت اللجنة طوال عشرين شهرا بواجبها أحسن قيام. ورغم الصعاب التي واجهتها، نجح مَحمد بوستة في التوفيق بين الأطراف في وضع مدونة جديدة للأسرة.

ويمكن تلخيص المدونة الجديدة في المحاور الأساسية التالية:

- وضع مسؤولية الأسرة تحت رعاية متساوية للزوجين؛
- جعل الولاية للمرأة الرشيدة؛
- مساواة المرأة للرجل بالنسبة لسن الزواج بتوحيده في ثمان عشرة سنة مع تخويل قاضي الأسرة إمكانية تخفيضه في حالات مبرّرة؛

44- رحمة بورقية، زهور الحر ونزهة جسوس.

• السماح بتعدد الزوجات، بإذن من قاضي الأسرة بعد ثبوت المبرر الموضوعي الاستثنائي للتعدد والتأكد من توفير العدل على قدم المساواة مع الزوجة الأولى وأبنائها في جميع جوانب الحياة؛

• إقرار مسطرة جديدة للطلاق تستوجب الإلتزام بالواجبات المستحقة للزوجة والأطفال بإذن مسبق لقاضي الأسرة؛

• توسيع حق المرأة في طلب التطليق لإخلال الزوج بشرط من شروط عقد الزواج أو نتيجة للأضرار التي قد تلحقها؛

• وضع شروط جديدة لحضانة الأطفال وإدراج مقتضيات الاتفاقيات الدولية التي صادق عليها المغرب في صلب المدونة؛

• حماية حق الطفل في النسب، في حالة عدم توثيق عقد الزوجية، وذلك باعتماد قاضي الأسرة البينات المقدمة في شأن إثبات البنوة مع إمكانية اللجوء إلى خبرة عند الاقتضاء؛

• إقرار مبدأ جواز الاتفاق بين الزوجين على إطار عملي لتدبير أموالهما المكتسبة معا.

وقد قدم مشروع المدونة إلى غرفتي البرلمان وتم إعتماده بإجماع الأعضاء. وصار بذلك قانونا نافذا (5 فبراير 2004).

-15-

ترك علال الفاسي تراثا ضخما بالكتب التي ألفها وبتراث مهم من الكتب والوثائق والدراسات القديمة والحديثة. وحتى لا تضيع هذه الثروة العلمية، إهتدت عائلة علال الفاسي ومعها بعض مريديه إلى إنشاء "مؤسسة علال الفاسي".

سُر الحسن الثاني بالفكرة وارتأى رعاية المشروع بما يليق بمكانة علال الفاسي. وكلف مَحمد بوستة بوضع أسس لهذه المبرة العلمية حتى أصبحت مباحة لجميع الباحثين والقارئين والدارسين.

وكانت لمَحمد بوستة عناية كبيرة بهذا المشروع في تدبيره وتطوير أساليبه وبعثه، وتعميم الاستفادة منه بمعيّة إبني الفقيد، عبد الواحد وهاني الفاسي، وثلة من المثقفين.

-16-

مَحمد بوستة، بنشأته الأسروية، بتكوينه الوطني، باجتهاده في دراسته، بدفاعه عن الحركة الوطنية ورجالها في عهد الاستعمار ثم في عهد الاستقلال، إختاره القدر ليكون حاملا لمشعل الرواد، مواصلا رسالة تدعيم أركان الاستقلال وإرساء قواعد الحرية والديمقراطية.

أنقده الله ليحمل هذا المشعل يوم فداه صديقه عمر السلاوي وقد تعرض للرصاص الغادر لمنظمة اليد الحمراء، ويوم صُوّبت نحوه رشاشات الإنفصاليين وهو يحمل رسالة المغرب لدعم وحدة الكونغو عقب حصوله على إستقلاله، ويوم تعرضت سيارته لحادث سير خطير وهو في طريقه إلى مراكش، مسقط رأسه.

***

إنتقل مَحمد بوستة إلى الرفيق الأعلى يوم الجمعة 17 فبراير 2017 عن سن 95 سنة.

رحمه الله ...

الحسن بوعياد ...
الوطني الغيور
(1990-1904)

-1-

ـ الحاج الحسن...

رائد آخر من رواد الحركة الوطنية رحل عن عالمنا.

ما أظن أن الجيل الحالي يذكر الحاج الحسن بوعياد. فالذين لا تظل سواعدهم مرتفعة وأقلامهم مشرعة ومنابرهم قائمة سرعان ما يختفون عن الأنظار أحياء قبل أن يختطفهم الموت. شخص واحد كان يصرخ فينا مبتسما حينما ننصحه أن يرحم صحته من متاعب العمل والتنقل والخطاب والكتابة والجدل والتوجيه والدعوة وتسيير الجلسات ومناقشة قضايا المستقبل. كان يصرخ فينا مبتسما:

ـ لن أموت قبل أن أموت!

وقد صدق وعده فمات وهو يجادل ويناضل ويدافع عن قضيتين كانتا في مقدمة قضاياه الأساس هما: قضية الصحراء وقضية فلسطين.

علال الفاسي هو هذا الرجل الذي لم يمت حتى مات.

أما الذين هجروا العمل لفترة ما في أخريات أيامهم فإن الذين يذكرونهم من هذا الجيل قليلون. ولعل ذنب الناسين أكبر من ذنب المتوارين، وكان منهم المناضل الحاج الحسن بوعياد.

رجل فرض نفسه على التاريخ، وكانت له يد في صنع التاريخ. وما أحد يؤرخ لميلاد الحركة الوطنية إلا كان الحاج الحسن في مقدمة من يطل من نافذتها

الواسعة كأحد المؤسسين، والمسيرين، والمناضلين، والكاتبين، والحاملي أعباء الحركة ورفع صوتها إلى خارج الوطن، يصيح به في النوادي خطيبا ومحاضرا، ويدق أبواب الصحف كاتبا وناشرا، ويتصل بالهيئات والجمعيات الإسلامية والعربية والشخصيات السياسية والنيابية مبلغا ومبشرا.

من عائلة وطنية بورجوازية عملت في التجارة وحققت نجاحا باهرا، على نحو ما كان الانبهار بالمال والتفوق العائلي في العقود الأولى من القرن العشرين. فما دقت ساعة الحقيقة حتى كان أبوه شيخ العائلة الحاج العربي بوعياد من أول الذين يجلسون في الصفوف الأولى بالقرويين ليكون أول من يفتتح قراءة اللطيف إحتجاجا على الظهير البربري.

ولم تكن للسلطات الفرنسية قبل باعتقال الشيخ العربي وأبنائه، فقد كانت العائلة تتاجر في انجلترا، ومن الأبناء من ولد هناك كالحاج الحسن، وبذلك كان بعضهم يتمتع بحماية وبعضهم يحمل الجنسية الانجليزية. وأخشى ما كان يخشاه الاستعمار الفرنسي أن تمتد يداه بالإذاية إلى "محْمِي" الإنجليز أو مواطنيهم، ومن موطن هذه الحماية كان الحاج العربي يتحمل كبْر افتتاح اللطيف على كبر سنه. وكان أبناؤه يسهمون في الحركة الوطنية بالرأي وبالمال. وكان الحاج الحسن ضمن طلبة القرويين الذين يعملون في خلايا علال الفاسي ومحمد غازي وبوشتى الجامعي وعبد العزيز بن ادريس والهاشمي الفيلالي، مؤسسين ومنظمين ومناضلين.

-2-

كان الحاج الحسن مع علال الفاسي قد تزعما إلى جانب أحمد مكوار حركة الاحتجاج على محاولة "سرقة" ماء فاس وتحويل مجرى النهر وروافده نحو ضيعات المعمرين أثناء حملة إستعمار الأرض التي قام بها لوسيان سان[1] منفذ سياسة ليوطي وخلفه ستيغ. وكان الحاج الحسن من الذين أشرفوا على تسيير إحدى المدارس الحرة التي أنشأتها الحركة الوطنية لمواجهة سياسة التجهيل بالمغرب.

1- Lucien Saint، ثالث مقيم عام في المغرب. تحمل مسؤولية الإقامة العامة لمدة أربع سنوات وتسعة أشهر (يناير 1929 - شتنبر 1933).

ثم كان من الذين يقودون حركة الاحتجاج ضد السياسة البربرية، حتى إذا خرج من جامع القرويين إلى منزله لم يكن للمقدمين والعسس أن يعتقلوه في الطريق أو يخرجوه من مكمنه (في حالة تلبس) ويقدموه إلى الجلاد الشهير الباشا ابن البغدادي لأنه كان من رعايا الانجليز، وهو إسم كان في ذلك الزمان مُرعبا حتى للذين كان إسمهم يرعب الشعوب.

وأعرف أن علال الفاسي كان يجد في حرمة هذا المنزل "العيادي" مكانا للاجتماع والتسيير والتنظيم والدعوة، وفي اليوم الموعود للجلد في دار ابن البغدادي خرج من القرويين بعد قراءة جامعة للطيف، ودخل دار بوعياد القريبة جدا من أحد أبواب الجامع بينما اعتقلت شرطة المدينة زملاءه الآخرين (الهاشمي الفيلالي ومحمد بن الحسن الوزاني) الذين خرجوا من باب أخرى، وسيق الذين اعتقلوا آنذاك إلى دار الباشا فاحتجوا وجلدوا. هكذا، نجا علال الفاسي من الجلد، وإن لم ينج بعد أن عاد إلى منزله من الاعتقال والنفي.

وأذكر، ونحن تلاميذ، أن هذه الدار كانت مأوانا ومأوى الذين كان يطبعون المناشير المخطوطة على الآلة الناسخة البدائية (البالوظا) .كنا نقضي يومنا وجزء من ليلنا نخطط ونطبع تحت إشراف الحاج الحسن. ومن المنزل ندلف إلى إحدى بوابات القرويين فلا يدري أحد بما اقترفنا في المنزل الذي كانت شرطة المدينة تتحاشى مراقبته.

-3-

قبل فترة الظهير البربري وبعده، كان الحاج الحسن بوعياد ممن حظوا بالسفر إلى مصر ليلتحق بالأزهر طالبا. وقليل هم الطلبة الذين هاجروا في ذلك الوقت إلى مصر أو الشام. تلاميذ صغار من تطوان إلتحقوا بمدرسة النجاح في نابلس الفلسطينية وطلبة في عشريناتهم إلتحقوا بمصر. ولم تكن مفاجأة الأساتذة ومن هم في مقام الأساتذة، أن فتيانا وشبابا هاجروا من المحمية الفرنسية والإسبانية لطلب العلم فحسب، ولكن كانت مفاجأتهم أن هؤلاء وأولئك من الذين ملأ

قلوبهم وعقولهم حب العمل لصالح تحرير بلادهم من الاستعمار. وكان الحاج الحسن من هذه الفئة التي لم تكن تترك ناديا إلا دخلته ولا صحيفة إلا قرعت بابها ولا محاضرة إلا شاركت فيها ولا مجتمعا إلا ارتادته. ولأول مرة عرف الشرقيون المسلمون كلمة "الظهير البربري" وكانت الكلمتان الغريبتان مفتاح المعرفة الواسعة لقصة الاستعمار في المغرب.

كان الحاج الحسن بوعياد رسول الحركة الوطنية في مصر، ولذلك كان يتوفر على مجموعة من الوثائق التي يستقبلها عن طريق البريد الانجليزي، هو البريد الذي كان ينجو من مراقبة الاستخبارات الفرنسية، وعن طريقه كانت ترسل المراسلات السرية وترد الصحف والرسائل التي تحمل معلومات للوطنيين. فكان النقمة التي تحمل في طياتها نعمات. وكان بذلك جهازا تابعا لأكبر دولة استعمارية في العالم يخدم الحركة الوطنية بالمغرب، وهي يومئذ أصغر حركة تحريرية، وأكثر الحركات إضطهادا في العالم.

قام الحاج الحسن بدور أساسي في التعريف بالحركة الوطنية في مصر. المنطلق كان هو الإسلام. كانت الحركة الإسلامية قوية في مصر في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات. وكانت مصر ما تزال متأججة الأوار بحركتها الوطنية التي كانت تطالب بالاستقلال والجلاء التي قادها سعد زغلول (1919). مات زغلول (1927) والحركة الوطنية في مصر منقسمة على نفسها ومتعددة الأهداف: الأغلبية الوفدية تطالب بالاستقلال وبعودة دستور 1923 الذي أجهظته حكومة صدقي باشا في أوائل الثلاثينات، والوفد يصعد من نضاله الاستقلالي الديمقراطي، وأحزاب الأقلية المصطنعة تشغله بالجانبيات والجزئيات. الحركة الإسلامية أخذت طريقها في الازدهار والتنظيم والتأطير والمتذهب والمحافظة على الطابع الإسلامي لمصر، رغم قولة سعد زغلول[2]: "الدين لله والوطن للجميع". خضم هائل من الأفكار والنظريات السياسية والديمقراطية والإسلامية والنضالية تزخر به مصر. في وسط

2- خريج الأزهر وتلميذ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني.

هذا الخضم الذي لا يكاد فيه أحد أن يصيح إلى إسم آخر غير إسم مصر، كان الحاج الحسن بوعياد يدخل النوادي والمجتمعات دور الصحف ليقول: " ... والمغرب".

وقد تكّون الحاج الحسن بوعياد في هذا الجو الديمقراطي المشحون بالعمل الوطني والنضال من أجل الوطن الحافل بالصحف والمحاضرات والمهرجانات الوطنية والحركات الثقافية والإسلامية.

وكان الإسلام طريقه إلى العقول المفكرة والقلوب الواعية. كانت نوادي جمعيات الشبان المسلمين بقيادة: عبد الحميد سعيد والهداية الإسلامية بقيادة الشيخ الخضير حسين، وكانت صحف: "كوكب الشرق" الوفدية بقيادة توفيق ديات و"الفتح" بقيادة مجد الدين الخطيب، و"البلاغ" بقيادة عبد القادر حمزة. في هذه النوادي، كان صوت الحسن بوعياد يجلجل، وفي هذه الصحف كان قلمه يكتب وينشر...

وعرف إسم المغرب يزاحم إسم الهند، وهي يومئذ تلتهب نارا بقيادة غاندي، وإسم فلسطين- وهي يومئذ تناضل ضد الاحتلال الانجليزي وضد الهجرة اليهودية تحت قيادة أمين الحسيني. وعرف " الظهير البربري" كتشريع إستعماري ينافس "وعد بلفور" (1917) كسياسة صهيونية إستيطانية. وبدأت المسيرة في المشرق تمهيدا "لرابطة الدفاع عن المغرب" ثم "لمكتب المغرب العربي".

فترة مهمة أرَّخها الحاج الحسن بوعياد في كتابه الجامع عن "حركة الظهير البربري"، الذي نشره قبل أن يقعد به المرض وجمع فيه من الوثائق والمقالات والوقائع والأحداث ما يعتبر المصدر الوحيد الموثق لهذه الفترة من تاريخ الحركة الوطنية.

إستمر الحاج الحسن بوعياد على إخلاصه لبلاده ولحزبه. كان في مقدمة الذين وقعوا عريضة الاستقلال رغم المرض الذي كان يهدده، والإبعاد الذي ذاق مراراته بعد الحوادث الكبرى (أكتوبر 1937). وقد أقنعت الحكومة الفرنسية

حليفتها إنجلترا بأن "رعاياها" في المغرب يجب أن يدخلوا دار الطاعة وإلا فإن يد المخزن ستطالهم.

ظل الحاج الحسن بوعياد يناضل على قدر ما تسمح صحته ووقته بعد أن تكفل بعياله الكثر زمنَ العسر، حتى تحقق الاستقلال فأصبح قرير العين، رضي النفس، مرتاح الضمير.

بدأ يتخلى عن الممارسة مدفوعا بالعمل الوظيفي حتى أقعده المعاش والمرض. ولم يفقد في مرضه الطويل قوة إيمانه بالله والوطن. وكان أبناؤه ألصق تلاميذه به في هذه الفترة التي كان يشهد فيها بعينيه وعقله وقلبه جميعا تاجا على رؤوس الأصحاء. ولم يكن يأسف لشيء قدر أسفه على فقدان هذا التاج.

هنأته هاتفيا بعيد الفطر قبل وفاته بأسابيع ودلف إلى أذني من وراء الخط صوت قوي ما يزال ينبض بالحياة التي ملها جسمه. طلب إليّ أن أبعث إليه بمقال في " العلم" كنت قد كتبته قبل عشر سنوات. عجبت للذاكرة القوية، وللتشبث بالقلم الذي كان عدته في الحياة. ولم أكن أدري أن تلك الكلمات القوية النبرة الواضحة الدلالة ستكون آخر ما أسمع منه.

كنت أقدره، وكان يعزني. ومن التقدير والاعتزاز كنا نستمد حديثنا ونحن في مصر يوم وفد علينا مبعدا من سلطات الحماية وهو أقوى ما يكون صحة وحيوية ونضالا وإيمانا بمستقبل الوطن. ومنهما كنا نستمد حديثنا كلما زرته وهو على فراش المرض الطويل. والتقدير والاعتزاز هو الذي كان يجمع بين كلماتنا القليلة وأنا أهنئه بالعيد وهو يطلب إليّ البحث عن مقال عمره أزيد من عشر سنوات.

كانت الكلمة والصادقة على الأخص هي سعادته، يكتبها ويقرأها ويسعد بترديد مضمونها في مجالس أبنائه وأصدقائه وخلاّنه.

***

توفي الحسن بوعياد يوم الأربعاء 6 يونيو 1990 وعمره يقارب 86 سنة.

رحمه الله...

عبد الخالق الطريس...
المناضل الوحدوي
(1970-1910)

-1-

من حسن حظ المغرب أن الثقافة كانت سبيل الفكر الوطني عند القيادة الوطنية منذ نشأتها في أواخر العشرينات. فقد كانت البورجوازية الثقافية الصغيرة هي التي إستلمت القيادة من الثورة المسلحة التي أيقظت الوعي الوطني بعد الاحتلال. كان الطلبة هم عمدة الفكر الوطني السياسي الذي إنبعث في المغرب في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات.

والفكر الطلابي كان يفتح آفاق المعرفة أمام الشباب الوطنيين في الوقت الذي يفتح آفاق التعرف على الوطن. كان التعرف على الوطن، أرضا وشعبا، من خلال الفكر، وليس فقط من خلال المعايشة والاندفاع العاطفي والعمل التقليدي. ولذلك نجد معظم الذين قادوا الحركة الوطنية من المثقفين الذين فهموا معنى الثقافة الوطنية الواسعة، فدخلوها من باب الواقع الحاضر كما مثلته بلادنا وقد أصبحت في يد الإستعمار. كان مفهوم الوطنية، إذن، واضحا في أذهانهم، فلم يكونوا يلجأوا إلى مسايرة التيار مخدوعين بقوة الإستعمار العسكرية وقدرته الاقتصادية وتفوقه العلمي، وإنما كانوا يعرفون الإستعمار ويضعونه في مكانه الذي يعني إستعباد الإنسان واستغلال الأرض وسرقة الثروة وامتلاك السيادة وتمزيق الوحدة. وكانوا يعرفون الإستقلال ويضعونه في مكانه الذي يعني تحرر الإنسان ماديا ومعنويا وتحرير الأرض والاقتصاد وفك أسر السيادة وتوحيد الوطن. وكانوا إلى جانب هذه المعرفة يقدرون خطورة السبيل وجسامة التضحية وعنف المواجهة.

هذه المعرفة كان مصدرها الثقافة التي أخذوا بها أنفسهم. الثقافة المستمدة من الفكر الوطني والإنسية الإسلامية والعربية والعقلية المتحررة.

وكان الذين تعلموا منهم في المدارس الفرنسية أو الإسبانية أو المزدوجة يعرفون مما يدرسون من تاريخ فرنسا، وهو كل التاريخ الذي يدرسون، أن فرنسا حققت لبلادها كثيرا من الحرية في الفكر والممارسة بين أفراد الشعب وعند الحاكمين، وحققت لبلادها، بوسيلة الحرية، كرامة الإنسان وإرتفاع مستوى حياته، وقدرته على الفعل والاستفادة من الفعل، وأن إسبانيا حققت بعض ذلك، وتناضل ليتحقق الباقي. وكان السؤال الذي يطرحه هؤلاء الطلاب على أنفسهم : ولم لا نكون مثلهم، مع أن تاريخنا لم يكن يقل عن تاريخهم في مختلف ميادين المعرفة والحضارة وأساليب الحكم؟

كانوا طلاب معرفة منذ البدء حتى النهاية. وكان نضالهم مطبوعا بالمعرفة تحدثهم بالحقيقة. حقيقة المغرب في ماضيه وحاضره ومستقبله، وتحدثهم بحقيقة الإستعمار الذي لم يكن يريد لهذه البلاد إلا أن يجعلها ذنبا تابعا تخدم رفاهية أبنائه، وتمنح لشعبه "المجال الحيوي" للثروة والغذاء والتملك والدفاع والإمبراطورية. ولذلك كانت ثقافة المناضلين الوطنيين تجيب عن هذه المعادلة بين حقيقة الإستعمار وحقيقة المغرب. وكانوا يخرجون من هذه المعادلة بفكرة واضحة وهي الإستقلال.

لعلي كنت واضحا في أني أصف الطريس الوطني وأنا أتحدث عن هذه النخبة من شباب القيادة الوطنية الأولى. ولعله حينما كان طالبا أدرك في نفس الوقت أنه مناضل وطني فخطط منذ يومئذ مسيرة حياته التي إستمرت أزيد من أربعين سنة منذ كان طالبا في القرويين حتى أسلم الروح.

-2-

أسهم عبد الخالق الطريس مع النخبة الوطنية الأولى في المغرب، ونقل معه فكره النضالي وهو طالب في القاهرة وباريس ومدريد. وعاد يحمل المشعل أقوى

ما يكون شبابا وحماسا ومعرفة واستعدادا للتضحية. ولم يترك سبيلا من سبل العمل الوطني إلا ورده. دَرَّس في المدرسة حتى كان من ثمرات عمله "المعهد الحر"، وقاد الجماهير حتى كان من ثمراته قيادة الكتلة الوطنية ثم حزب الإصلاح، ثم الإسهام في قيادة حزب الإستقلال. حاضر وخطب فكان أبرز خطباء المغربي الذين عرفتهم المنابر في النوادي المغربية والعربية والاسبانية والساحات العمومية والحملات الانتخابية وقبة البرلمان.

وكتب فكان من أصدق حملة الأقلام فكرا وتعبيرا، ومضمونا وأسلوبا، وكان من ثمراته "الحياة" و"الحرية" كما كتب في"السلام" و"الريف". وإعتنق فكرة الإستقلال فعمل لها من كل سبيل مع الجماعات الوطنية والحزب، وعن طريق المفاوضة والمناورة والمقاومة، حتى كان من أبرز منظمي المقاومة المسلحة ومساعدتها على التسلح والتنظير والإيواء والتنظيم. آمن بالوحدة فكان ثائرا على تمزيق الوطن إلى شمال وجنوب. وبفكره الوطني خدم قضية الوحدة وسار ضد التيار الذي كان يوجهه إستعماران خطيران. وكانت أحسن هدية قدمها إلى المؤتمن على السيادة والوحدة الملك محمد بن يوسف عند زيارته التاريخية لطنجة (9 أبريل 1947) قبضة من تراب الأرض التي حاول الإستعمار أن يجعل منها منطقة خليفية في مقابل منطقة سلطانية.

وتجلى الفكر الوحدوي في الحركة الوطنية في الشمال التي كان يتزعمها الطريس أقوى ما يكون التجلي أيام الأزمة الخطيرة بعد أن نفي محمد بن يوسف. كان من الممكن أن تبلغ لعبة الإستعمار مداها فلا تعترف "المنطقة الشمالية" بدمية العرش التي نصبتها فرنسا، وفي مقابل ذلك تعلن الانفصال، لتكرس الخطة التي وضعها الإستعمار، ولتكون ظاهريا مع الشرعية. ويبدو أن الحكم الاسباني كان يتجه هذا الاتجاه، لولا العمل الذي قام به علال الفاسي في الصلة التي ربطها مع مقيم إسبانيا في تطوان آنذاك الذي أدرك صدق المقاومة المغربية، ولولا العمل الذي قام به الطريس ـ إخلاصا لوحدة المغرب ـ في رفض كل توجه انفصالي، ولولا إخلاص الخليفة مولاي الحسن بن المهدي لوطنه ووحدة بلاده. كل ذلك كان

نتاج الفكر الوطني الوحدوي الذي أعلن في الشمال كما أعلن في الجنوب رفض الدمية والتشبت بالمسؤول على السيادة، ولو كان في المنفى، والكفاح من أجل العودة ومن أجل الإستقلال والوحدة في آن. ومرة أخرى أعطت الحركة الوطنية الدليل على مصداقيتها، ومرة أخرى كان الفكر المثقف هاديا للوطنيين في الشمال والجنوب، الفكر الذي ثقفه التاريخ والمستقبل ليغير وجه الحاضر حتى يكون في خدمة المستقبل. وحينما كتب الإستقلال تاريخ بلادنا الحديث أفرد صفحة خاصة للطريس عنوانها زعيم الوحدة.

نال عبد الخالق الطريس حظه من عقابيل هذا النضال المتفرد. فقد قاوم إستعمارين فكان جزاؤه من الإستعمارين. ولعله في مقدمة زعماء الوطن الذين عاقبتهم فرنسا وإسبانيا معا لمواقفهم الوطنية. فبعد المطاردة والمصادرة التي عرفها من إسبانيا في كثير من فترات تاريخه النضالي، منعته الإدارة الاسبانية من أن يرجع إلى المنطقة على إثر عودته من رحلته الموفقة في مصر (1948)، فكانت الحركة المباركة التي عرفتها المنطقة والتي كشفت النقاب مرة أخرى عن العنف والقسوة التي إمتاز بها الإستعمار الاسباني في مختلف فترات حكمه للبلاد. أما الإدارة الفرنسية فلم تكن تقنع بأن تمنعه من زيارة هذا الجزء من بلاده التي لعله لم يرها، بعد عهد الطلب، إلا نادرا، بل تعدت ذلك إلى إصدار حكم بالإعدام. ولم يسقط هذا الحكم إلا مع سقوط الإستعمار.

كان شرفا للطريس أن يعاقب بالسجن أو الأبعاد أو الحكم بالإعدام، فقد كان يقف في وجه تيارين خطيرين كادا أن يجرفا بلادنا نحو الهاوية لو طال أمد الإستعمار ولو لم توجد الحركة الوطنية الواعية، تيار الإستعمار الاسباني والفرنسي، وتيار تمزيق الوحدة الذي كان يستهدف إضعاف قوة المغرب حتى يسهل القضاء على الشخصية القوية التي نقلت حضارة الإسلام إلى الأندلس وأوروبا الغربية وإفريقيا الغربية، وحطمت أحلام الصليبية وهي تجتاز البوغاز لتجعل من المغرب معبرا لعالم الاسلام. وكما حطمت بلادنا أحلام صليبية القرون الوسطى وعصر النهضة حطمت مرة أخرى، بفضل الحركة الوطنية، أحلام صليبية القرن العشرين.

عبد الخالق الطريس، كعلال الفاسي، ناضل بالعمل والتنظيم والتفكير كما ناضل بالكلمة، تهتز لها الجماهير وهو يخطب، وتخاطب الفكر والقلب والعاطفة جميعا وهو يكتب. وهو كمناضل مثقف سجل أفكاره، فكانت في حياته، كما أصبحت بعد مماته، رسالته إلى الأجيال التي تعلمت الوطنية على يديه، والتي ما تزال تناقش الفكر الوطني من خلال ما كتب.

الفكر الوطني المثقف عند الطريس يعتمد على أن الإستقلال هو سبيل تطور البلاد وتمكنها من مسؤولياتها. يقول في إحدى خطبه: " إن استرعاءنا معناه أننا لن نتنازل عن حقنا ولن نتأخر عن الكفاح في سبيل إستقلالنا وحريتنا". ويؤكد: "الحماية تكشفت عن حقيقتها وتفتحت عن سرها، فلم يبق مع افتضاح هذا السر إلا تغيير الخطة وتحويل الحركة الوطنية التي يلزم أن تخرج من الطور الإصلاحي إلى الطور الإستقلالي". ويلخص مذكرة "حزب الإصلاح الوطني" في: "إعلان سقوط نظام الحماية في جميع أنحاء المغرب، حل القضية المغربية على الأساس الشرعي والقانوني الوحيد وهو تحديد الاعتراف بإستقلال المغرب وسيادته الداخلية والخارجية وإعادة وحدة ترابه الوطني كما كانت في عهد الإستقلال". ويعلن تأييده لحزب الإستقلال في موقفه "إصلاحات"المقيم العام إريك لابون (1946-1947) فيقول: "نحن نؤيد حزب الإستقلال كل التأييد في خطته الموفقة إزاء برنامج الإصلاحات الذي عرضه السيد إريك لابون. ونرى كما يرى أن الإستقلال الذي كان أقصى غايات الوطنية أصبح بسبب الظروف وفشل التجارب وخيبة الأمل في نظام الحماية الغاية الأولى التي يلزم الوصول إليها".

والفكر الوطني عند عبد الخالق الطريس يعتمد على أن الوحدة هي سبيل بناء مغرب جديد. وفي الوقت الذي كان الجنرال فرانكو في أوج سلطته فأسرع لاحتلال طنجة (1940). ومن ثمة، أعلن الطريس صراحة: "وأنا مؤمن كل الايمان أن الإسبان يطمعون في طنجة كمملكة لهم. وأمام هذا لا مندوحة لنا عن رفع الصوت عاليا أمام الضمير الدولي باستنكار كل محاولة من هذا النوع. طنجة مغربية

إسلامية. وهكذا ستبقى... لم تقبل الأمة المغربية في يوم من الأيام أن يقتطع طرف من أطراف أراضيها. فسبتة بالقوة أصبحت مملكة إسبانية (1415) ولكن لم تنقطع الحروب وراء أسوارها. ومليلية بالقوة وقعت في يد الاسبانيين (1496). حياتها سلسلة من المناوشات مع القبائل الريفية المجاورة ومنطقة إفني بقيت تحت حكم المغرب (1934)، بل إن حماية المغرب نفسه سواء من الاسبانيين أو الفرنسيين لم تتم إلا بعد إهراق أنهار من الدماء، فبأي صفة ستصبح طنجة مدينة إسبانية؟".

الفكر الوطني المثقف عند عبد الخالق الطريس يعتمد على أن المغرب يعيش ضمن المجموعة العربية والإسلامية وليس يكفي تضامنه مع الوطن العربي في قضاياه الأساس كقضية فلسطين، وقد أعلن هذا التضامن باسم الوطنية المغربية في المؤتمر البرلماني العربي (1938)، ولكنه يرى أن وحدة العرب تتمثل في وحدة الفكر العربي وفي ذلك يقول: "وحياتنا الفكرية هي الحياة الفكرية للعروبة بأسرها... وما من مرحلة إجتازها الفكر في قطر من أقطار لغة القرآن إلا ولمس الشعور بالاستعداد لاجتيازها في الأقطار الشقيقة" وينعي على الشذاذ والمغتربين الذين يسعون إلى عزلة فكرية إنسياقا وراء إقليمية ضيّقة.

هذه أسس الفكر الوطني عند عبد الخالق الطريس، وبذلك كان نموذجا للمناضل المثقف الذي إستعان بثقافته على توجهه النضالي وعلى فهم أسس الحياة لمستقبل هذه البلاد.

كان عبد الخالق الطريس يناقش القضايا الوطنية والسياسية من منطلق المثقف المفكر لا من منطلق العاطفي المتحمس. كان يدين بأفكاره الوطنية إنطلاقا من رأي يعتمد على ثقافة ومعرفة بالماضي وتطلع للمستقبل وليس إنطلاقا من رأي هادف تمليه ظروف أو يفرضه واقع. ومن هنا إصطدم مع الإستعمار وما كان يبيته لهذه البلاد. وعلى ضوء ذلك ناضل في السنوات القليلة (14 سنة) التي عاشها في ظل الإستقلال.

وفي الوقت الذي كان على الحركة الوطنية أن تعمل خارج المغرب لتكسر الطوق الذي حاول الإستعمار أن يفرضه على الوطن، كان الطريس بالقاهرة. وفي

الوقت الذي خطت فيه الحركة الوطنية خطوتها الكبرى بإنشاء المقاومة ثم جيش التحرير، كان الطريس في مقدمة من عمل للفكرة مستجيبا لروح المغرب الذي ينبعث في الوقت المناسب بالأسلوب المناسب. فكان أول من رعى حركة المقاومة وجيش التحرير في الشمال بالتنظيم والتدريب والاحتضان. منحها كل ما يملك، حتى منزل سكناه وضعه تحت تصرفها، وبذل لها كل ممكناته الفكرية والتوجيهية والمادية. وفي الوقت الذي بدأت حركة تحرير الجزائر تعمل للقضاء على الإستعمار في البلد الجار الشقيق، كان الطريس في مقدمة الذين بذلوا لها كل ما يملك من مساعدة نضالية. حتى منزله وضعه بين يدي القيادة التي اتخذت من تطوان أحد مراكز قيادتها. وفيه كانت تختزن جزء من السلاح الذي كان المواطنون المناضلون من المغاربة ينقلونه إلى الحدود الجزائرية ويسلمونه إلى المجاهدين الجزائريين.

وفي الوقت الذي أذعنت فرنسا لإستقلال الجزء الذي كان تحت سيطرتها من المغرب، أخذ يعمل لإتمام الوحدة بتكسير الحدود فكان لانتفاضة الشمال وتضحياته والدماء التي سالت فيه أثرها الكبير في التعجيل بتحرير الشمال وتوحيده مع بقية الجزء المحرر من المغرب. وفي الوقت الذي تمت للمغرب وحدته الجزئية رأى بثاقب فكره وشمولية وطنيته أن الوقت قد حان لتعبر الحركة الوطنية عن حقيقتها التي واجهت بها الإستعمار وهي الوحدة فأعلن إندماج "حزب الإصلاح" في "حزب الإستقلال" للعودة إلى حقيقة الحركة الوطنية التي انبعثت موحدة في منبعها ووسائلها وأهدافها، ثم للتعبير عن حقيقة المغرب الموحد، ثم العمل الموحد في سبيل الأهداف الكبرى التي كان ما يزال على "حزب الإستقلال" أن يحققها في الوطن المستقل.

وهنا يجب أن نقف وقفة تأمل لنقدر العمل الذي قام به عبد الخالق الطريس وهو يعلن وحدة الحركة الوطنية تحت إسم حزب الإستقلال. فقد برزت في الفترة التي تلت الإستقلال مباشرة ميول إنحرافية إستهدفت تمزيق الفكر الوطني وإستغلال الظروف لمحاولة الاستفادة مما حسبوه توزيع الغنائم. هنا برزت كثير من الميول لإنشاء أحزاب وحركات مصطنعة، يستهدف بعضها تمزيق

الحركة الوطنية، ويستهدف بعضها تمزيق وحدة المغرب عرقيا ولغويا، الشيء الذي لم يستطع الإستعمار أن يقوم به حتى من خلال الظهير البربري (16 مايو 1930) والممارسات التطبيقية التي قام بها طيلة وجوده بالمغرب. ولكن عبد الخالق الطريس كان أسمى فكرا وأصفى نفسا وأرحب صدرا وأصدق وطنية فأعلن وحدة الحركة الوطنية في شقيها، فحقق بذلك الروح الحقيقية للفكر الوطني في الوقت الذي كان فيه الانحراف يطل على حياة المغرب، حديث العهد بالإستقلال.

وتلك غرة في جبين العمل الوطني الرائد الذي قام به عبد الخالق الطريس.

-3-

بعد الإستقلال، كان عبد الخالق الطريس، هو نفسه قبل الإستقلال، مناضلا في سبيل إستكمال القيّم الوطنية الكبرى. فقد تخلى عن جميع مهماته الوزارية والديبلوماسية ليناضل مع الشعب في سبيل الديمقراطية. كان في مقدمة قادة الحزب الذين ناضلوا من أجل المؤسسات لإرساء سلطة المؤسسات. كافح من أجل الدستور وكافح من أجل المجالس البلدية والقروية ومن أجل مجلس النواب. ولم يكن كفاحه نظريا، ولكنه كان كفاحا عمليا فقد خاض المعارك الانتخابية مع جميع المناضلين الإستقلاليين في الشمال والجنوب والشرق والغرب.

كان عبد الخالق الطريس ديمقراطيا في فكره السياسي. خدم بلاده بعد الإستقلال كمسؤول ممثلا للحكومة في الشمال أثناء عملية الالتحام، ووزيرا وسفيرا. ولكنه كان يصبو إلى اليوم الذي يعمل في خدمة بلاده عن طريق مجلس للأمة.

ويوم أحس بأن الوقت قد حان ليقود الحملة الديمقراطية إستقال من منصبه الرسمي وإنتفض إنتفاضته الرائعة مع الشعب ليكسب معركة الديمقراطية. طاف المغرب كله (مايو 1963)، رغم الداء والعياء، يناصر المرشحين الإستقلاليين. ترك الدائرة التي رشح نفسه فيها إلى آخر لحظة لأن الذي كان يهمه هو أن ينجح زملاؤه في وجه حملة التزييف التي اصطبغت بها الانتخابات.

في تجمع هائل بإحدى الملاعب الرياضية بالرباط ضم خمسين ألفا من المواطنين (10 مايو 1963) قبل الانتخابات التشريعية الأولى بأيام قليلة، ألقى عبد الخالق الطريس خطابا جامعا قال فيه على الخصوص:

لقد قالوا مثلا إن ولاءنا مقيد ومشروط. ويسعدني أن أقول لكم أمام الله وأمام الشعب أن ولائي سيبقى مقيدا ومشروطا. هذا لا يمكن أن يعاب على شخص مثلي وإنما يعاب عليه من يبايع ملك البلاد ويؤيده دون قيد ولا شرط. فلست إمّعة ولا نَكرة.

إننا نؤمن بالملكية، ولا يمكن لأحد أن يتهمني في ملكيتي. وإنني من عائلة دافعت عن المغرب وعن ملكيته. كلكم تعرفون الأعمال التي قمنا بها حيث لقنّا الاستعمار درسا قاسيا. إستقلت البلاد وعاد الملك لعاصمة ملكه معززا مكرما بل مقدسا محبوبا.

لقد ساوَمَنا الاستعمار بالاستقلال عن الملك، ولكننا رفضنا ذلك. وقد كتبت إذ ذاك مقالا في جريدة "الأمة" بعنوان: "محمد الخامس قبل الاستقلال". فأين كان أولئك الذين يتهموننا اليوم؟

نومن بالملكية... ولكن، وهنا يأتي القيد والشرط، وهو أن لا نرى إنحرافا في سياستنا الداخلية والخارجية، وانحرافا عن الشعب. إننا نريد عرشا للمغرب يكون عرش المغاربة أجمعين وإذا تظاهر أحد بأنه يتكلم باسم الملك، فعلى جلالة الملك أن يلفت نظره بصريح العبارة: "إنني ملك للمغرب، لا أحتاج لكم لأن الشعب كله معي".

هذا، أيها الإخوان هو الموقف الذي ينتظره الشعب المغربي في الأيام القريبة القادمة. وإذا رأيتموني أتحفظ وأوجه النصح وأحاول أن أرفع الأذى، فلأني أشفق على عرش المغرب وعلى ملك المغرب وعلى الشعب المغربي، لأننا لا نريد الخروج من نظام إلى نظام لا نعرف كيف سيكون.

إن الشعب يشعر وسيكافح، وهو ساخط على الأوضاع فإذا لم يثر غدا، فيمكن أن يثور في يوم ريب، ونعوذ بالله من غضب الشعب.

باسم الحب والقداسة التي ملأت قلبنا لمحمد الخامس، أتقدم لجلالة الملك الحسن الثاني لا بسبب الخوف من نتائج الانتخابات، فجلالة الملك أعرف لناس بقوتنا. لا نتقدم له جبناء ولا متوسلين وإنما أوفياء صادقين أنه يجب أن نرى في هذه اللحظة تضامنا بين الشعب والملك، فإن ذلك خير للمغرب الآن وفي المستقبل.

أيها الإخوان، أيتها الأخوات.

سأقترح في البرلمان سن قانون "من أين لك هذا"؟ بالنسبة لجميع الذين شاركوا في الحكم منذ استقلال المغرب إلى يومنا هذا. والتاريخ سيوضح لنا أن اكديرة[1] وأتباعه إستغنوا أموال الشعب وأثروا على حساب الاستقلال مع ذويهم.

فاز عبد الخالق الطريس بمقعده في الانتخابات التشريعية رغم المحاولات اليائسة التي قام بها الوزير المسؤول عن الانتخابات وأتباعه.

في البرلمان قاد عبد الخالق الطريس فريق المشروعية والتعادلية بصدق. وكان صوته من صوت الحق وهو يطالب بتعريب القضاء والإدارة والتعليم، وهو يطالب بإلغاء القيود على الحريات العامة، وهو يطالب، كما وعد في الحملة الانتخابية بسن قانون "من أين لك هذا؟" وهو يطالب بالإصلاح الزراعي وبتحرير الاقتصاد من سيطرة الاحتكاريين والرأسماليين، وهو يعارض الحكومة اللاشعبية ويطالب بإقالتها. عرفه منبر البرلمان خطيبا كما عرفته ساحات المدن والقرى ونوادي الحزب والجمعيات. كان صوته دائما منطلقا من فكره التحرري الإستقلالي الديمقراطي وكان منطقه دائما منطق المناضل في سبيل الأفكار التي آمن بها وناضل في سبيلها أربعين سنة أو تزيد.

ظل فكره نبراسا يهدي للتي هي أقوم.

1- يقصد أحمد رضا كديرة (1922-1995) الذي كان يتولى مناصب سامية وحساسة في نفس الوقت: المدير العام للديوان الملكي، وزير الداخلية ووزير الفلاحة بالإضافة إلى الأمانة العامة لجبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية التي أنشأها أسابيع قبل الانتخابات التشريعية (مايو 1963). وقد إستغل منصبيه الوزاريين للضغط على المواطنين في البادية للتصويت على مرشحي حزبه.

طيلة المدة القصيرة للبرلمان (أكتوبر 1963- يونيو 1965) أرسى عبد الخالق الطريس قواعد الأدب البرلماني الرفيع بخطبه وتحليلاته وتوجيهاته وبياناته. ولم يكن يترك واجبه على رأس الفريق الإستقلالي. سجل بذلك صفحة ناصعة للنضال الإستقلالي في سبيل تصحيح الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبذلك سيظل إسمه مقترنا بالكفاح الديمقراطي للحزب إلى جانب كفاحه الوطني.

وفي الفترة الحرجة التي مرّ بها المغرب إتجه "حزب الإستقلال" إلى إصدار بيانه الثاني : "التعادلية الاقتصادية والاجتماعية للعمل على تحرير الإنسان المغربي من الاتجاهات الاستغلالية الانحرافية التي ظهرت في مجال الحكم والممارسة". كان الطريس مع النخبة التي وضعت صيغة هذا البيان وقدمته إلى الملك الحسن الثاني.

عرفناه في اللجنة التنفيذية كأصفى ما يكون الفكر والرأي والمنطق. وكان حتى آخر أيامه، يأخذ الكلمة ليحلل الموقف ويعطي الرأي ويوجه إخوانه في اللجنة، فتطبع آراءه خبرة الأربعين سنة ومنطق التجربة الصادقة والمعرفة السليمة بالناس والسياسات والمواقف. كان يتبنأ بموقف فتصدق الأيام تنبؤه. كان فكره نيّرا صافيا تتخلى عنه العاطفة الجامحة كلما عمّق في السن، وتطبعه الصراحة كلما واجه مسؤولا ولو كان منحرفا.

وما نزال نذكر آخر كلماته في الجلسة الأخيرة للجنة التنفيدية قبل وفاته. فقد صدق كل ما تنبأ به. وما يزال تحليله للموقف السياسي صائبا حتى اليوم.

وساعة عظم إحساسه بالمنية إختار غرفة منزوية في فندق بطنجة، المدينة التي أحبها وآوته منفيا بضع سنوات. لم يرد أن يزعج أحدا. وإنما تمدد في سريره كما لو كان يريد أن ينام، وأغمض عينيه إلى الأبد...

-4-

عاش الطريس حياته بالعرض لا بالطول، وعاشها عميقة مسطحة لأنه كان يسعى وراء هدف لخصه في "المجد للمغرب." لم يقنع بأن يكون هذا المجد عملا وطنيا، ولكن المجد كان في صورة أهداف متلاحقة مترابطة.

كل المناضلين الموهوبين كانوا يمتلكون شخصية متميزة، وقد كان الطريس أحد المناضلين الذين تميزوا بشخصيتهم المتفردة. كان قلبه الكبير مفتاحها. إنطلاقا من حبه لبلاده، عبد الخالق الطريس كان يضمر حبا كبيرا لكل المواطنين والعاملين في الحقل الوطني. كان يعتبر الوطنية مسؤولية إزاء الوطن وإزاء المواطنين في آن. ولذلك لم يكن يخاصم حتى الذين إختلف معهم في الرأي وتباعدت معهم سبل العمل، وحتى الذين أساءوا إلى سماحته ورحابة صدره. ولم يكن يجرح حتى بالكلمة، ولو وجهت إليه جراحات.

كانت شخصيته مفتاح عمله. ويوم قبل العمل في مدريد أو القاهرة سفيرا وهو الزعيم الذي قاد الحركة الإستقلالية في الشمال طيلة نضاله الوطني، كان يعطي للسفارة مدلولها الوطني النضالي لا الوظيفي الدبلوماسي فاعتبرها جزء من نضاله لإرساء قواعد الحكم الإستقلالي. ولذلك اعتبره جمال عبد الناصر، قائد مصر، مناضلا وزعيما، وليس سفيرا. وتمكن من خلال هذا التقدير أن ينسج علاقات صداقة متينة مع القائد المصري. ومن المؤكد أنه بهذه الصفة إستطاع أن يبدد كثيرا من الغيوم التي جللت سماء العلاقات المغربية - المصرية في بداية الإستقلال.

وكان الحب مفتاح خطابه للآخرين. وكان الآخرون يبادلونه هذا الحب سواء في علاقاته الإنسانية أو علاقاته السياسية. وكان مفهوم الحب هو الذي يخيم على مجلسه وهو يتحدث في الثقافة أو السياسة أو شؤون الحياة، أو ينقل الحديث إلى البسيط من القول المضحك من النكت. يضحك من أعماقه وهو يروي النكتة أو يستمع إليها. كل الناس أصدقاؤه لا يترفع ولا يتكبر، ولا ينأى بمقامه عن مجالسة الأصدقاء في المقهى، وعن أن يجمع حوله الشعبي والمثقف، الغني والفقير، الأستاذ والطالب.

خلافه السياسي لم يكن يبعده عن مخالفيه في الرأي. ولذلك كان يجلس إلى كل الهيئات السياسية والنقابية، إلا الذين يستثنون أنفسهم متكبرين، فكان يعتبر الكبر على أهل الكبر عبادة، لأن تواضعه لا يمنعه من الاعتزاز بشخصيته حتى بين أقرب المقربين إليه سياسيا.

بهذه الصفة مات وليس له خصم، بل ليس من بين الذين عرفوه أو سمعوا عنه إلا الصديق الودود المحب.

وكان كرم عبد الخالق الطريس أحد مميزات شخصيته. يردد مازحا: "الكفن ليس فيه جيوب". ويبدو أن بذلته لم تكن فيها جيوب كذلك. ما أكثر غناه، وما أشد فقره في نفس اليوم. أثنى صديق مرة على جلابيته ـ وهما في الشارع ـ فأقسم ليخلعنها عنه هدية له. كان يعطي كل ما معه لأي رجل يعترضه في الشارع يطلب نواله. خرج من منزله في الرباط مرة على موعد مع صديق في المقهى فأعطى كل ما معه، وهو في طريقه، حتى إذا أدرك صديقه وشربا قهوتهما قال له ضاحكا:

ـ "عليك اليوم أن تدفع فصديقك خاوي الوفاض، بادي الأنفاض".

ـ تولى السفارة في مصر بعده سفير صديق له فكانت أولى ملاحظاته بعد تجربة: "مشكلتي الأولى أني لا أستطيع أن أساير الطريس في كرمه وعطائه"...

كان يقتحم على أصدقائه، وكل مناضل وطني كان له صديقا، عزلتهم وتحفظهم. فلا تملك إلا أن تجعل منه صديقك، ولو كان منك في مقام الأستاذية.

دعيت لتحقيق قضائي (شتنبر 1969)، وقد كان معروفا أني سأعتقل بتهمة القيام بما من شأنه أن يمس بالأمن العام بمقال كتبته. زارني في مكتبي مستفسرا. وفي الباب ودعني قائلا ودموع الألم بادية في عينيه، وما أقل اللحظات التي كانت عيناه تفيضان:

ـ لا عليك! إذهب مطمئن البال، رضي النفس، فسأتولى رياسة التحرير إلى أن تعود.

كان ذلك قبل رحيله بعام.

كان عبد الخالق الطريس ديمقراطي السلوك. عاش فترة من نضاله في عهد دكتاتورية الحكم الفرنكوي، وفترة في عهد سيادة النزعة النازية والفاشية في ألمانيا وإيطاليا. وقاد "حزب الإصلاح الوطني" في بداية تكونه في شكل الأحزاب التي أخذت تتكون آنذاك في العالم الثالث، ولكنه ـ وقد كان يرضى بالمظهر الاتجاه السائد ـ كان في الخبر قوي الإيمان بالديمقراطية. وقد زار ألمانيا أثناء الحرب ليستمزج إتجاه النازيين نحو البلاد المستعمرة، وعاد من برلين أشد إيمانا بالديمقراطية، وأكثر إعتزازا بأن الإستقلال لا يحققه إلا شعب المغرب.

كانت ديمقراطية الرأي عنده تبدو وهو يناقش ويجادل في القضايا الوطنية والديموقراطية، وفي ظروف إتسمت بالعنف وغياب الدستور والمؤسسات. يدلي برأيه الشجاع وينصف الرأي الآخر. ثم يقول: "هذا رأيي وأنا معكم في القرار...".

تلك بعض ملامح الشخصية التي تركت بصماتها الواضحة في الحركة الوطنية. وهي من التنوع بحيث لا تكاد تجد لها نظيرا في تنوعها وتفتحها الذي تبدو فيه أحيانا أكثر مما تتحمل شخصية تحمل مسؤولية نضال وطني، ولكنها متكاملة بحيث لا تقبل أن تنقص منها أو تضيف. وإلا لما كانت شخصية الطريس.

يرحم الله عبد الخالق الطريس بما قدم لبلاده ومواطنيه فقد أرسى قاعدة هامة من قواعد إستقلال هذه البلاد ووحدتها وحريتها. والأجيال التي ستنعم بهذه القيّم لن تكون من العقوق بحيث لا تذكر بناة هذه القيم، وفي مقدمتهم عبد الخالق الطريس.

شخصية إنسانية، نضالية، مغرمة بالوطنية، مؤمنة بالأهداف، إجتماعية، متفردة.

تلك هي شخصية عبد الخالق الطريس كما عرفته.

***

إلتحق عبد الخالق الطريس بالرفيق الأعلى يوم الأربعاء 27 مايو 1970 وعمره بالضبط 60 سنة حيث رأى النور يوم 26 مايو 1910 في تطوان.

رحمه الله...

محمد بن عبد الكريم الخطابي ...
بطل الريف
(1963-1882)

-1-

- ... وأذكر أن زملائي في المسيد، كانوا كبار السن ولعلي كنت أصغرهم، يحذرونني:

ـ لا تجهر بإسمك في الشارع فقد تعتقل، أو يحدث لك ما لا تحمد عقباه. وأفتح عيني على بعديهما :

ـ وماذا يكون في إسمي من خطر؟

يستغربون من سذاجتي:

ـ إسمك يذكر بإبن عبد الكريم.

ـ من هو إبن عبد الكريم؟ ماذا يزعجهم في هذا الإسم؟

أسئلة كنت ألقيها على نفسي خائفا من أن يتردد صداها عند الآخرين فيحدث لي ما لا تحمد عقباه.

ولم يجتر فكري الصغير غير إسم إبن عبد الكريم فقد كنت دون الوعي بما يحمل هذا الإسم الكبير.

توالت السنون، لا أدري كم. وأفقت من غفلة، وقد بدأت أقرأ الكتب، وإذا بزميل في المدرسة، يدس في يدي كتابا مطويا. عيناه زائغتان في الطريق العام، خائفتان من أن تمتد إليه نظرات واشية، أو أيدي خاطفة:

ـ إخف هذا تحت جلابتك...

وضعت ما بيدي تحت جلابتي، وعيناه الزائغتان بالخوف تنقلان إلى نفسي رعبا ممزوجا بالمغامرة. لم أكن من المغامرين أو من الذين يواجهون الخطر المكتوم. ولكني وجدتني أخفي شيئا لا أدري ما هو حتى أسر إليَّ الصديق بصوت مكتوم:

- إقرأ هذا الكتاب، وأعده إليّ في أقرب وقت.

في غرفتي العلوية بالمنزل الكبير كشفت ما تحت جلابتي وقبضتي تمسك بزمامه. كان كتابا عن "بطل الريف".

صحبني الكتاب أينما تنقلت. وقد تعلمت أن أخفيه تحت جلبابي، أقرأ ما وسعني أن أقرأ من صفحات، وأعيد قراءة ما لم أفهم من فقرات. كان عهدي قريبا بالكتب، ولم أكن لأجرأ على قراءة كتاب في بضعة أيام. ومع ذلك إلتهمت الكتاب بشوق. كانت كل صفحة تسلمني مشوقا إلى أخرى، كل فقرة تدفع بي إلى جارتها. تعلمت منه الكثير. عرفت لماذا كان إسم إبن عبد الكريم، يبث الرعب في قلوب الذين أصبحوا يطاردون "الإسم" بعد أن طاردوا صاحب الإسم. تعلمت أين يكون الريف من خريطة المغرب، وأين وضع إبن عبد الكريم إسمه بين أسماء العظام الذين مروا بتاريخ المغرب. تعلمت كيف يقدر الكاتبون الرجال الذين أحدثوا حدثا كبيرا في التاريخ. لكن، مع ذلك، لم أقدر البطولة التي صاغها إبن عبد الكريم معارك طاحنة في أنوال وأجدير و"عربين" وجبل "عرويت" و"تفرسيت" ...في قمم الجبال المشرفة على المتوسط، وفي السهول المتاخمة لتطوان غربا ولتازة شرقا، والتي تسلم إلى فاس شمالا.

وقرأت كتبا أخرى، قليلة ولكنها مؤشرة. فعرفت أن إسمين أطارا النوم من عيون رجال الجمهورية الفرنسية وضباطها الكبار: فاس وإبن عبد الكريم. يوم أصبح إسم الرجل قريبا من إسم المدينة قرر مرشالات فرنسا أن يتدخلوا لينقذوا جنرالات إسبانيا، وليثأروا لإسم "سيلفستر"[1]، ويحموا شرف "نافارو" و"بريمو دي ريفيرا"[2].

1- Manuel Fernandez Silvestre (1871-1921)، أحد أكبر جنرالات إسبانيا. كان حاكما لمدينتي سبتة ومليلية (1919-1921). إنتحر في أنوال (22 يوليوز 1921) إثر الهزيمة التي تكبدها الجيش الإسباني في مواجهة محمد عبد الكريم الخطابي.

2- Miguel Primo de Rivera (1870-1930)، أحد أكبر جنرالات إسبانيا. تقلد مناصب سياسية حيث ترأس حكومة إسبانيا إثر إنقلاب شتنبر 1923.

إنتهت حرب الريف بانتصار المرشالات والجنرالات وسلاح البحر والجو، وأسلحة الغدر والخيانة على جهاد المتطوعين وقيادات المجاهدين وسلاح الغنيمة ومخلفات المعارك التي إنهزم فيها الاسبان. وعاد المرشال بيتان[3] إلى فرنسا مزهوا شامتا في غريمه ليوطي، وقد نقل الفاتح من المغرب، ففي عهده كاد إبن عبد الكريم أن يحرر كل المغرب لو سقطت فاس في يد الثائرين، وإلتقت حرب الريف بمقاومة الأطلس.

إنتهت حرب الريف، ولم تنهزم روح ثورة الريف، فقد أشعت في المغرب كله، وحملت الشعلة الحركة الوطنية، منطلقة من روح الثورة، ومبادئها التحررية، وظلت تناضل وتناضل حتى حققت (1955) ما كان إبن عبد الكريم يرغب في أن يحققه ثلاثين سنة قبل ذلك (1925).

المنافي السحيقة تغيب الرجال، ولكنها لا تمحو نضالهم من الذاكرة اليقظة. والسنوات الطويلة (21 سنة) التي قضاها إبن عبد الكريم في جزيرة لارينيون[4] لم تنس المواطنين في المغرب والمواطنين العرب والمسلمين حرب الريف، ولا أنستهم إسم الرجل الذي طبع المغرب الحديث بطابع الكفاح حتى النصر. رغم "مظهر الهزيمة"، ظل إسمه يتردد في الضمير الوطني. وكلما قام المغرب بمعركة ضد الإحتلال، كان إسم إبن عبد الكريم حاضرا يستحث الخطى ويدعو إلى تغيير أسلوب المقاومة. ولكن عملية التغيير كانت في حاجة إلى وقت حتى يمكن أن تحقق ما تضافرت عوامل التضامن بين الإستعمارين الفرنسي والاسباني على عدم تحقيقه أثناء حرب الريف.

3- Philippe Pétain (1856-1951)، أحد كبار مرشيلات فرنسا. يُعرف بالمنتصر في معركة Verdun التي واجهت القوات الفرنسية ضد القوات الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى (700.000 ضحية). تقلد فيما بعد رئاسة الدولة الفرنسية إثر هزيمة فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية ووقع معاهدة الاستسلام لصالح النظام الهتليري المحتل.

4- La Réunion، جزيرة صغيرة (2.500 كلم مربع) على بعد 700 كلم من جزيرة مدغشقر. إستولى عليها ملك فرنسا (1760).

كانت السلطات الفرنسية قد وضعت بن عبد الكريم الخطابي في الخانة المنسية من سياستها الاستعمارية في المغرب. وللتذكير فقد صرح المقيم العام تيودور ستيغ عند نفي بن عبد الكريم : "لا أريد للمدعو الخطابي لا تعظيما ولا إذلالا ولكن أريد أن يتداركه الزمن بالنسيان". ولا شك أن إختيار جزيرة معزولة في المحيط الهندي كان يهدف إلى تناسي المنفي.

حينما أنشئت الجامعة العربية جدد "مكتب المغرب العربي"، مطالبتها للدول العربية وجامعتها بمخاطبة الحكومة الفرنسية في تحريره وعائلته. إستجابة الحكومة الفرنسية لرغبة جامعة الدول العربية جعلتها تفكر في نقل الزعيم الخطابي وعائلته إلى منطقة في جنوب فرنسا. ولذلك قررت ترحيله على ظهر باخرة استرالية لا تلفت النظر استأجرتها لهذه المهمة.

تلقيت خبر مرور الباخرة بعدن من المناضل الفلسطيني المرحوم محمد علي الطاهر، وقد قابلته صدفة في ميدان الأوبرا بالقاهرة، فمكنني من برقية وردت عليه من أصدقائه في عدن مفادها أن باخرة مرت بالميناء توقفت لتتزَوَّدَ بالوقود، وقد نزل منها الزعيم الخطابي لأداء الصلاة في المسجد. ثم أبحرت مارة بقناة السويس. كانت البرقية تحمل إشارة مهمة وهي أن الباخرة ستمر بقناة السويس.

أسرعت إلى "مكتب المغرب العربي" حيث عقدنا إجتماعا مستعجلا لدراسة الموضوع. وتقرر أن يسافر وفد من المكتب إلى السويس. كان منتظرا حسب معلومات عدن أن تصلها الباخرة في اليوم التالي. كان الوفد على موعد مع الباخرة. ويبدو أنها كانت غير محروسة حراسة دقيقة. إلتقى الوفد بالزعيم الخطابي وأخيه. وكانت خلاصة المقابلة أن عرض عليه الوفد النزول من الباخرة والالتجاء إلى مصر.

كان العرض يتسم بمغامرة كبيرة. ذلك أن المكتب لم يستشر مع الحكومة المصرية، ولم يفكر في العواقب السياسية والدبلوماسية والأمنية لعمل يعتبر خطيرا بكل أبعاده. ولم يجد الوفد إقتناعا قاطعا من ابن عبد الكريم، بل وجد تخوفا من النتائج السياسية من الجانب الفرنسي والمصري. يضاف إلى ذلك أن الزعيم الخطابي لم يكن يعرف أعضاء الوفد، وسنوات المنفى الطويلة جعلته بعيدا عن المغرب وعن قضاياه، فأحرى عن رجاله. وذلك ما جعله يصر على الامتناع.

لم يجد الوفد سبيلا للإقناع، فاقترح على الزعيم الخطابي أن يعود إليه عندما تتوقف الباخرة في بورسعيد بعد أربع وعشرين ساعة.

عاد الوفد إلى القاهرة، وعقد المكتب إجتماعا عاجلا في صباح اليوم التالي. وارتأى أن عملا كهذا إذا ما قبل الزعيم الخطابي الفكرة، يجب أن يكون باتفاق مع الحكومة المصرية حتى تتحمل المسؤولية في المشاكل الدبلوماسية المنتظرة. تأكدنا أن الاتصال يجب أن يكون مع سلطة نافذة. ولم تكن هذه السلطة إلا الملك.

قام المكتب باتصالات مكثفة مع مدير ديوان الملك فاروق نتج عنه وعد المسؤول بوضع المشكل فورا على أنظار الملك.

الليل كان قد بدأ يزحف على القاهرة، رن جرس الهاتف في المكتب. صوت مدير الديوان يؤكد أن الملك يرحب بالمبادرة، وأن التعليمات أعطيت لرئيس الحكومة محمود فهمي النقراشي، وسيكون المسئولون في بور سعيد مستعدين لاستقبال الزعيم الخطابي في الميناء إذا نزل بمحض إرادت. ولكنه أكد أن مصر لن تتدخل في عملية الإنزال.

أخذ وفد كبير[5] هذه المرة طريقه ليلا إلى بورسعيد. كانت السيارة في سباق مع الزمن لتصل قبل الصباح، موعد توقف الباخرة. وقد وصلت فعلا في الوقت المحدد لها.

5- علال الفاسي، عبد الخالق الطريس، الحبيب بورقيبة، محمد بن عبود، عبد المجيد بن جلون، والدكتور الحبيب ثامر.

إستقبل الزعيم الخطابي الوفد الثاني في بورسعيد بالود، ولكنه أعرب عن مخاوفه من السلطات الفرنسية والحرس الموجودين على الباخرة إذا ما هو قام بحركة تبعث الشك في نواياه، ثم هو غير متأكد من موقف السلطات المصرية، ولعله لم يكن يعرف الكثير عن مصر ووضعها السياسي. إزاء الرفض الصارم بادر الوفد فاقترح عليه أن ينزل إلى الميناء ليرد تحية محافظ المدينة الذي سعى إلى استقباله، وهو ينتظر على الرصيف. كانت فكرة مقنعة ومؤثرة، قابلها الأخوان بالترحاب على شرط أن يؤخذ الاحتياط من الحراس حتى لا يظنوا به شرا.

على الرصيف كان المحافظ يستقبل الزعيم الخطابي بترحيب كبير، ويؤكد له أن ملك مصر وحكومتها يرحبان به ضيفا على مصر مكرما معززا، وأنه سيجد في مصر بلده الثاني، ويعيش موفور الكرامة والحماية له ولعائلته. اختفى كل تردد، وكان قبوله العرض المصري بالشكر والعرفان.

لم ينتظر أعضاء الوفد نتيجة المقابلة، فقد طلبوا من أبناء وعائلة ومرافقي الزعيم أن يغادروا الباخرة حيث كانت حافلة تنتظرهم، وقام حمالون بنقل متاعهم حيث كانت شاحنة تنتظرهم، ووضع المحافظ سيارته رهن إشارة الزعيم وأخيه، وانتهت المقابلة بانتقال الزعيم محررا من منفاه إلى "مكتب المغرب العربي" بالقاهرة.

كان فك الأسر يوم السبت 31 مايو 1947. وقد استنكرت وزارة الخارجية الفرنسية هذه العملية، واعتبرت أنها مخالفة لميثاق الشرف الذي التزم به بن عبد الكريم الخطابي عند عرض نقله إلى فرنسا. وقد كانت لهذه العملية أصداء كبيرة في الصحافة العالمية منذ اليوم الموالي.

أصبح "مكتب المغرب العربي" كما وصفه صحفي إنجليزي مثل مقر "10 داونينج ستريت"[6] في لندن ووجه الشبه الشكلي أن مقر المكتب كان في "10 شارع ضريح سعد"، فقد وفدت عليه أفواج الصحفيين والسياسيين من

6- 10 Downing Street، مقر الحكومة الإنجليزية.

كل أنحاء العالم. الصحفيون يريدون أن يعرفوا كل شيء عن الزعيم وثورته وتاريخ الحرب الريفية، التي كان يظن أن النسيان قد طواها كحركة تمردية، فيما كانت تزعم المقولة الاستعمارية. وكان الصحفيون الأجانب يعجبون ويقدرون البطولة والمغامرة اللتين تحلى بهما "مكتب المغرب العربي" وهو يقدم على هذه الخطوة التي لها أثر دولي كما أن لها آثارا سياسية في تعامل السلطات الاستعمارية مع بلاد المغرب العربي. وقد شكل وجود الزعيم الخطابي قوة جديدة مهددة قد تعيد العمل العسكري إلى واجهة النضال المغاربي ضد الاستعمار. وكانت لها آثار أكثر أهمية في شد أزر المناضلين السياسيين في الأقطار المغاربية الثلاثة لتحقيق الاستقلال.

-3-

وكتب لي أن أعيش لحظات فريدة في التاريخ أعتز بأنها كانت من عمري، مع الرجل الذي أخفيت كتابا يتحدث عنه تحت جلبابي حتى لا يعلم به الوشاة.

كان من هذه اللحظات أن رافقت البطل إلى مستشفى المواساة في الإسكندرية حيث قرر الملك فاروق أن يستضيفه لاجراء فحوص طبية مما كان يشكو منه. كان يشكو من ضغط الدم. ولكن شكواه كانت من الأسر، وقد ألف في ريعان شبابه أن يطوف الجبال والسهول في حرية مطلقة، وأن يطوف بفكره أمجاد التاريخ وآفاق المستقبل دون أن يحد من هذه الآفاق أسر الآسرين ولا سلطة المحتلين.

كانت جلساتي معه تطول كل يوم في غرفته بالمستشفى حيث يحلو له أن يشرب كأسا من الشاي في صفاء ذهن وهدوء أعصاب، بعد أن يكون الأطباء قد قاموا بمتطلبات الفحص في الصباح. لم يكن يغير من صفاء هذه الجلسات إلا موعد مع صحفي أو صحفية وقد كانوا يتوافدون عليه بالمئات أو زيارة طارئة مفاجئة لا نحسب لها حسابها. وكان الملك فاروق يقوم بها من حين لآخر حينما يكون في الأسكندرية.

حينما يطمئن البطل إليك يفتح قلبه، ونافذة قلبه على لسانه. لا يحب كثيرا أن يتحدث عن الماضي. لم يكن يطوي صفحات هذا الماضي، ولكنه لا يحب أن يغرق

في الحديث عن المجد الذي لم يتم. وحينما تلح، بالأسلوب الذي لا يشعره بأنك ترغب في الحديث عن الماضي، كان يفيض في الحديث عن المعارك، عن الرجال، عن الأبطال، ولكنه لا يخص أبطال الجهاد إلا بالقليل. كانت عيناه تمتلئان حزنا حينما يطفر إلى ذهنه بطل واستشهد، ولم يكن هناك أبطال أسروا حتى يحزن عليهم.

ولكنه كان يتحدث عن "الأبطال" الذين حاربوه، وكشَهْمٍ يقدر البطولة. لم يكن يبخل عليهم بكلمة تقدير. حينما يروي معركة أنوال لم يكن يبخل على الجنرال "سيلفستير" بتقدير شجاعته. ولكنه كان يطعن في إستراتيجيته العسكرية باعتباره كان يجهل المنطقة، ولا يعرف إستراتيجية المغاربة. لم يكونوا ينزلون الوهاد. وكقوة خفيفة الحركة يتنقل المجاهد منهم في الجبال لأنه يعرف طريقه، ويحمل زاده، ويحارب بسلاح يمكن أن يحمله على كتفه. وكان الخصم يحارب بسلاح محمول على الشاحنات والآليات، وهي لا تخترق الجبال، وإنما تسير في الوهاد. وفرضت إستراتيجية الحرب المنظمة على الطريقة العصرية أن تختار الموقع في السفح، كما فرضت إستراتيجية المجاهدين المغاربة أن يختاروا موقعهم في الجبل. فكان السفح مصيدة جمعت كل قوات سيلفستر تحت وابل رصاص المجاهدين، فكانت معركة أنوال أخطر معركة خاضها الإستعمار الغربي في كل تاريخه. لم تتكرر مثل هذه المعارك إلا في "ديان بيان فو" في الفيتنام.

وتحدث لي مرة عن إبن البغدادي. شدهت وهو يقول بإعجاب:

- أي جنرال كان هذا الرجل...؟

صورة الباشا إبن البغدادي[7] في ذاكرتي كانت هي الجلاد الجبان الذي يقبض "إبن عتروس" بتلابيب ضحيته فلا يزيد على أن يأمر بالجلد[8]، ولكن إبن عبد الكريم غيّر الصورة التي كانت عندي عن إبن البغدادي، فقد كان شجاعا حارب في

7- محمد بن البغدادي، أول باشا لمدينة فاس نصبه المرشال ليوطي إثر الأحداث الدامية (17-19 أبريل 1912) التي عرفتها المدينة. إستمر حكمه لمدة عشرين سنة (1912-1932) وتميز بجلد المواطنين رغم أن القانون منع الضرب منذ سنة 1917.

8- **سعادة الباشا**، عبد الكريم غلاب، دار نشر المعرفة (2017)، تعطي صورة حيّة لما كان يقوم به الباشا بن البغدادي.

صف الفرنسيين ضد إبن عبد الكريم. وكبطل كريم يقدر الرجال الأبطال، لم يكن يبخل على خصمه بكلمة تقدير يقولها ووجهه ينطق بالبشر:

ـ أي جنرال كان...

كنت، وما أزال، أجدني مبهورا كلما جلست إلى رجل أحدث حدثا مهما في التاريخ، فيختفي كل ما حدث لتتجلى صفات الإنسان العادي ببساطته وإنسانيته وطيبوبته وعذوبته ابتسامته. كانت تبهرني هذه الصفات في الرائد علال الفاسي، وأنا بعد تلميذ أجلس بين يديه لأتلقى المعرفة والوطنية. ثم ينتهي وقت التدريس والتوجيه ليجلس إلى رفاقه وتلاميذه فيتحدث حديث الرجل العادي، ولو تناول التاريخ وحاضر الأحداث، ويضحك ملء فيه للنكتة يقولها أو تحكى له، ويترك الحديث الجاد المجد لتستوقفه مناغاة رضيع استضافته غرفة حارس باب بيت فيعلو وجهه البشر ويقطع حديثه والابتسامة الجميلة ترتسم على محياه وهو يشير بأصبعه إلى وجهة باب المنزل:

ـ إسمعوا... صوت رضيع الحارس يبكي...

وهكذا كان إبن عبد الكريم. تصفو الدنيا من حوله، وتبتعد كل منغصات وكل منغصي الحياة فيعلو وجهه البشر. وترتسم الإبتسامة الطفلية على وجه البطل فتختفي الغضون وتشرق العينان اللامعتان اللتان أرهقهما الأسر فيروي النكتة، ويضحك للأخرى، ويحدثك عن مفارقات الحياة زمن النضال ليعطي للحياة مدلولها الحقيقي.

كانت الصفات الإنسانية في بطل الريف تستبد باهتمام الصحفيين الذين كانوا يفدون على "مكتب المغرب العربي" في القاهرة ليتحدثوا إلى الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس يوم طارد الاسبان والفرنسيين، ثم يوم (1 يونيو 1947) إفتك أسره "مكتب المغرب العربي". كان يحدثهم عن الحرب والسياسية، ولكنه كان يتخلى أحيانا عن ذلك ليبتسم في وجوههم وهو يروي لهم نكتة أو حادثة عادية يفاوض سلاحهم، أو حينما كانوا يستسلمون زرافات ووحدانا فيرعى الأسرى ويستخدم التقنيين في مد أسلاك الهاتف، أو نصب آلة البرق، أو إصلاح مدفع أو تحريك آليات خفيفة، أو حينما كان

يشترط على خصومه أن يدفعوا جزء من الفدية طعاما يأكله بقية الأسرى، أو حينما يروي قصص المجاهدين الذين لم يكونوا يقعون في الأسر حتى لو نفد ما بيدهم من سلاح وغذاء.

وكان البطل يبرهن عن إنسانيته فيمتلكه الغضب أحيانا لأشياء تحسبها هيّنة، وهي عنده عظيمة.

كانت الكلمة المعروفة السائرة على ألسنة الناس وهم يتحدثون عن بطولة المغرب ونضاله التحرري هي: "ثورة الريف"... وحينما كنا نردد الكلمة كما حفظتها ذاكرتنا كان "يصرخ" بصوته الهامس وهو يقول:

- حرب الريف... لم تكن ثورة، ولكنها كانت حربا مشروعة ضد الإحتلال ومن أجل المغرب.

علّمنا بضميره النضالي أن نفرق بين مفهوم الثورة، ومفهوم الحرب في العمل النضالي. كان العمل الكبير الذي قام به أكبر من أن تحتويه ثورة. الثورة لا تواجهها جيوش دولتين يقودها ثلاثة مرشالات وعدد من الجنرالات وعشرات الآلاف من الجنود. الثورة لا تنتج "أنوال " ولا حرب الخمس سنوات... الثورة لا تهدد دولة كبرى في مثل حجم إسبانيا بالانهيار... الثورة لا تهدد إمبراطورية مثل إمبراطورية فرنسا بالتفتت... الثورة لا تقلب موازين القوى في عالم العشرينات... لا تزحف من الشمال بغرب وشرق، فتهدد عاصمة الشمال، ومدينة كمليلية، ثم طريقا إستعماريا يربط بين محمية المغرب ومستعمرة الجزائر، وهو طريق سهل... الثورة توحي بالعمل لاقامة "مشروعية" مكان "لا مشروعية". وحرب الريف كانت تستهدف إستعادة المشروعية ضد الإحتلال اللامشروع.

وكنا، ونحن نتلقى الدرس من البطل، نفتح عيوننا على أبعادها في وجهه السمح البشر أحيانا، الغاضب أحيانا، فلا نجده وجه ثائر، ولكنه وجه محارب...

وجوه الثائرين تعلوها سحنة من القسوة والعنف، وربما المكر. وجوه المحاربين تعلوها سحنة من الصدق والسماحة والكرامة، وربما الصراحة. الثائر

يختفي ولا يواجه، ويمكر ولا يصارح، ويعلن كلمته في البلاغ الأول بعد أن ينتهي العمل.

والمحارب يقف مواجها، ويعلن كلمته قبل أن يحمل سلاحه.

كنت أبحث في وجوه الثلاثة الذين قادوا المعركة: محمد ومَحمد، وعبد السلام الخطابي فأرى فيها وجوه المحاربين لا وجوه الثائرين.

-4-

نضج إبن عبد الكريم الخطابي في وقت المحنة. عاصر بوحمارة والريسوني، وشهد أيام فاس الدامية (17 -19 أبريل 1912) وتعرف على الحماية وهي تفرض نفسها، بالضغط والخديعة والإثارة والمدفع. عاش في مليلية الأسيرة، وعرف جسمه الأسر كما عرفته حريته وعقله الذي كان يتحرك في إطار الحرية. ولم يستسلم للأسر، فقد كان لا يقبل أن يأسره عدو بلاده، هرب من محبسه فدقت ساقه، عاش فتوته وفي ذهنه ثورة سيدي أمزيان، وثورة والده من بعده. تعرف على العقلية الإسبانية من خلال معاشرته للإسبانيين في مليلية وطلائعهم التي إحتلت مناطق من الريف ولم تستطع أن تتغلغل في كل القرويين الريف.

عاش بن عبدالكريم الخطابي فتوته وشبابه وهو يخبر أبناء الريف فيجدهم، كأبناء المغرب جميعا، أشاوش شجعانا لا يقبلون الضيم والهوان ولا يرضون بحكم الأجنبي ويرفضون "النصراني" الذي يثوي على مقربة منهم، بل في عاصمة من عواصم إقليمهم "مليلية" وتثوي على مقربة من شاطئ المجاهدين حامية من جيوشهم في صخرة النكور المغربية...

في هذا الجو المشحون بالتحدي عاش محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولم يكن يرتاح للتحدي، فإنه ليقبل الرأي أو الفكرة أو العمل العقلاني أو العاطفي، ولكنه يتحدى بضراوة كل الذين يتحدون، تحدى السجن، بالفرار، ولو كان فيه حتفه، وتحدى الإحتلال بالتمرد، ولو كان فريدا، وتحدى الوجود الإستعماري بإعلان الحرب ولو دون سلاح، وتحدى جيوش الإحتلال الجرارة المنظمة بتجنيد

المجاهدين، ولو دون تنظيم ولا تدريب ولا عدة ولا غذاء ولا مال. كان يؤمن ببلاده ويؤمن بمواطنيه، ويعرف أي شجاعة يجد فيهم حينما يخاطبهم بمنطق الجهاد في سبيل الله والوطن.

بدأ إبن عبدالكريم حرب الريف وهو لا يملك إلا كلمة الجهاد والإعتماد على المجاهدين وإستطاع في فترة وجيزة أن يعبئ المواطنين من الريف وجبالة، وأن ينضم إليه بعض من إبناء المدن: تطوان، طنجة، فاس، وأن يلهب المغرب كله إستعدادًا للقتال.

السر في ذلك شخصيته القوية ومنطقه الصادق، والمثل يضربه بنفسه وأخيه وعمّه وأقاربه. كانت شخصيته أقوى من أن تقاوم، ولذلك لم يكن يخاطب قبيلة أو جماعة ويشرح لها أهدافه إلا انضمت إليه، مجاهدة مناضلة. والسر في ذلك أن أبناء المغرب جميعهم كان فيهم شيء من إبن عبد الكريم، كانوا يفكرون مثله في مقاومة "النصراني" وقتاله، وكانوا يشعرون مثله بعدم قبول الإحتلال، ولكنه كان يمتاز في أنه يستطيع أن يجهر بتفكير لم يكن الكثيرون منهم يتبينونه في أنفسهم، أو يجدون القدرة على التعبير عنه بالكلمة، وكان يبلوره عملا.

وتلك هي صفة الزعامة التي تجلت في الكثيرين من أبناء المغرب، محمد الخامس، أمزيان، إبن عبد الكريم، موحا وحمو، باسلام، علال الفاسي، أحمد بلافريج، علال بن عبد الله، محمد الزرقطوني، وآلاف غيرهم من المناضلين الذين عرفهم تاريخ البلاد مجاهدين ضد كل إحتلال تعرضت له البلاد منذ كانت مطمعا للطامعين.

هل كان للعامل الذاتي أثر في هذا الاستعداد القوي لإثارة حرب الريف، وضد كل الظروف المعاكسة؟

أعتقد ذلك... الزعامة لا تكتسب بالنضال، ولكن النضال يقوم على الزعامة التي تمنح من الصفات الذاتية. ولو لم يكن إبن عبد الكريم هو إبن عبد الكريم بكل صفاته وممكناته لما إستطاع أن يتزعم حرب الريف، ولربما إنتظر المغرب

طويلا قبل أن يظهر شخص في مثل زعامة إبن عبد الكريم ليثير حرب الريف، أو لعله لم ينتظر طويلا، فقد يتزعم بطل آخر في مكان آخر من المغرب حربا تماثل حرب الريف أو تفوقها.

شخصية إبن عبد الكريم أعطت لهذه الحرب المضمون الذي عرفت به في زمانها، ثم بعد أن أصبحت تاريخا.

ومن هنا يمكن أن نقول أن تفكير إبن عبد الكريم كان منطقيا مع نفسه وهو يرفض العمل السياسي ولا يؤمن إلا بالعمل العسكري.

حينما تحرر إبن عبد الكريم من الاعتقال وجد نفسه في القاهرة، والقاهرة يومئذ عاصمة العمل السياسي العربي. كان ذلك بعد حرب عالمية طاحنة علمت الناس كيف يكرهون الحرب، وعلمتهم شيئا آخر وهو أن وسائل الحرب الجهنمية تطورت تطورا خطيرا حينما تطير آلاف الطائرات في ليلة واحدة لتدك مدينة، وأن "المسدس" و"المكحلة" لم يعد لهما تأثير أمام المدفع والصاروخ وتحديد الهدف بالرادار، وأن أوروبا التي عرفت الهزيمة على يد هتلر ما تزال جريحة ومستعدة لتتضافر ضد أي عمل عسكري يقوم به شعب، ولو كان شعب الضعفاء.

وعلمتهم الحرب شيئا آخر ربما كان درسا من الحرب العالمية الأولى وهو أن الشعوب تستطيع بالتمرد السياسي وبالمظاهرة أن تحقق كثيرا من حقوقها وأن تقضي على الإستعمار أو على بقاياه ورواسبه. وكانت الجامعة العربية تبلور هذا المفهوم فتطالب لفلسطين بالحرية من الإستعمار الانجليزي - قبل أن يخلفه للإستعمار الإسرائيلي- ولليبيا بالتحرر من الإستعمارين الانجليزي والفرنسي اللذين خلفا الإستعمار الايطالي، وللمغرب العربي بالتحرر من الإستعمارين الفرنسي والاسباني، ولمصر بجلاء الجيش الإنجليزي والقضاء على مباذل معاهدة 1936.

وجد إبن عبد الكريم نفسه في القاهرة ومنطق التحرر هو هذا، والشعوب التي ذكرنا بعضها بما فيها شعب الهند لا تملك من القوة ما تستطيع به أن تقاوم، عسكريا الآلة الجهنمية التي خلفتها الحرب لدى المنتصرين الحلفاء.

وكان إبن عبد الكريم، بعد أن إستقر به الأمر في القاهرة، متأرجحا بين عصره الماضي وعصره الحاضر، كلاهما يجتذبه بقوة، قوة الحرب التي أجج نارها وإستطاع أن ينتصر في كثير من مواقعها، وإستطاعت أكثر من ذلك أن تسكن ذاته وضميره كعامل فعّال وقوي لتحرير الوطن من الإستعمار، وقوة السياسة التي تتحدث بلغة العصر، وتلتف حولها الشعوب مجربة، أو هي تلتف حولها منتظرة البديل، الذي كانت متأكدة من أنه سيأتي.

كان إبن عبد الكريم يرتاح للعمل السياسي ويسير فيه أشواطا، ولكنه كان يطيل التفكير فيغير من نظرته.

إحدى مميزات إبن عبد الكريم أن فكره لم يكن يخلد إلى الراحة، فهو يفكر دائما حتى في القضايا التي إتخذ فيها القرار. وكان لا يستنكف أن يعيد النظر في القرار، ولو إتخذه عن وعي كامل بالمسؤولية ووعي كامل بالخطة.

على ضوء هذا الواقع النفسي كان إبن عبد الكريم يسير أشواطا في العمل السياسي فيترأس لجنة التحرير، على هامش "مكتب المغرب العربي"، وكانت تضم القيادات السياسية في المغرب العربي التي تواجدت في القاهرة : علال الفاسي، عبد الخالق الطريس، المصالي الحاج، الحبيب بورقيبة، ثم لا يلبث أن ينفض يده من العمل السياسي حينما يجتذبه عصره الماضي ليؤكد أن العمل السياسي عبث في عبث.

كانت تختفي فيه شخصية البشوش المبتسم المجامل لتطغى عليها شخصية الغاضب المنفعل. وتتحدث له عن عمل سياسي فيبتسم إبتسامة ساخرة مريرة وهو يشير بكفه منقبضة تحت عينه اليمنى مزويا عينه اليسرى، وكأنه يقبض على زناد بندقية وهو يقول:

ـ لا ينفع إلا هذا...

-5-

وننتهز فرصة الصفاء الذهني لبطل الريف فنسأله عن قصة الأسرى. ينظر بعيدا وكأنه يستعيد المعركة الكبرى معركة "أنوال"، ومعركة "أعروي" ومعركة

"أفراو" وكل المعارك التي خاضها المجاهدون، ويعود بذاكرته إلى الجنرال نافارو، خليفة سيلفستر وكيف إستسلم بعد أن يئس من أن ينجو بجلده.

يتذكر إبن عبد الكريم إهتمام الإسبان بقضية الأسرى، أكثر من إهتماهم بالمعارك التي إندحروا فيها. يتذكر إستعداد ملك إسبانيا وملكتها للانتقال إلى مليلية لإستقبال الأسرى يوم تنتهي المفاوضات بتحريرهم، يتذكر الضغط الاسباني والمفاوضات غير المباشرة التي أجروها لتحرير الأسرى... ويقطع الصمت بعد أن يستفسر الذاكرة ويقول:

- الأسرى إتخذ منهم الإسبان معركة سياسية للدفاع عن حكومتهم أكثر مما كانت معركة إنسانية. الصحف الإسبانية كانت تضغط على الحكومة التي لم تكن لها مصداقية، فكانت تزعم أحيانا أننا قتلنا الجنود الذين وقعوا أسرى بين يدي المجاهدين...

ويعلو صوته على قدر ما يستطيع، فقد كان يتحدث همسا، ثم يضيف:

صحيح إن بعض المجاهدين كانوا يرون القضاء على الأسرى حتى نتخلص من متاعبهم، بحراستهم ونقلهم من مكان إلى آخر، وتغذيتهم ومشاكلهم الصحية... ولكنا مسلمون مطالبون بأن نحافظ على أسرى الحرب، ونمنحهم جميع الحقوق الإنسانية، كانوا كثيرين جدا، بينما كان أسرانا قليلين جدا.

يتوقف قليلا ليبتسم إبتسامة النصر، لعلها نفس الابتسامة التي كان يبتسمها حينما يساق إليه أسرى الأعداء، قبل أن يضيف:

- المجاهد لا يستسلم... قد يستشهد، ولكنه لا يسلم نفسه.

ويضيف أحدنا أحيانا:

- لعل ذلك لأن المجاهدين لم يكونوا يحاربون جماعات وفي أماكن مكشوفة...

- لم تفكرون هكذا...؟ كانوا شجعانا سواء حاربوا في السهل أو الجبل، حاربوا في الأماكن المكشوفة أو غير المكشوفة. نحن الذين كنا نفرض مكان المعركة. نحن

الذين كنا نهاجم. دافعنا حقا في معركة الناظور الذي إحتله الإسبان مرة أخرى، ولكنا لم نكن لنستسلم.

ونعود بموضوع الأسرى إلى عمقه لنستخرج من الرجل الذي كتم طويلا أسرار معركة الأسر. فيقول:

- كانت معركة سياسية وإستراتيجية. كانوا يظنون أنهم سيطيلون الحديث عن الأسر والمفاوضة في شأنهم علّهم بذلك يخذلوننا عن إستمرار الهجوم وتحرير المواقع. كانت المفاوضات تطول، يرسلون مفاوضين ونرسل آخرين. "إبن سعيد" كان يتنقل بيننا وبينهم كبندول الساعة. كنا نشترط ولا نحيد عن شروطنا.

حاولنا أن نتعرف على هذه الشروط. فابتسم، وهو يعود بنا إلى مرحلة من التاريخ، وقال:

- حاولت أن أذكرهم بما صنعوا بالدولة المغربية حينما إحتلوا تطوان (1860). أفقروا الخزينة حتى ضعف المغرب إقتصاديا كما كان ضعيفا عسكريا. والسن بالسن والجروح قصاص... طالبناهم بأربعة ملايين بسيطة فتذكروا ما طالبونا به كثمن للجلاء عن تطوان. أكدنا لهم أن المغاربة لا ينسون. وطالبناهم بتحرير أسرانا جميعهم. لم يكونوا قادرين على أن يدفعوا، ولكنا أرغمناهم على أن يرسلوا لأسراهم الأكل وسمحنا بأن تصلهم الهدايا والملابس والأدوية وأن يتبادلوا الرسائل مع عائلاتهم. لم يسجل التاريخ أية إساءة إلى الأسرى. وقد إعترف بذلك القواد الكبار الذين ظلوا في الأسر أزيد من سنتين. أحدث هذا في الحرب الكبرى بين الألمان والانجليز...؟

وتساءل أحدنا:

- الإسبان يقولون: "إن بعضهم أُعدم".

وينتفض القائد الذي ما تزال فيه قوة للدفاع عن مصداقية الحرب التي خاضها ليصرخ:

ـ أُطْلِقَت النار على بعض الذين كانوا يفرون من الأسر وأصيب بعضهم. هذا شيء مشروع. مات بعضهم في الأسر، والموت بيد الله. ولو كانوا في قصورهم لماتوا في نفس اللحظة.

ثم ضحك قبل أن يضيف:

- كانوا يضحكون على شعبهم فيشغلون الرأي العام بقضية الأسرى. وكنا نشغلهم بهذه القضية أكثر مما يشغلوننا. كنا نستفيد من بعض فنييهم في إقامة التجهيزات البرقية والهاتفية وكنا نستعين ببعضم في إصلاح بعض العتاد الحربي الذي نغنمه حينما يتركونه وراءهم فارين، وكنا نستخدمهم في حفر الخنادق، وتحصين المواقع... كان بعضهم يشعر بالسعادة. فلو عاد الى بلاده لأعيد إلى الجبهة، وقد يكون فيها حتفه.

كان يحلو لأحدنا أن يستدر التاريخ ليتحدث على لسان صانع التاريخ فيسأل:

- والسلاح؟

يضحك إبن عبد الكريم ملئ فيه وهو يقول:

- تفكرون بعقلية العاجزين. السلاح لم يكن معجزا. بسلاحهم كنا نحاربهم. قليل هو السلاح الذي إستوردناه من الخارج. ببقايا سلاح ما قبل الاستعمال بدأنا حركتنا، ثم كانت الغنائم هي سلاحنا.

ويبتسم شامتا قبل أن يضيف:

- الخيانة في صفوفهم كانت تساعدنا، البواخر الإسبانية كانت تنقل لنا السلاح من جنوب الأندلس، والجنود والضباط. الإسبان كان يبيعون لنا السلاح بقليل من البسيطات. السلاح كان "بطاطا". مائة خرطوشة كانت تساوي عشر بسيطات.

ونضحك ملء مشاعرنا، وأحدنا يعلق:

- من زيته قليه...

حينما كان أحدنا يثير قضية التوقف على أبواب مليلية وعدم إحتلالها كان إبن عبد الكريم يقرن الموضوع بالانتصار الكبير في أنوال. وكان يضحك وكأنه يسخر من جهل المتحدث لإستراتيجية الحرب. كان في سره يقول فيما كنت أحسب:

ـ ما أشد غفلة البعيدين عن الحرب. من يدرك إستراتيجية الحرب غير قوادها؟

ويتخلى فجأة عن إبتسامته ليقول وكأنه يلقي علينا الدرس:

ـ مليلية مدينة مفتوحة. الإسبان كانوا على إستعداد لمهاجمتها من البحر والبر. إحتلالها كان سيرهن كل قواتنا وطاقاتنا العسكرية والبشرية للدفاع عنها، بينما كنا مطالبين بتحرير الريف كله. الريف جبال ووهاد. وكان مصيدة لقوة الأعداء، بينما كانت قواتنا ستكون في المصيدة لو قمنا بإحتلال مليلية.

أضاف بعد برهة من التفكير:

- لم نكن نغفل عن فرنسا، العدو الآخر الذي كان يتربص بنا. ولو أقدمنا على إسترجاع مليلية لكانت هي مناسبة الأسطول الفرنسي ليساعد إسبانيا على إحتلالها من جديد.

سكت طويلا قبل أن يعلق:

- الدرس كان من الناظور. لقد إسترجعناها ثم تخلينا عنها وعن الزغنغن. البحر كان في عون العدو. ولم نكن من البلاهة بحيث نعطيه الفرصة ليصطادنا في المدينة التي كان من المقدر أن نسترجعها بعد أن ننهي تحرير الريف. وقد نسترجعها دون حرب إذا استطعنا أن نفرض شروطنا.

وفتح القول:

- ذلك منطق أؤكد أنه لم يكن يقنعنا. إسترجاع مدينة مثل مليلية كان من شأنه أن يقطع حبل تاريخ الإحتلال الذي كان قد أربى على أربعة قرون وربع قرن.

كان بطل الريف ينأى عن التحدث في السياسة. كان يعبر أحيانا بالنظرة الشزراء، وكانت الكلمات تخرج من رأسه وهو يحركها في إستدارة، وكأنه يقول:

ـ هناك أشياء لا مجال للحديث عنها...

كنا نفهم ولا نلح. عدم إلحاحنا كان يشعره بأننا لم نفهم.

ويعبر إبن عبد الكريم الخطابي بالآية القرآنية أحيانا أو بالشعر أحيانا وكأنه يُورى. وكثيرا ما كان يردد، وهو يحرك رأسه، لا تعرف أمن طرب أم من سخرية:

لقد هزلت حتى بدا من هُزالـها كُلاها وحـتى سامها كـل مفلـس

ولانفهم هل التي هزلت هي العمل التحريري أم العمل العسكري؟ أم هي الدنيا بأسرها؟ فقد كان لسان حاله يردد قول المتنبي:

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق محتقر في همتي كشعرة في مفرق

كان أحيانا يعتبر العمل السياسي أو الحديث في السياسة مضيعة للوقت، ولذلك يفضل الصمت في كثير من الأحيان، وحينما يصمت لا ينبغي أن تسعى لتستخرج منه الكلمات. ولكن أحدا منا كان جريئا فتساءل ذات يوم:

ـ ولِمَ إنتهت الحرب ف جأة يا سمو الأمير؟ لم يكن أحد، حتى الأعداء، يتوقعون أن تنتهي بالسرعة وبالمفاجأة التي إنتهت بها؟

وتختفي الابتسامة من الوجه الصبوح رغم الشيخوخة والمرض والعياء ويطفر الغضب اللاهب، وقد أصبحت العينان الوديعتان تقذفن شرارات من نار الغضب. ويظل الصوت هامسا، صاخبا في همسه، وتظل الكلمات بطيئة لا تكاد تشعرك بالانفعال الكبير. وتتعلق عيوننا بالتاريخ يتحدث:

ـ أو تظنون أن الحرب إنتهت بهزيمة...؟

ويسكت لحظة، وهو لا ينتظر جوابا من أحد، فهو سيجيب عن التساؤل:

ـ رغم التحالف الفرنسي - الإسباني، ورغم الحصار من الجنوب والشمال والشرق فقد كنا قادرين على تحقيق النصر ولكنها الخيانة، وليست الحرب. كثير من الذين خانوا عادوا إلى صفوف المجاهدين، القائد قدور عمر أقنعته "معركة أنوال" بالعودة إلى صف المجاهدين... ولكن آخرين خانوا، وكانت خيانتهم قاتلة...

ويعود القائد الكبير إلى الصمت برهة ثم يستأنف:

- المرشال بيتان لم يرهب رجالنا. ولكن الفرنسيين لم يحاربوا بالجيش وحده، وإنما حاربوا كذلك بتحويل قبائل كاملة عن خط المسيرة التحريرية. حاول الإسبان فلم ينجحوا تماما، وتضافر العدوان فنجحوا. هذا هو الدرس الذي يجب أن تعوه. المواجهة ليست صعبة الحذر... ولكن لا ينفع حذر من قدر...

ويصدنا الجواب الغاضب عن إلقاء سؤال ظل يتردد بين اللسان والشفتين:

ـ لماذا إستسلمتم للفرنسيين وليس للاسبان؟

وظل السؤال الكبير بين الشفتين.ومن كان يستطيع أن يلقيه على بطل الريف؟ ومن يستطيع حتى الآن (تسعين سنة ونيف بعد نهاية الحرب) أن يجيب؟

الشخصية تصنع الحدث...

الحدث يصنع الشخصية...

أفكر في المعادلتين كلما تأملت في حياة الرجال الذين غيّروا مجرى التاريخ .

لا أذهب بعيدا في التاريخ، ولا أخرج من الحدود الضّيقة للوطن، ولكن أذكر: مولاي إدريس، يوسف بن تاشفين، المهدي بن تومرت، عبد المومن بن علي، المنصور الذهبي، مولاي إسماعيل، محمد الخامس، محمد بن عبد الكريم الخطابي، علال الفاسي...

وأقف على عتبة محمد بن عبد الكريم الخطابي لأضع السؤالين:

ـ الشخصية تصنع الحدث؟ الحدث يصنع الشخصية؟

وضعت السؤالين يوم جلست إليه لأول مرة في "مكتب المغرب العربي"، وإبتسامة الفرحة وأحسبها كانت إبتسامة النصر تعلو محياه. بضع ساعات كانت قد قد مرت على تخلصه من ربقة الأسر بعد إحدى وعشرين سنة شعر فيها بالقهر، وهو الذي لم يعرف القهر في السلم والحرب على السواء.

كانت إبتسامة طفلية. فقد خيّل إليّ وهو يبتسم في وجوهنا، ونحن نحيط به، نتملى وجهه، نتسمع نبرات صوته، تسبح عيوننا في نظرات عينيه، بنفاذها وذكائها وحدتها، بتعاطفها، وحنانها، ورقتها. خيّل إليّ أننا أمام طفل يفرح بإخوة له. كان يعرف أن له إخوة. كان غائبا عنهم، كانوا غائبين عنه. إلتقى بهم فجأة من حيث لم يكن ينتظر ولم يكونوا... كانت إبتسامته الطفلية أصدق تعبير عن الفرحة، كانت حركات يديه الهادئة المثقلة بسنوات الأسر تحاول أن تعبر أكثر مما يستطيع لسانه. كان يجلس إلى قوم إفتقدهم نحوا من ربع قرن يريد أن يقول لهم الكثير، يريد أن يسمع منهم الكثير.

هكذا إختفت الصورة من ناظري.

بدت صورة أخرى- بطل على رأس القيادة فوق ظهر فرسه يصدر الأوامر- حاصرهم في أنوال صعدوا التلال المحيطة اختبأوا وراء كل حجرة، كل غصن من شجرة:

-لا تطلقوا النار حتى تصدر لكم الأوامر.

- "سيلفيستر".. إنتظروه حتى يتقدم جنوده، لا تضربوا المؤخرة.

-هاجموا المقدمة. أفهمتم ما أقول...؟

وينطلق قادة أنوال ليخوضوا المعركة ليزفوا إلى البطل إبن عبد الكريم أن سيلفيستر إنتهى... وإنتهت فيالقه قتلى وجرحى... ها هم فارين... إلى أين؟ إلى الأسر... ولا مفر إلا القتل أو الأسر..

الرجل طفلي الإبتسامة، جميل المحيا رغم أنه في مقتبل الشيخوخة، حلو الكلمة، ساذج الحديث، ذكي النظرة هو الذي صنع أنوال...؟

أنوال الحلم الذي حقق النصر، الذي أنهى غطرسة جنرال، وأوحى للمحتلين أن ينسحبوا. هو الذي صنع شخصية البطل؟

وأنتهي من المعادلتين إلى قرار: لدراسة حدث من التاريخ أو من الحاضر يجب أن أعود إلى شخصية الرجل الذي صنع الحدث. الأحداث لا تصنعها الآلات. تضغط، وربما أوتوماتيكيا، على زر أو أزرار فينطلق الحدث لينفجر كما إنفجرت "شيلينجر" بعد ثوان من الإنطلاق. الحدث الكبير تصنعه الشخصية الكبيرة.

والشخصية الكبيرة، الابتسامة العذبة إحدى مميزاتها، الكلمة البسيطة الساذجة غير بعيدة عن مكنونها، الحب والود، الكراهية والإحتقار، الإندفاع والإحجام، الطموح والقناعة، الشجاعة والتروي، الخصومة والتقدير، الوضوح والغموض، البوح والتستر، الرغبة واللارغبة، الهزيمة النفسية ورفض الهزيمة، الرضى والسخط، القسوة والليونة...

تلك بعض مقومات الشخصية الكبيرة.

التناقض يبدو في الشخصيات التافهة الضعيفة التي لا تعرف كيف تتعامل مع الواقع الإنساني فتنساق مثلا مع الحب والبغض لأن التيار يجرفها وحدها. الشخصية الكبيرة تعرف كيف تتعامل مع الطبيعة الإنسانية، تعرف متى تحب ومتى تبغض، متى تتقدم ومتى تحجم، متى تتشجع ومتى تتروى، كيف تخاصم وكيف تصادق... الشخصية الكبيرة توظف كل هذا لصالح الحدث الذي تقوم به.

أكاد أنتهي إلى أن الشخصية تصنع الحدث. وأن شخصية محمد بن عبد الكريم هي التي صنعت حرب الريف بكل إنتصاراتها العظيمة، بكل طموحاتها، بكل ما أحدثته في تاريخ المغرب من تحول.

الذين يدرسون حرب الريف من مؤرخين وإجتماعيين وسياسيين ينقصهم الكثير إذا لم يكونوا قد إتصلوا ببطل الريف. كان العديد من المؤرخين أيام حرب الريف. صحفيين وكتابا وجواسيس وفضوليين ومنبهرين، يسافرون من فرنسا، أو انجلترا، أوروبا جميعها ومن أمريكا، لا ليواكبوا المعارك، فلم يكن في إمكانهم إلا

أقلهم آنذاك أن يواكبوا المعارك. ولكن ليجلسوا إلى إبن عبد الكريم، هذا البطل الأسطورة ليدرسوا شخصيته: كيف يفكر؟ في أي شيء يفكر؟ هل يكره الأجانب؟ هل يحب بلاده؟ هل يتعشق السلطة؟ هل يفكر وطنيا أو قبليا أو فيوداليا؟ إسلاميا أو قوميا؟ ماهي نوازعه؟ هل هو قاس أو لين؟ هل هو عنود أو متساهل؟ كانوا يجلسون ليشربوا معه الشاي أو يأكلوا معه أو يناموا قريبا منه في الخيمة، ليحضروا بعض اجتماعاته مع القيادة. ليعرفوا صلاته مع قادة أركان الحرب، ليتعرفوا على صلاته الإنسانية بعيدا عن الحرب. لم يكن يدفعهم إلى ذلك فضول المعرفة، ولكن كان يدفعهم فيما أحسب أسلوب التفكير في دراسة الحدث. التعرف إلى الشخصية هو المفتاح للتعرف إلى قيمة الحدث.

الذين إهتموا بدراسة التاريخ من الأجانب قاموا بنفس العمل بعد أن تحرر البطل من الأسر. كانوا يفدون على القاهرة أغلبهم كانوا في مرحل الشباب أو الكهولة عرفوه من بعيد أو سمعوا عن نضاله. وبقي ما سمعوا في الذاكرة المنسية حتى انبعثت الذاكرة عن أخطر حادث قرصنة بحرية عرفتها الحركات التحررية في التاريخ الحديث. حادث إنزال إبن عبد الكريم من الباخرة الآسرة.

عادت إلى ذاكرتهم بطولته وصراعه ضد أكبر دولتين غربيتين خاضها ضده ثلاثة "مارشالات" وعشرات الجنرالات ومئات الضباط وعشرات الآلاف من الجنود.

من خلال قربي منه بضعة شهور في القاهرة وفي مستشفى المواساة بالأسكندرية أستطيع أن أجزم بأن شخصية إبن عبد الكريم، بكل معاملها وتناقضاتها، هي التي صنعت حرب الريف بأمجادها التي لا يغفلها التاريخ، وبتناقضاتها الظاهرة أو الباطنة، وبنتيجتها المفاجئة المحيرة. لم يكن إيمانه بوطنه هو وحده الذي دفع به إلى تجربة خطيرة في أخطر منطقة في المغرب، وفي أصعب مرحلة من تاريخ المغرب مع الإستعمار الحديث. كان، إلى جانب إيمانه، له قدرة على أن يتناقض... والتناقض ليس صفة سلبية دائما، ولكنه صفة إيجابية في كثير من الأحيان. وتستطيع أن تتناقض من غير أن تكون متناقضا أو ذا فكر يتناقض.

أن تكون شديدا قاسيا، وأن تكون ليّنا رحيما في نفس الوقت... صفة لا يمكن أن يتحلى بها أي رجل. أن تغضب حتى يتطاير الشرر من عينيك، ثم تبتسم في وجه الذي أغضبك. تلك قدرة على التحكم... أن تعيش في وسط القبلية المثيرة، ويتحكم القبليون في مسيرة عملك، ثم تستطيع أن تتغلب عليها وعليهم جميعا لتؤلف من القبائل المتناحرة جيشا يخوض معركة أنوال... تلك إحدى مميزات الشخصية المتفردة. أن تزن الأمور بميزانين: السياسة والحرب، فتنتصر للأولى حينما يكون الإنتصار إليها في مصلحة الثانية، وتنتصر للثانية حينما يكون الانتصار إليها في مصلحة الأولى، فتلك مرونة تطبع الشخصية التي تصنع الحدث، أن تتحدث بلغة الذين يصنعون الأحداث.

كان لإبن عبد الكريم كثير من هذه الصفات التي تطبع شخصيته. وما رأيت أحدا ممن تحدثوا إليه إلا أخذ ببساطته، ثم بقدرته على تفهم الأوضاع.

كنتَ تستطيع أن تجلس إليه فيعود بك إلى أيام حرب الريف، لا ليحكي لك التاريخ، فقليلا ما كان يحكي التاريخ، ولكن ليؤكد لك أن أسلوبا واحدا ينفع مع الإستعمار، هو ما كان يعبر عنه بالكلمة والإشارة، وتنمحي الإبتسامة من العينين الطافحتين بالأمل. ولعل شيئا ما كان يعتمل في نفسه آنذاك. هل هو الغضب من إحلال السياسة مكان الحرب؟ هل هو عجز الأسد الذي لا يتمكن من الانطلاق في الغابة؟ هل هو الزمن الذي تغيّر فتغير معه الناس؟

إحدى وعشرون سنة من الأسر تراكمت فيها الحسرة في النفس، دون أن تظهر على السطح إلا في الغضبة العارمة والرأي الصارم، والإستهزاء بالحاضر: حاضر الذين لم يصنعوا أنوال، ولم يعيشوا في بداية العشرينات.

ويدرس الدارسون حرب الريف، ولم يروا صانع حرب الريف، ولم يجلسوا إليه ولم يسمعوه يتحدث ويحلل. إنهم يدرسونه في الأوراق كتاريخ مضى. وكان أمامهم يستطيع أن يفسر لهم التاريخ فلم يفعلوا.

ستظل دراسة حرب الريف ناقصة لأن المؤرخين الذين يدرسونها ويكتبون عنها يعتمدون على الورق. والأحداث الحيّة لا تؤخذ من الورق الميت.

ترى كيف هي شخصية هذا الرجل؟

هذا هو السؤال الذي حاول أن يجيب عنه مئات الصحفيين والمؤرخين الذين وفدوا على "مكتب المغرب العربي" في القاهرة (يونيو 1947) أو على مستشفاه بعد ذلك في الإسكندرية ليتعرفوا على شخصية الرجل حتى إذا حاولوا أن يكتبوا التاريخ، كان مفتاحه بين أيديهم.

ولعله من سوء الحظ أن الذين يكتبون عن حرب الريف من المؤرخين المغاربة - منفصلة أو ضمن تاريخ المغرب الحديث - لم يفد أحد منهم على القاهرة آنذاك ليتعرف على الشخصية من خلال المعاشرة الفكرية، ولذلك ستظل كتاباتهم، فيما أعتقد، ناقصة، وهم يحللون ما كُتب أغلبه كتبه الأجانب وهم ليسوا حجة فيما كتبوا أو يعتمدون على وثائق، مهما نطقت فهي خرساء لأنها لا تستقرئ خلفيات الأحداث.

أكاد أومن بأن شخصية البطل محمد إبن عبد الكريم الخطابي في حاجة إلى تحليل أكثر جدية، يستطيع أن يمد الباحث بحقيقة الرجل الذي قام بحرب الريف. ولعلي لا أدعي إذا قلت أن هذه الصفحات تستطيع، لما تضمنت من تحليل، أن تقرب الشخصية من الراغبين في التعرف على بعض مظاهر وخلفيات مكوناتها.

***

إلتحق محمد بن عبد الكريم الخطابي بالرفيق الأعلى يوم الأربعاء 6 فبراير 1963 بمدينة القاهرة وعمره 81 سنة.

رحمه الله...

محمد بن الحسن الوزاني...
المناضل القومي
(1978-1910)

-1-

إسم إشتهر بين الشباب في المغرب في أوائل الثلاثينات. عاد من فرنسا وإسمه يسبق رأيته. إرتبط إسمه بالشبان الأوائل (عمر بن عبد الجليل، محمد الفاسي، أحمد بلافريج، عبدالمالك فرج)، وقد كانوا يدرسون في باريس. ومن ثمة، كان عليّ وأنا بعد فتى، أن أتعرف على نموذج من هؤلاء الشبان الذين سمعت بأسمائهم قبل أن أتعرف بأشخاصهم. وكان لي أن أزوره في منزله في ليلة من ليالي رمضان بمعيّة بعض خلاني (عبد الوهاب القباج، عبد الكريم بن ثابت، أحمد بلمليح). أذكر أنه طالعنا بوجهه البشر الجميل وشعره الكث الممشوط بطريقة أنيقة وجلبابه الصوفي الأبيض. بهرنا حديثه وهو يتكلم عن مدينة الأنوار، وبلاد حقوق الإنسان. كنا نتطلع إلى أن يحدثنا عن قضايا من صميم المشاكل المغربية: قضية الحماية، قضية الظهير البربري، قضية علاقات التبعية التي كرستها فرنسا في كل الميادين الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية.

خرجنا من تلك الزيارة وكل منا يتسائل عن المستقبل الذي يخططه لنفسه. هل سنختار طريق باريس أو طريق القاهرة؟ وإذا وقع الاختيار على مدينة الأنوار، فلا بد أن نتطلع إلى المثل الذي خططه مضيفنا في نجاحاته.

كانت هذه الرؤيا متطابقة مع رؤية الإكبار التي شعرنا بها ونحن نتذكر أن مضيفنا كان ضمن المجموعة الوطنية الأولى التي إعتقلت، خمس سنوات قبل ذلك، بدعوى الاحتجاج على الظهير البربري مباشرة بعد قراءة اللطيف في مسجد القرويين. لم نكن ليتقبل ذهننا الصغير آنذاك أن يكون الشاب الذي درس السياسة

في باريس مع شبان يدرسون في القرويين يعارضون قانونا تطبقه إدارة الحماية يعتقلون فيجلدون على يد باشا المدينة (محمد بن البغدادي) رغم أن الجلد منع صراحة قبل ذلك سنوات.

لقد تخلصت مدينة فاس منذ أزيد من سنتين من بطش الباشا ابن البغدادي، بعد أن لقي ربه، في التحقيق مع المتهمين الوطنيين بالجلد والسياط. وها هو الشاب بنفسه أمامنا لا تنطق ملامحه بالذي مسته سياط الباشا ولكنه يظهر كنموذج فاعل بامتياز بين الذين درسوا في فرنسا.

قدرنا الرجل، ووجدنا أنه من الواجب العمل على تقوية صلاتنا به والإستفادة من تجاربه. وقدرنا الرجل أيضا للعمل الذي كان يقوم به لإيقاظ الوعي الوطني وتنوير المواطنين بالأفكار التحررية الرشيدة والدعوة إلى القيام بنهضة شاملة في مختلف مجالات الحياة الإنسانية. وكانت للحملة التي شنّها ضد الخرافات والأباطيل، والأضاليل التي ما فتئ المستعمر يشجعها حتى يبسط سيطرته على كل الذين كانوا يتطلعون إلى أن يعملوا على غرار من سبقهم بالعمل في الحقل الوطني، صدى كبير لدى المواطنين.

تلك هي الصورة التي عرفت به محمد بن الحسن الوزاني، ولعلها الصورة التي إرتسمت لدى كل الشباب الوطني في مثل سني وقد قارنتها بعد قرابة أربعين عاما من هذا الحدث، بالصورة التي رأيته عليها بعد سنوات النضال وهو يرقد في المستشفى وقد فقد ذراعه اليمنى إثر أحداث الصخيرات الأليمة التي كادت تعصف بمستقبل المغرب.

-2-

في باريس كان الطلاب المغاربة يتعلمون، إلى جانب العلم، الوطنية والنضال، ويتحررون من ضيق الأفق الذي كان يطبع الحياة في المغرب، ويتعرفون على الأفكار التحررية للفرنسيين، وعلى التاريخ الثوري للمجتمع الفرنسي.

البعث الوطني الذي دبّ في المغرب بالحرب الريفية التي حققت إنتصارات

عظمى، أنوال في مقدمتها، لم تزرع اليأس في نفوس هؤلاء الطلبة بمقدار ما زرعت التصميم على حمل المشعل، سياسيا هذه المرة.

كان محمد بن الحسن الوزاني من بين الشباب الذين أقنعوا عائلاتهم المحافظة بأن يواصلوا دراساتهم في بلاد المحتل بما في ذلك النفقات الباهضة وغياب لم يألفوهم من أبنائهم. وكان في باريس من بين الطلبة المغاربيين الذين أسسوا "جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين". وكانت الجمعية تضم الرعيل الأول من طلبة المغرب وتونس وقلة من الجزائر. وقد تألق بينهم، إلى جانب محمد بن الحسن الوزاني، أحمد بلافريج، وعمر بن عبد الجليل ومحمد الفاسي من المغرب والحبيب بورقيبة والمنجي سليم والحبيب ثامر من تونس.

الجمعية لم تكن نقابية بمقدار ما كانت جمعية نضالية. تذكرني بجمعية "الطلبة العرب" التي أسسناها، بعد ذلك بسنوات، في كلية الآداب (جامعة القاهرة) وإخترنا رئيسها الدكتور عبد الوهاب عزام. وكان ذلك قبل أن تؤسس جامعة الدول العربية ويرأس أمانتها العامة عبد الرحمن عزام، عمّه.

جمعيات الطلبة في ذلك الزمان المستنير كانت تؤسس للنضال. تأسست قبل ذلك، بصفة سرية، "جمعية طلبة القرويين" التي ترأسها علال الفاسي، وتأسست جمعيات أخرى قامت بنفس العمل في الرباط وسلا وتطوان ومراكش، لتؤكد جميعها أن الطلبة يتحملون المسؤولية وهم فتيان ليتقنوا تحملها وهم شباب.

"جمعية طلبة شمال إفريقيا" قامت بدور كبير، ليس فقط للتعريف بالقضية النضالية في المغرب العربي، ولكن لمواجهة التحدي الاستعماري الذي كان يستهدف التجهيل وتغييب التعليم والثقافة العربية وتحجيم التعليم في بلاد المغرب العربي جميعها. وكانت الجمعية تخوض معاركها مع الاستعمار باسم الدفاع عن التعليم، وتعقد مؤتمراتها داخل الوطن في عواصم الأقطار الثلاثة. وكل مؤتمر كان يمثل زحفا وطنيا للمغرب العربي جميعه على قلعة من قلاع الاستعمار. وأذكر أن الدور كان على المغرب لتعقد الجمعية مؤتمرها أياما بعد أن إستقبلنا محمد بن

الحسن الوزاني. وكان المقيم بيروثون[1] ـ لذكائه المفرط ـ يتصور أنه يمكن أن يحتوي المؤتمر. ومن ثمة، طلب إلى الجمعية، وكان رئيسها المنجي سليم، أن يترأس سيادته الجلسة الافتتاحية، ويخطب فيها ويقيم حفل إستقبال للمؤتمرين. بهذا الأسلوب كان يتصور أن يطفئ جذوة شباب الجمعية في بؤرة ثلجية. ولكن الجذوة أخذت قبسا جديدا من وهج الوطنية المغربية فرفضت الجمعية رئاسة المقيم وحفلته. وكان أن مُنع المؤتمر، فحقق أكبر هدف له وهو التأكيد على القمع الاستعماري للطلبة وهم يحرمون من مؤتمرهم في ليلة إنعقاده.

-3-

تكاد كل جماعة أو مجموعة بشرية تعتزم تنظيم هيئة سياسية أو إجتماعية أو ثقافية تختلف في منتصف الطريق أو بعد نهاية التنظيم. قد يكون ذلك طبيعة بشرية أو طبيعية في التنظيم الرسمي للهيئات والمجموعات والأحزاب.

الحركة الوطنية المغربية لم تفلت من هذه الظاهرة ولو أنها كانت في البداية جماعة منسجمة إلى حد ما. " كتلة العمل الوطني" لم تكن منظمة قانونيا خلال السنوات الأولى من تأسيسها (1931 - 1934)، بحيث أن سلطة الحماية الحامية في المغرب كانت تمنع كل تنظيم سياسي أو ثقافي وحتى رياضي يقوده الشباب المغربي. ومن ثمة، إرتأت الكتلة أن تنظم نفسها قانونيا وتستخرج الاعتراف بها من الإقامة العامة. وكان على الكتلة أن تنتخب أجهزتها. وقد نجح علال الفاسي بأغلبية مطلقة في منصب الرئاسة بينما عهدت الأمانة العامة إلى محمد بن الحسن الوزاني. النتيجة لم ترق الوزاني فقرر الانسحاب من الكتلة وتنظيماتها ليؤسس حزبا جديدا يحمل تسمية " الحركة القومية ".

-4-

وتتجدد ميسرة الحركة الوطنية بتجدد أحداث تسوق حكم الإقامة العامة. ذلك أن السلطات المحلية صممت على تحويل مياه "نهر بوفكران" لسقي ضيعات

1- Marcel Peyrouton، المقيم العام الخامس في المغرب. تقلد منصب الإقامة العامة لمدة ستة أشهر (مارس - شتنبر 1936). جاء بعده الجنرال شارل نوكيس.

المعمرين غير مبالية باحتياجات سكان مدينة مكناس من الماء الشروب. حدث هذا في عز صيف سنة 1937، وقد كان قاسيا. وصادف أن هذا الحدث تزامن مع السنة الأولى من ولاية الجنرال نوكيس. الوطنيون لم يكونوا ليسكتوا على هذا الإجحاف الذي أضحى يمس الاحتياجات الأساسية للسكان بينما الاستعماريون، فلاحون وسكان، ينعمون بفيض من الماء في مساكنهم وضيعاتهم. ومن ثمة، قام الوطنيون بالتظاهر لدى الدوائر المحلية المسؤولة عن الموضوع. تدخلت السلطات الاستعمارية لتمنع المتظاهرين في المدينة وضواحيها. وكان الرد على ذلك هو تضامن معظم المدن المغربية مع مكناس. هكذا، وجد المقيم الجديد الفرصة التي كان ينتظرها لقمع الحركة الوطنية. إعتقل قيادة الأحزاب الوطنية وقام بنفيهم جميعا خارج مركز تواجدهم: محمد بن الحسن الوزاني إلى إيترز، وعلال الفاسي إلى الغابون قبل الانتقال إلى الكونغو، ومئات إلى معاقل أخرى من التعذيب، كلميمة في مقدمتها وبذلك ظل كل من الزعيمين بعيدين عن النشاط الوطني وحرياتهم الخاصة لمدة تسع سنوات (1937-1946). لم ينته الوضع إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بسنتين في ظل ولاية المقيم العام إيريك لابون الذي سمحت له حكومة فيليكس غوان الاشتراكي بهذا الانفراج.

قبل الإفراج عن الزعيمين بسنتين، مرّ المغرب بتجربة نوعية جديدة حيث تأسس "حزب الاستقلال" في ظروف سرية، وتقرر النداء بالمطلب الأساسي يعني الاستقلال. إرتأى قادة الحزب الجديد (أحمد بلافريج وعمر بن عبد الجليل) ألا يستثنى محمد بن الحسن الوزاني من البادرة رغم ظروف النفي السحيق التي كان يعيشها. ومن ثمة، تم تكليف عمر بن شقرون، أحد الشباب الوطنيين بالتنقل إلى إيتزر، مقر نفي الوزاني في سرية تامة حاملا سعي الوطنيين إلى الزعيم المنفي التوقيع المعاهدة وطيّ صفحة الخلافات الماضية. إمتنع محمد بن الحسن الوزاني من الإستجابة للطلب مدعيا : "لن أوقع على وثيقة لم أساهم بنفسي في إعدادها". وقد عاد المرسول من إيتزر بخفي حنين.

وحدث أن أشار السلطان محمد بن يوسف، بعد تسلمه عريضة المطالبة بالاستقلال، لأنصار محمد بن الحسن الوزاني ليقوموا بعمل مماثل لما قام به حزب الاستقلال سعيا لإضفاء الإجماع الشعبي على المطالبة بالاستقلال. وقد قدمت

الحركة القومية بالفعل وثيقة مماثلة وقعها ست وعشرون شخصية من "الحركة القومية". تم ذلك يومين بعد تقديم وثيقة حزب الاستقلال.

-5-

كان الإفراج على محمد بن الحسن الوزاني مصاحبا للإنفراج الذي عرفته مختلف المنظمات الوطنية. ومن ثمة، بدأت الحركات الوطنية تنظم نفسها من جديد محاولة تثبيت فكرة الاستقلال الفعلي.

بدأ محمد بن الحسن الوزاني يفكر في صيغ جديدة للوصول إلى الهدف المتوخى. قام العمل الأساسي لإصلاح المغرب ووضعيته المتأزمة في نظر محمد بن الحسن الوزاني على:

- أولا: وضع أسس الإصلاح الوطني في مذكرة تحدد الإصلاحات الضرورية للمغرب ونظام الحريات العامة وتأسيس حكومة مغربية مؤقتة تتكفل بتنظيم مرحلة الحكم قبل إعلان الاستقلال؛

- ثانيا: تكليف مجلس وطني يمثل الرأي العام بهدف وضع دستور يحدد النظام الأساسي للمغرب.

وفي هذا الصدد، قدم محمد بن الحسن الوزاني مذكرة إلى المقيم العام الجنرال جوان. وقد عمل جوان بعد تسويف على إفراغ هذه المطالب من عمقها معللا أن حل المشاكل الإقتصادية التي كان يعانيها المغرب يجب أن يسبق المشاكل الأخرى التي إعتبرها ثانوية. وبذلك لم تجد لهذه المذكرة آذانا صاغية.

أما بالنسبة للشعب، فقد إعتبرها حزب الاستقلال عملا خطيرا يقضي على فكرة الإستقلال ويترك في يد الإقامة العامة مهمة الإصلاحات التي قد يراها مناسبة، وهذا ما أكدته معاهدة الحماية. ثم إن أي إصلاح يعتبر حلا للمشكلة المغربية سيضع في يد الإقامة العامة مسؤولية العمل لحل المشكلة المغربية، وقد يأجل بالاستقلال الذي يسعى إليه الجميع إلى زمن غير مسمى. لذلك عارض الوطنيون

المنضمين في حزب الإستقلال بقوة مذكرة محمد بن الحسن الوزاني واعتبروها بمثابة حل يفرغ النضال الوطني للاستقلال من أساسه.

-6-

وتمضي السنون ويصاب محمد بن الحسن الوزاني في ذراعه اليمنى في الحوادث التي نشبت في قصر الصخيرات (10 يوليوز 1971). وقد إستقبلني، وهو يأخذ فترة نقاهة بالمستشفى، بوجه بشوش ضحوك يؤكد تقديره القديم وبقائه على العهد وتصميمه على كتابة مذكرات عن الأحداث الوطنية وعن عمله ضمنها.

محمد بن الحسن الوزاني زرع، في هذه المذكرات، الحياة التي تفصل بين نمطين، أو هي ثلاثة أنماط من التعايش مع التاريخ في المرحلة الإستعمارية:

- أولا، نمط الحماية كسلطة وحيدة ومتحكمة وقادرة؛

- ثانيا، نمط المقاومة العسكرية في الأطلس والريف؛

- وثالثا، نمط المقاومة السياسية التي تستهدف الاستقلال والوحدة، وتتخذ وسيلتها لذلك التوعية الشعبية التي ستجعل من الشعب مقاوما بذاته، قادرا على التغيير بالممكن من قدرته على المقاومة.

أكبرت همة محمد بن الحسن الوزاني عند قراءتي لهذه المذكرات، فقد وفر لها جهودا كبيرة وهو يكتب بيسراه بدل يمناه، والمرض يداهمه. وكانت هذه الكتابة إضاءة طيّبة لعمله الوطني ولم تخل من تفسير لبعده عن الجماعة الأولى للحركة الوطنية وقيادة " الحركة القومية " طوال أكثر من ربع قرن.

-7-

زعم بعض المسؤولين، سواء في الأوساط الفرنسية أو المغربية المآزرة لنظام الحماية أن الحركة الوطنية تقوم على أساس الحزب الوحيد المستبد. وقد أكد محمد بن الحسن الوزاني، وهو ينشئ "الحركة القومية"، أن الحركة الوطنية لم تكن

ممثلة بحزب الاستقلال فحسب، ولم يدع أحد وحدانية النضال الوطني ولا أدل على ذلك من نشأة "الحركة القومية".

***

توفي محمد بن الحسن الوزاني يوم السبت 9 شتنبر 1978 وعمره لا يتجاوزه 68 سنة.

رحمه الله ...

بوشتى الجامعي ...
الأستاذ البدوي
(1990-1905)

-1-

حينما أسّر إلينا أستاذنا عبد العزيز بن ادريس بأن الوقت قد آن لتدرسوا أيضا على الأستاذ بوشتى الجامعي، كان الاسم الكبير قد سبق إلى آذاننا وضميرنا. فقد كنا نسمع عن بعض الذين نالوا نصيبهم من محنة الاستعمار فجلد بعضهم وسجن بعضهم ونفي آخرون. وكانت الأسماء تتوارد على آذاننا تحمل غار العز والفخار والإكبار والتقدير. سمعنا من بينها أسماء: علال الفاسي وبوشتى الجامعي والهاشمي الفيلالي والفقيه غازي... ولم نكن بعد قد تعرفنا على أحدهم باستثناء عبد العزيز بن ادريس الذي طرق مدرستنا، مدرسة سيدي بناني، ونحن بعد في المرحلة الأولى من التعليم.

بهرنا الرجل، وهو يحمل من صفات الجد والصرامة بقدر ما يحمل من العلم وفصاحة الكلمة وبلاغة الأداء. ولم تكن دروسه إبتدائية، ولكنها كانت أعلى من مستوانا. أخذ يدفع بنا إلى أن نرتاد مجاهل الثقافة والعلم والأدب. وإذا كان منطلق درس الصباح "المنتخب من أدب العرب"، وكنا نستسيغ ما ضّمه من منتخبات شعرية سهلة المنال إلى حد ما، فقد كان درس المساء في المعلقات العشر، وهي، كما يعرف الذين اجتازوا نفس الطريق، لم تأخذ شهرتها من صعوبة لغتها وعمق معانيها وإرتباطاها بالحياة الإجتماعية والقبلية والاقتصادية للعصر الجاهلي بمقدار إرتباطها بالحياة العاطفية للشعراء الذين برزوا في هذا العصر.

وكان، وهو يشدنا إلى مستوى الدرس والموضوع والأستاذ، رغم إمكاناتنا العلمية المتواضعة، يهدف إلى أن ينقلنا نقلة سريعة من مرحلتنا الابتدائية إلى

مرحلة ما بعد الثانوي. ولذلك كنا نطوي كثيرا من مراحل الدراسة، فيقرأ معنا، مثلا، "معيار" "العلم" للغزالي في المنطق بدلا من "السُّلم" ويدرس معنا البلاغة في كتب عبد القاهر الجرجاني والجاحظ بدلا من الكتب التي عرفت في القرويين "كمختصر السعد".

كان بوشتى الجامعي يستهدف من ذلك هدفا آخر هو أن يقتلع من أذهاننا التعبد للكتب التي تعتمد على الناظم والمصنف والشارح والمحشي، إذ يعتبر فك ألغازها مضيعة للوقت وللطاقة الذهنية للطلبة.

والدرس عند السي بوشتى، كالدرس عند علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس، لم يكن "علما" كله، وإنما كان حظ الإيحاء والتصريح بالأفكار الوطنية أكثر من حظ العلم أو هما سيان. وكان، كزميله عبد العزيز بن ادريس، يعتمد أسلوب السخرية من الوضع الاستعماري ومن إدارة الحماية ومن المتعاونين، من الباشا حتى مقدم الحومة. كان يسخر سخرية لاذعة يفجرها في ضحكة عالية، بينما كان زميله عبد العزيز، وسخريته أشد لذعا، يفجر سخريته بابتسامة تطفو على شفتيه وعينيه ووجهه جميعا.

ما عرفت شخصا إلتزم بالكتاب كما إلتزم به بوشتى الجامعي. فلم تكن تراه، حتى في حلقات التسييس والتربية الوطنية، إلا والكتاب بين يديه. ولم يكن يفرغ من كتاب إلا سعي إلى آخر. ولم يكن يقرأ الكتاب لنفسه، وإنما كان يقرأ للآخرين. كثيرا ما ترك موضوع الدرس ليحدثنا عن آخر ما قرأ في الإسلام أو في الأدب أو التاريخ أو السياسة، الكتاب، أو المجلة والصحيفة، الذي كان يظفر بإعجابه كان يشدنا إليه شدا قبل أن يوصينا بقراءته، ويعيرنا إياه على أن نتداوله بيننا. وقد إكتشفنا أن كان، هو الآخر، يستعير من مكتبة الآخرين. وكانت مكتبة الهاشمي الفيلالي ملكا مشاعا بيننا عن طريقه، قبل أن نجرأ فتصبح أيضا ملكنا للقراءة بدون واسطة السي بوشتى. وقد رأى مرة كتابا بيد أحمد بن المليح يقرأه بين الدروس فسأله عن موضوعه. أجاب أحمد بن المليح:

- "تاريخ أوروبا الحديث".

كان تعليقه:

- مثل هذه الكتب يجب أن تقرأوا.

كان بوشتى الجامعي أشّد علينا، في كثير من الأحيان، من الدرس. فلم يكن يثير غضبه شيء من أن يضيع الطلبة أوقاتهم في غير ما وهبوا أنفسهم له. ولذلك كنت تجده يملأ أوقات طلبته بالدرس والقراءة والعمل الوطني. ثم يعيب على بعضهم في سخرية لاذعة:

ـ إنهم يُخَيّطون الدروب ويُرتِّقون الزَّناقي...!

-2-

قدم بوشتى الجامعي من "أولاد جامع" ليطلب العلم في القرويين، ومرّ من مرحلة المدرسة كما يمر كل الطلبة الذين يفدون من خارج المدينة. ولكنه، ككثير من طلبة القرويين الذين يفدون من الأقاليم، لم تستبد به عقدة البدوي، وإنما كان كحضري عاش في فاس طيلة حياته. إحتفظ بجلبابه الصوفي وبسلهامه وبعمامته الكبيرة ولحيته، ولم يترك مجتمع علم في فاس إلا اختلط به. كان معظم رفاقه وأصدقائه من الطلاب والعلماء. وأخلص خلصائه: علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس والهاشمي الفيلالي وإبراهيم الكتاني وعبد السلام الوزاني. حتى إذا إجتاح المغرب الزحف الوطني، كان كل الوطنيين من التجار والحرفيين وعلماء القرويين من أصدقائه، وكان من أعز الرفاق إليه خارج فاس محمد اليزيدي في الرباط محمد الديوري ومَحمد بن الجيلالي بناني في القنيطرة.

كان البدوي الذي كسر الحاجز بين الحاضرة والبادية بعمله العلمي والوطني على السواء. ولذلك حقدت عليه الإدارة الفرنسية، والوطنية بعد لم يتقد وهَجُها، فلم تكن تطيق أن تلتئم المدينة والبادية من خلال طلبة ومثقفين وسلفيين دعاة وطنيين، ولهذا امتدت إليه يد الاستعمار فأبعدته عن المدينة إلى "أولاد جامع" حيث فرضت عليه إقامة إجبارية في منزل أخيه الذي كان فلاحا بعد أن حصل على

مسكة من العلم. وفي البادية، حيث الفراغ والعزلة وشظف العيش، كان بوشتى الجامعي يقضي الشهور العديدة كلما أبعدته الإدارة عن المدينة، وقد تكرر هذا الإبعاد عدة مرات، وكلما كان السجن ليس له ما يبرره.

وأذكر أنه أبعد مرة وفرضت عليه الإقامة الإجبارية. وبعد بضعة أيام تحدى تعليمات الإدارة فتلفف في سلهامه وأمسك بعصا في يده يتكئ عليها وأخذ طريقه مشيا على الأقدام إلى المدينة، إلى منزل الهاشمي الفيلالي. وفي طريقه إلى المنزل تعرف عليه أستاذ في القرويين فحيّاه. وكان من الممكن أن تكون هذه التحية فضحا لعودة المنفي متحديا أوامر الإدارة، ولكنه إستمر متحديا كل عواقب عصيان تعليمات الإبعاد. وفي غرفة معزولة من منزل الهاشمي الفيلالي كان يدرس معنا نحن طلبته "معيار العلم" للغزالي.

كان مستهدفا سهلا للإدارة الفرنسية أثناء إقامته، أواسط الثلاثينات، في القنيطرة. إنتقل من فاس بإلحاح من محمد الديوري ومَحمد بن الجيلالي بناني ليشرف على مدرسة حرة هناك، وليكون ممثل الحزب والمشرف على تأسيس النقابة. وحينما أنشأ الحزب جريدة "الأطلس" في الرباط كان من هيأة التحرير ينتقل إلى الرباط كل أسبوع ليشرف مع محمد اليزيدي على إخراج العدد. وتعقبته الإدارة فاعتقل في عملية بحث تمهيدا للحملة الكبرى التي قام بها الجنرال نوكيس ضد الحزب الوطني (أكتوبر1937). وقال وهو يروي قصة الاعتقال والتفتيش ضاحكا:

ـ لم أهتم لشيء قدر إهتمامي لقصيدة كانت في جيبي أعدها للنشر في "الأطلس".

كانت القصيدة للشاعر عبد المجيد بن جلون. وقد أشفق عليه أستاذه أن يكون وجود هذه القصيدة المُصادَرَة سببا في إذايته.

عرف السجن كما عرف النفي والإبعاد وقضى في السجن سنوات ذوات العدد، ولكنه كان يخرج من السجن أصلب عودا وأقوى عزيمة. ظلت عزيمته قوية

وإيمانه أقوى بمستقبل بلاده حتى آخر لحظة في حياته. وكان طريقه طيلة حياته واضحا من المدرسة إلى السجن، ومن السجن إلى المدرسة... أقفلت المدارس التي أشرف عليها، خاصة في فاس والقنيطرة والدارالبيضاء ووجدة، وعاد ففتحها من جديد. لم يعرف الهزيمة قط، وقد كان التعليم قرة عينيه، تخرج على يده مئات الطلبة ولم يتخرج أحد منهم متعلما فحسب، ولكنهم جميعا كانوا من المناضلين في حقلي التعليم والوطنية.

بعد الاستقلال بخلت وزارة التربية أن تسجل إسمه في قائمة الأساتذة أو المعلمين. وكان من عزة النفس بحيث بخل عليها بأن يقدم طلبا بذلك.

سألته، وقد زرته بعد أن أعجزته الشيخوخة عن الحركة الدائبة:

- وماذا تقرأ الآن؟

أجاب بنفس روح الأستاذ الذي يواصل التعلم:

- أدارس صديقا ما يزال يزروني كل يوم تفسير القرآن من خلال مجموعة من التفاسير.

لم يفاجئني الجواب، فقد كان لا يفتر يقرأ القرآن ويفسره. وقد قدمت إليه كتابي "صراع المذهب والعقيدة في القرآن". قرأه بإمعان وأبدى عند زيارتي له تعليقا ووجهه ينطق بالبشر:

- شيء جديد! ما أظن أنه كُتب مثله.

كان يود أصدقاءه ويُجاملهم ويستقبلهم بترحاب. دخلت عليه مرة ووجدت بجانبه المناضل سعيد بونعيلات، أحد المقاومين الكبار، يجلس إليه كتلميذ بجانب أستاذه. فأخذ يثني على نضال الرجل وشجاعته في المقاومة. وقد لعب دورا مهما مع المقاومين في الدارالبيضاء لم يعرف عنه أصدقاؤه إلا القليل. وقد تعرض مرة لمحاولة اغتيال وكان للمناضل بونعيلات دور في إنقاذه.

كان يتحامل على نفسه ليزور صديقا أو ليشيع جنازة صديق أو ليؤدي واجبا، أو ليتابع بناء مسجد أو ليعتكف في المسجد القريب من منزله بعد أن انتهى بناؤه ساعات يصلي ويقرأ القرآن. ولذلك لم ينسه أصدقاؤه الخلص، رغم أن الموت تخطف الكثيرين منهم، لأنه كان يعرف قدر الناس ويقدر جهودهم.

كان خير أستاذ، وأشجع مناضل، وأوفى صديق وأكثر الناس إعتزازا بوطنه وشخصيته وكرامته وعقيدته ودينه.

-3-

بوشتى الجامعي كان من الذين إقترن إسمهم بالحركة الاستقلالية منذ نشأتها في أواسط العشرينات. ولم يقترن إسمه بهذه الحركة مناضلا عاديا يهدف للحرية والاستقلال ويومن ببلاده وشعبه، ولكنه كان إلى جانب ذلك مناضلا ومجاهدا فاعلا ومؤثرا في توحيد الحركة الوطنية وتحديد معالمها وتنظيم هيئاتها وجماعاتها وتكوين شبابها وتنوير عقول المكافحين في صفوفها وربط باديتها بحاضرتها وتوفير الدعم الثقافي والعلمي لأبنائها. وكان، خلال تلك السنين العجاف من الذين نور الله قلوبهم بالإيمان، وفتح بصيرتهم للعمل بما آمنوا به، وألهمتهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها. كان ذلك في وقت إشتدت فيه قبضة المستعمر على النخبة المتحركة. وفي مقدمتهم طلبة القرويين، بعد أن ذاق الاستعمار الأمرين على يد البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي وثورته التي إمتدت حتى أطراف مدينة فاس حيث يثوى جامع القرويين بما يضم من رجال العلم وطلبته.

وكان المستعمر يعرف أن المدن المغربية، كالبادية المغربية وكجبال المغرب من الأطلس والريف وكصحراء المغرب شرقها وجنوبها، كلها تناضل أو هي بسبيل إلى أن تناضل لأنها تعيش على ذكريات مريرة وذكريات مجيدة، مرارتها تأتي من أن الهزيمة اللاإرادية تمكنت من بعض أطراف المغرب التي لم تستطع مقاومة قوات الاحتلال. كانت الهزيمة ولا نقول الإستسلام في فاس بعد أحداث أبريل 1912، وكانت في الصحراء بعد أن أخرج الهبة من مراكش التي واجه فيها المستعمر وإحتلها ضدا عليه. وكانت الهزيمة في مناطق من الأطلس، ولكن شعلة المقاومة

كانت ما تزال متقدة في آيت عطا وجبل صغرو وغيرها من جبال الأطلس، وكانت الهزيمة في الريف بعد أن أذاقت الحرب الريفية الاستعمار هزائم منكرة في أنوال وفي غيرها من مناطق الريف وإحتلت مدنا مهمة في الشمال ودقت أبواب فاس إحدى العاصمتين التاريخيتين للمغرب... ويأتي مجدها من أن هذه الهزائم عسكرية لأن الشعب المغربي آنذاك لم يكن في قوة جيوش الاحتلال الفرنسية والإسبانية، ولكنها لم تكن هزيمة للوطنية المغربية ولا لروح المقاومة التي إستمرت متقدة ولم تخمد حتى تحقق الاستقلال وتلك هي طبيعة الشعب المغربي الذي كان أحيانا يخسر معركة ولكنه لا يخسر الحرب.

قال الشاعر:

إذا مات منا سيد قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

لهذا لم يكن غريبا أن تتكون الحركة الوطنية، والحرب الريفية مستعرة الأوار، في فاس والرباط وسلا وتطوان وغيرها من المدن وأن تتجاوب هذه الحركة مع أهداف ثوار الريف وثوار الأطلس لينطلق بعض شبابها مخترقين خطوط القتال راغبين في قيامهم بواجبهم النضالي في المعمعة، بالريف. ولم يكن غريبا أن تكون الثورة في الريف الرديف الذي يحمل المشعل بعدها، فطبيعة شعبنا أنه يكون الخلف للسلف. ولم يكن غريبا أن يلتف طلبة من القرويين حول شيوخهم، ومنهم الشيخ محمد ابن العربي العلوي، ليتلقوا دروسا في العلم وفي التوجيه الإسلامي الذي يحرك فيهم روح المواجهة للتقاليد، ومواجهة الاستسلام والخنوع والرضا بالواقع المهين. وبعد الدرس كانت لهم لقاءات أخرى حول كتب إسلامية وتاريخية وأدبية تحرك فيهم همم الرجال وتدفع بهم إلى التفكير في أمتهم المنكودة الحظ التي لم تجد سبيلا إلى العيش الذي تتطلب، كما قال علال الفاسي في ذلك الوقت من فجر الحركة الوطنية. وتمثل هذا الفجر في جمعيتين إحداهما ثقافية والأخرى سياسية.

ولقاءات الطلبة وندواتهم العلمية والتوجيهيه خير محفل يمكن أن تنبعث منه أفكار سامية كالأفكار الوطنية، والوقت يومئذ وقت وطنية يستعر لهيبه

القتالي في الريف والأطلس وعلى مشارف فاس، والاستعمار يومئذ جريح الكرامة، مكلوم الهيبة يخاف من مقاوم يتربص به وراء كل حجرة وشجرة، فأحرى إذا كان هذا الفكر يتكون في جماعة من تلاميذ وطلبة تضمهم مجامع "القرويين" أو محافل التلاميذ والطلبة في المدن الأخرى. ولقاءات الطلبة خير محفل يمكن أن يجمع المغرب شماله بجنوبه وشرقه بغربه وباديته بحاضرته. ولم يكن آنذاك محفل كالقرويين يجتمع فيه الطلبة من كل الأقاليم فيهم من تطوان والرباط والدارالبيضاء ومراكش وتازة ووجدة وسوس ومن البادية والمدن المغربية على السواء. ولذلك ليس غريبا أن تضم هذه الجماعة الأولى طالبا كالمختار السوسي من سوس وطالبا كبوشتى الجامعي من أولاد جامع وغيرهما من الطلبة من فاس ومن مختلف أنحاء المغرب.

وبوشتى الجامعي كان من أبرز هؤلاء الطلبة ومن أقواهم روحا وأشدهم صلابة ومن أوفرهم عقلا واتزانا، ومن أكثرهم صبرا على مجاهدة النفس وعلى الدراسة والتحصيل والقراءة، ومن أكثرهم تقبلا للأفكار الجديدة التي أخذت تسري بين الطلبة لمقاومة البدع الإجتماعية والضلالات الفكرية والإنحرافات الخلقية، ومن أشدهم حرصا على مقاومة الإحتلال والإستعمار، وعلى مجابهته بالدراسة والتكوين وتنظيم الجماعات وتسييرها، ومواجهته ببث الأفكار الجريئة وتشجيع المواطنين على الاستهانة بقوته ونفوذه وغطرسته، والإحتجاج ضد مظالمه واعتداءاته.

بوشتى الجامعي، ككل إخوانه الذين عرفهم جامع القرويين ممن كوّنوا الحركة الوطنية. لم يغره المنصب ولا المقام، فقد كان كثير من طلاب القرويين من الأقاليم آنذاك يحد من تحصيلهم وعملهم أفق العمل إستجابة لحالة الفقر التي كان يعيش عليها معظمهم، وبخاصة الذين يهبون أنفسهم لطلب العلم. سرعان ما كانت تتلقف هؤلاء خطة العدالة أو وظيفة القضاء من قبل أن ينهوا دراستهم في القرويين، ولكن بوشتى الجامعي تلقفته المدرسة والتعليم المجاني الذي لم يكن يدر مالا ولا يؤهل لمنصب. وقد بدأ يلقي دروسه وهو طالب كأصدقائه علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس وإبراهيم الكتاني والهاشمي الفيلالي. كان يجد

سعادته الكبرى في هذه الدروس لأنها كانت تمكنه من أن يبث أفكاره وتعاليمه في طلبته، وكان يعتبر الدروس تعليما وتعلما في نفس الوقت ولذلك كان يلقي دروسه كسائر الأساتذة المشاركين بين الأدب والتاريخ والمنطق، وينزع في إلقاء دروسه إلى الكتب التي لا تدرس في القرويين والتي يطمح إلى أن يجد فيها، كما يجد طلبته، الجديد من العلم والأسلوب الجديد في العرض والبحث والدرس. وما أشك في أنه كان يتعب نفسه ويتعب طلبته ليس من كثرة ما يلقي من الدروس وما يأخذهم به من جدية فحسب، ولكن كذلك من موضوعات الدرس والكتب التي يختارها لتكون منطلقا لهذه الدروس.

وقد إستطاع بوشتى الجامعي أن يبلغ رسالته خير تبليغ. وتكتمل هذه الرسالة إلى طلبته حينما كان يتوزعها مع زميليه علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس. وكان العمل في هذه المدرسة الثلاثية متناسقا. وأعتقد، وقد كنت أحد طلبة هذه المدرسة، أنهم - ثلاثتهم كانوا ينسقون دروسهم بالموضوعات التي يدرسونها والكتب التي يتخذونها منطلقا لها.

ثم كانت المدرسة الحرة هي السبيل لتوسيع دائرة العمل في التعليم الذي كان أكبر تحد للاستعمار لأنه كان يخرج البذور الأولى للحركة العلمية والوطنية في آن. إنضاف إلى هذا التعليم الحر المتنقل بين المساجد والجوامع تعليم في المدارس الحرة، وفيه صرف بوشتى الجامعي فترة طويلة من حياته العلمية المتنقلة بين فاس ووجدة والقنيطرة والدارالبيضاء وغيرها من المناطق المغربية. والمدرسة كانت قرة عينيه لأنه كان يشرف فيها على مئات التلاميذ من عدة أجيال وعشرات المعلمين والأساتذة الذين كان يتعهدهم بالتكوين كما يتعهدون هم تلاميذهم بالتدريس.

رسالة العلم والوطنية لم تكن تختلف عن هؤلاء الرواد. فالدرس والمدرسة كان محفل توجيه فكري نحو الاستقامة بالعلم وبالوطنية وبالتوجيه الفكري والخلقي في آن. فلم يكن يهم هؤلاء الرواد أن يكونوا علماء من نوع الذين يحملون الأسفار حتى يصدق عليهم قول الشاعر:

كالعير في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

وإنما كان يهمهم أن يكوّنوا شخصية الإنسان المواطن المثقف، بكل ما تحمل كلمة الثقافة من مفاهيم علمية وإسلامية ووطنية، وسياسية وأخلاقية. وكان العلم سبيلهم إلى كل ذلك.

وبوشتى الجامعي من أولئك الذين أخلصوا لهذه القيم جميعها فقد كان يشق على نفسه وعلى طلبته وهو يعلمهم، ثم وهو يوحي إليهم. ويخيل إليَّ أنه كان يتعلم وهو يعلم، ويوحي إلى نفسه بنفس الأفكار والمبادئ التي يرددها، ويتجلى ذلك في الانسجام الذي كان يخلقه مع طلبته، فقد كانوا أصدقاءه أكثر مما كانوا طلبته، وكان يدارسهم بمقدار ما كان يدرس لهم. ونفس الشيء كان يصطنعه مع زملائه، وخاصة عبد العزيز بن ادريس الذي لم يكن يستنكف أن يجلس منه مجلس الطالب وهما يدرسان ما كان يتقنه من التاريخ أو الرياضيات أو الجغرافية.

وكان مقامه في العلم لا يمنعه من أن يسيّر جماعات وطنية، وأن يعدها للنضال، ولو كانت من الحرفيين أو التجار الصغار أو العمال. ولذلك كان وزميله علال الفاسي، أول من كوّن خلية نقابية في القنيطرة، في الوقت الذي كانت النقابة فيه مقتصرة على الشغالين الأوروبيين، وكانت بالتالي فرعا من النقابات الفرنسية، وبخاصة منها الموجهة من الحزب الشيوعي الفرنسي.

بهذه الروح التي تجمع بين الشعبية والتواضع الذي جبل عليه وزاد تمكنه منه، وهو طالب ثم وهو يدير مدرسة في فاس أو القنيطرة أو الدارالبيضاء يحمل فيها هموم أجيال من التلاميذ الصغار الذين رعاهم حتى أصبحوا كبارا. بهذه الروح التي تجمع بين الشعبية والعلم خاض مع زملائه معركة الكفاح الوطني في وجه الاستعمار، والذين عايشوا الفترة الاستعمارية، وخاصة في الثلاثينات والأربعينات، يوم كان الاستعمار ما يزال يعيش تحت هاجس المقاومة في الجبال، يدركون إلى أي حد كانت الإدارة الاستعمارية تخشى من تحالف العنصر البدوي والجبلي مع العنصر المديني. كانوا يطمئنون إلى حد ما للمدينة لأنها محاصرة لا مجال فيها

للاختفاء عن أعين المخابرات وإدارات الاستعلامات، ولكنهم كانوا لا يطمئنون للأطلس والريف والبادية عموما، فقد كانوا يجدون شخصية مثل بوشتى الجامعي تندمج في الحركة الوطنية كرائد من روادها، يراودهم القلق والخوف من هذا التحالف بين الأقاليم المغربية، وهذا التحالف هو الموجه الأكبر في تاريخ المغرب جميعه ضد كل المحتلين الذين راودتهم المطامع ليحتلوا المغرب. ولهذا اتجهت الإدارة الفرنسية إلى بوشتى الجامعي لتناله بالاعتقال والنفي والسجن. وقد كان أول الوطنيين الذين ابتلوا بالسجن والنفي فيما أذكر. ولا يحصيها عد المرات التي سجن فيها ونفي وأبعد وعذب، ولكنه كان يحتسب ذلك ضريبة للأفكار الوطنية التي يحملها، ويعتبرها خطوة في سبيل التحرر النهائي فكان يخرج من السجن ليعد نفسه لسجن آخر.

-4-

كان الإسلام والوطنية عند بوشتى الجامعي ينبعان من منبع واحد. وعن طريق الإسلام أحب وطنه وكافح في سبيل إستقلال بلاده وتحمل ما تحمل من محنة يحتسبها لله والوطن، لا يبغي عنها جزاء ولا وشكورا. ولهذا كان يعتبر من أسس الوطنية أن يكون الوطني مسلما صادقا في إيمانه وإسلامه، ممارسا للفرائض الإسلامية، صادق القول، بريء الذمة، عفيف اليد، لا يرتشي، ولا ينافق، ولا يقامر، ولا يغامر، ولا يتهاون في المظاهر الإسلامية. وأذكر أنه كان يصف بالإلحاد كل زائغ عن مبادئ الإسلام أو منحرف عن تعاليمه، وكان لا يرتاح للذين يتساهلون خلقيا، ولو كان مما أصبح بعد ذلك لا يمس بالمروءة.

لم يكن إرتباط الوطنية بالإسلام عنده، كما عند الرواد الأولين للحركة الوطنية، نابعا عن تفكير إسلامي فحسب، ولكنه كذلك نابع عن تفكير وطني. ذلك أن تاريخ بلادنا، موحدة متحضرة مناهضة لكل تدخل أجنبي، يرتبط بالإسلام.

الإسلام هو الذي منح المغرب كل القيم التي جعلت منها وطنا له خصوصياته ومميزاته وله دوره في حضارة الأمة الإسلامية. ولذلك فكل عمل وطني كان يرتبط في فكره بالإسلام، والإسلام ليس صلاة وصياما فحسب، ولكنه مجموعة من القيم

تضمنها القرآن وأقوال وسيرة نبي الإسلام. والوطنية عنده يجب أن تكون جماع كل القيم الإسلامية لأننا لا نكافح إلا من أجل بلاد إسلامية ومواطنين مسلمين، وكل انحراف عن الخط الإسلامي إنما هو ضلال وتضليل.

ولهذا كان ينظر بإعجاب إلى كل المناضلين الوطنيين، وكان ينظر بإكبار إلى كل الملتزمين منهم بالخط الإسلامي وبالقيّم الإسلامية.

كان رواد الوطنية قدوة في التشبث بالأخلاق الإسلامية. وقد ظل بوشتى الجامعي على صلة بالقرآن حتى آخر لحظة من حياته، وكان آخر ما قام به في دنياه الصلاة قبل أن يسلم الروح.

كانت حياته مدرسة تعلم على يده الكثيرون علما وعملا ونضالا وتضحية وأخلاقا ويجب أن تكون سيرته مدرسة للأجيال التي لم يسعدها الحظ بصحبته والاتصال به. قليل هم الرجال الذين يقدمون من سيراتهم وحياتهم مثالا لما يومنون به ويدعون إليه، وكان أستاذنا بوشتى الجامعي من هؤلاء القليلين.

***

إلتحق بوشتى الجامعي بالرفيق الأعلى يوم الجمعة 7 دجنبر 1990 وعمره 85 سنة.

رحمه الله...

المهدي بن بركة...
السياسي النابغ
(1965-1920)

-1-

من الصعب أن يتحدث الكاتب عن رجل من النابغين دون أن يبحث عن أصول نبوغه في طفولته وفتوته.

عُرف المهدي بن بركة كرجل وطني نابغ متحرك منذ شبابه الأول. يبدو أن هذا النبوغ بدأ منذ يفاعته عندما كان تلميذا في المدرسة الثانوية. ولفت النظر إليه وهو تلميذ مناضل، نضال التلاميذ سواء في دراسته أو في علاقاته الاجتماعية والشبابية. وما كاد يبدأ دراسته العالية في الرياضيات حتى كان فكره ينتقل إلى القضايا السياسية. ويبدو أنه إتصل بحزب الاستقلال في بداية تفكيره السياسي، وهو طالب يدرس في الجزائر وتنمى هذا الاتصال بعد أن عاد إلى المغرب ووافق ذلك التحضير لوثيقة الاستقلال. ولعله كان ضمن أصغر الموقعين سنا على العريضة (11 يناير 1944).[1]

وتلك هي النقطة التي مكنت لاتصال المهدي بن بركة المباشر بقيادة حزب الاستقلال. وتطور هذا الاتصال حتى أصبح الطاقة المتحركة المنفذة في اللجنة التنفيذية، ولم يكن الحزب يقوم بعمل هام إلا والمهدي[2] ضمن نشاطه. كانت للمهدي قدرة كبيرة على اللقاء والتعارف وربط الصلات بين الشباب والحزب وقدرة كبيرة في تنفيذ المقررات والاتصال بفروع الحزب ومسيريه في الأقاليم.

---

1 - لم يتعد عمره آنذاك 24 سنة.

2- هكذا أصبح يلقب بدون الإشارة إلى إسمه العائلي.

إلى جانب ذلك، كان فكره الوطني سليما ومشهودا له بالكفاءة والاعتدال. نشاطاته كانت تتعدى السياسة إلى أستاذيته في المعهد المولوي حيث تولى تدريس الأمير الحسن بن محمد والتلاميذ المرافقين له في الصف مادة الرياضيات موازاة مع التدريس في إحدى ثانويات الرباط. تألق، خلال هذه الفترة، بالقدرة الفائقة على ربط إنشغالاته المهنية بالعمل الدؤوب في الحقل الوطني دون الإخلال بأي منها.

هكذا تميز المهدي بن بركة. وزاده تميزه أنه إعتقل وسجن ونفي عدة مرات، وكان كل نشاط عدواني تقوم به الإقامة العامة يبتدئ بالمهدي بن بركة حتى كان الحزب يعد لاستقلال المغرب، وقام بنشاط ملحوظ، فنفي إلى مكان في الصحراء إنفراديا ثم نقل بعد ذلك إلى منفى "أغبالو نكردوس" مع جماعة من المناضلين الاستقلاليين، وعاد في بداية الانفراج ليصبح أكثر نشاطا وحيوية في حزب الاستقلال.

كان المهدي بن بركة من أبرز مؤيدي الحزب في قبول التطور التدريجي لتحقيق الاستقلال حسب المحادثات التي دارت في إكس ليبان (25-28 غشت 1955)، كما إستمر في نشاطه التنظيمي للحزب بعد ذلك والحزب يشارك في الحكومة الأولى، ثم في الحكومة الثانية التي ترأسهما مبارك البكاي. ولم يتول الوزارة في الحكومات الأولى تنفيذا لقرار الحزب ألا يشارك القادة المتزعمون له في الحكومة. وكان رئيسا للمجلس الاستشاري الذي كان بمثابة بداية لدمقرطة المؤسسات. وتمكن من الفوز بمقعد نيابي في مدينة الرباط في أول إنتخابات تشريعية (17 مايو 1963) عرفها المغرب المستقل.

خلال السنوات الثلاث التي تلت إستقلال المغرب، تميّز عمل المهدي بن بركة بنشاط مكثف على جميع الواجهات لتنظيم هياكل الحزب في الوضعية الجديدة. طاف المغرب من شماله إلى جنوبه، من غربه إلى شرقه، يلتقي بالأطر ويلقي المحاضرات. أشرف (صيف 1957) على شق طريق الوحدة الرابط بين تاونات وكتامة (60 كلم) والذي ساهم في إنجازه أكثر من عشرة آلاف من الشباب المتحمس لمستقبل المغرب الواعد. كان في مقدمة هؤلاء ولي العهد الأمير الحسن.

-2-

لماذا تزعم المهدي بن بركة حركة انشقاق حزب الاستقلال ؟

كان المهدي بن بركة في أعماق عمقه إستقلاليا، بل كان من المسيرين الأولين لحزب الاستقلال والأداة المحركة لنشاطه. وكان متطرفا في استقلاليته لا يتحمل أن يتعامل سياسيا مع غير استقلالي. ومن أجل ذلك، ومن أجل نشاطه وحركيته، كان يحظى بثقة اللجنة التنفيذية، وباحترام كل الاستقلاليين.

وكان للمهدي بن بركة دور عملي في تسيير الحزب والعمل السياسي، ثم في ربط الاتصال مع بعض متزعمي المقاومة في مرحلة الإعداد للاستقلال، بعد عودته من منفاه (1954). كما كان له دور في الاتصال بالحكم والحكومة في بداية عهد الاستقلال.

كان من الضروري أن يكون المهدي وزيرا ليتحمل المسؤولية العملية، مثل ما كان يتحملها من قريب ومن بعيد، ولكن فكرة إقتنعت بها قيادة الحزب، والمهدي في المقدمة، أن المسؤولين الكبار في الحزب ينبغي أن يبقوا عند خط المراقبة خلال مرحلة الاستقلال المتداخل، المرحلة الأولى من الإستقلال.

الرأي الذي ساد لدى قيادة الحزب، قام على عدم الثقة في الجانب الفرنسي، فقد يشترط، إنطلاقا من الاستقلال المتداخل، شروطا وقيودا على الحكومة المغربية، وقد يصعب الانتقال من الاستقلال المتداخل إلى الاستقلال التام، لأن التفاوض من أجل إلغاء الحماية لم يتم إلا في مارس 1956، أي بعد أكثر من ثلاثة أشهر من إعلان الاستقلال على لسان محمد الخامس. في هذه الحالة يجب أن تكون قيادة الحزب في حل من الحكومة، رغم مشاركة الحزب بعدد من أعضائه.

هناك رأي آخر له وجاهته، وهو أن الحكومة تكونت، رئاستها على الأقل، بتوجيه من الحكومة الفرنسية التي إقترحت مبارك البكاي. وافق الحزب على ذلك. ولكن بما أن سلطة تسيير الحكومة في يد رئيس غير استقلالي، فإن قيادة الحزب

إمتنعت عن المشاركة العملية في تحمل المسؤولية. فلم يتوزر من اللجنة التنفيذية إلا شخصان عبد الرحيم بوعبيد (بسبب الدور الرئيسي الذي لعبه في محادثات إكس ليبان)، وعبد الكريم بن جلون.

هذه النقطة (عدم مشاركة المهدي في التسيير العملي للحكم) يجب أن نتذكرها، ونحن نتابع مسيرته السياسية في السنوات العشر التي تفصل بين إعلان الاستقلال ومصيره الدرامي.

أثناء نشاطه الدائب والعمل في الحزب، في ظل الثقة التي كان يحظى بها من كل أطر الحزب، كانت للمهدي صلات، على هامش الحزب، ببعض متزعمي المقاومة، محمد البصري على الخصوص. وكان لبعض هؤلاء سلوك إنتهى بهم إلى الذاتية والفردية، بعيدا عن الحزب. شعر هذا البعض بالاستعلاء والطموح إلى قيادة البلاد بعيدا عن كل المؤسسات الرسمية والسياسية. وكان لهذا البعض سلوك وتصرفات تتصل بالأمن، أمن الدولة وأمن بعض المناضلين، مما أدى إلى نوع من الفوضى واللامسؤولية. كان المهدي يسعى في البداية ألا يحدث إنفلات من بعض متزعمي حركة المقاومة، وقد خرجت من رحم الحزب، من النفوذ الاستقلالي. حصل هذا الانفلات بالفعل. ولكن طموح المهدي الكبير، ونشاطه، في غير ما ميدان، جعلاه ينغمر مع هذا البعض، وكانوا متمردين على الحزب وعلى كل المؤسسات، بطموحهم الأكبر، إلى قيادة البلاد في وضعهم ذاك ... ولأن طموحه يضعه في المقدمة، كان المهدي يسعى لأن يكون في مقدمة هؤلاء. ومن الواضح أن هؤلاء المتزعمين كانوا في حاجة إلى من يضمن لهم شعبية الحزب ومناضليه الكثيرين في مختلف أنحاء المغرب. ومن يستطيع أن يضمن لهم ذلك غير قيادي كبير في الحزب؟ وقد كان المهدي ذلك القائد.

من المؤكد أن المهدي بن بركة سار في هذا الإتجاه تحت ضغط عملي بالأداة التي كان هؤلاء المتزعمين يستعملونها.

كان المهدي يريد أن يحقق طموحه الكبير مع الذين يفكرون في قيادة البلاد بشكل أو بآخر، فإذا أضيف على ذلك حاجتهم إليه والضغط العملي الذي كانوا

يمارسونه عمليا، ويعرف مدى خطورته، فقد كان مرغما على أن يسير في الخط، بعد أن تورط في كثير من منعرجاته.

الخط الثاني الذي إلتقى المهدي فيه مع هؤلاء المتزعمين في التوجه هو خط بعض المشرفين على "الإتحاد المغربي للشغل"، وعلى رأسهم المحجوب بن الصديق. كان هؤلاء يعتقدون أنه في استطاعة النقابة، نظرا لشعبيتها وأحديتها آنذاك، أن تغير وجه المغرب. وقد تكونت في ظل الحزب، وكل المناضلين فيها كانوا مناضلين نقابيين وسياسيين في ظل حزب الاستقلال. بدأ المحجوب بن الصديق أيضا يطمح للتصرف خارج مسيرة الحزب، وباستقلالية كاملة عن مخططه[3]. وهذا إنفلات آخر عن تزعم المهدي بن بركة لتسيير الحزب، وحتى يحتفظ المهدي بمكانته بين النقابيين المنتمين لقيادة "الإتحاد المغربي للشغل" وطموحه، كان عليه أن يساير متزعمي النقابة.

وحتى تضمن النقابة تحقيق هذا الهدف بأغلبية نقابية قادمة من الحزب، كان لابد من الضغط على المهدي بالوسائل التي كان يتقنها متزعمو الاتحاد. كان هؤلاء يريدون السيطرة على جماهير النقابة المنتمين لحزب الاستقلال وعلى الاستقلاليين غير المنتمين للنقابة لتحقيق أهدافهم المتمثلة في السيطرة على الوضع السياسي، وفي ذلك تلتقي مع أطماع الذين ينصبون أنفسهم لتزعم حركات المقاومة السابقة، ولا يكون ذلك إلا بالتخلص من نفوذ حزب الاستقلال. الوسيلة إلى ذلك هي إقتحام قلعة المهدي بوسائل الضغط التي أشرنا إليها.

العامل السلطوي، عامل ثالث، فقد كان المهدي ينظر إلى الحزب كوسيلة أدت مهمتها في النضال من أجل تحقيق الاستقلال، ويجب أن تتغير قيادته ولو بتغيير إسمه. على الحزب ألا يبقى شبحا مخيفا يرتبط تحقيق الاستقلال به وباسمه. كان، إذن، لابد من العمل من وراء لإخراج لبنة أساس من كيان الحزب. المهدي كان هذه اللبنة. لا يخفى على ذكاء المهدي هذا المخطط، ولكنه كان مرغما أن يساير هذا التوجه الذي كان يعتقد أنه هو الذي سيتزعمه ويتغلب على مدبريه ويجني ثماره.

3- أعلنت النقابة، وهي تابعة لحزب الإستقلال، إضرابا عاما شلّ الحركة الإقتصادية للبلاد بعد تعيين حكومة أحمد بلافريج بثلاثة أسابيع.

عامل آخر تدخل - إدعائيا - هو التقدمية والاشتراكية واليسارية الثورية.

أؤكد، إعتمادا على صلتي القوية بكل زعماء الحركة الانفصالية وخاصة المهدي بن بركة، أن الفكر اليساري لم يكن واردا في توجهات المتزعمين للحركة الانفصالية قبل الحدث (يناير 1959). عبد الله إبراهيم كان هو الاستثناء الوحيد، فقد عاد من دراسته في فرنسا (1950) بفكر يساري متمرد ثقافيا. وكعادته لم يكن يفصح عن آراء واضحة، ولكنه كان يفكر في صمت ويسخر، بضحكته الودود، ولا يزيد في إتجاه المناقشة الواضحة. ولذلك كنت أعتبره متمردا فكريا دون أن تتجاوز رؤيتي له هذا الحد. كنت أكبر فيه هذا الاتجاه دون أن يكون واضحا في فكره.

أما المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد فقد كانا يسخران، في أغلب الأحيان، من هذا التوجه اليساري دون أن يعربا عن رأي مخالف. وأغلب الظن الذي يقرب من اليقين، أنهما لم يكونا على وفاق مع عبد الله إبراهيم، وبقى المحجوب بن الصديق، فقد أصبح "يساريا" فكريا وعمليا منذ صداقة السجن المشترك (1952-1954) مع عبد الله إبراهيم، خاصة وهو يتزعم قوة نقابية جماهيرية فاعلة. كل منهما كان في حاجة إلى الآخر. إذا كان المحجوب بن الصديق بن الصديق في حاجة إلى فكر عبد الله إبراهيم، فإن عبد الله إبراهيم كان في حاجة إلى جماهير المحجوب بن الصديق، لعله كان يعتقد أنه يستطيع أن يحقق بها يسارية متمردة.

-3-

كيف لبس المهدي بن بركة لباس الثورية والتقدمية اليسارية، وجمع كل ذلك الرغبة في السلطة، وتحضير شروط الوصول إليها ؟

الجواب الواضح عن تزعم المهدي بن بركة لكل هذا الخليط يرتكز على طموحه. كان المهدي لا يقبل أن يتفوق عليه أي كان، وخاصة في الاتجاه الفكري. وإذا كان عبد الله إبراهيم متكتما في أفكاره واتجاهه أثناء العمل الوطني قبل الاستقلال، وفي السنوات الأولى للحكم الاستقلالي، وقبل في إطار الحكم أن يعمل كاتبا للدولة في الأنباء (الإتصال حاليا)، ثم وزيرا للشغل في حكومتي البكاي الأولى

والثانية دون أن تمنعه أفكاره التقدمية والثورية من العمل في الإطار الذي يسير فيه الحكم، فإنه لم يعلن رؤياه التقدمية واليسارية. وأغلب الظن أن علاقة المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد لم تكن قوية ولا منسجمة مع عبد الله إبراهيم، فكرا وممارسة. قد بدأت تتكون عصبة الناقمين على الحزب من بين أبنائه، وبالأخص بعد استقالة حكومة البكاي الثانية (مايو 1958) وعرض رئاسة الحكومة على أحمد بلافريج. وفقد لعب المهدي بن بركة دورا مهما في عملية إستقالة البكاي من رئاسة الحكومة وكذلك من ممثلي حزب الشورى والاستقلال. وكان الشعار الذي يرفعه ويعمل جاهدا يتمثل في حكومة منسجمة. ولم يكن له أي اعتراض على رئاسة أحمد بلافريج للحكومة.

عندما أخذ بلافريج يؤسس حكومته، بدأ التدخل الخارجي في شؤون الحزب ليقوم بعمله الجبار. الفرصة مواتية لإثارة المتمردين ضد الحزب وضد أمينه العام. بدأ التمرد ضد الحزب، وتخلى عبد الله إبراهيم عن المشاركة في حكومة بلافريج، وطبعا لم يشارك المهدي بن بركة، وهو أبو عذرها كما تخلى إدريس المحمدي الذي كان وزيرا للداخلية في الحكومتين الأوليتين.

وقد ظل إدريس المحمدي يدا قوية في تدمير الحركة الوطنية جميعها بما فيها الفريق الذي يعمل معه وهو وزير مع عبد الله إبراهيم، وفي نفس الوقت مديرا للديوان الملكي، ذلك أنه عُبأ لهدم الحزب.

أعود إلى اليسارية التقدمية والثورية وأثرها في توجه المهدي بن بركة لتزعم الانشقاق داخل الحزب. عند بداية هذا التوجه عند المهدي بن بركة كتب كتابا صغيرا "الإختيار الثوري". وكان هذا الكتاب منطلقا للتحول الفكري عند المهدي حتى أصبح في أواخر حياته (1960-1965) في مقدمة المد الثوري في العالم الثالث، يقوم بعمله القيادي خارج المغرب وعلى مستوى الدول التقدمية (من فيديل كاسترو حتى جمال عبد الناصر). وكان يسعى من ضمن برامجه الطموح إلى المشاركة بفعالية في عقد مؤتمر دولي عالمي لزعماء العالم الثالث الثوريين التقدميين في لاهفانا، عاصمة كوبا.

تجربة المهدي بن بركة الثورية التقدمية بدأت بالحزب فتزعم الانفصال من منطلق "التقدمية اليسارية الثورية". باعتبار أن القيادة في الحزب لا تنتمي لهذه الشعارات الثلاث الجديدة. وقد سعى، تحت تأثير اللعبة الكبرى لهدم الحزب، إلى تكوين "الجماعات المستقلة لحزب الاستقلال". وترأس إجتماع الرباط الذي صدر فيه بيان يحمل إعلان الجماعات المستقلة (يناير 1959). وسقطت حكومة بلافريج ولم يدم عمرها إلا سبعة أشهر (12 مايو 1985- 23 دجنبر 1958). وصعدت حكومة اليسار التقدمي إلى الحكم تحت رياسة عبد الله إبراهيم للحكم سبعة عشر شهرا (ديسمبر 1958 - مايو 1960)، وليتكون حزب "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية" تحت ظل هذه الحكومة بعد أن فشلت عملية "الجماعات المستقلة لحزب الإستقلال". وقد قاوم علال الفاسي عملية الانفصال بحزم وصرامة. وكان المقصود أن يكون مفتشو الحزب هم مكوني هذه الجماعات ومسيريها. ولكن كل المفتشين باستثناء إثنين منهم ظلوا يسيرون حزب الاستقلال في الأقاليم في وجه معارك ضارية شنت ضد الحزب من متزعمي الانفصال.

كان المهدي بن بركة في القيادة، وظل بعيدا عن الحكم على نحو الحكومات الثلاث الأولى كان نشاطه قويا ودائبا في السنوات الثلاث الأولى للانفصال. طبعا إستطاع هذا الانفصال أن يحقق خمسة "مكاسب":

- إنقسام في الحزب هدد وحدة العمل السياسي الوطني في مواجهة اللعبة الكبرى لتدمير أسس الحركة الوطنية؛
- عرقلة المخطط الاستقلالي لبناء الاستقلال على أسس من الديمقراطية التي قام الحزب بضغط قوي لبناء أسسها؛
- تمكين "اللعبة الكبرى" من إحداث شروخ في الصرح الوطني، وبذلك تمكنت من السيطرة على الحكم، والتلاعب بالوعود الديمقراطية التي طالما أعلنها محمد الخامس قبل رحيله؛
- إستطاعت اللعبة الكبرى، نتيجة هذا الشرخ، أن توجه التلاعب بالانتخابات التشريعية (1963) ثم حالة الاستثناء التي ألغت كل

الحريات وأوقفت الدستور وسار الحكم في مسيرة عابثة ضد مطامح الشعب وآماله الكبرى التي تولدت لديه خلال مرحلة الاستقلال؛

- زعزعة الوحدة السياسية الوطنية التي ظهر بها حزب الاستقلال منذ نشأته. وكانت سر نجاحه في تحقيق الاستقلال وعودة محمد الخامس وعائلته من المنفى، ومفاوضة الحكومة الفرنسية في الجلاء العسكري بعد الجلاء السياسي، وجلاء القواعد العسكرية الأمريكية على إثر زيارة الرئيس إيزنهاور للمغرب (1960).

ما أظن أن المهدي بن بركة كان يقرأ كل هذه النتائج منذ تزعمه لعملية إنقسام الحزب. فقد كان وطنيا متطرفا مناضلا قويا، ولكنه كان مأخوذا بطموحه حتى لا يتفوق عليه أحد في الخط السياسي، ومأخوذا ببعض العمليات الثورية في البلاد العربية (بورقيبة وإنهاء حكم الباي، عبد الناصر والاختيار الثوري وإنهاء حكم فاروق، عبد الكريم قاسم وإنهاء عهد فيصل في العراق، الانقلابات الثورية في سوريا، المد الاشتراكي إنطلاقا من الاتحاد السوفياتي وتوغله في منطقة الشرق الأوسط). ومنذ مغادرته المغرب لم يعد يهتم بقضايا المغرب السياسية والحزبية والممارساتية، إلا على النطاق الأعلى.

كان المهدي بن بركة وطنيا كبيرا نجح في تسييره المنطقي للعمل السياسي في المغرب حتى أخذت نزعات المتزعمين الذين تحدثنا عنهم تطمع في الاستيلاء على الحزب وقيادة البلاد نحو المجهول.

وحينما أدرك أنه لم يستطع تحقيق هذه الأهداف في المغرب، وكانت اللعبة الكبرى أقوى من ذكائه ونشاطه، إنتقل بكل أفكاره إلى الخارج تمهيدا، ربما، ليقوم بدور أكبر في المغرب. وكان طموحه أكبر من وسائله والظروف التي كان يعيش بها المغرب.

أصبح للمهدي بن بركة نشاط قوي ونفوذ منظور في بعض البلاد العربية والأجنبية إلا في المغرب. وكان يزعج المغرب الرسمي بهذا النشاط الناجح بقدر ما

كان يزكي نشاطه هذا بتوسيع دائرته في مختلف البلاد ومع كل التيارات "التقدمية اليسارية"، ولعله لم يكن يحتاط للخصومات التي يثيرها في المغرب وخارج المغرب.

أخذ نشاطه يأخذ بعدا عالميا عبر مشاركته وعمله الدائب في المؤتمرات العالمية المناهضة للاستعمار والهادفة إلى تحرير الشعوب. ومن ثمة، إنتخب المهدي بن بركة، منسقا للجنة التحضيرية لمؤتمر القارات الثلاث الذي كان مقررا أن ينعقد (يناير 1966) في مدينة لاهافانا، عاصمة كوبا.

كانت أنباؤه تتردد في مختلف الوكالات والصحف لأنه لم يكن يعمل في السر أو ما يكون سرا حتى إعترضه بعض المرتزقة الذين تظاهروا أنهم من رجال السلطة الفرنسية في شارع سان جيرمان بالحي اللاتيني بباريس أمام "مقهى ليب" الشهير. قادوه إلى حيث، لا شك، لقي مصيره الغامض.

***

حدث ذلك يوم الجمعة 29 أكتوبر 1965، وعمر المهدي بن بركة لا يتدعى خمس وأربعين ربيعا.

رحمه الله...

أحمد مكوار ...
شاهد العصر
(1892-1988)

-1-

كنا ونحن نواري جدثه الطاهر التراب نعيش مع قرن من النضال ربما كان أحمد مكوار آخر من شهده وَاعيًا به بضمير يقظ وإرادة نضالية متحركة.

حينما شهد أحمد مكوار فتنة بوحمارة في أوائل القرن العشرين، ورأى السُلطان مولاي حفيظ ينتصر على أخيه مولاي عبد العزيز ويجلس على عرش السلطنة في فاس بوثيقة البيعة التي كتبها علماء فاس، وكل سطر منها ينطق بشرط، يُستخلص منها: أنهم يبايعونه على أن يدافع عن الوطن ويحمي ذماره ويذود الأجانب عنه، ويحمي الدين ويكافح في سبيل الاستقلال؛ حينما شهد أحمد مكوار كل ذلك وهو شاب إستيقظ فيه الوعي مع بلوغ سن الرجولة ثم رأى السلطان يوقع معاهدة الحماية قبل أن يجف مداد البيعة، هزته الصدمة لتجعل منه المواطن الذي يبدأ المسيرة، ولا تنتهي إلا يوم إنطفأت فيه شعلة الحياة ثمانين سنة بعد ذلك.

كل الظروف كانت تعبئ أحمد مكوار لينساق مع جيل الهزيمة:

- البلاد أصبحت محتلة، بعد المذبحة الرهيبة التي عرفتها فاس[1]، وبعد التجاء المقاومة إلى قمم الجبال يحيط بأخبارها التعتيم الإعلامي، الإرهاب الاستعماري ينشر الذعر والخوف والهزيمة في قلوب الرجال قبل النساء، وويل لمن أشارت إليه الأصابع.

1 - كانت الأيام الدامية لفاس السبب الرئيسي لتولي المرشال ليوطي منصب الإقامة العامة بدلا من أوجين رينيو Eugène Regnault موقع المعاهدة والديبلوماسي المحنك الذي كان من المنتظر أن يتولى هذا المنصب.

- المرشال ليوطي يستميل إليه وجهاء المدن والقرى وأبناء القواد والولاة والوجهاء والأغنياء والعلماء وبعض الشباب، ويغريهم بالامتيازات والمصالح والوظائف. يبتسم لهم، ويبارك ما يعتبره إستسلامهم ويمد لهم في حبل الأمل والعمل والاستغلال والانتفاع...

ولكن الحرقة ما تزال تأكل قلوب الواعين من أبناء الأمة، علماء وتجار وصناع وفلاحين. المجاهدون إمتطوا قمم الجبال يكافحون باللغة التي يفهمون، يجمعون حولهم الناس ويلتقطون حبات السلاح ويقدمون أرواحهم فداء الوطن... وأبناء المدن لم يعد لهم، ما يرفعونه في وجه المحتل الغاصب إلا إيمانهم ووطنيتهم، والكلمة "المدمرة" يطلقونها في الخفاء لتسري كالماء، ولكنها تحت الرماد كالنار...

كان أحمد مكوار من شباب ذلك الجيل الذي إستيقظ حسه الوطني مع ضميره. لم يستطع أن يرفع السلاح، فلا سلاح بعد المجزرة، فرفع الكلمة. وكانت سلاح كل الواعين من أبناء الأمة تؤجج الوعي وتؤلب الخصومة للاستعمار وتجمع المواطنين على كلمة سواء.

كان الرفض هو البداية. فالمواطنون يرفضون كل ما يأتي عن طريق الاستعمار. قوم رفضوا أن يروا "النصراني" بأعينهم، فأقفلوا دورهم ولم يخرجوا منها حتى لا تقع أعينهم على نصراني... وقوم رفضوا الإقامة بديار يحتلها الكفار فهاجر منهم من هاجر إلى الديار المقدسة، أو إلى مصر أو إلى ما كان يوما ما "دار الخلافة"... وقوم هجروا الإبتسامة منذ يوم الحزن الأكبر فجلل الكدر وجوههم، ولم يبتسموا قط بعد ذلك حتى لقوا ربهم، وقوم رفضوا أن تقع بينهم وبين المحتلين معاملة، لا يتاجرون معه ولا يتعاملون، ولا يؤدون جزية (ضريبة) ولا يدخل منزلهم نور كهربائي وفد مع المحتل...

كان الرافضون في المدن يلتقون مع الرافضين في البادية، كل منهم يرفض باللغة التي يتقن. إذا كان الرافضون في قمم الجبال قد أدوا حياتهم ثمنا لرفضهم، فقد أدى الرافضون في المدن حريتهم ثمنا لرفضهم. عاشوا معزولين مترهبين أو أدوا إستقرارهم في وطنهم ثمنا لرفضهم فعاشوا مشردين، ليس لهم قرار في عالم لم يعرف

القرار. ولم يكن عمل هؤلاء جبنا، فيما أحسب، ولكن الشجاع الذي لا يملك سيفا لا يرفع كفه في وجه الذي يملك المدفع. وخلق المغاربة أنهم يواجهون بالسلاح حتى إذا نفد زادهم منه قدموا صدورهم لسلاح العدو أو استسلموا غير صاغرين.

وبين الذين تسلقوا قمم الجبال رافضين بالسلاح والذين رفضوا مترهبين منعزلين قلة إختارت العمل الايجابي، إختارت النضال الصابر الطويل النفس. يبدءأ بالكلمة المقدسة: "للحرية جهادنا حتى نراها"، ويتطور بالمعارضة والمطالبة حتى يتوسط بطلب الاستقلال، وينتهي بإعلان الحرب: المقاومة وجيش التحرير حتى يتحقق الاستقلال.

كان في مقدمة هؤلاء أحمد مكوار...

لم يكن أحمد مكوار لينهزم وهو يرى المولى عبد الحفيظ يوقع اتفاقية الحماية، ثم وهو يرى العنف يفضي إلى العنف، والمذبحة تفرز مذبحة، ولم يكن لينهزم وهو يرى ليوطي يحل محل السلطان، ولو بدون تاج السلطنة، ولم يكن لينهزم وهو يرى الحرب تأكل أبناء الوطن، وإدارة الاستعمار تجند الرجال مقابل قوالب السكر... إنتصرت روحه المتمردة وأرواح نفر من أمثاله على الهزيمة، فكان إنتصار الروح لثلة من شباب الشعب إنتصارا لروح الأمة كلها على الحماية رغم الفارق الهائل بين وسائلها ووسائلهم.

ويمثل أحمد مكوار في ذلك كله ثلة من الرجال، ليست من ثلة الشباب الذين أنجبتهم القرويين في فاس مسقط رأسه أو الذين أنجبتهم المدارس الرسمية في فاس والرباط وسلا، ولكنهم رجال أنجبهم الوعي الذاتي والمشاهدة الواعية والملاحظة الذكية. كان منهم الحاج عبد السلام بنونة في تطوان وأحمد مكوار وحمزة الطاهري والعربي بوعياد في فاس، وغيرهم غير قليل في الرباط وسلا جميعهم ينتمون إلى تعليم متوسط أو عمل تجاري أو صناعي. وسيلتقون في طريق مسيرتهم بشباب القروين والمدارس ليكملوا الطريق في قاعدة واحدة.

بدأ أحمد مكوار وجيله بالمدرسة[2]، فكانت المدرسة بعد ذلك شعار الوطنية المغربية. لا تؤسس خلية ولا يكون فرع إلا كان المدرسة في المقدمة. نفس العمل ربما على غير اتفاق كان في تطوان والرباط وغيرها من مدن المغرب وتسربت روح الوطنية إلى المضمون الكبير للمدرسة، فكان التعليم في مقدمة شعار الحركة الوطنية. السبيل الذي أراده الاستعمار للسيطرة هو التجهيل، والسبيل الذي إختارته الوطنية للتحرير هو التعليم. كانت المعركة رابحة، لأن المنطق معها حتى في بلد تسوده الأمية، وكانت المعادلة في صالح الحركة الوطنية، فسياسة التجهيل تواجه الرفض خاصة في وطن عاشت فيه "القرويين" منارا يهتدي به الضالون.

واجه أحمد مكوار وصحبه معركة الماء. الماء هو الحياة. كان المعمرون في بداية عهدهم بالأرض المغربية يريدون أن يستخرجوا منها ملا يحققه لهم سقي الأمطار، ولذلك فكروا في أن يرووا ضيعاتهم ولو عطش الإقليم. وعطشت المدينة التي يحمل النهر إسمها "واد فاس". ثار هو وصحبه في إجتماع المجلس البلدي نظم في فاس (1925) ضد إغتصاب الماء وإلتقت وربما لأول مرة إرادة هذا النفر من المتمردين، مع إرادة مجموعة من شباب المدينة كان في مقدمتهم علال الفاسي والحسن بوعياد والهاشمي الفيلالي. وفي مقر المجلس البلدي أعلنوا الرفض المطلق لإرادة المعمرين.

خطبوا وتحركوا، ولكنهم بدأوا "بالعريضة" التي ستأخذ دورا مهما في وسيلة الإعلان عن مطالب الحركة الوطنية. كتب علال العريضة ضد اغتصاب الماء، وتبناها المجلس البلدي وعلى رأسه أحمد مكوار وحمزة الطاهري وآخرون. ولعل التمرد كان له دور إيجابي فبقي الماء يروي المدينة ولو عطشت ضيعات المعمرين.

المجلس البلدي كان وسيلة للنضال فاختير أحمد مكوار رئيسا له. وكان الباشا - ولن يكون الباشا إلا ابن البغدادي - هو الرئيس العملي "أرأيتم باشا هو الرئيس العملي لمجلس بلدي...؟" ترأس الباشا عملية إنتخاب المكتب وحينما

---

2 - كانت مدرسة سيدي بناني في فاس تعاصر في بداية وجودها المدرسة الناصرية. وكان الحاج أحمد غلاب، والدي، قد شارك في إنشائها ورعايتها مع أحمد مكوار وظل يرعاها حتى آخر حياته (4 أبريل 1940).

أسفرت عن فوز أحمد مكوار بأغلبية ساحقة من الأصوات، غضب وهو يقول في جرأة نادرة للحاضرين:

- ألستُ رئيس الجلسة؟

أجابه الحضور بصوت واحد :

- بلى يا سعادة الباشا.

- إذا كنت رئيس الجلسة، فإني أحمل أصوات هذا لأضعها في صندوق هذا...

وكانت الأصوات "المحمولة" هي التي إختارت أحمد مكوار فوضعت في صندوق منافسه في جو غامر بالشماتة والسخرية من ديمقراطية سعادة الباشا...

-3-

حينما إختار أحمد مكوار هذه الطريق كان يعرف أنها طريق التمرد. وكان يعرف أنها محفوفة بالمخاطر، فقد شهد مرة أخرى رفاقه من الشباب يجلدون في دار الباشا حينما واجهوه باحتجاجهم على الظهير البربري. كان، وهو ابن الأكابر والأعيان "الأرستقراطيين"، يعرف أنه معرض في يوم ما أن يجلد وأن يسجن ويجوع ويبعد وينفى، ولكنه مع ذلك كان مصمما على أن يلقى ما لقيه زملاؤه من الشبان المثقفين وكلهم من أبناء الأكابر. وحتى لا يحرم نفسه من هذا الشرف تخلى عن "حماية إنجليزية" ورثها عن والده الذي كان قنصلا شرفيا لأنجلترا. كانت الدول الأجنبية والطامعة في المغرب على الأخص[3] قبل أن تتم المؤامرة مع فرنسا لتمكينها من بسط سيطرتها على المغرب بمشاركة إسبانيا تمنح حمايتها لكثير من الذين يتعاملون معها بالتجارة أو العمل أو الوظيفة في سفاراتها وقنصلياتها لتدفع بهم إلى التمرد على السلطة الشرعية إمعانا في تخريب الدولة من الداخل. وأحيانا كانت ورقة الحماية تباع للذي يريد أن يشتريها.

كان ذلك توسيعا لدائرة الخارجين على القانون وإذلالا لسلطة الدولة وتهديدا دائما بالتخريب من الداخل على يد طابور خامس من المواطنين بالإضافة إلى العملاء

3 - بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا، وإسبانيا.

والجواسيس المنبثين في مختلف أنحاء البلاد[4]. الحماية كانت تمكن المتمتع بها من عدم الإنصياع إلى القانون الداخلي، وتحميه من كل التحملات حتى العقاب من أجل الجريمة، ولكنها لم تكن تحميه من التمرد على سلطات الحماية الفرنسية. وحتى يسمح أحمد مكوار لنفسه بهذا التمرد الذي اعتبره شرفا تخلى عن "الحماية الانجليزية" ليواجه مصيره مع الحماية الفرنسية بالشخصية المغربية، الشخصية الوحيدة التي لا يمكن التخلي عنها. واندمج أحمد مكوار في العمل الوطني الذي كان في مقدمة مؤسسيه، فكان يناضل في السر والعلن، وكان منزله مأوى الأسرار ومجمع الأحرار. كان النادي والملتقى والمركز العام للحركة. فيه تطبع المناشير، وفيه تصدر التعليمات والأوامر، وفيه تتخذ القرارات المهمة. ولذلك لا غرابة أن تسطو السلطة على مأوى الوطنيين ومكان اجتماعهم فتعتقل صاحب الدار، وهي تعرف أنه من صانعي القرار.

حينما إعتقل علال الفاسي (أكتوبر 1937) كان لابد لكي تكتمل المؤامرة، أن يعتقل معه في نفس اللحظة أحمد مكوار ومحمد (بوشعيب) اليزيدي والحاج عمر بن عبد الجليل. كل منهم كان في زنزانة في المعتقل المؤقت حتى إذا عرف علال بطريقة ما أن بوشعيب هو الآخر في إحدى الزنزانات أخذ يقرأ الآية الكريمة: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية 85). أعاد قراءتها ففهم أحمد مكوار أن بوشعيب هو الآخر في إحدى الزنزانات.

لا يمكن أن ينفي علال الفاسي وأحمد مكوار يتمتع بحريته. ولذلك كان نصيبه هو الآخر النفي في الصحراء متنقلا بين القرى النائية المقفرة، ثلاث سنوات قضاها بعيدا عن أهله وأولاده ومدينته ومصالحه. ولكنها لم تكوِّن منه شخصية أخرى غير الشخصية الوطنية التي طبعها النضال وصاغها التمرد.

ويعود ليتحدد هذا النضال في فكره كما تحدد في فكر أصدقائه ممن عادوا

4 - وضعية المحميين كان الموضوع الوحيد الذي تدارسه مؤتمر مدريد (1880). وقد دام المؤتمر 45 يوما وحضرته 12 دولة أوروبية بالإضافة إلى الولايات المتحدة والمغرب.

من منافيهم ومعتقلاتهم: أحمد بلافريج، الحاج عمر بن عبد الجليل، محمد اليزيدي، عبد العزيز بن ادريس، الهاشمي الفيلالي، بوشتى الجامعي... ويبقى علال في المنفى السحيق يحدد الهدف من نضال الحركة فلا يكون إلا ما حدده زملاؤه، وهم بعيدون، عنه بعد المغرب عن الغابون.

- إنه الاستقلال...

ويشهد المنزل، الذي عرف الأسرار وكان مجمع الأحرار، الحدث الكبير: ميلاد وثيقة الاستقلال، فيه كانت نطفة فعلقة فمضغة. وفيه أنشئت عظاما وكسيت لحما.... وفيه كتبت بخط عبد الوهاب الفاسي، مناضل مازال التاريخ يذكره كلما ذكرت وثيقة الاستقلال. ومن المنزل الكبير خرجت الوثيقة لتطوف الآفاق بين الموقعين من الأطلس حتى أكادير ولتكون في الصورة التي قدمت فيها إلى محمد بن يوسف وإلى الإقامة العامة وسفارات الدول الكبرى.

وهو ذنب لا تغفره إدارة الحماية. فالقرار الذي أصدره المقيم العام باعتقال أحمد بلافريج الأمين العام للحزب تضمن أيضا إعتقال الثلاثة الذين عذبوا من فاس: أحمد مكوار وعبد العزيز ابن ادريس والهاشمي الفيلالي. والتهمة التي وجهت إلى بلافريج (الاتصال بالألمان ومحاولة تكريس الاستقلال لمصلحة المحور) هي التي وجهت إلى الثلاثة. وكان الاستنطاق العسكري في وقت الحرب يعني الجلد والكهرباء حتى الموت، والتعليق من الأرجل والتجويع والتعذيب.

وتحمل أحمد مكوار كما تحمل زملاؤه... وخرجوا من المحنة مرفوعي الرأس موفوري الكرامة. ولم يفرج عنهم إلا ليبدأوا المسيرة من جديد في مواجهة الجنرال جوان ثم الجنرال كيوم. وكان نفي وإبعاد وسجن مرة أخرى. وكل مرة كان الهدف يقترب، وكان مصير الحماية يتحدد ويتقرر.

لم يكن أسعد من أحمد مكوار وهو يشهد يوم النصر، يوم إعلان الاستقلال، وهل يعرف التاريخ رجلا شهد يوم الحماية واعيا، وشهد يوم الاستقلال واعيا مناضلا كما عرف أحمد مكوار المناضل. لم يخلع ثياب النضال حتى بعد أن تحقق الاستقلال. فقد ظل منزله مجمع الأحرار وموطن إتخاذ القرار. ولم يكن علال الفاسي يتخذ قرارا مهما إلا استشار أحمد مكوار. ولم تكن اللجنة التنفيذية تقدم

على أمر ذي بال إلا حجت إلى فاس أو حج إليها أحمد مكوار ليشاركها في اتخاذ القرارات المهمة في سبيل الحرية والديمقراطية وبناء الاستقلال.

أخذت الشيخوخة تفت في عضده فلا يتنقل إلا قليلا، ولكنه ظل صاحب الفكر النيّر والرأي الصائب والتوجيه المستقيم. ظل أحمد مكوار مشاركا في العمل الوطني، يعطي الرأي ويتركه يدافع عن نفسه.

ما رأيته متعصبا لرأيه، ولا مكابرا ضد رأي أو عمل اتخذ بغير موافقته. حتى إذا أقعدته الشيخوخة عن الحركة الدائبة كانت سعادته تتم حينما يجتمع حوله نفر من المناضلين يناقشون كل شيء يتعلق بمسيرة الوطن ووضع المواطنين. كنا نزوره كلما حللنا بفاس فنجد نفس الحياة ينبض بها فكره، ونفس التوجيه السليم والرأي الصائب والتفكير النير، وكانت حياة الرجل تشرف على قرن من الزمان.

ظلت الحياة نفسها تنبض من هذا الفكر النيّر حتى إذا رأيته آخر مرة قبل رحيله بأيام كان يناقش معي آخر ما علم وما سمع، وكأنه لم يمر بأزمات مرضية حرجة. قبلها بأسبوع زرته في المستشفى، كان يرفض الأكل لأنه لم يعد يستطعمه. كان الطبيب ينصح بأن يقدم له أي شيء يساعد على استمرار نبض الحياة. لكنه كان يرفض هذا المنطق، وهو يقول بمنطقه العقلي الواضح: "إنتهى كل شيء... إنتهى كل شيء..."

وحينما يستيقظ حس الحياة فيه كان يعود إلى زواره بنفس روح الاستطلاع والمناقشة وإعطاء الرأي. مات فيه كل شيء إلا عقله وسلامة تفكيره وحبه لإبداع الرأي...

كان شاهد عصر من أعظم عصور المغرب التي عرف فيها الحركة والنضال والصراع من أجل إثبات الذات. ويوم يعترف المغرب بالذين استطاعوا أن يعملوا للحفاظ على ذاتيته وشخصيته سيكون أحمد مكوار في مقدمتهم.

***

توفي أحمد مكوار يوم الجمعة 12 فبراير 1988، وسنه تقارب السادسة والتسعين.

رحمه الله...

عمر بن عبد الجليل...
المهندس السياسي
(1982-1907)

-1-

- الحاج عمر...

هكذا كان يُنادى. هكذا كان يُتحدث عنه، دون زيادة التعريف بلقب عائلي فينصرف الذهن إلى الرجل الذي عرفه التاريخ، وسجل إسمه بمداد الفخر: الحاج عمر بن عبد الجليل.

فتى أدرج في المرحلة الابتدائية من عملي الوطني. حضرت اجتماعا شعبيا لمجموعة من الصحفيين الفرنسيين المتحررين زاروا المغرب. كان الاجتماع في إحدى الدور بمدينة فاس. والدار، مهما وسعت رحابها، لم تكن تسع المناضلين في كتلة العمل الوطني. ولذلك لم يكن يدعى لهذه الاجتماعات إلا القلة من الذين يمكن أن يستفيدوا من هذه الاجتماعات. كنا تلاميذ في حلقات الدروس التي يلقيها علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس وبوشتى الجامعي. وكانت حظوتنا أننا نحضر هذه الدروس لا نتلقى فيها العلم فحسب ولكنا نتلقى فيها التكوين الوطني كذلك. وكنا نسمع بأسماء نتطلع إلى رؤيتها: عمر بن عبد الجليل، أحمد بلافريج، محمد اليزيدي، محمد الفاسي، ومحمد بن الحسن الوزاني.

ولهذا كانت فرصتنا نادرة حينما دعينا لمهرجان يحضره مجموعة من الصحفيين الفرنسيين.

كان الحاج عمر بن عبد الجليل هناك، بل كان قطب الرحى في المهرجان الذي كان يمكن أن يمنع لولا أنه منظم للحديث إلى فرنسيين، وصحفيين بالذات.

الإقامة العامة، آنذاك، لم تكن تخشى شيئا كما تخشى الصحافة الفرنسية المتحررة التي تصدر في فرنسا، إذا كانت صحافة فرنسية تنطق باسمها في المغرب، فهي لا تملك صحافة تنطق باسم أحزابها أو باسم أصحابها بفرنسا.

كان الحاج عمر هناك، بشبابه وحيويته ونشاطه.

وكان هناك بابتسامته الساحرة التي تضفي على محياه طابعا من الفتنة والسحر والجاذبية. بعينيه الزرقاوين ووجهه الأشقر، وطربوشه وجلبابه وبلغته، يتحرك وينظم ويرشد الحاضرين إلى طريقة استقبال الضيوف، ويرشدهم بكلماته العذبة وحركة يده الهادئة. كانت إبتسامته هي التعبير البليغ عما يريد أن يتحدث به.

إجتاز الضيوف دروب فاس وزقاقاتها الضيّقة ومنحدراتها المنعرجة. كان الوقت، فيما أحسب، التاسعة ليلا. ومدينة فاس تعيش في الليل حياة الاستقلال. لا يدخلها نصراني ولا يهودي ولا شرطي أو جندي أجنبي.

هكذا فتحنا أعيننا على المدينة المتأبية المحافظة على كرامتها. لا تنتهك حرمتها ليلا.

جربت ذلك أول بعثة فرنسية أثناء عقد الحماية ولم تكن فاس تضم مدينة جديدة. ولم يكد السلطان عبد الحفيظ يرغم على توقيع معاهدة الحماية (30 مارس 1912) حتى ثارت المدينة (17-19 أبريل 1912). وكان أول ضحايا الثورة البعثة الفرنسية التي انتهكت حرمة فاس. أيام فاس الدامية، بدأت في ليل دامس مظلم، وهو الليل الذي صنعه الغزاة بأنفسهم قبل ذلك بأسبوعين.

ومن يومئذ تاب الأجانب. فلم يدخلوا المدينة في ليل، ولو لم يكونوا صانعيه.

غير أن مجموعة الصحفيين الفرنسيين دخلت في حمى أعضاء "كتلة العمل الوطني" فاجتازت الدروب والزقاقات والمنحدرات المنعرجة، ولم تكن تستقبل بغير الاحترام والتكريم والتقدير.

في رحاب المنزل منزل السيد ابن زاكور كان الحاج عمر يستقبل ضيوف الكتلة. ولم تكن ضيافة موائد وأطعمة، ولكنها كانت ضيافة حديث صريح عن

وضعية المغرب في عهد الحماية. حديث عن الحريات العامة المصادرة، عن حالة البؤس التي يعيشها الإنسان المغربي، عن اغتصاب الأرض التي ينعم بها المعمرون، عن التسابق لاستلاب خيرات المغرب الإقتصادية معدنية وصناعية وتجارية من ثلة الرأسماليين الفرنسيين، عن التعليم المفتقد، وعن "الصحة" الواهية، عن الرعب الذي يخيم على حياة الفلاح والعامل والصانع والتاجر، عن مصادرة حرية المواطن في التنقل بين الأقاليم، وربما المدن، عن كل شيء يبلوره إغتصاب السيادة المغربية...

بهذا تحدث الحاج عمر للصحفيين الفرنسيين بفرنسية بليغة سليمة وبلهجة عقلانية مؤثرة، تأثير العقل لا تأثير العاطفة. شدّهم إليه، أخذ بتلابيبهم، تعلقت عيونهم بكلماته ومنطقه وبلاغته، وطريقة حديثه. وأحسب أنهم تعلقوا بعينيه الزرقاوين وهما تترقرقان بدمعة ساخنة... كان الحاج عمر يعبر بدموعه حينما يفيض في الحديث عن الوطن، عن المواطنين، عن التضحية التي تنتظر كل مواطن لتحقيق إستقلال بلاده. كان يقنع بالدمعة الساخنة كما يقنع بالكلمة الساخنة... الكلمة منه تبحث عن مضمونها في بؤس الفلاح والصانع والتلميذ والعاطل، فيفيض المضمون دمعة من عينه قويا لا ضعف فيه ولا استجداء ولا استشفاق.

وأحسب أن الصحفيين، الذين تحدثوا عما يرونه من علاقة لفرنسا بالمغرب، خرجوا مقتنعين بمنطق "كتلة العمل الوطني"، مقتنعين بعدالة قضية الوطنيين، مقتنعين بأن فرنسا الإستعمارية هي غير فرنسا التي تقف على أقدامها الثلاثة: "الحرية -المساواة- الأخوة"[1].

-2-

في "شارع" من شوارع فاس "الواسعة"، وقعت عيناي على الحاج عمر. يسير بخطواته الثابتة القوية كأنما ينحدر من جبل. عيناه على موطئ أقدامه، وجهه الصبوح يطل من تحت طربوشه الأحمر. كان، فيما بدا لي، شارد الذهن، مشغول الفكر، متجهم الوجه. إندفعت إليه، فقبلت يده. ما أزال أعتبر تقبيل اليد تعبيرا

1- Liberté - Egalité -Fraternité.

عن تقدير، عن احترام، عن حب. وكان الحاج عمر من الذين أكن لهم كل ذلك، فكان ما أكنه قبلة أضعها على يده...

فوجئ بهذا الفتى ينتشله من مشاغله الفكرية ويوقف خطواته. لعل ما كان يستحثه موعد عاجل. لم يتعرف عليّ. نظر إلى وجهي في عجل، وهو يربت على كتفي قائلا:

- الله يرضي عليك.

وإستمر في طريقه يفكر ويخطط وينفذ.

عرفت فيما بعد أنه كان على موعد مع القطار ليلحق بركب الباخرة التي أقلته إلى فرنسا. كان المغرب على موعد مع مظاهرات شاملة إحتجاجا على إعتقال الزعماء الثلاثة[2]، ولم يعد من فرنسا حتى كان يحمل وعدا من أصدقاء الحركة الوطنية في الحكومة والبرلمان بالإفراج عن الزعماء، وعن كل الذين اعتقلوا في مظاهرات أكتوبر 1936.

وكان الجنرال نوكيس الذي عيّن قبل ذلك ببضعة أسابيع كمقيم عام، أثناء هذه الأحداث في فرنسا، وعاد يحمل تعليمات لتغيير ملامح السياسة فأذن بإصدار بعض الصحف مؤقتا ليعود إلى طبيعته فيقمع "الكتلة" ثم "الحزب الوطني" ويمنع الصحف ويعتقل الزعماء ويرسل علال الفاسي، سنة بعد ذلك إلى الغابون (أكتوبر 1937) ليقضي هناك تسع سنوات في المنفى.

-3-

رأيت الحاج عمر بعد ذلك بسنوات قضى كثيرا منها في السجن والنفي والاعتقال، وقضاها جميعها في العمل لصالح المغرب. كان ذلك في نهاية 1948بعد أن عدت من القاهرة. مهما غيّرت السنون من الإنسان، ومهما غيرت ظروف العمل والمحنة من المواطن، فإن ابتسامة الحاج عمر ظلت مؤشرا على شخصيته، وظلت طريقه إلى اتخاذ القرار.

2- علال الفاسي، محمد بن الحسن الوزاني ومحمد اليزيدي.

ـ عُدتَ وكنت أنتظرك...

هكذا بدأ حديثه معي في يوم بارد من أيام ديسمبر، وفي طقس الصقيع كطقس فاس، وفي منزل المناضل أحمد مكوار، وبعد أن انتهى الاجتماع الموسع الذي تحدث فيه الحاج عمر ببالغ القول وصادق التوجيه. كنا جماعة قليلة تحلقنا حوله. كانت عيناه النافذتان تبحثان عن شيء ما في وجهي. كنت أنتظر تتمة حديثه. ولم أنتظر طويلا فقد استمر وكأنه يصدر تعليمات عن قرار:

-... المدرسة المحمدية في حاجة إلى مدير...

ثم إبتسم وهو يضيف:

- ...وقد أرسل لنا الله مديرا لها من مصر... إعتمد على الله، وإنتقل سريعا إلى الدارالبيضاء.

تركني لتفكيري، فهو يعرف أن المسؤوليات الوطنية لا تقبل الاستشارة. وهو يعرف أن قرار الحزب لم يكن ليجد في نفسي ترددا. ولم أكن لأتردد أو أعترض، وإنما شغلت بالتفكير في هذا الرجل الذي يحمل همّ العمل الوطني، يناضل ويكتب ويتحدث ويتنقل ويشرف على هيئات الحزب وفروعه في مختلف أنحاء المغرب، ثم يفكر في مشكلة مدرسة تحتاج إلى مدير.

إنه الحاج عمر الذي لم يكن للعمل الوطني عنده حدودا. وإنما كان يعتبر الكتابة في الصحيفة والإشراف على فروع إقليم والاجتماع في اللجنة التنفيذية ورعاية مدرسة من المدارس التي ناضل في سبيل إنشائها. يعتبر كل ذلك مما يدخل في شمولية العمل الوطني...

إنتقلت إلى الدارالبيضاء وبدأت عملي في المدرسة. ويحضر الحاج عمر المدرسة في يوم من الأيام التي كان يخصصها للدارالبيضاء لا ليراقب عملي ويبحث عن نجاحي أو فشلي. ولكن ليسر إليّ من وراء إبتسامته الساحرة:

ـ إنتصر عليّ الحاج أحمد!

طفقت أبحث عن المعركة التي حقق فيها الحاج أحمد بلافريج إنتصاره. لم يتركني طويلا في ضلال البحث:

- ... حاولت أن أقنعه بأن ندعم الأقاليم، وأصّر على أن ندعم المركز. وقد إختارك الحاج أحمد للصحافة ولكتابة اللجنة التنفيذية...

سكت قليلا ليتعرف على أثر القرار في نفسي. ثم أضاف من خلال إبتسامة الرضا:

ـ وما عليك وما عليّ إلا الامتثال. وأينما كان الخير ينفع...هيا إلى الرباط.

كان ذلك وسلطات الحماية (1951) تعيش أزهر أيامها على عهد الجنرالات... على رأسها جوان، أحد أكبر جنرلات فرنسا. ويساعده عدد من الجنرالات حكام فاس ومكناس ومراكش، وكل المناطق التي تخشى منها الحماية الثورة أو التمرد. وساعده الأيمن في الإقامة الجنرال بوايي دولاتور. وفي تادلة الحاكم الجبار تاليك. تحركت تادلة كما تتحرك المناطق الجبلية من حين لآخر ضد القمع والطغيان. وكانت منطقة تادلة بالأخص تعيش عهد إستلاب الأراضي لصالح التنمية الزراعية. فقد أنشأت إدارة الحماية "سد بين الويدان" وفرض الحاكم تاليك على الفلاحين أن يدفعوا ثمن الماء، وأن يحولوا زراعاتهم التقليدية إلى القطن والزراعات السقوية. الفلاحون لا يملكون، ولا يستطيعون أداء ثمن الماء والإدارة لا تقرض ولا ترشد. والبديل عن هذا العمل هو إخراجهم من الأرض بالبيع إن قبلوا الثمن "الغبن"، فإن لم يقبلوا أخرجوا من ديارهم وأرضهم مكرهين.

إستنكرت قبائل آيت سعيد وفم العنصر "حكم قاراقوش" هذا. أبت أن تدفع ثمن الماء، وأبت أن تغادر الأرض. واعتقلت إدارة "الحاكم بأمره" قائد التمرد. نظم الفلاحون مظاهرة قوية للاحتجاج والمطالبة بالإفراج. وكان الجواب المدبر هو إطلاق يد الجيش ليقضي على التمرد السلمي في المهد. قتل الكثيرون، وجرح الكثيرون، وفرّ الكثيرون... وكان ذلك ما أراد تاليك ليستولي على أرض المواطنين ويحولها إلى المعمرين المستفيدين من ماء "سد بين الويدان".

تسربت الأخبار إلى "حزب الاستقلال" فبعث بعثة صحفية بالاتفاق مع جريدة "الرأي العام" التي كان يصدرها حزب الشورى، كنت وعبد الجليل القباج نمثل فيها "العلم" و"رسالة المغرب". ذهبنا إلى منطقة "آيت سعيد" فوجدناها مطوقة بالجيش يمنع اختراق الحدود أو الخروج من المنطقة المطوقة. حاولنا فصدونا. تسرب إلينا مواطنون، قصوا علينا القصة فسجلناها...

تاليك، حاكم المنطقة، علم بوجودنا في أراضيه فاستدعانا ليؤكد لنا منعنا من التجول في المنطقة وليأمرنا بالمغادرة ثم ليقص علينا قصة التمرد الذي لا تقبله السلطة، ذلك أن مهمتها هي حفظ الأمن.

ـ والقتلى...؟ والجرحى...؟

هكذا سألنا ببساطة... أنكر كذلك، ببساطة، أن يكون هناك قتلى أو جرحى، إلا أن الجيش بالمرصاد لكل من تسول له نفسه الخروج على الأمن.

عدنا إلى الرباط فكتبنا القصة، قصة العدوان "للعلم" و"رسالة المغرب".

وصدرت الجريدة والمجلة و"الرأي العام" وأعمدتها بيضاء إلا من كلمتين "حذفته الرقابة".

كان على حزب الاستقلال أن يحتج. وكان على الإقامة أن تحقق مع الذين زاروا المنطقة وكتبوا. كان لي لقاء مع الجنرال بوايي دولاتور. كان بمثابة تحقيق "قضائي"، تركني لسبيلي بعده لأن التحقيق الصحفي لم ينشر بفعل الرقابة.

وكتبت اللجنة التنفيذية برقية إحتجاج شديدة اللهجة ضد القمع الوحشي الذي مارسه جيش الاحتلال على المواطنين في آيت سعيد. محمد اليزيدي (بوشعيب) هو الأمين العام بالنيابة. وكان أحمد بلافريج الأمين العام خارج المغرب. وكان من الطبيعي أن يوقع محمد اليزيدي البرقية. إعترض الحاج عمر قائلا:

ـ لا... الجواب على البرقية سيكون السجن والمحاكمة، وقد تكون عسكرية، لأننا نطعن فيها في جيش الاحتلال.

أضاف في صرامة والابتسامة المحببة على شفتيه وهو يخاطب اليزيدي:

ـ أنت مريض وزوجتك مريضة لا تحتمل أن تذهب السجن أو تحاكم... سأوقع البرقية بنفسي.

لم ينتظر جوابا. فقد أشرع قلمه ووقع.

يوم واحد، وكانت اللجنة التنفيذية تواصل اجتماعاتها. دُعي الحاج عمر، ونحن مجتمعون، إلى زيارة الجنرال دولاتور. نظر بعضنا إلى البعض، فكانت نظرته المطمئنة وكلمته الراضية:

ـ ليكن... إلى اللقاء.

ساعة أو تزيد. وعاد الحاج عمر ومعه حارس سيصحبه إلى محكمة الباشا.

ـ جئت لأودعكم وأخبركم أنه...

أضاف في اطمئنان:

ـ ... ونحن على عهد الله.

وخرج الحاج عمر من إجتماع اللجنة التنفيذية قاصدا السجن...

أشهر عديدة قضاها سجينا بإرادته. فدى فيها صديقه محمد اليزيدي. شارك فيها مئات السجناء من "آيت سعيد" الذين إعتقلهم الحاكم تاليك، شارك بها في تهيئ الجو اللاهب لثورة الحنصالي. مهّد فيها لحملة النقمة التي قام بها جوان وبوايي دولاتور على الاستقلاليين وعموم المواطنين. ألهب فيها حماس التضحية والفداء.

ـ الحاج عمر في السجن.

هي الكلمة التي كانت مفتاح السر إلى قلوب جميع المواطنين ليتأهبوا جميعهم للسجن والفداء.

وتوفي الحاج بن سالم بن عبد الجليل، والده، وهو في السجن فأفرج عنه ليواري والده التراب.

-4-

شعرت عيناه الذكيتان بالدفء.

لم تصدق أذناه الخبر.

همس إلى نفسه:

- سأذهب إلى باريس، بلاد الحرية والمساواة والأخوة، مدينة الأنوار والبهاء، معقل الثائرين والأحرار والمناضلين...

توقف الحاج عمر عند الكلمات الثلاث الأخيرة، وكأنه يستعيد بيتا من الشعر، أو آية من القرآن.

كان المغرب يعيش مرحلة النكسة. ابن عبد الكريم وضع السلاح، وكان الأمل. إخوان له موحا وحمو، أبا سلام وآخرون، في الأطلس لا يزالون يجهرون بالكلمة التي يتقنون الحديث بها. لا أحد يسمعهم لأنهم معزولون في المناطق التي حاصرهم فيها جيش الاحتلال. ثورة الريف دوت في الآفاق، لأنها لم تكن مقاومة. كانت حربا معلنة على العدو. هكذا كان يريد بن عبد الكريم الخطابي أن يتحدث عنها حتى بعد افتكاك أسره. المقاومة المنعزلة التي كانت في قمم متفرقة من الأطلس قد يكتم العدو أسرارها وأخبارها. الحرب تعلن عن نفسها، لأنها حررت الريف، وكادت تحرر ما حوالي الريف.

الكلمات الثلاث: الثائرون، الأحرار، المناضلون، برزت صاخبة في أذنيه. رسمت على شفتيه، من جديد، الابتسامة التي طبعت حياته. وهمس لنفسه مرة أخرى:

- سأكون هناك طالب علم! الثائرون، الأحرار، المناضلون، كلهم كانوا طلبة علم. ومع ذلك أصبحوا...

إنتشلته من تفكيره بقية الخبر:

ـ وهم يشترطون ليأذنوا لك بالرحلة ألا تدرس الطب.

تعلقت نفسه بأن يكون طبيبا، وهو لا يرى من الأطباء أبناء وطنه إلا عجوزا إسمه التمسماني، البقية الصالحة من بعثة السلطان مولاي الحسن. ها هو التاريخ يعيد نفسه. أولئك "بعثات مولاي الحسن" خنقوهم في المهد، فلم يسلم منهم إلا القليل، منهم هذا الطبيب الذي ما يزال يلبس طربوشه (الطاسة) وجلبابه القصير، ونظارتين سميكتين تقبعان على أنفه المعقوف، لا تحجبان جمال عينيه الزرقاوين، ولا ترفعان من قامته القصيرة، وهو يحدثك، مهما يكن طولك، رفعا رأسه إلى أعلى، هامسا كأنه يتوارى خلف همسه حتى لا يتعرف عليه الذين أدانوا البعثات العلمية فقبروها في المهد.

- ليكن .... ليس مهما أن أكون طبيبا لأكن إذن فلاحا...

هكذا هتف إلى نفسه بعفوية. ولم يحاول أن يقارن بين الطب والفلاحة أو أن يوازن بينهما. الرحلة إلى بلاد العلم والمعرفة والحضارة مكسب. وفي وقته ذاك كان الشباب يتطلعون، ولا يشترطون.... يكفي أن "يكسب" فيذهب إلى طلب العلم في باريس. ولم يحظ بهذا "الشرف" آنذاك إلا قلة محدودة من شباب المغرب.

ـ الفلاحة... الحاج عمر - وقد دعي الحاج منذ صغره- ابن الحاج بن سالم ابن عبد الجليل.... إبن الأكابر من رجال المخزن، إبن المدينة التي يفد إليها الفلاحون يصبح طالبا في الفلاحة؟

سؤال تردد على العائلة، وفي العائلات التي علمت بأن الحاج عمر سيطلب العلم ليصبح فلاحا في آخر المطاف.

ولعله إبتسم في سره، ولم يعاند، فقد كانت كلمة "الفلاحة" آنذاك تملأ الدنيا وتشغل الناس. كانت الإقامة العامة على عهد "لوسيان سان" تصدر القرارات المتعددة لتكريس استعمار الأرض، بعد أن كرست إحتلالها والاستيلاء على مقدراتها. كانت "الفلاحة" هي هاجس الادارة الاستعمارية. فرنسا لم تحتل المغرب لأنها تريد أمبراطورية تثقل كاهلها، ولكنها إحتلته لأنها تريد إمبراطورية توسع أرضها.

تلتجئ إلى عطائها لتزيد في رفاهية الشعب الفرنسي، ويلتجئ أبناؤها ليستفيدوا من ثرواتها، ويكون بنوها درءا لها يدافعون عنها كلما خربتها كارثة من حرب أو أمر من تمرد في أطراف الأمبواطورية.

الفلاحة كانت الهاجس الذي يجعل الفرنسيين يضحون بأبنائهم في الأطلس والريف من أجل التنمية الفلاحية.

- لِمَ، إذن، لا أكون مهندسا فلاحيا لأجعل من أبناء وطني الفلاحين مناضلين يتشبثون بالأرض ويزرعونها بدلا من المعمرين الفرنسيين؟ لِمَ لا أدافع عن أرض بلادي، المعرضة للاغتصاب، بالعلم كما أدافع بالقول؟

هكذا أصبح الحاج عمر إبن الحاج بنسالم إبن الأكابر مهندسا فلاحيا.

لم يختر الإدارة يجلس فيها إلى مكتب يترجم أوراق الإقامة العامة التي تحمل تعليمات إنتزاع الأرض وتركيز المعمرين. ولكنه إختار أن يكون فلاحا يدير ضيعات لمواطنيه، يجعلها تنافس ضيعات المعمرين. لم يكن مزارعا يزرع الأرض ويستنبتها فحسب، ولكنه كان يزرع روح المنافسة في قلوب "المعمرين" الحقيقيين من أبناء قومه.

وأحسب أن الحاج عمر كان قدوة لكل الشباب والشابات الذين اختاروا، بعد ذلك، الفلاحة كميدان لدراستهم. وأحسب أن كل المهندسين الفلاحيين الذين يعمرون المغرب الآن كان الحاج عمر في ضميرهم رائد من روادهم.

-5-

أدار الحاج عمر ضيعة لقائد مهم من القواد الكبار في بن سليمان. أدار بعد ذلك ضيعة لمناضل مرموق من المناضلين في ميدان الوطنية والاقتصاد. كان يقسم وقته بين العمل في الحقل الصغير، والعمل في "الحقل" الكبير: الوطن. عاش من عرق جبينه، وعاشت الحركة الوطنية من عرق جبينه كذلك. وأصبحت له بعد سنوات من العمل فضلة من مال. فاشترى قطعة أرض أخذ يرعاها فأثمرت وأتت أكلها.

كان، ككل أب له أسرة، ولا يرى له مستقبلا من ثروة أو غنى، فرحا بالأرض الطيبة التي اشتراها من كده وكدحه.

في غمرة توَهُّجه كشاب في عز شبابه وحيويته ونشاطه الوطني، أصيب بمرض أثر على نظره. كان مهددا في نور بصره... العينان المليئتان بالحب والوفاء والإخلاص والجمال وابتسامة الرضا، تنطفئان هكذا في لحظة ضعف.

إستشار الأطباء، فأشاروا عليه أن يذهب إلى فرنسا للاستشفاء.

- فرنسا... ؟ الاستشفاء...؟ وأين لي ما به استشفي...؟

أجاب دون تردد:

- ملكت قطعة أرض. هذا واجبها في مساعدتي على الاستشفاء.

باع الأرض وإرتحل ليعرض نفسه على الأطباء.

قيل له في ذلك فأجاب:

- إذا سلمت عيناي أستطيع أن أناضل لأستعيد أرضي ويستعيد كل المواطنين أرضهم... إذا ذهبت عيناي فما نفعي بأرض لا رؤية فيها ولا إبصار...

ما أزال أذكر إبتسامته وهو يسر إليّ بهذه المقولة. كانت إبتسامة عذبة تؤكد أبعاد حكمته.

-6-

كانت "الأرض" هاجس الحاج عمر الوطني. كافح برأيه ودراساته وقلمه، نظَّر وحاضر وكتب كتبا ومقالات في كل الصحف والمجلات التي أصدرها الحزب بالفرنسية والعربية: عمل الشعب، مغرب، العمل الشعبي، والأطلس. كتب فيها جميعا مقالاته وأبحاثه في مقاومة استعمار الأرض وفضح أساليب الإدارة والمعمرين لاستلابها والسيطرة عليها.

ولعله كان يرابط بين الأرض والظهير البربري.

كلاهما إنتزاع للمواطن من هويته الإسلامية وهويته الترابية. لذلك نجد الحاج عمر يوقع مقالاته بتوقيع مستعار "مسلم بربري" و"فلاح" .قلّما كان يوقعها

باسمه الصريح. كان الحاج عمر متواضعا، لا يهمه أن يقف في الصف الأول ليدوي إسمه بين الأسماء التي تدوي. ولكن يهمه أن يكون في الصف الأول بين العاملين ليدوي عمله بين الأعمال المدوية.

"الفلاح" الضمير الذي كان يسكن قلبه الكبير. أعتقد أنه كان يتحرك فكريا وطنيا، وهو يستنشق رائحة الفلاح، بجوعه، وفقره، وآلامه، وآماله، بجلبابه المغموس في الطين، بعينيه المعلقتين بالسماء، بابتسامة الرضا حينما تمطر، بنظراته الضارعة إلى الله حينما تجف. الأرض كانت هاجسه، يبتسم لها حينما تتشقق فيخرج نباتها بإذن ربه، يسترضيها حينما تتشقق فتخرج دودها وحشراتها وقد غاض الماء وجف الضرع وأمحلت التربة.

يعيش فرحته الغامرة وقد أعلن عن الاستقلال.

ولكنه يحس بالاستقلال إحساسين: إحساس حرية الإنسان، وإحساس حرية الأرض.

النضال الذي وهب الحاج عمر له نفسه آن له أن يثمر. الاستقلال يعني عودة الأرض التي كافح في سبيلها وهي تغتصب. كان الحاج عمر طموحا، ولكنه كان واقعيا.

كان يقول لنا دائما:

ـ أشتري الإستقلال بعمري. إذا تحقق، وأنا على فراش الموت، سأكون سعيدا، سأموت قرير العين، مرتاح الضمير.

وتحقق الاستقلال قبل أن يموت بربع قرن فكان رضي النفس يحس بنفس الأحاسيس التي أحس بها زميله الفقيه غازي حينما أعلن:

ـ الآن حق لي أن أنسحب. مهمتي إنتهت. تحقق ما كنت أعتبره بعض رسالة حياتي. أليس كافيا أن تكون رسالة مواطن أن يتحقق إستقلال بلاده في حياته؟

ولكن الحاج عمر كان أكثرها طموحا:

- الاستقلال الذي كافحنا من أجل تحقيقه يدعونا إلى أن نكافح لبنائه.

ويوم إقترح عليه أن يكون وزيرا، إتجه فكره وفكر الحزب جميعه إلى الفلاحة... إلى الضمير الذي كان ينبض في قلبه[3].

لا أذكر أني كنت معه حينما عرض عليه أن يكون فلاحا وزيرا، ولكني متأكد من أنه كان سعيدا، سعادته بتحقيق الاستقلال. فسيكون في حقل الفلاحة كما هو في حقل الوطنية عموما خادما للفلاح والأرض التي يجب أن تعود للفلاح.

لم يكن من مسؤولياته أن يصدر أمرا للمعمرين أن يعودوا إلى أوطانهم. ويتركوا الأرض للفلاحين كما اغتصبوها من قبل. كان يومن بأن الوقت آت لا ريب فيه. فالمعمرون ما تزال تحميهم ثكنات الجيش وجيش الموظفين. وما يزال الاستقلال طريا يمكن أن تعصف به عاصفة من هذه العواصف التي تتصدى للغصن الأملود الناعم. وعاصفة أحداث إقليم مكناس كادت تعصف بالاستقلال عندما تضامن الشعب مع الزعماء الجزائريين الذين اعتقلوا على إثر قرصنة الطائرة المغربية (22 أكتوبر 1956) التي كانت تقلهم من الرباط إلى تونس. الوقت لم يحن بعد لنداء يعلن:

- عودوا إلى دياركم أيها المعمرون...

ولكن الحاج عمر تعلم أن يناضل في واجهتين. إذا لم يتمكن في وزارته، وهي مناسبة لم تكن تتكرر. والنذر كانت واضحة، فقد استطاع أن يقوم بثورة في عالم الفلاحة.

كان الحاج عمر ثائرا ولكنه كان هادئا في ثورته. ويوم إقترح عملية الحرث الجماعي عرف بحسه الوطني وبعلمه عن الفلاحين وملاكي الأرض على العموم أن غيرتهم على الأرض لا تقل عن غيرتهم الأخرى... ولكنه تحدى كل التقاليد، وتحدى

3 - تولى وزارة الفلاحة في الحكومة الثانية لمبارك البكاي (أكتوبر 1956 - مايو 1958) ثم عهدت إليه وزارة التربية الوطنية في حكومة أحمد بلافريج (مايو- دجنبر 1958).

العقلية التي لا تقبل الشراكة في الأرض كما لا تقبل الشراكة في أشياء أخرى... وتحدى كل النتائج التي يمكن أن تكون مفاجئة أو تؤدي إلى نكسة. تحدى كل ذلك ليعلن عن مبدأ إشتراكي مهم هو عملية الحرث المشتركة تلغى فيها حدود الأرض الزراعية، وتقوم الدولة فيها بالحرث الجماعي، ويحصل الفلاحون على الإنتاج كل حسب أرضه.

يوم يكتب تاريخ هذه الثورة الفلاحية التي قام بها الحاج عمر بن عبد الجليل سيعرف المواطنون أي ثورة كانت، وسيقدرون الرجل الذي حقق بهذه الثورة مبدأ مهما كان يمكن أن يستثمره المغرب لو حافظ على الخطة التي رسمها الفلاح الوزير.

إعتمد الحاج عمر، بدون شك، على الحاسة الوطنية للمواطنين وفي مقدمتهم الفلاحون. إعتمد على الحماس الوطني الذي كان الحزب ينشره بين المواطنين. إعتمد على الثقة التي كان الحزب يتمتع لدى من الملك محمد الخامس إعتمد على مركز الملك عند الفلاحين حينما يترأس بنفسه عملية الحرث، اعتمد على كل ذلك، وقبل ذلك إعتمد على الله. فقد كان الحاج عمر مؤمنا صادقا لا يقوم بعمل إلا إستأذن ربه قبل أن يقدم عليه.

وكان الله مع الحاج عمر. فقد نجحت عملية الحرث كما نجحت كثير من العمليات التي قام بها. وكتبت في صفحته الوطنية. وكم من عمليات كتبت في صفحاته الخالدة...

-7-

لم تكن الإقامة العامة تعجب لشيء قدر عجبها من الصمود الذي يتحلى به رجال الحركة الوطنية في المغرب. أغلبهم كانوا من البورجوازية الصغيرة في المدن: طلبة ومتعلمين من أبناء عائلات علمية أو تجارية أو صناعية أو من أبناء الموظفين الصغار، إذا صح أن تسمى هذه الشريحة الاجتماعية بورجوازية صغيرة بمفهوم المصطلح الغربي.

لم تتعارض البورجوازية الصغيرة في حياتها إلى مثل الاضطهاد الذي مارسته عليها إدارة الحماية وأعوانها. لم يعرف أبناؤها، من قبل، الجلد والضرب والسجن والنفي والإبعاد والمحاكمات المدنية والعسكرية. لم يعرف شاب من شباب هذه العائلات "دار بوعلي" و"ابن البغدادي" و"ابن عتروس" و"الماعون"[4] والسوط المفتول من جلد الماعز. لم يعرف أحد منهم من قبل شرطيا "يشنقه" بجلبابه وهو يقوده في شوارع المدينة أمام بصر السكان وسمعهم. لم يسمع أحد منهم هُجْر القول يصدر عن "العس" والشرطي والجاسوس... لم يعرفوا ذلك حتى كان الوطنيون فتقبلوه. لم تنكر عائلاتهم، ولا نزل بقدرهم بين أبناء الشعب الذين رفعوا من قدر ضحايا الاستعمار فأصبحوا "قديسين" يرفع من مكانهم العلم والوطنية والإضطهاد...

هذه الظاهرة لم تفهمها الإقامة العامة وأعوانها. كان الظن بسكان المدن أنهم يخافون خاصة حينما يعزلون عن وسائل النضال من القوة والسلطة والمخزن. يخافون أكثر إذا كان تسند هذا "المخزن" سلطة الحماية التي أصبحت "المخزن" الفعلي منذ اليوم الأسود (30 مارس 1912).

الظاهرة التي كانت غريبة هي أن أبناء البورجوازيين هؤلاء لم يعودوا يخافون من "المخزن" فيتقدمون متظاهرين أو مطالبين وهم يعرفون المصير، ثم يلاقون المصير جلدا بالسوط أو سجنا في الزنازن أو إبعاد إلى الصحراء القاحلة والجبال المعزولة والبادية المقفرة أو نفيا إلى مجاهل إفريقيا أو الجزر المعزولة في البحار أو طردا من العمل أو منعا من شهادة مدرسية أو توقيفا عن مواصلة الدراسة، ثم لا يخافون ولا يستعتبون، بل يواصلون العمل في صرامة أكثر، وفي جرأة أشد، كأنما كان السجن ثمنا لعزيمتهم وإلهابا لروحهم المعنوية.

هذه الظاهرة كان لها إمتداد في الشعب. فقد كانت المدن تنفي عنها المنحرفين الذين تستضيفهم السجون، أو دار الباشا، أو "الماعون" أو "ابن عتروس"،

4- محمد بن البغدادي كان باشا على مدينة فاس منذ توقيع معاهدة الحماية (مارس 1912) إلى وفاته (نونبر 1932). من دار بوعلي، مقر المحكمة كان الباشا يحكم في كل شيء ويعاقب بالجلد الوطنيين والمجرمين.

فلا يجدون مكانهم في المجتمع، فينعزلون إلى أن تنساهم المجتمعات، أو ينتقلون إلى حي بعيد عن حيهم لا يعرف ساكنوه من هم.

ولكن الشعب كان يعتز بأبنائه الذين تستضيفهم دور العذاب تلك فكانوا يلقون من الاحترام والتقدير والحب، وهذا ما كان يزيد في حماسهم الوطني ويشعرهم بأنهم يعبرون عن ضمير الشعب حينما يقاومون الاستعمار فيعاقبون، وينوبون عن الشعب في تقديم التضحية من أجل ذلك.

وهذا ما كان يدهش الإدارة الاستعمارية ويجعلها تزداد شكا في جدوى العقاب الذي تفرضه على المواطنين من أبناء الشعب.

لم يكن الحاج عمر يختلف عن أبناء الشعب وهو إبن عائلة بورجوازية بعض أعضائها موظفون. فقد قضى في السجن والإبعاد سنوات ذوات العدد، في كل مرة كان يخرج من السجن كان يلحظ عليه ظاهرتين إثنتين:

- أثر السجن أو المنفى على صحته ومظهره الجسمي. كان يدخل السجن قوي البنية ممتلئا صحة وعافية، سحنة وجهه ناطقة بالحيوية والبهاء. وكان يخرج منه عليلا لونه منطفئ تقدم به العمر سنوات ولو قضى بالسجن شهورا.

لم هذا التأثر؟

لم أتمكن من الجواب حتى عرفت السجن وزنزانة السجن التي لا تقدم الضوء والهواء إلا بمقدار... لا تسمح لجسم أن يعيش في حرية إمتداده، فكأنما كان يعيش في قفص، لا يحجب عنه أيضا النور والهواء. ولم أجب حتى عرفت السجن وزنزانته، وأدركت أي اضطهاد للفكر ولحرية التصرف، ولحرية العمل يعانيه السجين.

وقد كان الحاج عمر حركة لا يعرف الاستقرار والهدوء والبطالة.

إذا أدخل زنزانة السجن، طحنت الدوامة صحته، الدوامة بين ما يفكر فيه وما لا يستطيع أن يقوم به... دوامة أسرار الحزب التي يعرف عنها أكثر مما يعرف الكثيرون، وقد تعرض لمحنة التحقيق العسكري. وكانت الأسرار محط أسئلة المحقق

العسكري ولكن إيمانه كان أقوى من المحقق العسكري، والمصير الذي كان يحمله بين يديه للمعتقلين. إنه القيد، إذا لم يوضع في اليدين والقدمين، فإنه يوضع في الحرية، حرية التصرف والممارسة والحركة والفعل. وهذا ما كان يؤثر في صحة الحاج عمر.

كان الحاج عمر يخرج من السجن أقوى مما دخله. كان، كسائر المناضلين المحترفين للنضال المتمرسين عليه، يعتبر السجن إنتصارا. يؤمن بأن من أكبر أخطاء الحكم الاستعماري القاتلة محاولة القضاء على الخصم عن طريق الاضطهاد والسجن. ولعله، وهو يقوم بالعد العكسي للأعوام أو الشهور أو الأيام الباقية في السجن، يضع في نفس اللحظة برنامج العمل المقبل.

ليس غريبا، إذن، أن يخرج الحاج عمر من السجن إلى إجتماع، أو من المنفى إلى رحلة إلى فرنسا للتعريف بالقضية والدفاع عن الاستقلال، وبمحاولة الكشف عن سيئات الإقامة عند المسؤولين الفرنسيين في باريس.

وكما كان الحاج عمر عقلا مفكرا من العقول المتحركة في الحركة الوطنية، كان كذلك المحرك المادي لجهاز حزب الاستقلال. كانت حيويته ونشاطه واستقامته مبعث الاحترام عند جميع المناضلين الذين كانوا يمدون الحزب بالمادة الحيوية للعمل الوطني. وقد اختاره هذا العبء الكبير، وعرف من اختار. لم يكن يرد له طلب، بل كان الذين يطلب إليهم يتقدمون عن طواعية ورضى ليساعدوا الحاج عمر في المهمة التي نصب نفسه لها. كانت الثقة المطلقة تحف به، حتى إذا حدث أحد ممولي الحزب وجد فيه كامل استعداد، مهما كانت الظروف المادية. وأذكر أنه أشار لأحد المناضلين بواجبه في مناسبة وطنية ما، فأشار إلى الصندوق الحديدي وهو يمكن الحاج عمر من مفتاحه:

- إترك لي مصروف يومي وللحزب الباقي.

طبعا لم يتناول منه الحاج عمر مفتاح الصندوق، ولكنه منحه قبلة على جبينه ووجهه ليبتسم وقلبه يخفق بالود تقديرا منه لأريحية هذا المناضل.

كان الحاج عمر يحمل همّ التحملات المادية للحزب. ولم يكن يضيق بهذا العمل، ولكنه كان يبتسم راضيا، وهو يتحدث للجنة المالية بأنه عاد من مسعاه أو سيذهب ليسعى من أجل الحزب.

الحركة الوطنية مدينة له بأنها لم تكن عاجزة عن القيام بسمؤولياتها وهي تؤسس فروعها وتؤدي أجور مقراتها، وتصدر صفحها، وتبعث بعثاتها إلى أسقاع العالم ليناضلوا من أجل الاستقلال، وتواسي عائلات المعتقلين والمعذبين وتوزع نشرتها السرية الداخلية، وتستضيف الصحفيين الأجانب، وتسير لجان التزيين التي أصبحت النواة الأولى للمقاومة، وتمول حركة المقاومة في بداية عملها، وتعبئ الشعب بكل وسائل التعبئة في المهرجانات الوطنية - وفي مقدمتها عيد العرش- وتنظم مؤتمراتها وتخوض معركتها الانتخابية... لم يكن المناضلون يبخلون، ولم يكن الحاج عمر يتخلف عن المهمة التي قبل القيام بها كجزء من عمله الوطني، رغم أنها مهمة شاقة وفيها كثير من الإحراج...

-8-

رأيته مفجوعا ساعة إستمع إلى نعي محمد الخامس. كان له الأب والصديق ورفيق السر والكفاح. كان يعزه ويحبه ويعرف نضاله ويقدره. ويوم اختفى محمد الخامس شعر الحاج عمر بالرزء أكثر مما شعر به الكثيرون، لأن السر الذي كان يجمع بين محمد الخامس وحزب الاستقلال كان يضع الملك في خندق واحد مع المكافحين من أبناء شعبه. وكان الحاج عمر في مقدمة من كتب لهم أن يكونوا في نفس الخندق.

ويوم سمع النعي إستعرض كل هذا الماضي المشترك في الكفاح ونعى لنا بكلمات آسية الرجل الذي كان يضحي بالكثير في سبيل بلاده وفي مقدمة ما كان يضحي به عرشه.

ولم أر الحاج عمر مفجوعا مثلما رأيته وهو يتلقى نبأ وفاة رفيقه وحبيبه

علال الفاسي. كانت دموعه تسبق كلماته. ومع ذلك كان قلبه يطفح بالإيمان. كان قلبه يخشع وعينه تدمع ولا يقول إلا حقا.

أذكر أن الحزن كاد يعصف بي وقد وارينا علال التراب، وتفرق المشيعون يغادرون المقبرة يجترون حزنهم وأساهم. أذكر أني صحت في وجه الحاج عمر، ولم يبق بين المشيعين غير قليل حول القبر الذي إحتضن نعش علال:

ـ آ هكذا نترك علال في وحشته وننصرف لتستمر الحياة؟

أجابني بقلب صابر متجلد:

ـ الدوام لله، سنة الحياة يجب أن تستمر...

كان قلبه أقوى من دموعه. وكانت كلماته أكثر شجاعة من قلبه.

كان مفجوعا. ولكنه كان صامدا. مصدر صموده الإيمان بالله. ومن الله كان يستمد الصمود في كل الملمات.

كان الحاج عمر يتسم بصفات الرجل الصالح، الرجل الطيب. لا أذكر أني رأيته غاضبا أو ثائرا في وجه رفاقه. كان يدافع عن رأيه بحماس المقتنع. يبدو على وجهه البشوش الرضا إذا ما استطاع أن يقنع ويبدو على وجهه الرضا إذا ما استطاع الآخرون أن يقنعوه. وكان عنصر التوفيق في الحزب بين الآراء والأشخاص والتيارات. يقول الكلمة تظنها أحيانا غاضبة أو قاسية، لكن شفتيه تتحركان بها مبسمتين، فتعطيهما الابتسامة مفهومها الأخوي، ويكون لهذا المفهوم معناه عند مخاطبه أو مخاطبيه. ولذلك لا أعرف أن أحدا أخذ في نفسه من مناقشة أو حديث مع الحاج عمر.

-9-

عمر بن عبد الجليل قام بمجهودات جبارة لتكوين مالية الحزب حتى جعلته أقوى هيئة سياسية تخدم البلاد داخل المغرب وخارجه.

بإمكانيات الحزب المادية، تمكن من فتح مكتب له بنيويورك مقر الأمم المتحدة حيث تمر بها قضايا الدول غير المستقلة لتدرأ عن الحزب مخططات الاستعمار بمحاولة إقناع دوائر الأمم المتحدة بأن المغرب يعيش في ظل الاستعمار حياة الشظف والاستعباد.

ضاق الاستعمار الفرنسي بانتشار قضية المغرب في الخارج وخصوصا في باريس ونيويورك، وعرف أن المال وراء هذا العمل الخارجي، ولم يكن هذا المال إلا من المتطوعين الاستقلاليين الذين لم يبخلوا بأي طلب بل كانوا يتبارون للقيام بواجبهم الوطني في تزويد الحزب أموال التي يحتاجها. وكان واسطتهم إلى ذلك هو الحاج عمر.

ويذكر أنه حينما إعتقل الحاج عمر عقب أحداث دجنبر 1952، عثر المفتشون، صدفة، على وثائق تثبت نشاط الحزب المالي. إنتصب القاضي جيليزو محاولا التعرف على منبع هذه الأموال. ووصل التحقيق إلى حد الضرب لاستخراج الاعترافات منه. وكان أن نسب تهمة جمع الأموال إلى وطني قضي في ظروف أليمة قبل ذلك بأشهر ليدرأ العذاب عن المواطنين الذين كانوا يساهمون عن طواعية في تزويد الحزب بما يحتاجه من أموال.

وكان أن عيّن الحسن الثاني عمر بن عبد الجليل رئيسا للبنك الشعبي. وكانت هذه المؤسسة عقب الاستقلال تحمل إسما دون حقيقة. فلا هي تخدم قضايا الشعب ولا الشعب يعتمد عليها لتطوير إقتصاده. لذلك صارت في عداد المؤسسات الآهلة للإفلاس.

بدأ الحاج عمر عمله بفتح أبواب البنك للمواطنين وللمؤسسات الصغرى وللحرفيين للاستفادة من تمويلاته لتطوير نشاطهم الإقتصادي وتلافى التعامل مع المؤسسات الكبرى. ومن ثمة، جعل البنك يستفيد من ثقة الشعب للتعامل معه، وأصبحت المؤسسة بفضل إدارة الحاج عمر وثقته في أهمية المؤسسات الصغرى في تطوير إقتصاد للبلاد، من أكبر المؤسسات في البلاد.

ونقل الحاج عمر بن عبد الجليل هذا الاهتمام إلى المواطنين المغاربة المقيمين خارج الوطن، وكانت المؤسسة الواسطة في جلب إدخار هذه الشريحة من المواطنين. فبفضل ثقتهم في البنك التي عبّأها الحاج عمر، أصبحت تحويلات هذه الشريحة تتنامى سنة بعد أخرى إلى أن وصلت اليوم إلى أن تصبح أهم مصدرا للعملة الصعبة للبلاد.

وأذكر أن جريدة "العلم" أفلست نظرا لما فُرض عليها من خسائر نتيجة المصادرات العديدة التي كانت تتعرض إليها ونتيجة قطع مصادر الإشهار من مؤسسات الدولة ومن القطاع الحر. إلتجأتُ إليه أستشيره في الموضوع بصفته قيّما على مالية الحزب. كان الحاج عمر في الميدان. تحمل بيع العمارة التي كانت تملكها "العلم" وسددت بمواردها جميع الديون والمصاريف التي تراكمت. ولكنه أكد لي أنه سيسترجع العمارة بمجرد خروج "العلم" من أزمتها المالية. وقد برّ بوعده. فما أن تحسنت الوضعية المالية للجريدة حتى عاود الاتصال بالملاك الجدد. إسترجع العمارة بنفس القيمة التي فوّتها لهم بها سنوات قبل ذلك. وما كان لهؤلاء الملاك إلا أن يستجيبوا لرغبة الحاج عمر كما أراد.

-10-

من الدراسات المهمة التي يمكن أن يقوم بها باحث ما دراسة عن لغة الخطاب وأسلوبه عند المناضلين الوطنيين فيما يكتبون أو يخطبون أو يتحدثون. ولغة الخطاب مهمة في الإقناع والتعامل. ولو قام هذا الباحث بدراسة للغة الخطاب عند الحاج عمر، وهو يخطب في المؤتمر أو في جماهير الحزب، وهو يتحدث إلى خلية من خلايا الطلاب والأساتذة، وهو يتحدث إلى خلية من خلايا التجار ورجال الأعمال، وهو يناقش في لجنة رئيسية في الحزب، وهو يكتب في صحيفة أو مجلة، وهو يتحدث إلى أجانب عن القضية الوطنية، وهو رئيس مؤسسة بنكية يسعى بأن يكون في خدمة البسطاء من أبناء شعبه... لكل مقام مقال كما تقول البلاغة. كان الحاج عمر يختار المقال الصالح في المقام الصالح للمخاطب الصالح. كان قادرا على التأثير، وأكثر من ذلك أنه كان قادرا على أن يأسر محدثه.

ظلت هذه القدرة تلازمه حتى بعد أن هاجمه المرض وأقعده عن النشاط.

كنا نزوره في منزله فينسى المرض، ويتحدث عن هموم الوطن، ويسأل عن الأوضاع ويدلي بالرأي ويزرع الأمل. ننسى أنه مريض فنفيض في الحديث في كل موضوع إلا موضوع مرضه، فقد كان آخر ما يشغله من حديث لرفاقه وأصدقائه.

في أيامه الأخيرة زرته مع بعض رفاق الحزب. إستقبلنا بابتسامته الجميلة التي لم يذهب المرض ببهائها. أحسسنا بأن الموت بدأ يطل على الروح التي فاضت بالحياة وأشعت بالبهجة سبعين عاما وتزيد، كان يحس بالألم، ويشعر بقرب النهاية، ولكنه لم يكن يريد أن ينقل ذلك الإحساس وهذا الشعور إلى أصدقائه، بل كان ينقل إليهم الأمل في الحياة والعمل. ودعناه ونحن نرجو له الشفاء وودعنا بابتسامته المعهودة التي لم تذبلها صفرة الموت وبكلمته المعهودة التي لم يخذلها قرب النهاية:

- نحن على عهد الله...

خرجنا بعد لحظات وكلانا يشعر بأننا نودعه الوداع الأخير. تطلعت إلى الرفاق فرأيت حزنا عميقا قد خيّم على وجوههم. لم تفض عيونهم بالدموع، ولكن ملامحهم فاضت بالأسى. كانت ذاكرة كل واحد منهم تستعرض شريطا من الذكريات الطافحة بالعمل. لعلهم كانوا يذكرون أول لقاء عمل مع الحاج عمر. وكنت أذكر وكأن ذلك حدث بالأمس اللحظة التي رأيته فيها قبل قريب من خمسين عاما يسير بخطواته الثابتة في طريق الشماعين بفاس فتقدمت إليه في جرأة الفتيان أكب على يده بقبلة محييا.

وتتالت الذكريات في ذاكرة الرفاق وذاكرتي حتى قطعها أحدهم بكلمات مقطعة فاجعة:

- مسكين الحاج عمر... لقد إنتهى.

يوم بعد يومنا ذاك وهتف الهاتف بقلب مفجوع:

- عزاؤنا واحد في الحاج عمر...

كان الصوت صوت الأخ محمد (بوشعيب) اليزيدي، توأمه لحوالي ستين سنة.

***

إلتحق عمر بن عبد الجليل بالرفيق الأعلى يوم الإثنين 10 مايو 1982 عن عمر لا يتجاوز 74 سنة.

رحمه الله...

أبوبكر القادري...

مربي الأجيال

(1914-2012)

-1-

لعل القدر الذي كتب على المغرب أن يبدأ نهضته الحديثة ترصد حدثين إثنين. أولهما: نظام الحماية، ثانيهما: الظهير البربري.

وقد لا يدرك الكثيرون الصلة بين الظهير البربري والنهضة الحديثة في أول الثلاثينات من القرن العشرين ولكن الذي تتبع الأحداث في كل المدن المغربية وفي مقدمتها مدينة سلا سيدرك هذه الصلة.

الإشعار بخطورة الظهير البربري على وحدة المغرب والروح الإسلامية فيه جاءت من الإعلان الذي بدأ في مدينة سلا يوم[1] أخبر المجموعة الشبابية هناك عبداللطيف الصبيحي بأن الجريدة الرسمية نشرت ظهيرا يفرق بين المغاربة الذين ينتمون إلى أوروبة عربية وإخوانهم الذين ينتمون إلى أوروبة أمازيغية أو ما كان يسمى بربرية. وكانت هذه المعلومة العادية في مظهرها دافعا لنهضة بدأت هادئة ثم أصبحت عارمة، قوية فمجلجلة. ولن نكون مخطئين إذا قلنا إنها دمرت نظاما من أقوى الأنظمة في ذلك العصر هو نظام الحماية الذي يتضمن في عمقه الإستعمار على النمط الذي نجح في الجزائر.

ذلك أن الشباب المغاربة الذين إتجهوا في معظم المدن في تعلمهم إختاروا التعليم الأصيل في البداية ثم بدأ بعض هؤلاء يتجه نحو التعليم الرسمي الفرنسي. وكان الفتى أبو بكر من الذين فكروا في هذا الاتجاه. ولكن أخاه الذي كان يرعاه

1- الأسبوع الأول من شهر يونيو 1930.

مكنه من أن يواصل تعليمه العربي الإسلامي على يد أساتذة كبار (الشيخ محمد بن العربي العلوي والشيخ زين الدين بنعبود). وتكوّن لدى أبي بكر القادري تعليم دفع به إلى ولوج مدرسة أبناء الأعيان بسلا التي كان التعليم فيها بالفرنسية وقليل من العربية. وهناك تعرف على كثير من الأصدقاء الذين إستمرت صداقتهم حتى العمل الوطني ومن ضمنهم سعيد حجي.

وجاء الظهير البربري، الحدث الصادم، ليوحد الشباب حول مقاومة الاستعمار عموما. ومن ثمة، إنبعث بين الشبان المغاربة نوع من التنافس في الدراسة.

هكذا تكون جيل من الشباب المتفتح على الدراسة من جهة وعلى مقاومة الظهير البربري التي بدأت شعبية من جهة أخرى. وصاروا جميعهم في إتجاه واحد هو مقاومة الإستعمار وتنشيط الفكر الوطني بين الشباب بل حتى بين الكهول والشيوخ سكان المدينة، على غرار ما حدث في كثير من المدن المغربية.

-2-

أنفق أبو بكر القادري ثمانين حولا من بقية حياته في الجهاد في سبيل وطنه المغرب، والأمة العربية الإسلامية. وما إنفك يناضل منذ شبابه الأول، في كل الجهات والاتجاهات، وبمختلف الوسائل النضالية التي عرفها المناضلون في البلاد الإسلامية والعربية. إتخذ أبوبكر الإسلام والعروبة والمغرب أقانيم جاهد تحت ظلها.

أبو بكر القادري الرجل الذي أصبح زعيما لمدينة سلا، يكوّن الأجيال في المدرسة وفي الخلية والمجموعة الوطنية التي جمعت مناضلين في مختلف الاتجاهات الوطنية والثقافية والاجتماعية. إسمه رمز لمناضل وطني عُرف بجهاده والسجون التي دخلها.

أبو بكر القادري كان، في عز النضال الوطني، يقوم بقيادة المظاهرة وتكوين الخلايا من المناضلين حينما يتطلب العمل الوطني المظاهرة والكفاح الشامل. وكان في مقدمة من يعتقل ويحكم عليه بالسجن والمعتقلات المختلفة.

عرفت أبا بكر القادري قبل الهجرة إلى مصر (أكتوبر 1937)، عندما كان يزور فاس من حين لآخر، ولكن معرفتي به توثقت في إجتماع اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال (1949). كانت اللجنة تضم كوكبة من المناضلين المجاهدين: أحمد بلافريج، عمر بن عبد الجليل، محمد اليزيدي، المهدي بن بركة، محمد غازي، وغيرهم من المجاهدين. وكان أبو بكر القادري واسطة العقد.

كنت وزميليّ عبد الرحيم بوعبيد، وقاسم الزهيري اللذان إختارتهما اللجنة التنفيذية لحضور إجتماعاتها، ولم نكن أعضاء الرسميين في اللجنة، نتلقى الدرس من النضال، نضال المجاهدين في وقت كان من أحرج الظروف التي عرفها المغرب وعرفتها اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال. كان الوقت هو وقت الجنرال جوان، وهي أصعب فترة مرت بالمغرب الحديث، وأحسن فترة جهادية مرت حيث رسم فيها الوطنيون الخطى العريضة للوصول إلى الهدف الذي رسموه ثلاث سنوات قبل ذلك.

كانت أفكاره تفتح الطريق للفكر النيّر والعمل الصالح. لم يكن يفكر سياسيا، ولكنه كان يفكر وطنيا. تفكيره الوطني ساهم بالوصول بالحزب إلى كثير من الطرق الواضحة. كان الحس الوطني فيه يتحرك ويتكلم ويعمل من أجل أن تصبح الأقوال قرارات حقيقية، ذلك أنه وطني في الصميم، وأن وطنيته تفتح الطريق للتفكير المستقيم.

عاشر أبو بكر القادري الكثير من المناضلين: علال الفاسي، أحمد بلافريج، محمد اليزيدي، محمد غازي... كثيرون منهم كانوا يلجأون إلى مقولته ليأخذوا القرار النهائي. ذلك أنه صادر عن حس وطني. وكان خصوم الحركة الوطنية يتجهون إلى أبي بكر القادري أول ما يتوجهون، حينما تشتد الأزمة بالعمل الاستعماري. كان أول الذين يعتقلون، ويعرفون أن أفكاره تحرك الحركة الوطنية في سلا. كان نضاله لا يقتصر على الحركة الوطنية من جانبها النضالي الذي نعرفه، ولكن أيضا من جانبها الثقافي والذي يعرفه الشباب الذين تخرجوا على يديه.

قامت الحركة الوطنية على أسس في مقدمتها تحقيق إستقلال المغرب. ووجدت في طريقها عقبات لم تستطع لها تذليلا ولكنها لم تكن لتتخلى عن التغلب عليها ولو بتضحيات جسام. كان التعليم في مقدمة ما تدعو إليه. وكان بعض النابغين في الحركة يتخذون المدرسة طريقا للعمل وللنجاح معا.

المدرسة هي المشروع الذي كان يصعب على إدارة الحماية أن تقاومه وتواجهه بالمثل. كان على الإدارة الفرنسية أن تواجه المدرسة بمقدار ما كان من السهل عليها أن تواجه نادي الحزب أو الجمعية الوطنية. ولذلك كانت المدرسة عند الوطنيين سبيل النجاح في تكوين عدد من المتعلمين وإعدادهم للمستقبل: العمل الوطني والتعليمي في نفس الوقت. وقد شعرت الإدارة الفرنسية منذ اللحظات الأولى بأهمية هذا الاتجاه، ولكنها لم تجد سبيلا للقضاء عليه. وكان نجاحها النسبي والمكتمل، في أحيان كثيرة، مشجعا على الاستمرار للعمل. ومن ثمة، فإن أغلب الذين تفوقوا في التعليم، على نسبة التطور، كانوا من أتباع ثم من قيادة الحركة الوطنية وأغلب الذين قاموا بهذه المهمة في مستواها الأعلى كانوا في القيادة الوطنية.

نأخذ أبا بكر القادري كمثال لنجاح المدرسة في سلا وهو نجاح تطور رغم العقبات التي كانت تضعها إدارة الحماية في وجهه. هكذا، تخرج من المدرسة عددا من الأطر أصبحوا في عهد الاستقلال وبعد تكوين الجامعة أساتذة وأطر عليا يزودون الإدارة المغربية والقطاع بكفاءات عالية.

ما أظن أن خريجا، من "مدرسة النهضة" أو أن خريجة من "مدرسة للاعائشة" إلا تخرج وطنيا ومثقفا في نفس الوقت. وما أظن أن أحدا من تلاميذه وقف في منتصف الطريق. لماذا؟ لأن أبا بكر القادري كان يساعد الطلبة إلى أن يجتازوا كل الصعاب للوصول إلى المراحل العليا.

-3-

كان أبو بكر القادري إلى جانب هذا لا يترك جانبا آخرا مهما في العمل الوطني، وهذا الجانب مرتبط بالبلاد العربية. كان يعتبر أن المغرب جزء من البلاد

العربية. فلسطين في مقدمة البلاد العربية التي إغتصبت منا جميعا، وكان من الأوائل الذين شعروا بخطورة هذا الاغتصاب، ولذلك كان يناضل قدر المستطاع قبل التقسيم الذي نادت به الأمم المتحدة (29 نونبر 1947) والاحتلال الفعلي الذي أدى إلى إعلان إستقلال الكيان الصهيوني (15 مايو 1948).

منذ الثلاثينات من القرن العشرين، ناضل أبو بكر القادري مع الذين يجمعون العون للفلسطينيين. كان متشبثا بأرض فلسطين. كانت فلسطين قرة عينيه، وحينما يتحدث عن فلسطين كان يتحدث عن وطنه المغتصب، ويناضل قدر المستطاع بقلمه، وبترؤسه إجتماعات المناضلين في سبيلها. يناضل في الخارج كلما ذهب إلى مؤتمر في بلاد إفريقيا أو في بلاد آسيا، وكثيرة هي المؤتمرات التي حضرها ومثل فيها المغرب والحزب. كان يناضل كذلك باتفاق مع القادة الفلسطينيين، يعرفون فضله ويعرفون جهوده في تكوين الحركة المؤيدة المجاهدة في سبيل فلسطين، ويجمع حوله شبابا من الذين يؤمنون بالقضية. ولذلك كان حسه العربي والإسلامي يدفع به إلى أن يناضل في سبيل القضية الفلسطينية كما يناضل في سبيل القضية المغربية. هذا عمل يعتبر مفخرة من مفاخر المناضلين المغاربة، لأننا في المغرب لن ننسى فلسطين بعد حربي (1948) و (1967)، وما حدث بعد ذلك من إنتهاكات للأرض والإنسان والطفل الفلسطيني. نعتبر ذلك إنتهاكا للإسلام والمسلمين.

كان الإسلام والمسلمون والعقيدة الإسلامية في صميم العمل النضالي اليومي لأبي بكر القادري. ولذلك لا تكاد تتحدث إليه خمس دقائق إلا وترد القضايا الإسلامية على لسانه، ولا يكاد يفكر في قضية سياسية أو ثقافية، إلا وترد الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية على لسانه. لهذا أنشأ مجلة "الإيمان" وإختار هذا العنوان للمجلة، لأنه يعتبر الإيمان هو أساس العمل الإسلامي. كافح وعانى في إصدار هذه المجلة في مطلع الستينات من القرن الماضي. كان أبو بكر القادري يعرف ويؤمن بأن الحركة الوطنية لا بد أن تستند إلى أساس حقيقي وثوابت رصينة. من هذه الثوابت: الإسلام والحضارة الإسلامية، والعقلية الإسلامية. نحن كشعب في المغرب ما كنا ولم نكن لولا الإسلام، كان دوما يقول. ولهذا يجب أن نحافظ على

الإسلام حتى لا يضيع منا السند والأساس الذي تعتمد عليه حريتنا ووطنيتنا. هذا منطق أبي بكر القادري.

-4-

الجنرال جوان كان يعتقد أنه خليفة المرشال ليوطي وأنه سيحقق مثل أو أحسن ما حققه شيخه. ليوطي عزل السلطان عبد الحفيظ بن الحسن، وهو سيعزل السلطان محمد بن يوسف. ليوطي حاول أن يقضي على الثورات المتأججة في الجبال وفي الاطلس وفي الريف. حاول ذلك وخذلته ثورة بن عبد الكريم الخطابي (أكتوبر 1925). جوان سيقضي، حسب تصوراته على الثورة المتأججة في الشعب المغربي قاطبة، ثورة الوعي بالاستقلال، ثورة النضال ضد الحماية. وكان الصرع قويا وعنيفا بين "حزب الاستقلال" والجنرال جوان. إنهزم جوان وبقي حزب الاستقلال حقيقة تركها لخلفه الجنرال كيوم. ترك له رسالتين: الأولى ينفي بها محمد بن يوسف والثانية يقضي بها على "حزب الاستقلال".

النتيجة كانت عكسية حينما عاد محمد بن يوسف من المنفى (نونبر 1955) وأعلن "نهاية الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية".

-5-

كنت، خلال هذه المرحلة، أدرس شخصيات الاستقلاليين والمناضلين. كانت شخصية أبي بكر القادري تلفت نظري: شخصية مؤثرة تقدم الفكرة بالتعليل والتوضيح والإقناع.

كان أبو بكر دائم الابتسامة، يتكلم قليلا وحينما يتكلم يأتي بالحجة ويأتي بالبرهان ويأتي بالرأي الصائب. كان الجميع ينصت إليه وكان الجميع يعترف له بالفضل وبالرأي. ولذلك كان يعتز بوجوده في وسط هذه المجموعة الصغيرة الكبيرة من الشباب. وتمر بي الذاكرة سريعا لنجتمع مرة أخرى في إطار المسؤولية في مجلس رئاسة حزب الاستقلال، عقب وفاة علال الفاسي، رئيس الحزب.

أذكر أن الرجل كان واسطة عقدنا. كان يفكر معنا وقبلنا. وكان يوجهنا، وكان دائما يسير هادفا ومستقيما ويوجه الحزب إلى الطريق المستقيم للخروج بالقضية الديمقراطية وهي قضية أخرى لا تقل عن قضية الاستقلال، من المآزق التي إعترضتها إلى الطريق السوي والطريق الموصل والواضح.

كان أبو بكر القادري لا يغضب إلا لثلاث: إذا مس الإسلام أو مست اللغة العربية أو مست فلسطين. حينما تذكر فلسطين نعرف أن الرجل كان مهووسا بقضية فلسطين، ولو لم تعرفه لا ظننته أنه من كبار زعماء فلسطين، لأنه يحب البلد لقدسيتها أولا، ولأن الاستعمار الصهيوني ظلم هذه البلاد ظلما لم تعرفه بلاد أخرى من ذي قبله ثانيا.

-6-

إلى جانب هذا وذاك، كان أبو بكر القادري رجل علم وثقافة. يقرأ الكتب ويتحدث عن الكتب التي كان يقرأ، ولهذا إتجه أولا إلى كتابة ما يفكر فيه. ومن ثمة، أنتج عددا كبيرا من الكتب ومن الدراسات والأبحاث والمقالات في الصحف والمجلات.

أبو بكر القادري دشن، عبر المذكرات التي كتبها عن الحركة الوطنية وعبر التراجيم التي نشرها عن عدد من الوطنيين الذين قاموا بمجهودات كبيرة، نمطا جديدا في تأريخ هذه الحقبة من تاريخ المغرب.

مذكرات الحركة الوطنية تحمل الكثير غير الماضي الذي تحمله، وغير التاريخ الذي تتحدث عنه. إنها تحمل نـبضات الرجل الذي أسهم فيها منذ بداية الوعي بها (1930) وكان يومئذ فتى في مقتبل الوعي بالحياة والأحداث والتاريخ المتحول. وحينما نقرأ لصانع التاريخ نستمع -أكثر مما نقرأ- لقلب ينبض وفكر يتحرك ومشاعر تنمو مع الحدث. ويتجاوب قلبنا وضميرنا مع التاريخ الذي يتحول مستقبلا، نشعر كأننا نسهم في الحدث، ويصدق علينا قول بعض النقاد: "القارئ مبدع آخر للنص". وقليل هم الكتاب الذين يستطيعون أن يجعلوا من قرائهم مبدعين آخرين. وأعتقد

أن كاتب "مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية" إستطاع ذلك. نحن، إذن، مدينون له حينما جعل منا، نحن قراءه، مبدعين آخرين لمثل هذه الكتب.

نتوقف قليلا هنا لنتساءل عن المذكرات... ما هي؟ هل تعتبر تاريخا؟

من خلال قراءتنا لعديد من مذكرات رجال الحرب والسلم والحكم والعلم نستطيع أن نؤكد أن المذكرات يطبعها الطابع الشخصي. هي تعتمد على المشاهدة والاستبطان واستنطاق الذاكرة. هذا نموذج. نموذج آخر يعتمد إلى جانب ذلك على الرواية. والرواية ضرورة بالنسبة لكل من يتذكر قبل أن يكتب مذكراته، بل إنها تكمل المشاهدة. الذاكرة أحيانا تعجز عن تتبع المشاهدة. والمشاهدة في كثير من الأحيان تعجز عن تتبع الحدث. ولذلك كان المتذكر في حاجة، وهو يختزن في ذاكرته الأحداث، إلى أن يستعين بالرواية، قصد إلى ذلك أو لم يقصد.

هناك عنصر آخر يفرض نفسه وهو العودة إلى الوثائق. والعودة إلى الوثائق نوع من الرواية، ولكنها هذه المرة ليست شفوية، وإنما هي رواية مكتوبة. وفضل المكتوب على الشفوي فضل من يصرح على صدق الرواية ودقة التعبير.

أعتقد أن أبا بكر القادري أعطى للمذكرات بعدا وطنيا وجماعيا أكثر منه بعدا فرديا ومحليا. ولو أنه يؤكد في خاتمة الكتاب أنه ليس تاريخا للحركة الوطنية الحديثة "ككل"، و"لكنه تسجيل لبعض الأحداث الهامة التي عشتها أو شاركت فيها من قريب أو بعيد". وبذلك يخلص الكاتب لأدب المذكرات كلما تخلص من ضغط التاريخ، ويخلص للتاريخ كلما تخلص من ضغط المذكرات.

هذه الصورة يقدمها أبو بكر القادري واضحة صادقة ناصعة في مذكراته. وسيعرف الذين يقرأون هذه المذكرات ويستفيدون منها من أبناء الأجيال الجديدة فضل المؤلف وهو يروي لهم أحداث التاريخ وبعض ما أهمله التاريخ. وسيقفون وقفة إكبار واحترام للجهد الذي بذله المؤلف.

أبو بكر القادري كان لا يترك مجالا للعمل وخاصة الأعمال الفكرية والوطنية إلا كان حاضرا فيه، عضو في أكاديمية المملكة المغربية، ولا يترك إجتماعا من اجتماعات

هذه المؤسسة إلا وكان يحضره ويناقش في موضوعاته ويتحدث للأكاديميين عما يشعر به وعما يجول في خاطره من أفكار علمية وثقافية. كان عضوا في مؤسسة علال الفاسي. كان في آخر حياته يتحامل على نفسه ويتحمل المشاق ليحضر اجتماعات المؤسسة، لأنه يقدر الرجل الذي كان صديقه طيلة حياته، ويقدر المؤسسة التي تقوم بأعمال لمصلحة الثقافة والفكر المغربي. كان يحضر دائما وخاصة عمل لجنتها الثقافية. كان عضوا في كثير وكثير من الجمعيات الثقافية. كان لا يترك مجالا في العلم والثقافة ومجالا في العمل الوطني إلا حضره وحاضر فيه، وناقش وكتب.

كان أبناء الفقيد في مستوى والدهم عندما أسسوا "مؤسسة أبو بكر القادري للفكر والثقافة " لتكون سجلا لأعماله ومدرسة لقراءة مؤلفاته والاضطلاع على نشاطه الثقافي والوطني.

-7-

حينما كنت أجلس إلى أبي بكر القادري، كنت أبحث عن شيء ما في هذا الرجل، حينما يتحدث، يتحدث بصدق، وحينما يجادل يجادل بالابتسامة بالتي هي أحسن ولا يجادل أبدا في الفراغ، وإنما يجادل في الحقيقة وفي الواقع. كنت أبحث في شخصية أبي بكر القادري، شخصية فذّة ومتميزة عن شخصيات كثير من الآخرين الذين عرفتهم والذين مرت بهم الحياة أمامي. كانت شخصية الرجل متكونة ومتوازنة قادرة على العمل وقادرة على التفكير، وقادرة على المواصلة وقادرة على كسب الثقة. وليس سهلا أن يكون للمرء شخصية قادرة على كسب الثقة، ومن يذكر أنه عرف شخصا ليس صديقا لأبي بكر القادري. كل الذين عرفهم، وكل الذين عاشروه، وكل الذين عرفوه، وكل الذين عاشوا في عصره، كلهم كانوا أصدقاء لأبي بكر القادري.

***

توفي أبو بكر القادري يوم الجمعة 2 مارس 2012 وعمره يقارب 98 سنة.

رحمه الله...

عبد العزيز بن إدريس ...
المبشر الشهيد
(1959-1907)

-1-

قد تكون منطقة تحناوت منسية مهجورة من الكثيرين، وقد يكون إسمها لا يذكر حتى في النشاط الرسمي، ولكن عبد العزيز بن ادريس أعطاها بدمه إسما سجله التاريخ. فأصبحت تذكر كلما ذكر هذا الرجل في تاريخ النضال الوطني.

ما ظنك بمناضل كبير أبى إلا أن يقدم نفسه فداء لتحناوت، فتربص له خصوم الوطن وأعداء الحرية ليذبحوه ذبح الشاة لأنه صمم على أن يرفع علم الحرية في مكان صمموا فيه على أن يجربوا قوتهم لإجهاض الحرية.

والوطن يجتاز يومئذ نكسة الوحدة وتنمر خصوم الحرية، نظم "حزب الاستقلال" مهرجانا كبيرا[1]. وأبى عبد العزيز بن إدريس إلا أن يرحل من مراكش وقد كان يشرف على الحزب هناك إلى تحناوت ليرأس المهرجان. نظم أعداء الحرية الذين كانوا يتربصون بالحزب وقادته، أنفسهم لمحاصرة القرية. وكانت وسيلتهم مجموعة من العملاء والقتلة بعد أن عجزوا عن أن يمنعوا عن الحزب نشاطه بالحوار والخطاب الوطني. إستهدفت المجموعة المهاجمة الرجل الذي سعى على قدميه ليرأس إجتماعا يتحدث فيه بالكلمة ويخاطب بمنطق المناضل الوطني الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة من عمره يبشر بالفكر الوطني والخلق الإسلامي والعقيدة الاستقلالية فلم يجرؤ أحد إلا الفرنسيون على اقتحام عرينه الوطني. لم يكفهم أن يرجموه بالحجارة. وقد شج رأسه وكسرت أضلاعه، فانتضى مجرم منهم سكينه، في وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلا، وأنفذها في عنقه بعد أن لم يستطع الرجل عن

1- 24 أبريل 1959 في تحناوت، المتواجدة في إقليم الحوز 30 كلم جنوب مدينة مراكش.

نفسه دفاعا.

هكذا عرفت تحناوت، القرية الهادئة في حجر الأطلس الشامخ، جريمة لم يرتكبها بنوها. ولا رضيت أن يسيل على ترابها الدم الطاهر لرجل لم تكن ترقى إليه العين في صلاحه وطهارته ونضاله وتضحيته وعلمه.

-2-

عرفته وأنا بعد طفل أسعى إلى الصفوف الأولى في المدرسة الابتدائية فلم تقتحمه عيناي. كان يعلمنا الكلمة والرقم والنظرية. ولكن مع كل كلمة أو رقم يخرج من فمه تسعى الفكرة الوطنية لتتلقفها النفس الطرية، والعقل المتطلع والقلب الواعي، وكأنها وحي ينزل من سماء. كان يعتبر تلاميذه أبناءه فلا يكتفي بالمعلومات يثقف بها عقولهم، ولكنه يعقبها بالتوجيه الخلقي يثقف به نفوسهم. لا يكتفي بالفكرة الوطنية يشرحها مع درس الجغرافية أو التاريخ، وإنما يقدم المثل فيما يقوم به من نضال.

وغاب عنا، فلم نلجأ للسؤال، عرفنا أنه إعتقل فيمن إعتقل من قادة "كتلة العمل الوطني" وسمعت لأول مرة إسم "ميسور" .وسألت فقيل لي إنها قرية في الأطلس، وفي سجنها الموحش كان عبد العزيز بن إدريس يقضي المدة التي حكم عليه بها.

كنت أحسب أنه سيعود إن هو عاد رجلا كسرت همته الإهانة .السجن كان يحمل معه الإهانة وفقدان الكرامة. عاد بعد عدة أشهر رجلا أدرك الحقيقة. سألناه عن السجن، عن ميسور، عن الغربة والوحشة والعذاب... كانت ابتسامته العذبة أكبر تعبير عن رضى النفس. كان لسانه يعبر عن معنى الإنتصار.

ـ الإنتصار...؟

تساءلت معجبا ومتعجبا. دخلوا السجن مقهورين، وخرجوا يحدثون عن الانتصار...؟ لعلي لست وحدي الذي بهره الجواب فتساءل. هناك آخرون ممن كان يقترن السجن في تفكيرهم بالإهانة والمحنة والعذاب والسمعة السيئة...

وكان الجواب بكلماته العذبة المختصرة المقنعة:

- إنتصرنا، أولا، على أنفسنا. نحن أيضا كنا نعتبر السجن عالم المجرمين والمهانين وسيئي السمعة. السجن الآن وفي عصر المسخ هذا، أصبح يحمل معنى آخر هو "الحرية".

- الحرية...؟

لا تسألوا. ولكن إسمعوا:

- حينما يدخل جسمك السجن تخرج نفسك إلى عالم الحرية. إنها تتحرر من السجن الأبدي الذي سكنها وسكنته. أن تناضل، يعني أنك تحررت من الجبن والرضى بالهوان... أن تقول: "لا"، فتدخل السجن يعني أنك تجرأت فسلكت الطريق الممنوع، أن تدخل بكل كرامتك السجن يعني أنك أخرجت حرية بلادك وكرامتها من سجن كبير فرض عليها بقوة الحديد والنار.

- أفهمت كيف يتعانق السجن مع الحرية...؟

ما أحسب أن سقراط كان يحاور تلاميذه بمثل هذا الوضوح. وما أحسب أني كنت أفهم عن غيره كما أفهم عنه. كان عبد العزيز بن ادريس يتحدث مبتسما كما لو كان يحلل قطعة موسيقية. كان سعيدا بأن نفهم عنه. ولم يكن يشك في أننا نفهم. ذكاؤه الخارق كان يضفيه على كل تلاميذه فيحسب أنهم جميعا فهموا. ولم يكن حَسَن الظن بقدر ما كان واقعيَّ الظن. كنا نفهم عنه، لأنه كان ينطق بالكلمة الصادقة القوية. يختار كلماته المعبرة، القوية التعبير النافذة الدلالة. لا يوارى ولا يلغز ولا يتكتم.

تعلم عبد العزيز بن ادريس من النضال مهنة التبشير. كان يعلم ويدرس ويناقش ويرأس الإجتماعات. وفي الليل حينما تخلد "عيون" الإدارة إلى الراحة، كان يخرج من منزله ليطوف على الجماعات والخلايا ينظمها ويسيرها ويبشرها بتطورات العمل الوطني. كانت مدينة فاس جميعها تحت توجيهه، من تلاميذ مدارسها حتى عمال الدباغة والخرازة والصفارين والعطارين... كلهم كان يدينون لعبد العزيز بنصيبه من الوعي الوطني.

وفي جلبابه الصوفي وتواضعه الجم وحيويته النادرة كان عبد العزيز بن ادريس يشع على القرى القريبة والبعيدة من المدينة. لم يكن يختار القرية أو الجهة التي يقصد. المغرب كله بالنسبة لرسالته مكان صالح للدعوة. في الصباح الباكر يقصد إلى أي باب من أبواب فاس. وفي كل منها حافلات تنقل الغادين إلى القرى، القريبة والبعيدة. كان يركب إحداها لا يسألها عن اتجاهها. عند موقفها ينزل فيقصد المسجد أو السوق. وفي المسجد إمام ومصلون. وبعد "السلام عليكم" يحيي جاره.

ـ تقبل الله...

ثم يبدأ التعارف... ولا يروح مع نفس الحافلة في المساء إلا وقد تكونت خلية أو خليتان من الوطنيين، وتسري جماعات الحزب وخلاياه في المنطقة سريان.

في السجن كان عبد العزيز بن ادريس يجد الراحة الكبرى. سألته وأنا معه في عنبر واحد من سجن "عين قادوس" بفاس.

ـ أهي راحة جسم من نصب العمل الذي يأخذ من يومك قدْرَ ما يأخذ من ليلك...؟

أجاب:

ـ لا... ولكنها راحة الضمير. أقيس نجاحنا بعدوان الإدارة علينا. لو لم نكن قد بلغنا رسالتنا لما ضاقت الإدارة بنا فاعتقلتنا.

ويبتسم عبد العزيز بن إدريس إبتسامته العذبة وهو يضيف:

ـ حُمْقٌ هؤلاء المستعمرون... لا يدرون أنهم باعتقالنا يساهمون في نشر رسالتنا. الرسالات العظمى إنتشرت وإنتصرت بأصدقائها وخصومها على السواء. وإذا كان أنصارنا يتكاثرون فلأن المستعمرين يضيقون بالفكرة الإستقلالية ويناصبونها العداء. والمواطن العادي بتفكيره الفطري السليم يتعلق بما يعاديه هؤلاء الغرباء...

ويؤدي الرسالة مرة أخرى من جره وحريقه معا فما يكاد يدعو الفرنسيين داعي الانتقام متى يكون عبد العزيز في مقدمة من تمتحنهم. وحينما قدم الحزب

وثيقة المطالبة بالاستقلال كان الثلاثة (أحمد مكوار، الهاشمي الفيلالي، عبد العزيز بن إدريس) في مقدمة من اعتقلوا من قيادة الحزب في فاس، ويتعلق الثلاثة من أرجلهم فيجلدون. هذه المرة دون الباشا ابن البغدادي فقد إنتقل إلى رحمة الله الشرطة العسكرية الفرنسية تضم مئات البغداديين، وإن لم ينتسبوا إلى بغداد، حتى إذا خيل إليهم أن المعتقلين أشرفوا على الهلاك فكوا وثاقهم ليستريح الجلاد لا ليستريحوا هم. وانتهت محنة الثلاثة دون أن يفشوا بسر عن العلاقة بين "الحزب" و"رابطة الدفاع عن المغرب" في القاهرة. فقد ظنت إدارة الحماية أن مطلب الاستقلال الذي قدمته الرابطة في نفس الوقت كان بتنسيق بين الحزب والرابطة. وأن المنسق كان هو الثالوث الذي يسير الحركة في فاس. ويمتحن عبد العزيز بن إدريس مرة أخرى في ثباته، فينتصر على المحنة، وما درت الشرطة العسكرية أن عبد العزيز إذا قال: "لا"، لن يغيرها "بنعم". وكانت المحنة شهادة أخرى في سجل عبد العزيز الذي ذاق منها حتى النهاية. كما كانت شهادة في سجل زميليه: أحمد مكوار والهاشمي الفيلالي.

كان يضحك ملء فيه وهو يقول لي:

- علّمناكم صغارا ورددتهم لنا الجميل كبارا...

ويشير إلى أن ما تعلمت منه جماعة الرابطة - وكلهم كانوا من تلاميذه من العمل من أجل الاستقلال، عاد عليه بالمحنة، وهو يتهم بعلاقة سرية مع الجماعة في مصر، والوقت يومئذ وقت حرب، لا صلة بين البلدين إلا عن طريق سري. وهل يكون السر في عرف الإدارة الفرنسية زمن الحرب إلا عن طريق الاتصال بالعدو.

-3-

وضاقت الإدارة الفرنسية بعبد العزيز بن إدريس والجنرال كيوم يضع مخططه الأخير "للقضاء" على حزب الاستقلال فكان من مخططه أن يقص أجنحة الطير حتى يسهل وضعه في القفص. لذلك أخذ يعتقل القيادات الإقليمية قبل أن يجهز على القيادة المركزية. واعتقل عبد العزيز بن إدريس مرة أخرى لينفى

إلى معتقل في أعماق الصحراء، ما يدري أحد أين هو. ويجدها عبد العزيز فرصة لدراسة شيء جديد. كانت دراساته دائما جديدة. حتى كتب التاريخ وكان مغرما بتاريخ المغرب والأندلس كان يلجأ إلى الكتب النادرة ليدرسها مع طلبته. في المنفى شعر بأن عليه أن يدرس الأمازيغية. ولم يكن في سجنه المنفى غير أربعة جدران وحراس يتناوبون على حراسته وتقديم قوت يومه. ولا كتاب ولا أنيس ولا سجين غيره يبادله الكلمة والرأي. وكان سجانوه معلمين بمقدار ما كان معلمهم. نفس الأسلوب إستعمله معهم فكون الخلية الاستقلالية في القفر المعزول. ومن سجانيه الأمازيغيين تعلم الأمازيغية. ومن أفواههم إستنبط نحوها وصرفها، وبالقلم والورق الذي هربوه إليه كتب "أجرومية الأمازيغية".

وألف، بعد ذلك، كتابا في السيرة النبوية بالأمازيغية، بالحروف العربية تحت عنوان " إنغميس ن النبي غيفس تزاليب ن ربي" نشرته مؤسسة علال الفاسي (0102) بتحقيق الأستاذ المصطفى زمهنى، رئيس المجلس العلمي لخنيفرة.

-4-

عرفته سنوات الاستقلال القصيرة (1956 - 1959) التي عاشها كما عرفته سنوات الكفاح الطويلة مناضلا في صفوف الحزب، جَوَّابا في آفاق الوطن، مكافحا في صمت أينما إنتدبه الحزب من فاس إلى أكادير، إلى مراكش. لم تبطره حرية الاستقلال، ولا أصاب من نعمه المادية. وإنما ظل المثل الذي عرفناه كأستاذ كبير ومسير عادي لخلية من الدباغين والخرازين والدرازين.

***

عاش عبد العزيز بن إدريس مناضلا ومات مناضلا شهيدا يوم الجمعة 24 أبريل 1959 عن عمر لم يتجاوز 52 ربيعا.

رحمه الله...

محمد اليزيدي...
الحكيم الموجه
(1990-1902)

-1-

- بوشعيب ...

أغلب الظن أنه إختار هذه الكنية، أو إختيرت له في الجماعة الوطنية الأولى، لحنينه لعراقته البدوية، كما إختار لفترة طويلة من حياته الجلباب والعمامة بدلا من الطربوش والبذلة الأجنبية، لاعتزازه بأصالته ومغربيته. فأنت تستطيع أن تَخْبُر عود المناضلين الوطنيين جميعهم، فتجده من بينهم يرتبط بوطنه ومواطنيه بحميمية متعصبة، متفردة في تعصبها، وتستطيع أن تبحث بين الذين تعلموا في المدارس الفرنسية المزدوجة، فلا تكاد تجد شابا إستعصى على الاستلاب كليّا مثل ما تجد محمد اليزيدي. وتستطيع أن تبحث بين الوطنيين جميعهم، فتجده من بين الذين إستقام فكرهم، فلا يميل ميول السياسيين، عندما تقتضي السياسية أن يميلوا ليحققوا هدفا سياسيا.

ولكن بوشعيب يقف وقفة الوطني الثابت وكأنه، وقد إختار أن يكون وطنيا، يرفض أن يكون سياسيا. بوشعيب ضمير النضال الوطني الذي يقف بالوطنية دائما في الطريق المستقيم فلا يزيغ ولا ينحرف، ولا يربط موقفه بالظروف والملابسات، ولا يفكر بخلفية مثل ما يفكر بمستقبلية.

ومن أجل ذلك لم يكن بوشعيب يحمل كثيرا من الأفكار والنظريات، ولم يكن ليختار بين مجموعة منها حينما تدلهم السبل، فلم يكن رجل تنظير، ولكنه

كان رجل مبدأ، ولم يكن رجل كثير من التفكير، ولكنه كان رجل تأمل وعمل، إذا إنتهى بعد تفكير إلى رأي.

وبعكس ما يبدو عنه كان بوشعيب يجمع إلى صرامته في الحق والرأي والمبدأ تقويما واقعيا للنتائج. فلم يكن يغامر بالوطنية أو بالحزب أو بما حققت البلاد من مكاسب، ولكنه في نفس الوقت لم يكن ليحتفظ بالحزب أو برجال الحزب إذا كان لابد من التضحية.

كان رأيه ضميرا لا يقبل زملاؤه أن يتخطوه، لأنه ينبع من قلب الوطنية. يسكت كثيرا والآراء تتناثر حول المشكلة، حتى إذا نطق سكت الآخرون، فهموا من كلامه أن الرأي المستقيم يقتضي أن يقوم الحزب بعمل جديد وأساسي. يدلي بالكلمة ويعقب في بساطة:

ـ أعرف أن رد فعل الإقامة العامة سيكون القمع. ولكن الحزب وُجد لذلك. ونحن كاستقلاليين مهيأون لهذا القمع.

وتبحث اللجنة التنفيذية عن رأيه على ضوء الأحداث والتوقعات، وتتأكد أخيرا أن الفكر المستقيم تحدث بالرأي المستقيم.

-2-

عرفته الحركة الوطنية وهي تكتشف نفسها. حدثني مرة فقال:

ـ الحرب الريفية، هي التي أيقظت مشاعري، وجعلت مني الشخص الذي تعرف.

كانت الحرب الريفية التي قادها بن عبد الكريم الخطابي ملتقى الإرادات الشابة. ولذلك إلتقت معها الحركة الوطنية -السياسية في البداية ولم تلتق معها في النهاية. ولعل النهاية هي التي أقنعت الحركة الوطنية بأن تكون البديل الذي يحمل المشعل ولا يضعه أبدا، ولو تحقق الاستقلال.

والجامعة (الحرب الريفية) التي تخرَّج منها محمد اليزيدي هي التي تخرج منها: علال الفاسي، أحمد بلافريج، عمر بن عبد الجليل، عبد السلام بنونة، عبد الخالق الطريس، محمد غازي، عبد العزيز بن ادريس... دون أن يلتقي الطلبة على كراسي متقاربة، حتى إذا انتهت الحرب وجدوا أنفسهم في خلايا وطنية تبحث عن الطريق الآخر للوصول إلى الاستقلال. والخلايا المتفرقة في الشمال والوسط والغرب كان يجمع بينهما فكر واصل، هو الذي ورث أمجاد الحرب الريفية من حيث لم يشعر أولئك الذين إعتقدوا أن جيوشهم إنتصرت على المحاربين الريفيين.

ولعل الفكر السليم قد اطّرد، ولم يختلف، في كل الخلايا التي عرفتها مدن الرباط وفاس وتطوان وسلا، ومدن أخرى. ففكرة "الجمعية" و"الاجتماع" و"التجمع" سبقت الخلية السياسية. في القرويين نشأت بين الطلبة جمعيتان إحداهما سياسية والثانية ثقافية. نفس الشيء نجده في تطوان ونجده في الرباط، حيث إلتقى طلبة "جامعة الحرب الريفية" في عرصة جسوس بحي البرتقال، وكانت جمعية هؤلاء وأولئك هي بداية "كتلة العمل الوطني". وفي الرباط كما في فاس تجلى "الاجتماع" في ظاهرة أخرى هي تكوين فرقة مسرحية. والمسرح كان يستطيع أن يعبر برواية "قلب الأسد" مثلا عن نضال ضد المحتلين. يأخذ المسرح الدرس من الاستعمار الصليبي. ويكون بعض الممثلين نواة للحركة الوطنية. ويكون محمد اليزيدي في مقدمة من اندفع من المدرسة إلى المسرح، وهو يحمل "قلب الأسد" وفكر بن عبد الكريم الخطابي.

وإن تعجب فعجب من الرجل المنكمش على نفسه، لا يغشى المجتمعات الحافلة، ولا يطيق الضجيج المثير. يقف على المسرح ليحمل رسالة إلى الجمهور، ويجتمع في الخلية الصغيرة التي ستصبح مؤتمرا كبيرا بعد ذلك لسنوات، ولكن اليزيدي الذي لا يقبل العمل وسط الجمهور، ولا يمل في نفس الوقت من العمل وسط الجماعة الصغيرة التي تفكر في توثيق "مطالب الشعب المغربي" وفي المطالبة بالاستقلال وفي تحرير الصحيفة، وفي تحليل الموقف، وفي دراسة المشكلة، وفي التنفيذ كلما كان التنفيذ يتعلق به والجماعة الصغيرة التي يعمل معها.

-3-

ويعرف الكثيرون من قراء الصحف الوطنية في بداية عهدها قلم "بوشعيب" و"بوشعيب الفطواكي" و"أخو مدين" و"جهبنة"، ولكن القليلين منهم الذين يعرفون أن الكاتب الحقيقي هو محمد اليزيدي. كانت ثقافته السياسية والأدبية باللغتين: العربية والفرنسية، هي التي دفعت به إلى العمل الصحفي في كل صحيفة أصدرتها الكتلة في مفتتح عهدها.

كان الثلاثة هم قطب الرحا في جريدة "عمل الشعب" التي أصدرتها الكتلة باللغة الفرنسية: محمد بن الحسن الوزاني، عمر بن عبد الجليل ومحمد اليزيدي. كان ينتقل كل أسبوع إلى فاس ليكتب ويحرر وينسق بالتعاون مع زميله. وكان رئيس التحرير وأحد أقطاب الرحا مع زميليه بلافريج وابن عبد الجليل في "العمل الشعبي" التي أصدرتها الكتلة بعد أن إستقل محمد بلحسن الوزاني "بعمل الشعب" على اثر إنفصاله عن الكتلة. وكان رئيس التحرير والمحرر الرئيسي في "الأطلس" التي أصدرتها "الكتلة"، ثم "الحزب الوطني" في الشهور العشرة الأولى (1937). وكانت له مساهمات في "مغرب" و"العلم" في بداية حياتها. وأحسب أنه كتب أيضا في "الحياة" و"المغرب الجديد" وتحمل مسؤولية جريدة الاستقلال (1959). تميزت كتاباته بالتفكير والتحليل، وتميز أسلوبه اللاذع بخفة الروح والسخرية المرة ودقة التعبير وسلامة الأداء. وتقرأ ما يكتب بالفرنسية فلا تجده يختلف عما يكتب بالعربية فقد كان يتقنهما معا على حد سواء.

ومن هنا كانت الصحافة قرّة عين له، يرعى صحافة الحزب على نحو ما كان يفعل صديقه وزميله أحمد بلافريج، ويفد إلى "العلم" معه كل مساء ليوجها صحيفة الحزب، ويقترحا موضوعا رئيسيا ويعالجا سياسة سلكتها الإقامة العامة، ويصوغا موقف الحزب منها، ويوجها صحفيي "العلم" إلى الطريقة التي يعالج بها. وكثيرا ما عقد اجتماعات في منزله مع أسرة تحرير العلم لضبط مخطط أو توجيه.

لن أنسى ثلاثة مواقف:

أولاها: فرحته الكبرى يوم دارت آلة سحب كبرى كانت "العلم" قد إقتنتها مستعملة، وأنفق ميكانيكي ألماني وقتا طويلا في إصلاحها. وساعة سمع هديرها لأول مرة، ونحن في غرف التحرير، أشرق وجهه بالبشرى، وهرع سريعا ليتأكد من بداية مستقبل متطور "للعَلم".

ثانيها: يوم دعاني أحمد بلافريج للعودة معه إلى وزارة الخارجية بعد أن عاد إليها في بداية الستينات وكنت قد تحملت مسؤولية إدارة "العلم". جاء إليّ يحمل رسالة من الزعيم علال الفاسي، بعد أن علم بالخبر قبل علمي به. وكان لا يطلب شيئا يمكنه أن يرفض، وإنما يضع الموضوع بين يدي مخاطبه بصورة لا يملك صاحبه أن يرفض قال وهو يسر إليّ بالخبر:

- ستوضع أمام إختيار، السي علال وأنا لا نطلب إليك التخلي عن المنصب المهم لصالح "العلم". ولكننا نخبرك مقدما لتفكر جيدا قبل إتخاذ القرار.

وكان الاختيار صعبا، لا لأن المنصب يوازي "العَلم". ولكن لأني لم أكن لأرد كلمة أحمد بلافريج.

غير أن الموضوع كما عرضه عليّ اليزيدي جعلني أختار "العلم" دون تردد.

وقدر ذلك أحمد بلافريج فابتسم في وجهي، وأنا أعتذر، قائلا: "لك ما تريد".

وثالثها: أن جريدة "الاستقلال" التي أنشأها الحزب (1949)، كانت في إسم عبد الرحيم بوعبيد مديرها المسؤول. وقد توقفت لفترات منقطعة وحينما عادت إلى الصدور بعد سنة 1959، كان عبد الرحيم بوعبيد قد إنفصل عن الحزب، وكوّن مع زملائه "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية"، فصدرت "الاستقلال" في اسم مديرها محمد اليزيدي تلقى بوشعيب رسالة من صديقه بوعبيد يشير فيها إلى أن "الاستقلال" مسجلة في اسمه ومن حقه أن يحتفظ بها، ومن واجب حزب الاستقلال أن يتخلى عنها.

لم يكن وده قد إنقطع مع عبد الرحيم بوعبيد. ولذلك كتب له رسالة جوابية في غاية السمو، وضع فيها مخاطبه أمام ضميره وطلب إليه أن يستفتي ضميره، إذا أفتاه

بأن"الاستقلال" ملك له، فاليزيدي والحزب مستعدان ليتنازلا عنها لصاحبها. وإذا أفتاه ضميره بأنها ملك للحزب، فالحزب لا يمكن أن يتنازل عنها. ومع ذلك فهو مستعد أن يطلب من الحزب التنازل إذا أصرّ عبد الرحيم رغم فتوى ضميره على ذلك.

وأقفل الموضوع فبقيت "الاستقلال" لسان حزب الاستقلال.

كان سلوكه هذا نابعا عن خلقه الكريم. فما أعرف أنه اصطدم سياسيا مع الذين ربط بينه وبنيهم العمل السياسي، رغم التقلبات التي عرفتها السياسة، ورغم الذين اختلفوا مع الحزب منذ منتصف الثلاثينات. كانوا جميعهم أصدقاءه الحميمين، وابتعدوا عن الحزب وحدث ما يحدث دائما عندما يختلف السياسيون والوطنيون، ولكنهم ظلوا يُكنون له كل الحب وكل التقدير والاحترام. وحينما يُذكر إسمه أو إسم علال الفاسي كان جميعهم يخفضون رؤوسهم تقديرا للرجلين الذين تعلموا على أيديهما الكثير.

-4-

مرَّ اليزيدي من نفس الطريق الصعب التي مرّ منها كبار المناضلين. كان في بداية عهده بالعمل، وقد أنهى دراسته بالرباط، موظفا في إحدى الإدارات الرسمية. ولم تكد تشتد المعركة الوطنية، على إثر الظهير البربري، حتى كان في مقدمة الذين تجاهروا بالاحتجاج بقراءة اللطيف في المسجد الكبير بالرباط، اعتقل، ونفي وطرد من وظيفته، وهو ابن عائلة فقيرة، واعتبرت الإدارة الفرنسية عمله أكبر تمرد يقوم به موظف على إدارته، فكان حنقها عليها نقمة عرضته إلى المنفى والاعتقال عدة مرات ولسنوات طويلة. عرف السجن والنفي إلى قلعة السراغنة والنيف وغيرها من مناطق الصحراء، وسجن في مختلف سجون المغرب بالرباط والدارالبيضاء وغيرهما. وتعرض لمحاكمات مدنية وعسكرية كان آخرها إثر أزمة (1952-1953)، حينما اتهم مع زملائه في اللجنة التنفيذية بتهديد الأمن العام وتسببوا في مجزرة الدارالبيضاء بدعوة الحزب إلى الإضراب العام (8 ديسمبر 1952).

قليلا ما كان اليزيدي يتحدث عن السجن والمنفى، ولكنه لا ينسى صديقه الأخرس الذي عين حارسًا له في زنزانة بمنفاه السحيق في النيف بأيت عطا حيث قضى مع الأخرس زهاء سنتين. إختير الحارس أخرس إمعانا في تعذيب السجين حتى لا يتحدث إلى أحد ولا يتحدث إليه. ولكن ذكاء الحارس الأخرس جعلهما يصبحان صديقين يتحدثان في السياسة ومشاكل الحياة على قدر ما يدرك الأخرس مشاكل الحياة والسياسة. وقد تعلم بوشعيب لغة الأخرس، وأتقن الحديث بها. وبذلك إختصر جدار الصمت الذي فرضته الإدارة الاستعمارية عليه لعدة سنوات. بعد الإستقلال بسنوات، سيبحث الحارس الأخرس على منزل محمد اليزيدي في الرباط ليفاجئه بزيارة غير منتظرة.

-5-

خلال الأسابيع الثلاث التي تلت تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال إلى السلطان محمد بن يوسف وإلى الإقامة العامة وإلى سفارات دول إنجلترا والولايات المتحدة (11-28 يناير 1944)، قدمت إلى الرباط وفود عديدة من مختلف مناطق المغرب، القريبة والنائية وهي تشمل شبابا وكهولا من عمال وتجار وفلاحين ومثقفين تحمل التأييد الكامل والحاسم للعريضة الجريئة.

كانت الوفود تعرج على منطقة تواركة التي تأوي قصر السلطان في مظاهرات حماسية قبل أن تنتقل إلى مقر سكنى أحمد بلافريج ومحمد اليزيدي معلنة إبتهاجها وتأييدها لهذا العمل الذي إنتظره الشعب منذ إثنين وثلاثين سنة.

كانت قيادة حزب الإستقلال في إجتماعات متواصلة هادفة الإستفادة من هذا الإجماع حتى يكون للوثيقة مفعول في مستقبل الأيام.

إنزعجت السلطات الاستعمارية من هذا التدفق العارم لهذه الوفود وإقتضى نظرها نصب حواجز في الطرق المؤدية إلى الرباط والقيام بحملات تهديد ووعيد في مختلف المناطق. أمام عدم جدوى هذه الإجراءات في صد التدفقات البشرية الهائلة، لجأت المصالح الاستخبارية الفرنسية إلى بث إشاعات مفادها أن مسيري

هذه الحركة يعملون لفائدة ألمانيا النازية التي تقدم لهم دعما ماديا ومعنويا ضد مصالح "فرنسا الحرة" على الأخص وضد مصالح الحلفاء على العموم.[1]

ووعيا من الحزب بخطورة مثل هذه الادعاءات الواهية وما تمثله من خطر على حرية قيادييه وأطره، نشرت بيانات ضافية تـفند هذه المزاعم وتؤكد الثقة الكاملة التي تضعها وثيقة المطالبة بالاستقلال في الحلفاء لتثبيت الاستقلال المرتقب. وأكدت هذه البيانات المشاركة الفعالة للمغرب بأبنائه في الحروب العالمية بجانب الحلفاء.

وقد قام المغرب بأعمال دفاعية أثارت إعجاب الجميع. وأضافت البيانات أن المغرب المستقل ينوي الانضمام إلى الدول الموقعة على الميثاق الأطلسي، والمساهمة، بصورة فعالة، في مؤتمر الصلح الذي بات من المتوقع أن يعقد عقب نهاية الحرب العالمية الثانية.

وتضيف البيانات أن الوثيقة، وقد أصبحت الآن تعهدا وتكليفا، تؤكد أن مطلب الاستقلال يندرج في الخطة التي إعتمدها الحلفاء لتشجيع إستقلال الشعوب الإسلامية وشجبهم للاستغلال الذي تمارسه الدول القوية وفي طليعتها فرنسا على الشعوب المستضعفة.

وكان أن قرر المقيم غابرييل بيو أن يعتقل أحمد بلافريج الأمين العام ومساعده محمد اليزيدي معتقدا أن رأس الحيّة يجب أن تقطع بلا هوادة، حتى ترجع الأمور إلى حالتها العادية.

وما أن عمّ خبر الاعتقالات حتى خرجت مظاهرات أكثر ضراوة من سابقاتها مطالبة بالإفراج الفوري على القادة المعتقلين ومهددة بتصعيد المواجهة إن لم يستجب لرغباتهم على الفور.

1- خلال الفترة التي قضاها أحمد بلافريج خارج المغرب (1937-1943)، إتصل ببعض الألمان أثناء جولاته أو إتصلوا به، وتأكد أنهم على غير إستعداد لتفهم مطامح المغرب ولا التفكير في تصفية الاستعمار الفرنسي إلا على أساس أن ترثه ألمانيا وإيطاليا وفقا للمخطط الذي إتفقا عليه مقدما لتصفية تركات الحرب. وقد بعث أحمد بلافريج برسالة للحزب يؤكد فيها أن المغرب لا يمكن بتاتا أن يعول على ألمانيا إن هي إنتصرت في الحرب.

إستنفرت الإقامة العامة إمكاناتها، ولجأت إلى السلطان راجية منه تدخله الشخصي لتهدئة الأجواء. حاول السلطان إضفاء غضب الجماهير الذي إشتد أواره وكلف محمد المعمري، مدير التشريفات الملكية، بحث المتظاهرين على إيقاف المظاهرات والعودة إلى منازلهم بانتظام. وحدث أن أحاطت الجماهير الغاضبة بالمرسول الملكي وقامت بتهديد حياته بما لم يستطع مقاومته، واشتدت المطالبة بالإفراج الفوري عن الزعيمين المعتقلين.

وكانت النتيجة أن أفرج عن محمد اليزيدي أمام قصر السلطان في محاولة يائسة لتهدئة الأجواء.

إنسحب اليزيدي عائدا إلى بيته وسط هتافات الجماهير مرورا بالشوارع الرئيسية لمدينة الرباط، وهي تجدد الطلب لإطلاق سراح أحمد بلافريج. وحدث أن فقدت القوات الاستعمارية أعصابها وشنت هجمات شرسة على المتظاهرين العزل. ونتج عن ذلك سقوط جرحى بالمآت وحصد أرواع عشرات من الشهداء.

هكذا، إنتهت مجزرة الرباط التي عُرفت تاريخيا بأحداث 29 يناير 1944 تلتها عمليات مماثلة في المدن المغربية الأخرى، وفي مقدمتها سلا وفاس ومراكش والقنيطرة.

ظل أحمد بلافريج ورفاق له أمثال أبو بكر القادري في معتقلات سرية لم يعرف أحد مصيرهم لمدة ستة أشهر قبل النطق بحكم قاس: السجن لمدة سنتين.

خلال هذه الفترة، تحمل محمد اليزيدي على عاتقه مسؤولية تسيير الحزب في ظل الإرهاب الذي صعد من وتيرته المقيم العام بيو. عرف اليزيدي كيف يضبط الأمور إلى أن إنفرجت الأزمة بعد أن قامت السلطات المركزية في باريس بتعيين إيريك لابون محل المقيم غابرييل بيو (مارس 1946).

-6-

تعود الذاكرة إلى أكتوبر من سنة 1936، وقد تقرر تنظيم إجتماع ربما كان مؤتمرا صغيرا نظم في إحدى الليالي وضّم ممثلين عن الحزب من مختلف أنحاء

المغرب. كان اليزيدي هو المنظم والمسير لهذا الإجتماع رغم أنه لم يكن على رأس القائمة المتحدثين من خطباء اللقاء. كنت، ورفيقى أحمد بلمليح، مع وفد مدينة فاس الذي إنتدبه فرع "الحزب الوطني" لحضور اللقاء.

تجمع بعض الوافدين في منزله في حي بوقرون بالمدينة القديمة بالرباط. وفي هذا الاجتماع الخاطف إرتسمت في مخيلتي صورة اليزيدي، وهي الصورة التي لم تغيرها الأيام ولا الأحداث حتى الساعات القليلة التي رأيته فيها قبل وداعه الأخير. الوجه الذي يمتزج فيه الجد والحزم بالبشاشة والابتسامة الخفيفة والود الصادق. صورة إزدادت عمقا، ولم تغيرها الأحداث والسنون. قليل الكلام، كثير التفكير، صائب الكلمة إذا نطق. تشعر نحوه بالاحترام والتقدير دون أن يفرضه عليك إلا بقدر ما يفرض الخلق والجدية والاستقامة. يبتسم في وجهك إذا رضي فتغني الابتسامة عن الكلمة. وعلى فراش المرض، وقد فقد النطق قبل أيام من وداعه كان يبتسم لأصدقائه وهم يتمنون له الشفاء، ويكتسي الوجه طابع الحياد إذا لم يقبل ولم يرض، فلا يؤلمك، ولكنه يوحي إليك بما في نفسه، يحترم زملاءه وأصدقاءه إلى درجة التقدير. يتحدث إلى أحمد بلافريج أو الحاج عمر، وهما زميلان قديمان، بلغة الأخ والصديق والحبيب. ويجلس إلى علال الفاسي مجلس التلميذ مع الأستاذ، ولكنه لا يملك إلا أن يرفض إذا أحس بأنه يجب أن يرفض.

كل الوطنيين كانوا عنده أصدقاء، يكن لهم التقدير والحب. يذكر المناضلين ولو غابوا عن الذاكرة بالتمجيد حتى إذا رأى أحدهم، ولو كان من عامة الناس، إحتضنه كأخ لم تنه الأيام نضاله. ما سمعته تحدث عن أحد بسوء، ولو كان يروي حادثة تاريخية، لأن أخلاقه كانت تسمو به عن التبذل في القول والهجر في الحديث. الوطنية عند أمثاله كانت خلقا وتربية، قبل أن تكون نضالا وعملا. والذي يتجرد من أخلاقها ينفيه من الوطنية، ولو كان من كبار المناضلين. ولذلك كان يأسى على الكثيرين ممن خاب أمله فيهم بعد أن تعهدهم بالتربية الخلقية والوطنية، ولا يزيد على التعبير عن أساه، وهو يبتسم إبتسامة حسرة في مجلسه لا تملك إلا أن تنظر إليه باحترام، لأن أخلاقه ومنطقه واستقامته وتاريخه النضالي تفرضُ الاحترام

على الأقربين منه والأبعدين. يكفي أن يطلب إليك عملا يتعلق بالنضال الوطني فلا تملك إلا أن تستجيب بقلب مفعم بالرضى وعاطفة جياشة بالحماس.

كان يتقبل الانتصارات باغتباط ولا يزيد، ويتقبل الهزائم بشجاعة لا يفقد معها توازنه الفكري. ولكني رأيته وقد تجاوز حد الفرحة يوم أعلن الاستقلال فلم تسع الدنيا فرحته وغبطته. ورأيته ساعة علم بوفاة علال الفاسي فَعَلا وجهه بياض كبياض الموت وتجمدت عضلاته، ولم تطفر من عينيه الدموع كما طفرت من عيني الحاج عمر، ولم ينطق حتى بكلمة العزاء، ولم يلبث أن نهض ليؤدي أخطر واجب تحمله، هو إبلاغ النبأ الفاجع لزوجة علال. ولم يكن أحد منا يستطيع أن يحمل هذه الرسالة.

كان يعتبر حزب الاستقلال رسالة إلى الأمة، فليس حزبا سياسيا يمكن أن يلعب بالمبادئ لصالح السياسة، وليس حزبا يستعجل لتحقيق أهدافه، لأن هدفه (الاستقلال) ليس مما يستعجل ليكون كما أراده الوقت، ولكنه مبدأ يجب أن يكون كما أراده الشعب. وبذلك ثار، ولعلها الثورة العصبية الوحيدة التي عرفتها حياته المجهدة والهادئة في نفس الآن، حينما بلغه عن طريق الهاتف من باريس نبأ الاستقلال المتداخل... كان حريصا على ألا يُتخذ أي موقف دون أن تدرسه اللجنة التنفيذية المجتمعة في منزله باستمرار، ولذلك كان يعيش بجانب الهاتف ينادي هو أو ينادى عليه، حتى إذا سمع من وراء الخط عن "الاستقلال المتداخل" ثارت أعصابه وهدّد إذا ما تم الاتفاق على ذلك أن يبعث برسالة إلى إذاعة طنجة[2] يعلن فيها إستقالته من الحزب. ولم يستقل من الحزب فقد زعزع موقفه الصارم مبدأ "الاستقلال المتداخل".

أقعده دبيب الشيخوخة والمرض عن الممارسة بعد أزيد من ستين سنة من النضال المتواصل، واعتكف في منزله يقرأ ويستمع للإذاعات التي كان يتتبعها بدقة حتى إذا توفي وحيده "أمل"، أخذ يجتر أحزانه مع شريكة حياته. ولكنه كان أسعد

2- كانت إذاعة أجنبية أخذت آنذاك تتابع تطور الأحداث المتلاحقة بطريقة صحفية شبه حيادية.

ما يكون حينما يطرق أحدنا، أو وفْدٌ منا، بابه. يتحامل على نفسه ويتكئ على ممرضته وينزل درجات السلم ببطء تسبقه إبتسامته التي لم تغيرها السنون ولم تُذبلها الآلام والأحزان. يرحب بأصدقائه وهو يحتضن كلاً منهم، ويستمع إلى أخبار الحزب ومشاكله، إنتصاراته وتعثراته، يبتسم إذا رضي، ويقف وجهه على الحياد إذا حزن. ولا يعلق إلا بكلمة صدق وتشجيع.

كان سعيدا باتصال حبله بالحزب عن طريق زملائه. لم تخنه دعابته في يوم ما حتى في أيامه الأخيرة. لم يكن يشكو، وإنما يجيب في اطمئنان بأنه يعيش يوما بيوم. لا يذكر الموت، ولكنه يتعامل مع الحياة كما هي. حتى إذا نقل إلى المستشفى ظلت الابتسامة هي مظهر الحياة على وجهه.

***

أسلم محمد اليزيدي الروح يوم السبت 22 دجنبر 1990 وعمره يقارب 88 سنة.

رحمه الله...

إبراهيم الكتاني...

المجاهد الصبور

(1907 - 1990)

-1-

- المجاهد...

هكذا ألقبه تنفيذا لوصية تلقيتها منه وهو يدخل بهو مقر أكاديمية المملكة المغربية يدب دبيبا، ويبحث عن موقع خطواته، وهو يقدم عصاه قبل قدميه.

أذكر منه الكثير، ولا أنسى أبدا أصدق تحية كان يوجهها إليّ حينما ألقاه.

لم تكن تحيات عاديات من هذه التحيات المليئة بالحب والعطف والتقدير واللياقة والأدب الأصيل الذي تميز به فحسب، ولكنه كان دائما يخصني بكلمة أخرى أول ما يلقاني، وكأنه ينتظر أن يكون معي على موعد.

وتطلعت عيناه الزرقاوان الجميلتان من وجهه الصبوح الوقور إليّ وهو يقول:

-لقبني بالمجاهد.

كان يحرص على أن يستعمل الكلمات في مفهومها الحقيقي. ولم يكن يريد لنفسه أن يلقب بالمناضل أو المكافح أو العالم أو الأستاذ أو المشارك... وإنما يختار من الألفاظ أحبّها إلى قلبه، وأكثرها دلالة على عمله، وأصدقها تعبيرا عن المفهوم الإسلامي للعمل المجد المجهد النابع من الإيمان أكثر مما ينبع من المصلحة، يحتسب لله، ولما يرفع الله من مقامه: العلم والوطن في المقدمة.

كثيرة هي الألفاظ التي إستلبت الشعوب والأفراد، وكما تستلب القيم والأفكار والمعتقدات. ينزع منها الروح لتُمنح مفهوما آخر لا روح فيه.

وكلمة "المجاهد" من هذه الكلمات التي لم تتوار، لأن الجهاد، في مفهومه العسكري، قد توارى، بعد أن إحتلت ديار الإسلام في معظمها، ومنذ سقوط الأندلس. الكلمة توارت أيضا لأن اللغة أخذت في طريقها إلى التجدد، وهذا من حقها ومن ضرورات حيويتها. تستغني عن الكلمات المشحونة بمفاهيم خاصة وذات خصوصية، لتضع مكانها كلمات مترجمة، وربما كانت ذات مفاهيم أجنبية لا تحمل طابع حيوية الكلمة الأصلية وما تحمله من شحنات لم تكتسبها من المفهوم اللغوي فحسب، ولكن كذلك من المفهوم التاريخي الذي إرتبط باللغة نفسها.

وكلمة "مجاهد" من هذه الكلمات التي أخذت تتوارى في الخطاب المكتوب والمسموع، وربما نتيجة الحرب التي شنت وما تزال حتى الآن على مفهوم الكلمة... ولعل الكثيرين يذكرون أن "مندوبية المعارف" في إحدى فترات عهد الحماية منعت بعض المدارس، التي كانت تحت تصرفها، من دراسة باب الجهاد في الفقه الإسلامي، رغم أنها تعرف أنه مما يدخل في باب تاريخ التشريع الإسلامي.

ولكن سحر الكلمة وما تحمله من شحنات قوية كان وراء هذا الرعب الذي تملك إدارة الحماية في المغرب، فأمرت بمنع دراسة باب من أبواب الفقه.

من منطلق هذه المفاهيم، إرتضى إبراهيم الكتاني لنفسه لقب "المجاهد" وهو يعرف أنه بين زملائه وأصدقائه وتلاميذه أكبر من كل لقب. فكان يكفي أن تقول إبراهيم الكتاني لتتداعى كل الصفات والنضالات الوطنية والجهادية والعلمية والثقافية وهي تشير إلى صاحب الإسم الكبير.

إسم لم تصنعه سنوات، وإنما صنعته عشرات السنين من الجهاد العلمي والوطني. لم يمنحه له والده العالم الكبير المؤلف الشيخ أحمد الكتاني وهو ينحر أضحية مولده فرحا مسرورا بمولوده الذكر فحسب، ولكن إسم نقشه إبراهيم نفسه بِإِزْميل من التضحية والفداء والعذاب والجوع والسجن والنفي والمحاكمات والغربة والإبعاد والفقر، وكساه بحلل من العمل العلمي المتواصل في أبهاء القرويين ومدرجات الجامعة وخبايا المكتبات والخزانات وصحبة العلماء الثائرين المتمردين على الخرافة والاتباعية، المجتهدين في فهم الإسلام والفتوى بالقرآن والبحث في

التراث. ويكفي أن يكون في مقدمتهم: ابن حزم وابن تيمية ومحمد بن العربي العلوي لتعرف أي إسم نقشه إبراهيم الكتاني في تاريخ المغرب الحديث.

كثيرا ما أجدني منبهرا أمام كثير من الأعلام الوطنيين في العصر الحديث: علال الفاسي أو المختار السوسي أو عبد الله كنون أو إبراهيم الكتاني وأنا أرصد ما قاموا به من عمل نضالي وثقافي وسياسي واجتماعي فكأنني أمام حيوات لا حياة واحدة، وكأنني أمام مجموعة من الشخصيات كل منهم متخصص في اتجاه معرفي أو جهادي. وأرجع إلى التربية الوطنية وإلى الظروف التي عاش فيها هؤلاء، وإلى الهدف الذي اختطوه لتفسير هذه الظاهرة فأقتنع بما تفعله كل مفاهيم كلمات الجهاد، النضال، التحرير... هذه المفاهيم هي التي كانت تحث بهم الخطا، وكل منهم يقنع نفسه بأن مسؤولية كبرى ملقاة على عاتقه، ولن تتحقق هذه المسؤولية إذا لم يجاهد لتحقيقها. والمجاهدة للنفس وللغير ولظروف الاحباط التي عاش فيها المغرب منذ أطل كل منهم على الحياة، وأثمر "الجهاد" مثل هاته الشخصيات وغيرها كثير.

-2-

ويدلف إبراهيم الكتاني إلى بهو مقر أكاديمية المملكة المغربية مرة أخرى متكئا على عصاه والابتسامة الجميلة التي تزيد شيخوخته بهاء وجمالا، وكأنه أمد الكلمة التي يبدرني بها كلما إلتقينا:

ـ ها أنا ذا قد حضرت إتباعا لنصيحتك ... لن يقعدني العجز عن الحضور. فأنا كعلال أكرر كلمته: "لن أموت قبل أن أموت...".

آخذ بيده لأساعد منه الجسم الواني إلى أن يستقر في مقعده. ولكن فكره ووعيه وقدرته على التعبير عما يتحرك في ضميره، كل ذلك كان أكبر من جسمه فلم أكن أحس بأنه يخطو الخطا سريعة ليست وئيدة هذه المرة نحو المصير.

كان يحرص على حضور إجتماعات الأكاديمية وإجتماعات اللجنة الثقافية لحزب الاستقلال، حتى أنه غضب مرة، غضبته اللّينة الهّينة المبتسمة، حينما أغفل

مقرر اللجنة إخباره بالهاتف عن موعد الاجتماع. وكان يحضر إجتماع اللجنة المركزية للحزب فيجلس في مكانه من الصف الأول. وفي كل هذه الاجتماعات كان يتابع بوعي كامل، ويدلي بالرأي ويناقش، ويأخذ الكلمة ليشرح فكرة قد يطول به شرحها، ولكنه لا يتوقف حتى يؤدي بنفس قوة الأداء والشرح ومحاولة الإقناع، وبنفس الذاكرة القوية للشخصيات العلمية والكتب، مخطوطة ومطبوعة، وبنفس الحماس للرأي يدلي به، بنفس كل هذه المواهب التي كان يمتلكها وهو شاب، ويتصرف بها في جهاده الوطني والعلمي.

وقد إحتفظ إبراهيم الكتاني بذاكراته القوية حتى في آخر شيخوخته. ولذلك كان يستطيع أن يستفيد من هذه الذاكرة أحسن ما تكون الاستفادة وهو يتحدث في موضوع وطني أو علمي فلا يترك حادثا ولا موضع الاستشهاد من حادث، ولا يترك شخصية، ولا موضع الاستدلال بالشخصية، ولا يترك كتابًا ولا موضع الاستشهاد من الكتاب إلا ذكره. كان يعيش حياته ومشاغله، لا يؤديها كوظيفة يومها يطوي أمسها، ولكنه يحتفظ بكل الماضي، يعايشه في الحاضر ويوظفه للمستقبل. ولذلك إستفاد من هذه الخصوصية في البحث عن كتب التراث في المكتبات المغربية المهجورة والمرتادة، وفي المكتبات العالمية التي تغرِّب حتى الولايات المتحدة الأمريكية وتشرِّق حتى الهند. ولعل تراث الفكر والحضارة المغربية قد إستفاد من إكتشافاته، وبقي أن يسعى تلاميذه إلى تقريب هذا التراث من نور الحياة بالطبع والتحقيق والتقويم حتى تكتمل رسالة إبراهيم الكتاني العلمية التي وهبها نحو من ثلث قرن من حياة الاستقلال.

-3-

ويتداعى أمام ناظري شريط طويل من حياة إبراهيم الكتاني، وهو يدلف إلى بهو أكاديمية المملكة المغربية متكئا على عصاه تسبقه نظراته الفاحصة، تصحبها إبتسامته الودية اللامعة، فأراه وهو تلميذ ما يزال في مقتبل العمر ولولا بياض لحيته، في شيخوخته، لما أخطأك الحدس في التعرف على شبابه. ما أظن أن الحياة الطويلة التي عاشها غيّرت كثيرا من ملامح وجهه وبريق عينيه وحديثه العذب المفيد.

كان إبراهيم الكتاني، وهو في شيخوخته، يلهج بما إستفاد من شيخه المفضل في شبابه: محمد ابن العربي العلوي، ويحكي عن شخصية شيخ الإسلام ونظرياته ونضاله ودروسه ما لو كتبه لسجل صورة حقيقية عن هذا النموذج المغربي الذي أسهم في تغيير مجرى التيار في العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن العشرين. ويبدو لي أنه، هو بالذات، شهد نقلة نوعية رائعة على يد أستاذه محمد ابن العربي العلوي. فقد كان يمكن أن يكون طرقيا، أو قريبا من الطرق، مثل كثير من الطلبة الذين عاشوا أوائل القرن العشرين في بيئة تختلط فيها المفاهيم العلمية بالمفاهيم الطرقية، ولكنه وغيره من الذين حضروا دروس ابن العربي العلوي تميز في فكرهم العلم عن الطرقية، واختطوا لهم طريقا في المعرفة لا تقتصر على الكتب التي عرفها بلاط القرويين، وإنما تتسلق لتقرأ في المنابع الأولى للفكر الإسلامي، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو بالشريعة أو بالقرآن والحديث، أو بالفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية.

وإذا كان ابن تيمية، بثورته العارمة في النظرية والتطبيق، وبثورته على وضع الحكم في الشام قد أثر في الكثيرين من طلبة العشرينات، فإن إبراهيم الكتاني أضاف ابن حزم إلى ابن تيمية. وهو أشد ثورة وأقوى علما وأوسع أفقا، وهو يدرس المِلَلَ والنّحل، أو يناقش المذاهب ليجتهد، فيكون مذهبا ظاهريا جديدا، أو يفلسف العقيدة فيخوض في آفاق جديدة لإثبات وحدانية الله. وقد رصد إبراهيم الكتاني فترة طويلة من حياته وهو يعايش ابن حزم. وكنت أرجو أن يكتب ما تعرف إليه ابن حزم، ولعل الأمل ما يزال قويا في إخراج ما لعله كتبه من فصول أو ملاحظات. وقد يكون هذا الأمل باهتا، فقد علمتنا التجربة في هذه البلاد أنه إذا مات ابن آدم إنقطع عمله حتى فيما كتب وما صنف وما جمع من ذخائر الكتب ونادر المخطوطات.

لا أكاد أذكر أني اجتمعت مع الصديق إبراهيم الكتاني في محفل علم ولم يتحدث إليّ فيه عن محمد ابن العربي العلوي و"ابن حزم" حتى أني لكنت أختصر هذا الود الموصول بين الرجلين في التعريف بابن حزم بأنه صديق حميم لإبراهيم الكتاني.

تعلم المذهبيين من محمد ابن العربي العلوي الثورة في الفكر. كان إبراهيم الكتاني ابن الزاوية، من الممكن أن يكون شيخا من شيوخ الزاوية الكتانية كبعض أسلافه ومعاصريه، وفيه من الصفات الطيبة ما يؤهله إلى ذلك لو أراد. ولكن محمد ابن العربي العلوي كون منه ثائرا على التقاليد وثائرا على الفكر الرجعي فكان سلفيا مناهضا للزاوية، ولو كانت كتانية، فأحرى إذا تمثلت في شخص غير جدير بها كالشيخ عبد الحي الكتاني. الثورة الفكرية هي التي كوّنت منه سلفيا متعصبا للسلفية يكرع من حياض رجالها وينتصب للدفاع عن السلفية. والثورة الفكرية هي التي جعلت منه مناضلا وطنيا، وقد كانت السلفية طريق الوطنية، كما كانت طريق الثورة على التقاليد التي حاول الاستعمار أن يستغلها لتدعيم نظامه.

ويقول إبراهيم الكتاني عن ابن العربي العلوي: "ويقتضي واجب الوفاء أن أعترف بفضله الكبير علينا بتحريرنا من ربقة الخرافة والجمود والتقليد والتعصب المذهبيين، وما بذله معنا من جهود مضنية لتدريبنا على الاجتهاد الشرعي السليم، بإرشادنا إلى قراءة مؤلفات سلفنا الصالح من رجال العصور الإسلامية الزاهرة ورجال الانبعاث الإسلامي الحديث وتنبيهنا إلى عيوب مؤلفات عصور التدهور والخرافة والتعصب".

وتعلم من ابن حزم أن ينبذ التقليد وأن يسير في طريق الاجتهاد. وما يزال إبراهيم الكتاني منذ إتصل فكريا بالمجتهدين الأولين ابن تيمية وابن حزم ثم بالمجتهدين ودعاة الاجتهاد المتأخرين محمد عبده ورشيد رضا، يؤكد أن التقليد المذهبي كان له من السلبيات مثل ما كان له من الايجابيات، ويعتبر الاجتهاد من مشمولات الفكر الإسلامي وقاعدة من قواعد التفكير في الإسلام ومن واجب المجتمعات العلمية الإسلامية.

إبراهيم الكتاني لا يدعو للاجتهاد لتحرير الشريعة الإسلامية من الرؤية الوحيدة والنظرة الضيقة للقضايا التي يفرضها المجتمع الجديد. وفي ذلك يؤكد: "المسألة المطروحة على المسلمين اليوم هي إحلال قوانين إسلامية مكان القوانين

الوضعية الأجنبية التي فرضها الاستعمار على الأمم الإسلامية، بحيث تكون هذه القوانين محققة لمصالح المسلمين المستجدة. وهم يستطيعون أن يحققوا هذا الهدف الإسلامي الملح والمستعجل عن طريق الاستفادة من اجتهادات الفقهاء المسلمين الأقدمين منهم، بمن فيهم ابن حزم نفسه، أو من اجتهادات جديدة لمواجهة الحالات التي جدّت اليوم في الدنيا، ولم تكن معروفة من قبل، في نطاق النصوص والقواعد الخالدة. "أما أننا اليوم في حاجة إلى تطبيق منهج الاجتهاد الشرعي، الذي قننه الشافعي والشاطبي، ومارسه ابن تيمية وابن قيم الجوزية وأمثالهما. ودعا إلى أحيائه عشرات المفكرين المسلمين المحدثين. وهو إجتهاد مضبوط بالقواعد المجددة، وفي نفس الوقت بتفتح على مختلف التجارب الاجتهادية السابقة، وقابل، في نطاق المستقبلية الاجتهادية لإضافة تجارب جديدة لا نهاية لها. وتلك هي، بدون استثناء، أعظم معجزة خالدة للقرآن العظيم، الذي تضمنت خمسمائة آية منها أحكام كل ما يجد في الدنيا إلى آخر الدهر من حوادث ومستجدات".

كان ابرهيم الكتاني يلهج في شيخوخته كما كان في شبابه بصديقين لم ينس صحبتهما قط: علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس، ويتحدث عنهما كمثل. فقد كانت طريقته في الحديث ألا يفضي إليك بالرأي إلا مصحوبا بالمثل. فإذا تحدث عن غزارة علم ونضال وتضحية وحسن معشر وسلوك مستقيم بدأ حديثه هكذا: "الشهيد السي عبد العزيز رحمة الله عليه كان... قال... سلك ... مارس"...وإذا تحدث عن موهبة كبرى، وصلابة في الرأي، وقناعة وود غير مقطوع، بدأ حديثه هكذا: "السي علال مرة تحدث... كتب ... حاضر... رأى".

وليس ذلك بغريب على الثلاثة الذين جمع بينهم الدرس والسر الوطني والنضال المستمر طيلة حياة كل منهم، ولا بغريب على الثلاثة الذين جمع بينهم السجن في زنزانة واحدة أحيانا وفي زنازن متباعدة أحيانا بعد مويلا[1] عن كلميمة[2].

1 - قرية في الغابون، مكث بها علال الفاسي أربعة سنوات ونيف قبل أن ينتقل إلى قرية مياما في الكونغو ليقضي مدة زمنية تقاربها.

2 - قرية في إقليم قصر السوق، نفي إليها إبراهيم الكتاني.

ولا بغريب عن الثلاثة الذين أوذوا أغرب إذاية إرتكبها إستعمار يوم منعت عنهم شهاداتهم العالمية في القرويين بعد أن إجتازوا الامتحان بتفوق، إلا بشرط أن يتخلوا عن معارضتهم تائبين للظهير البربري، فرددوا الآية سواء: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾(سورة يوسف، الآية 33) وظلوا، ثلاثتهم، علماء بدون شهادة حتى جاء الاستقلال... و لا هو بغريب عن ثلاثة كانوا من أكثر الوطنيين وفاء للعلم وللنضال السياسي والوطني في آن...

وكنت تحس وهو يحدثك عن صديقيه كأنما يحدث عن أستاذيه. كان يكن لهما كثيرا من التقدير ويتخذ من سيرتهما وسلوكهما مدرسة لنفسه وللشباب الذين يحدثهم عنهما. وما أكثر ما عرفت عنهما، وهما أستاذان وصديقان عاشرتهما مدة طويلة، مما لم أكن لأعرفه إلا من لسان إبراهيم الكتاني.

حدثني مرة وهو يشهق بضحكة عن قصة السمك.

ـ وما قصة السمك؟

ـ زارني علال الفاسي في منزلي وقد أنهينا يومئذ عهد الطلب. تربع في باب الدرب الذي كنت أسكنه بائع سمك مقلي. وما كاد يستقر به المقام حتى قال:

ـ إبعث لنا من يقتضي سمكات من بائع السمك المتربع بباب الدرب.

ونظرت إليه في إشفاق وبي من الجوع ما به. ولكني صارحته:

- والله لا أملك.

وإنتهينا أخيرا إلى قرش وُجد ضالا في جيبه وآخر وُجد ضالا في جيبي. سمكتان وقطعتا خبز وكأس ماء. وكان ذلك هو كل الغذاء.

-4-

عرفت إبراهيم الكتاني من زمن طويل، لم تصاحب هذه المعرفة تلمذة ولا أستاذية، ولكن صاحبها تقدير واعتزاز ولو من بعيد. ولكن معرفتي به إقترنت بالكتاب والصحيفة. فما كنت أراه في رحاب القرويين، وهو يومئذ أستاذ ممنوع

من شهادته، أو في حي المكتبات بجوار القرويين إلا لاحظت أنه يتأبط كتابا ويمسك بتلابيب صحيفة، وكثيرا ما كانت الصحيفة "الأهرام" التي كانت تفد من مصر بعد أسبوع من صدورها. أما الكتاب فقد كانت عادة تمكنت من الجيل كله بإرشاد من أستاذهم محمد بن العربي العلوي. وأما الصحيفة فقد كانت من حبهم للاطلاع، ورغبتهم في التعرف على كل ما يجري في مصر.

ونافذة مصر كانت مقفلة إلا من كتب تفد على قلة، وصحيفة لا ترى إدارة الحماية فيها خط هي "الأهرام".

كان مغرما بقراءة الصحف والحديث عما قرأ حتى إذا تقدم به السن كان يكتفي "بالعلم" ويعلنها مباهيا:

ـ لا أقرأ من الصحف إلا صحيفة "العلم" وأجد ما بها يكفيني.

وله مع "العلم" قصة. فقد إنتقل من فاس إلى الرباط بعد إعلان الاستقلال، ووجدنا أنفسنا في مكتبين متجاورين بمقر "العلم". كان سعيدا بأن يعمل في الصحيفة التي يمنحها كل قلبه ووده. وكان في تواضعه الجم يعتبر نفسه تلميذا في عالم الصحافة. أشرف على صفحة حياة الوطن، ولعلها كانت أدق موضوع يتطلب الحذر والدقة، ويحتاج إلى الثقة بمقدار ما يحتاج إلى سوء الظن، يخاطب أكبر شريحة من المواطنين، ويعيش مع المظلومين منهم أكثر مما يعيش مع المحظوظين. وكان يحرر المراسلة، ويحرص، حرص العالم أكثر من حرص الصحفي، على أن تكون مكتملة. ثم يستشير أقرب الناس إليه، وكثيرا ما كان يجد فيّ هذه القربى قبل أن يدفع بها إلى المطبعة.

ولعل الكتاب هو الذي سلبه نعمة الصحيفة، ولعله كان حزينا وهو ينتقل من دار "العلم" إلى قسم المخطوطات بالخزانة العامة.

في الخزانة العامة وجد قلبه حيث خيّم. كان الكتاب قرة عين له. فإذا دخل غابة من الكتب يضل فيها من لا يعرف كيف يستفيد. كان ذلك، فيما أحسب، أكثر ما يرضي قلبه وضميره وفكره جميعا.

والذين يعرفون إبراهيم الكتاني منذ شبابه وكهولته يتجول في المكتبات قبل أن يُدلف إلى عمله كل صباح تقريبا، يبحث عن جديد المطابع ليقتنيه أو يطلع على ما فيه، ويحدث به وعنه، يدركون أي لذة في الحياة وجدها وقد تحمل مسؤولية البحث عن المخطوطات المغربية، في المغرب وفي غير المغرب. تنقل بين المدن والقرى المغربية في ظروف مرهقة، وبذل جهد الحريص للكشف عن المخطوطات وتصوير بعضها ونقل أكثرها إلى الخزانة العامة. وإذا كان علماء المخطوطات من التراث يعرفون ما تعرضت له كثير من المكتبات، وخاصة المكتبات المحبسة، من إهمال وبلى وتآكل واختلاط أوراق وضياع بعضها، يقدرون الجهد الذي بذله إبراهيم الكتاني في التوصل إلى جمع هذه المخطوطات وتدوينها ونقل ما نقل منها إلى الخزانة العامة بالرباط.

ثم قام ابراهيم الكتاني بالرحلات العديدة إلى دول أوروبية وأمريكية وأسيوية بحثا عن المخطوطات. ولم يكن يضيق بهذه الأسفار، ولا يتردد في القيام بها، رغم بعد الشقة وضعف النظر والشيخوخة التي هاجمته دون إنذار.

كان يجد متعته الفكرية في المعاناة مع الكتاب، والمتعة الفكرية أجمل جزاء لمعاناة.

لشد ما كنت أعجب لفكر إبراهيم الكتاني. كان جاري في مجالس الأكاديمية. وقد يكون النقاش محتدا حول موضوع ما، فيهمس في أذني:

- هل إطلعت على الكتاب...؟

يَذكر كتابا جديدا عن التاريخ الحضاري أو العلمي أو الأدبي أو عن واقع العالم الإسلامي نزل في نفس الأسبوع إلى السوق. وكم كنت أخجل أن أجيب أني لم أطلع عليه بعد. وكم كانت الهمسة ينفتها في أذني تحثني على إقتناء الكتاب في أسرع وقت وقراءته أو الاطلاع على بعض ما فيه، لأني أعرف -مسبقا- أنه سيسألني بعد أسبوع:

ـ وهل قرأت الكتاب..؟ إذن، إبحث عن لاحقه...

وظل إبراهيم الكتاني حجة في التعرف على المصادر المجهولة للتاريخ الحضاري للمغرب وإفريقيا. وقد إلتجأت إليه اليونيسكو، وهي تكتب تاريخ إفريقيا، ليرشد لجنة الكتاب إلى المصادر المغربية المخطوطة عن تاريخ إفريقيا، فقدم لها تقريرا مهما يعتبر خلاصة سنوات من البحث والجهد العلمي.

إذا ذُكر إبراهيم الكتاني بين العلماء والقراء والباحثين فتلك بعض ملامحه، التي لم تكن غريبة عن ملامح عائلة الكتاني، وعن ملامح والده بالأخص، على اختلاف في مفهوم العلم ومفهوم الكتاب ومفهوم الصحيفة بين عصر التنوير في المغرب وبين عصر الغفلة والخرافة. وإذا كان إبراهيم الكتاني قد نبذ الخرافة ، وهو يسلك بنفسه بين الثائرين، في العقيدة والسلوك والممارسة، فقد نبذها وهو يسلك بنفسه بين الباحثين العلماء، ولذلك لا تجده يعتمد كتابا حظه من الخرافة أكثر من حظه من العلم.

وتلك إحدى مميزات إبراهيم الكتاني العالم.

-5-

وإذا ذكر إبراهيم الكتاني بين الوطنيين فأنت واجد شخصية متميزة تميز النخبة المناضلة الأولى في العمل والجزاء. كان من المؤسسين للحركة الوطنية إنطلاقا من عمله في النضال السلفي. ومن ثمة، إرتبطت الوطنية عنده، كما ارتبطت عند زملائه، بالإسلام. وليس ذلك من باب إختلاط المفاهيم، كما يحلو لبعض الباحثين أن يقولوا وهم يتحدثون عن تطور الفكر المغربي في القرن العشرين، بل إن المفهوم متحد، إذا نفذنا ببصيرتنا إلى خصوصيات المغرب، وتلاحم مقومات شخصيته، والتحديات التي واجهها في تاريخه، وفي مقدمتها تحديات الحروب الصليبية في الغرب الإسلامي، وهي نفسها كانت تحديات حضارية، الدين جزء مهم منها.

تاريخ المغرب الحديث لم ينفصل كليا عن تاريخه في العصور الوسطى وتاريخه في عصر النهضة الأوروبية، بل عن تاريخه في القرن التاسع عشر. ولذلك فقولة

جورج بيدو[3] رئيس الحكومة الفرنسية ووزير خارجيتها في بداية الخمسينات "اليوم إنتصر الصليب على الهلال إلى الأبد"، والتي كان يطبقها الاستعمار في الجزائر وتونس والمغرب في القرن العشرين، تعطي خصوصية للفكر الوطني المغربي. وتتمثل في إرتباط الوطنية بالإسلام لأن ضياع الوطن ضياع للإسلام، وضياع الإسلام ضياع للوطن. هي معادلة قائمة في الفكر الأوروبي، حتى ما بعد منتصف القرن العشرين، رغم إدعاء الليبرالية والعلمانية. فكان ضروريا وتلقائيا أن تكون نفس المعادلة قائمة في الفكر الوطني المغربي، رغم ما كان يراد له من بعض الذين يريدون ألا يكون رجعيا و متحجرا ومرتبطا أكثر مما يلزم بالإسلام.

ثم إن الإسلام كمقوم حضاري إستهدف للتحريف في عصور التخلف بالمغرب، حتى من العلماء المنحرفين الذين كان بعضهم ينحرف به عن أصالته وأصوله وكان بعضهم يضلل به وهو يسير في ركاب الاستعمار. ولذلك كانت السلفية ثورة على الحاضر للاستقاء من المنابع الأولى للإسلام، وللاحتفاظ بالإسلام كمقوم حضاري مهم لمستقبل الشعوب الإسلامية، ومنها المغرب.

الإسلام، واللغة، إذن من مقومات الذاتية الوطنية. وحينما يصر إبراهيم الكتاني والنخبة من زملائه على إعتمادها كأسس أولى للوطنية المغربية لا يعبر ذلك عن مرحلة كان الفكر الإسلامي والمفاهيم الإسلامية طاغية في الفضاء الثقافي، ولكنه يعبر عن إرتباط دائم للفكر التحرري في المغرب بالإسلام، لأنه مقوم أساسي للذاتية المغربية.

وظل إبراهيم الكتاني حريصا على ربط الوطنية بالإسلام، وهو يخوض، مع زملائه، معركة الاستقلال، وهو يخوض معهم معركة الديمقراطية، وهو يخوض معهم معركة تحرير فلسطين، في إطار جمعية مساندة الكفاح الفلسطيني.

ولا يكاد يتحدث لك عن عمل وطني أو فكرة وطنية إلا ربطها فكريا بالإسلام، لأنه كان صادقا مع تفكيره ومع نضاله ومع رؤيته الصادقة لتطور المغرب في نهجه الحضاري.

3- سبق الاشارة إلى دور جورج بيدو في عملية نفي محمد بن يوسف (صفحة 179)

ويوم إتجه إبراهيم الكتاني للعمل، وكان ذلك في فترة مبكرة من وعيه بالذات، عرف ما ينتظره من هذا العمل، ولذلك وطد العزم على أن يتحمل كل مسؤولياته، بكل تبعاتها، سجن منذ بداية العمل الوطني في الثلاثينات، وحجبت عنه شهادة العالمية في القرويين، وامتحـن في الحملـة الاستعماريـة الشرسـة (أكتوبر 1937) بعد أن جرد الجنرال نوكيس حملته الشرسة ضد الحزب الوطني، ثم ضد الوطنيين جميعا وعاش محنة كولميمية التي عذب فيها مع ثلة من زملائه، حتى استشهد أمام ناظريه تحت العذاب صديقه الشاعر محمد القري[4] واتهم مرة أخرى بالاتصال بعملاء الألمان أثناء الحرب، فكانت محنة أخرى أثناء الحرب كادت تصل بعنقه إلى المشنقة. ونفي في الأزمة الأخيرة من عهد الحماية.

سنوات من عمره في السجون والمعتقلات والمنافي لم تجعل منه غير إبراهيم الكتاني الذي ظل على وفائه لقضية بلاده حتى النفس الأخير. ولم تكن شيخوخته ومرضه وضعف بصره لتمنعه عن أداء واجباته الثقافية والاستقلالية والعربية، فكان يحضر اجتماعات أكاديمية المملكة المغربية، ويحضر إجتماعات اللجنة المركزية للحزب واللجنة الثقافية ولجنة مساندة الكفاح الفلسطيني. ولم يغب عن هذه الاجتماعات إلا أسابيع قبل أن يسلم الروح.

***

توفي إبراهيم الكتاني يوم الأحد 18 نونبر 1990 (يوم ذكرى الاستقلال) عن سن 83 سنة.

رحمه الله...

4- كتب إبراهيم الكتاني قصة "أيام كلميمة"، وهي من أروع ما كتب في الأدب الواقعي.

علال الفاسي...
رائد الاستقلال
(1910- 1974)

-1-

إسم لمع على رأس الحركة الوطنية، منذ ظهورها أواسط العشرينات حتى توفي (1974). وهو من عائلة الفاسيين الفهريين الذين هاجروا من الأندلس إلى المغرب (1397 م) أثناء طرد العرب من الأندلس. هاجروا مطاردين من لبلة (عمالة اشبيلية) إلى مالقة. ثم هاجروا إلى فاس مطاردين مع بقية العرب المسلمين. وأسهموا طوال هذا التاريخ في العطاء العلمي والوطني. عرف التاريخ الحديث في مدينة فاس من هذه العائلة أسماء لمعت كعلماء في القرويين وقضاة وموظفين وخطباء في المساجد. يذكر التاريخ أسماء من آل الفاسي كانوا علماء ووزراء ولكنه لا ينسى أبا المحاسن سيدي يوسف الفاسي الذي ساهم في معركة "وادي المخازن" (4 غشت 1578) ضد الغزاة البرتغاليين، كمتطوع إستطاع أن يتزعم نخبة من رجال العلم والطلبة ليخوضوا المعركة التي كانت فاصلة مع البرتغاليين في هجماتهم المتوالية على المغرب.

والد علال الشيخ عبد الواحد الفاسي عرفته مجالس العلم في القرويين، وعرفته المنابر خطيبا، ثم موظفا في المجلس العلمي، كما عرفته دوائر الإفتاء. وكان المفتي مساعدا مهما للقضاء الإسلامي يقدم للقاضي وجهة نظر الشرع في القضايا والنوازل المعقدة. وكثيرا ما يلجأ المفتي إلى إجتهاد قضائي يأخذ به القاضي أو يرفضه، ولكنه يغني الإجتهادات العلمية، كما يساعد أصحاب القضايا على تلمس الطريق للوصول إلى حقهم أمام القضاء.

هكذا ولد علال الفاسي في بيئة علمية وربي تربية علمية دينية، لا تخلو من جانب أدبي على غرار ما كان والده، إذ كانت خطبه تتسم بطابع أدبي في أسلوبها البليغ وفصاحة إلقائها.

بدأ علال يلفت النظر إليه من بين شباب العائلة الفاسية في بعض المناسبات كإحياء ذكرى المولد النبوي الذي كان مهرجانا تحضره جماهير غفيرة من سكان فاس. وقد فاجأ علال منظمي هذه الحفلة، التي كانت تقليدية، بخطاب خاص عن ذكرى الرسول. وفي مناسبة أخرى فاجأهم بقصيدة طويلة ذات مضمون جديد. لم يكن للأوساط المثقفة آنذاك عهد بمثلها، وخاصة من شاب لم يَعْدُ السابعة عشرة من عمره آنذاك.

هذه المناسبة أعطت لعلال الفاسي إسما لامعا في مدينة فاس التي كانت تعيش حياة مقفلة، لكنها متحركة، بحيث لم تكن في حاجة إلى إعلام لتتعرف على"الحدث المهم" وهو أن شابا تحدى من هم أكبر منه سنا، وتحدى التقاليد المتبعة في الإحتفال بالمولد النبوي، وتحدى "القوانين" التي لا تسمح بإلقاء الخطب والقصائد في التجمعات، ولو كانت إسلامية، التي يحضرها الجمهور.

لهذا نظر إلى عمل كهذا على أنه عمل سياسي إلى جانب مظهره الثقافي.

العمل الثاني الذي لفت النظر إلى علال الفاسي في سنه المبكرة هو أنه تزعم، مع الحسن بوعياد، أحد أصدقائه كتابة عريضة باسم أعضاء المجلس البلدي في فاس، وهو المجلس الوحيد في المغرب الذي كان منتخبا، يحتجون فيها على محاولة تحويل ماء "وادي فاس" لضيعات المعمرين. المدينة وضواحيها تعتمد على هذا الوادي في الري والإستعمال المنزلي. وقد كان هذا العمل محاولة لإعطاء الممارسة الإستعمارية طابعها السياسي والإقتصادي، وليس فقط ممارسة إدارية يمكن للسلطات أن تقوم بها. نظمت تجمعات في القرويين وضريح مولاي إدريس للإحتجاج على محاولة تحويل الماء. وخطب علال الفاسي في هذه التجمعات. بدأت سلطات الحماية تنظر إلى هذا الشاب الذي أخذ يتجاوز مجاله كطالب في القرويين

إلى توجيه المجلس البلدي، وغالبية أعضائه في الغالب من الأعيان، نحو التمرد والإحتجاج، نظرة فيها كثير من الحذر والريبة...

العمل الثالث الذي لفت إليه الأنظار-أنظار الطلبة والمثقفين بصفة خاصة- هو الجمعية التي أنشأها بعض الطلبة في القرويين. وقد تكونت من الطلبة المتنورين الذين يشتركون في اهتمامات علمية وأدبية. كانت الجمعية ذات فرعين أحدهما سياسي ويرأسه علال الفاسي وثانيهما ثقافي ويرأسه المختار السوسي. وكان على رأس النشيطين في الفرعين الطالب علال الفاسي. كانت الجمعية تنظم مباريات أدبية، فينظم الذين يقولون الشعر من بين أعضائها قصائد تقرأ داخل الجمعية وتناقش. ويجيب شاعر آخر بقصيدة تخضع مرة أخرى للقراءة النقدية والمناقشة، ويشهد محمد المختار السوسي، وكان من أهم أعضائها الشعراء، أن علال الفاسي كان أبرز الشعراء وأكثرهم إشعاعا.

العمل الرابع أن هذه الجماعات الصغيرة من الطلبة وعلال الفاسي من أبرز أعضائها أخذت تطالب بتنظيم الدراسة في القرويين ومنح الشهادات التي تنتهي بها المراحل الدراسية. وقد خاضت هذه الجماعة صراعا ضد إدارة الحماية، التي كانت تريد أن تبقى الدراسة على شكلها القديم الذي لا يخضع لنظام ولا تمنح فيه شهادة رسمية ولا يتقاضى الأستاذ مرتبات إلا المنح الضئيلة التي كانت تخصصها الأوقاف لبعض المدرسين. كما خاضت هذه المجموعة من الطلبة صراعا ضد بعض التقاليد والخرافات التي كانت تنخر الفكر المغربي والمجتمع المغربي عموما. كان هذا الصراع إنطلاقا من الإتجاه السلفي الذي إنتشر في العالم الإسلامي بفضل نشاط محمد عبده وجمال الدين الأفغاني.

العمل الخامس كان عملا موازيا لكل الأنشطة السابقة الذكر وهو العمل السياسي الذي إرتبطت به حياة علال الفاسي إلى الرمق الأخير. ويمكن أن نقول في البداية إن السياسية لم تكن لها الحدود الضيقة التي تعرفها الحكومات والشعوب التي تمارس العمل السياسي في حرية. المغرب كان يعيش حياة مقفلة يحرم فيه كل

نشاط يتصل بالحريات العامة: حرية الممارسة والتعبير والإجتماع... ولذلك فكل تحرك، يفهم منه توجيه لوم أو نقد للإدارة أو مطالبة بعمل ما، كان محرما لأنه سياسة.

وفي ظل هذه "القوانين" و"الضوابط" بدأت الجماعة الوطنية الأولى وقد إلتقت فيها جماعة فاس مع جماعة الرباط وجماعة تطوان تتحرك لمواجهة الإدارة بالمطالبة والنقد (1926). وكانت هذه الجماعات ومعظم أفرادها من شباب القرويين والمدرسة الثانوية وبعض الأعيان قد أقسمت على العمل السري وعلى أن هدفها الأسمى هو إستقلال المغرب. ولعلها لم ترد أن تجهر بهذا الهدف آنذاك نظرا لأن الحرب التحريرية في الريف كانت على وشك النهاية. وكان علال الفاسي من أبرز شباب هذه الجماعة، التي كانت النواة الأولى "لكتلة العمل الوطني" التي تحولت إلى " الحزب الوطني" ثم إلى "حزب الإستقلال".

ظهر علال الفاسي على نطاق أوسع في الحوادث التي نشأت على إثر إصدار الظهير البربري (16 مايو 1930). فقد أعقبت صدور هذا الظهير حركة شعبية بدأت بالتجمع في المساجد، وتطورت إلى مظاهرات تجوب الشوارع إحتجاجا على صدور هذا الظهير. وقد إعتقلت الإدارة منظمي هذه التظاهرات في المساجد والشوارع، وخاصة في مدن فاس والرباط وسلا. وكان علال الفاسي من بين المعتقلين إذ سجن ونفي من المدينة.

وبعودته من المنفى بعد بضعة أشهر أخذ نشاطه السياسي يتضح، فلم يعد يقتصر على العمل في إطار السلفية الإسلامية أو في الجماعات المحدودة: الطلبة، أو مقاومة الظهير البربري، أو المطالبة بإصلاح النظام التعليمي في القرويين، أو الدفاع عن ماء فاس، وإنما إتضحت أهدافه كزعيم وطني يتبلور فيه النشاط الذي تقوم به الجماعات الوطنية السرية التي تجمعت في كتلة واحدة تستهدف المطالبة بالإستقلال، وتتبع في ذلك خطة المراحل، في مقدمتها المطالبة بالإصلاحات الجهوية.

هذا النشاط الوطني سار في موازاته نشاط آخر، علمي في ظاهره ولكنه سياسي في عمقه. ذلك أن علال الفاسي أخذ يلقي دروسه على طلبته ومريديه في

المساجد الصغرى أولا، ثم تحول إلى القرويين .كان يتجمع حوله مئات من المتتبعين لدروسه التي تعني بتاريخ الإسلام، ولكنه كان يتخذ من التاريخ سبيلا لإثارة الأفكار حول أوضاع المسلمين الحاضرة وبالأخص في المغرب.

وقد إعتبرت الإدارة الفرنسية هذه الدروس بمثابة مظاهرة يومية يتزعمها علال الفاسي ويخطب فيها، لأنها كانت تتسمع إلى أصدائها وآثارها في المواطنين.

حاولت الإدارة أن تمنع علال الفاسي بالقوة فلم تستطع، ثم حاولت عن طريق "حكم" من "المجلس العلمي" باعتباره يقول في دروسه ما لا يتفق مع الدين. وبثت عليه في دروسه شاهدين- عدلين- يسجلان ما يتحدث به، فلم يهتد الشاهدان إلى شيء يخالف الدين فيما يتحدث به. وهكذا فشلت خطة إستصدار "حكم" من المجلس العلمي بمنعه من التدريس. ولم تبق إلا وسيلة واحدة هي إعتقاله لسبب أو لآخر.

سافر علال الفاسي إلى شمال المغرب (صيف 1933) فزار طنجة وتطوان. وفي حفلة تكريم أقيمت له في تطوان خطب خطابا سياسيا إعتبره الإسبان مساسا بنفوذهم فأخذوا في مضايقته. وحينما زار مدينة سبتة منعه الإسبان في "الحدود" من العودة إلى تطوان. ولذلك عاد إلى طنجة عن طريق الجزيرة الخضراء. وفي طنجة وصلته رسالة من "كتلة العمل الوطني" تخبره أن الإقامة العامة قررت إعتقاله في الحدود عند عودته إلى فاس.

إرتئى علال أن يسافر من طنجة إلى فرنسا وسويسرا، حيث إتصل لأول مرة بالأمير شكيب أرسلان[1] الذي كان الوطنيون بالمغرب يعتبرونه مستشارا وأبا روحيا لحركتهم.

ظل علال الفاسي في المنفى الإختياري نحو سبعة أشهر أخبرته الإقامة العامة بعدها أنها رفعت الحظر عن عودته إلى المغرب. وفي طنجة إجتمع معه مندوب عن

1- كاتب وأديب ومفكر عربي ينتمي إلى الطائفة الدرزية (1869 -1946) إشتهر بلقب أمير البيان لغزارة كتاباته وباعتباره واحدا من كبار المفكرين ودعاة الوحدة الإسلامية والوحدة والثقافة.

الإقامة العامة عدة إجتماعات تحدثا فيها محادثات سياسية حاول فيها المندوب الفرنسي تقريب وجهة النظر بين إدارة الحماية والوطنيين. وإنتهى إلى أن يعرض على علال الفاسي أن يتولى وزارة العدل في "الحكومة المغربية". ولكنه إعتذر عن عدم قبول وظيفة في نظام ليس للوزير فيه حرية التصرف. كان سن علال الفاسي إذ ذاك لا يتجاوز 24 سنة.

-2-

ساهم علال الفاسي بعد ذلك في تحضير دفتر "مطالب الشعب المغربي" وفي الوفد الذي قدمه للسلطان والإدارة الفرنسية (1934) ثم ترأس المؤتمر الأول الذي عقدته "كتلة العمل الوطني" في الرباط (1936) بعد أن يئست من تنفيذ مطالب الشعب المغربي. وقد أسفر هذا المؤتمر عن استخلاص "المطالب المستعجلة" من المطالب العامة. وتهم بالأخص: الحريات الديموقراطية العامة، وإصلاح التعليم، ونظام القضاء، والفلاحة، والصحة العمومية، والتخفيف من الضرائب، وتمكين العمال والحرفيين من حقوقهم.

لم يكن لهذه المطالب المستعجلة حظ أحسن من المطالب العامة. ولذلك نظمت الكتلة بزعامة علال الفاسي مهرجانات لتأييدها في المدن الكبرى، وبعد مهرجان فاس نظمت مهرجانا خطابيا في الدارالبيضاء. فاعتقل منظموه والذين كان من المنتظر أن يخطبوا فيه. كان على رأسهم علال الفاسي ومحمد اليزيدي ومحمد بن الحسن الوزاني.

إحتجاجا على هذا الإعتقال نظمت مظاهرات شعبية في بعض المدن المغربية التي إنتهت باصطدام مع الشرطة، وإعتقالات واسعة في صفوف المناضلين الوطنيين. لم يدم إعتقال علال الفاسي وصحبه والمناضلين الذين تظاهروا في المدن غير شهر واحد، أفرج عنهم بعده. واصل علال عمله السياسي على رأس الكتلة، وإمتاز العمل في هذه الفترة بكثير من التحديات ممثلة في:

ـ الصحافة الوطنية التي سمح بإصدار بعضها بالعربية والفرنسية. وكان

للكتلة صحيفة أسبوعية بالعربية "الأطلس" التي كان علال يكتب فيها مقالات في مهاجمة نظام الحماية، وتصرفات وسلوك بعض الإداريين فيها والقواد الكبار؛

- إثارة الرأي العام إزاء مشاكل سياسية كمشكلة "ماء أبي فكران" في نواحي مكناس، الذي حاولت الإدارة أن تحوله لضيعات المعمرين، كما حاولت ذلك من قبل بالنسبة لماء "وادي فاس". وقد أفضت هذه المشكلة إلى إصطدامات دامية ذهب ضحيتها عدد من المواطنين؛

- تنظيم الكتلة على أساس حزب منظم، دون إذن قانوني، ينخرط فيها المواطنون وتفتح مراكزها في المدن، وتتحدث باسم الحركة الوطنية، مع أن الإقامة العامة لم تكن تعترف رسميا بالكتلة. وقد قررت الإدارة حل الكتلة (مارس 1937) فنشأ بدلها "الحزب الوطني"؛

- إجتماعات تنظيمية مع الشغالين المغاربة للدفاع عن حقوقهم وتكوين نقابات مغربية. بدأ العمال بالفعل يتجهون في هذا المخطط؛

- إجتماعات تنظيمية مع الحرفيين لتكوين تعاونيات؛

- مقاومة الخطة الإستعمارية في نزع ملكية الأرض من الفلاحين لصالح المعمرين؛

- بث روح التمرد في البادية ضد رجال السلطة الذين يعتدون على المواطنين كما حدث في بني يازغة بناحية فاس؛

- الإحتجاج ضد "الحج الرسمي" لكنيسة سانتا تريزا في مدينة الخميسات. وقد جعلت إدارة الحماية من هذه العملية مظاهرة دينية للكاثوليكيين الأجانب في مدينة فلاحية مسلمة لا يوجد فيها من المسيحيين إلا الرهبان الأجانب. وكان ذلك مظهرا من مظاهر السياسة البربرية.

هذه التحديات، وغيرها كثير، التي قادها علال الفاسي، جعلت الإقامة العامة تخطط للقضاء على الحركة الوطنية. وإذا كانت قد تراجعت (آخر 1936) فأفرجت عن المعتقلين، فلأن المقيم العام الجنرال شارل نوكيس عيّن حديثا من حكومة "الجبهة الشعبية". وكان نوكيس متواجدا أثناء حوادث 1936 في باريس.

ولم يرد أن يتحمل أمام حكومته الشعبية مسؤولية الاضطرابات في المغرب، وهو ما يزال حديث العهد على رأس الإقامة. ولكنه بعد ذلك بنحو 11 شهرا كان قد مهد الجو. وإتخذ حوادث الإصطدامات الدامية في "بوفكران" و"بني يازغة" وتنظيم الكتلة على أساس حزب علني، حجة لإعتقال قادة الحركة الوطنية وفي مقدمتهم علال الفاسي الذي نفي إلى الغابون والكونغو حيث قضى فيهما تسع سنوات في المنفى، لم يفرج عنه إلا بعد الحرب العالمية الثانية 1946[2].

قضى علال الفاسي نحو أربع سنوات منها في قرية صغيرة "مويلا" بجنوب الغابون، ثم نقل بعد ذلك إلى برازافيل حينما أخذت قوات الجنرال دوكول تسيطر على افريقيا الاستوائية. وفي هذه الأثناء أجرى المسؤولون الفرنسيون من إدارات دوغول محادثات معه في شأن مستقبل المغرب. وكتب رسائل إلى زعيم فرنسا الحرة يؤكد فيها استعداد المغرب للتعاون مع "فرنسا الحرة" إذا كانت ستحقق مطالبه في إعلان إستقلال المغرب، وبما أن الجنرل دوكول ومساعديه لم يكونوا مستعدين لإعلان إستقلال المغرب، فقد طويت صفحة هذه الإتصالات. ونفي علال الفاسي إلى قرية "مایاما" الكنغولية (أكثر عزلة من مويلا)، لمدة خمس سنوات أخرى.

-3-

بعد عودته إلى المغرب (يونيو 1946) إستأنف علال الفاسي نشاطه كزعيم لحزب الإستقلال. وكان الحزب قد انفتح على العمل في الخارج إلى جانب العمل في الداخل. فتح الحزب مكتبا له في باريس للإتصال والدعاية للقضية المغربية كما تكونت في مصر "رابطة الدفاع عن المغرب" من أعضاء الحزب الذين أنهوا دراستهم في القاهرة، ثم كونوا مع الحركات التونسية والجزائرية "مكتب المغرب العربي". وفي هذا الوقت تأسست الجامعة العربية التي ربط المكتب صلته بها. لهذا سافر علال الفاسي إلى فرنسا، ثم إلى القاهرة حيث إتخذها مركزا للدعوة للقضية المغربية في المشرق العربي جميعه. وساهم في هذه الفترة في تحرير الزعيم البطل عبد الكريم الخطابي (1 يونيو 1947). وفتحت له سائر الجمعيات والنوادي أبوابها للمحاضرة والحديث والإتصال.

2 - عن هذا الموضوع، راجع رواية "المنفيون...ينتصرون"، عبد الكريم غلاب، نشر دار المعرفة، (2014).

ومن القاهرة كان على صلة وثيقة بالمغرب وبحزب الإستقلال.

لم تكن الإدارة الفرنسية تنظر إلى وجوده في المغرب نظرة إرتياح، خاصة بعد أن عادت إلى سياسة القمع منذ أن تولى الجنرال جوان مسؤولية الاقامة العامة (1947) ولذلك عاد علال الفاسي إلى طنجة (ديسمبر 1948) بعد أن أنهى مهمته في الشرق العربي. وكان بذلك قريبا من الحزب، تعقد معه اللجنة التنفيذية إجتماعا في طنجة كلما تطلب الأمر ذلك.

كانت طنجة متنفسا للحركة الوطنية نظرا لوضعيتها الدولية. ومنها قاد علال الفاسي النضال ضد سلوك الجنرال جوان مع السلطان محمد بن يوسف ومع الحركة الوطنية طيلة السنوات الخمس التي ولي فيها سلطات الاقامة العامة، وضد تصرفات خلفه الجنرال كيوم الذي نفذ سياسة الحكومة الفرنسية في محاولة القضاء على الحركة الوطنية ونفي السلطان وعائلته. فمن طنجة كان يصدر البيانات للعالم أجمع ويتصل بمختلف الشخصيات والهيئات الدولية. ومن طنجة كان يتنقل في أنحاء المعمور من أندونيسيا حتى أمريكا، شمالها وجنوبها، داعيا للقضية المغربية وموجها الرأي العام الدولي إلى خطورة السياسة الإستعمارية التي تسلكها الإدارة الإستعمارية بالمغرب.

كان علال الفاسي يواصل عمله في القاهرة عند إقدام الإقامة العامة على نفي محمد بن يوسف (20 غشت 1953). ومن إذاعة "صوت العرب" وجه نداءه التاريخي المشهور الذي أكد فيه أن شعب المغرب لا يعترف بأية سلطة إلا سلطة محمد بن يوسف، ودعا الشعب فيه أن يحمل السلاح للنضال ضد الوجود الإستعماري وتصرفات الإقامة العامة.

وعلى إثر إعلان نداء القاهرة صرح المقيم العام الجنرال كيوم: "علال الفاسي إقترف خيانتين: خيانة لبلده وخيانة لدينه، وقد إعتبر أنه من الحذر أن يلجأ بعيدا إلى القاهرة لينفث منها كالحيّة سمومه على العالم".[3]

3- الحسن الثاني، التحدي، الطبعة الثانية (1983)، صفحة 94.

وبعد "نداء القاهرة" بدأ العمل الفدائي بالمغرب بمحاولة علال بن عبد الله القضاء على الدمية محمد بن عرفة[4] التي نصبت على العرش. وتوالت الأعمال الفدائية التي كانت تقوم بها التنظيمات الإستقلالية بتوجيه من علال الفاسي ومساعديه وكان آنذاك يتنقل بين تطوان وأوروبا والشرق العربي.

وفي مصر، ومن "مكتب المغرب العربي"، أشرف علال الفاسي على تكوين "جيش التحرير الجزائري" و"جيش التحرير المغربي" باتفاق مع القيادة الجزائرية التي أعلنت طبقا لهذا الاتفاق ثورة الفاتح نوفمبر 1954 كما أعلنت ثورة جيش التحرير المغربي في الريف (أكتوبر 1955) وهو الذي أعلن البلاغ الأول لجيش التحرير المغربي (4 أكتوبر 1955).

-4-

عاد علال الفاسي إلى المغرب (ربيع 1956) بعد عودة محمد بن يوسف وإعلان الإستقلال. وقد أعلن قبل ذلك موقفين أساسيين:

أولهما: أنه كان ضد المائدة المستديرة التي نظمتها الحكومة الفرنسية في "إكس ليبان"[5] (غشت 1955) لأنه كان يعتبر المفاوضة مع فرنسا، وعلى شكل المائدة المستديرة التي جرت عليها غير ذات موضوع، قبل عودة محمد بن يوسف وإعلان الإستقلال.

وثانيهما: أن إستقلال المغرب سيظل غير تام ما لم يُعترف بوحدة المغرب ضمن جميع مناطقه، ومنها الصحراء المغربية، الشرقية منها والغربية.

---

4 -حفيد السلطان محمد بن عبد الرحمن (محمد الرابع) وابن عمّ المولى يوسف (1886-1976) نصّبه المستعمر سلطانا صوريا على المغرب عقب نفي محمد بن يوسف (20 غشت 1953). تم خلعه عشية رجوع محمد بن يوسف (15 أكتوبر 1955). إنتقل إلى طنجة، ثم إلى مدينة نيس حيث وفرت له الحكومة الفرنسية مسكنا فخما وتعويضات مالية هامة. عاش مع بقية العملاء حتى لقي ربه (17 يوليوز 1976).

5- Aix les Bains، منتجع مياه معدنية بعيد عن مدينة جونيف السويسرية بحوالي 90 كلم.

وقد إتسم كفاح علال الفاسي أثناء الإستقلال بالعمل من أجل موريطانيا وجميع أجزاء الصحراء المغربية التي إغتصبتها فرنسا وإسبانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وإقرار نظام ديمقراطي دستوري. ومن أجل هذين الهدفين ساهم في المجلس التأسيسي ووضع "القانون الأساسي". وعلى أساسه ذلك ساهم علال الفاسي في الحكومة المغربية كوزير للشؤون الإسلامية (1961 - 1963).

خلال مدة مساهمة علال الفاسي في الحكومة المغربية ساهم في نشاط إسلامي وعربي مهم. فكان من مؤسسي حركة "فتح" الفلسطينية، وبذل جهودا لتقريب شقة الخلاف بين البلاد العربية وإيران، يوم كانت إيران تثير صعوبات في وجه بعض البلاد العربية في الخليج، وتهدد العراق عن طريق إثارة الأكراد. وكان من مؤسسي "رابطة العالم الإسلامي" في مكة.

وإلى جانب عمله النضالي داخل المغرب وخارجه ظل على إتصال بالميدان العلمي فكان يلقي دروسه كأستاذ في كلية الحقوق ودار الحديث الحسنية. وكان هذا العمل مصدر عيشه وعيش عائلته. وكتب مجموعة مهمة من الكتب الفكرية والسياسية التي ضمنها أفكاره.

عاش علال الفاسي حياة متحركة منذ طفولته حتى اللحظة التي أسلم فيها الروح. أكسبته هذه الحياة المتحركة شخصية ذات أبعاد متعددة، شخصية الوطني والمناضل والمفكر والعالم والكاتب والشاعر والخطيب. فهو من نماذج زعماء الثورات الكبرى الذين لا يناضلون من منطلق عاطفي وفلسفي. وفكره الوطني يتسع في نطاق الشمولية الفكرية. ولذلك كانت الوطنية هي المفتاح الأول لشخصيته.

-5-

الوطنية:

ولعل مما جعل علال الفاسي وطنيا صلبا في وطنيته، أنه درس التاريخ: تاريخ المغرب وجغرافيته وموقعه الاستراتيجي فوجد أنه خضع لعدة غزوات، منذ التوسع

الروماني حتى الامبراطوريتين الفرنسية والإسبانية. وعاش مع المغرب في العصور الأخيرة وهو يقاوم البرتغال في الشواطئ المغربية. المقاومة إنتهت بمعركة وادي المخازن (1578). وقاوم الاسبان في سبتة ومليلية حتى إنهزم أمامهم في تطوان (1860)، وقاوم الإنجليز في طنجة، وناصر الجزائر ضد الإحتلال الفرنسي حتى إنهزم أمام الفرنسيين في إيسلي (1844)، ووقع ممثلو المغرب معاهدة الحماية في فاس، ثم ثار في الصحراء وفي فاس وفي الأطلس وفي الريف. هذا هو النموذج الذي قدمه التاريخ كوطن لعلال الفاسي، فكان لابد أن يكون إبنا لهذا الشعب الذي قدم الأبطال الذين حموا هذه البلاد طيلة تاريخها.

الوطنية عند علال الفاسي لا يحددها التاريخ وحده ولا الأرض وحدها ولا الإنسان وحده، ولكنها مدينة لكل ذلك، ولأكبر من ذلك، وهو الإنسانية. ولهذا يؤكد أن الفكر الوطني ينبع من التحام النموذج النفسي بروح الأرض والتحامها معا بروح العصر. ولهذا فالوطنية لا تعتمد على الجنس كعرق وعنصر، بل إن علال الفاسي ضد العرقية "لأنها تعتبر المثال الثقافي للإنسان في أفق حيواني خالص. وفوق ذلك فهي مادية محضة."

ولهذا فهو ينظر إلى المغرب العربي على أنه وطن للمغاربة، وإلى الوطن العربي على أنه نموذج للوحدات الثقافية والحضارية والجغرافية، وإلى الأمة الإسلامية أو العالم الإسلامي على أنه وطن للمسلمين الذين توحدهم العقيدة، يمكن أن يتعاونوا من خلالها سياسيا وإقتصاديا وثقافيا. وهذا هو الدور الذي كان يجب أن تخطط له الخلافة في مخطط لتعبئة المسلمين للدفاع عن العقيدة وعن الغزو الديني والإستعماري الذي يواجهها.

ومن هنا نرى أن علال الفاسي لم يكن متعصبا ولا شوفينيا، بل كان، إنطلاقا من سعة فكره، يرى أن الوطنية ليست ضيّقة الأفق منكمشة على نفسها، متوارية عن الإنسانية التي هي أصل كل وطنية.

يستند علال الفاسي في نضاله الوطني على التنظير أكثر ما يستند على العاطفة. في كل القضايا التي عالجها، سياسية أو فكرية أو إجتماعية أو إقتصادية

لا يصدر فيها عن رأي مرتجل ولا توجه سياسي ظرفي، ولكنه يدرس الموضوع ويعد له علميا، ويفكر فيه عمليا، ثم يبحث فيه عن الرأي فيأخذ بذلك طابع المذهب والنظرية وكثيرا ما يتفرد بها، لأنه كان يومن بخصوصيات الشعوب، وبأثر التاريخ الخاص في تكييف الحاضر والإعداد للمستقبل. وكما كان يكره التقليد في العقيدة والممارسة الدينية والإجتماعية، ويومن بالإجتهاد ويمارسه في تنظيره الفقهي كما تؤكد ذلك كتبه ومنها كتاب "دفاع عن الشريعة" و"مقاصد الشريعة" وكتبه في أصول التشريع وتقاريره الرائدة التي كتبها للجنة وضع مدونة الأحوال الشخصية.

تبعا لما سبق، يؤصل علال الفاسي :

- النظريات الوطنية في الإستقلال والوحدة والتحرر من كل رواسب الإستعمار وقيمه؛

- النظريات السياسية في البناء الديمقراطي وتحديث الدولة المغربية ووحدة المغرب العربي والوحدة الإسلامية؛

- النظريات الإجتماعية في بناء المجتمع بلا طبقات، وفي تحرير المجتمع من مظاهر التخلف؛

- النظريات الإقتصادية لبناء إقتصاد متكامل غير ربوي ولمصلحة أكبر شريحة في المجتمع، لا لصالح الفئة المحظوظة التي تملك المال بينما تحرم من منافعه الفئة التي تملك العمل أو تملك الفكر، أو الفئة التي ليس لها حظ من كل ذلك.

النظرية عند علال الفاسي تسبق الفعل، وهي أساسُه. والنظرية عنده غير مقتبسة، فلا يومن بفكر الآخرين إلا من منطلق الإستمرارية. وبقدر ما يقدر المفكرين القدماء والمحدثين، مسلمين وغير مسلمين وملحدين (إتفق معهم في الرأي أو إختلف)، يعمل دائما في إطار الخصوصية الفكرية التي تنبع من كراهيته للتقليد وإيمانه بحرية الفكر وثقته في فكره وما يمكن أن يضيفه للفكر الإنساني.

الحرية الإنسانية:

وإذا أخذنا الحرية كمنطلق لنضال علال الفاسي الوطني والسياسي منذ وعى نجد أنه لم ينطلق فيها من مسلمة يهتف بها الناس جميعا ويتعارفون على مفهومها العام دون أن يتساءلوا:

- وما هي الحرية؟

ولعلك لو وضعت هذا السؤال على كبار المناضلين الذين مروا في التاريخ الإنساني لأجابوك جواب العجائز العاجزات عن التفكير في المسلمات: "إنها الحرية".

ولكن علال الفاسي وجد نفسه فيلسوفا وهو يتساءل عن مضمون الحرية فلم يُقنع بها قلبُه عقلَه. من هذا المنطلق، قرأ علال الفاسي عن الحرية أكثر مما كتب من وجهات النظر الفلسفية، والتاريخية والسياسية، ومن وجهة نظر الفكر المسيحي والإسلامي وعصر التنوير والديمقراطيات الغربية والديمقراطيات الإشتراكية. واستعاد ما يعرف من الفكر الإسلامي وخرج بنظرية متكاملة تقوم على المبادئ الآتية:

ـ الحرية مرادفة للإنسانية لأنها الغاية التي تسعى إليه عن طريق العمل. الإرادة هي المظهر الأول للحرية، فلا تتحقق إرادة في أن تريد أو لا تريد، أن تعمل أو لا تعمل، دون أن تحمل في طياتها حرية التوجه نحو العمل أو الترك. وإذا كان هذا مفهوما بدائيا للحرية، أي الحرية المطلقة، فإنه لا يمر بهذا المفهوم البدائي الذي يعتبر كل الأحرار أن لهم الحق في التمتع به وإنما يتساءل: هل هذه الحرية المطلقة موجودة؟ لا ليصدم قارئه بالتشكك، ولكن ليؤصل النظرية البدائية بالفكر؛

ـ الحرية منطلق العقل. العقل الذي لا يفكر بحرية، أو يفكر من منطلق الآخر ليس بعقل. وقد نستغرب من مفكر إسلامي يرى أن الإيمان الذي يصدر عن غير حرية ليس إيمانا. الإيمان إقتناع وإطمئنان؛

ـ الحرية المطلقة اللامتناهية هي حرية الله الذي يتصف بكامل الحرية في أن يفعل ما يريد ويريد ما يشاء.

وهنا تبرز رؤية العالم المسلم لا تختفي ثقافته الإسلامية، وهو يحلل قيمة وضعية أصبحت من أهم ما يتواضع المثقفون المعاصرون، وفي مقدمتهم الفلاسفة المؤمنون منهم والملحدون، على دراسته باعتباره القيمة التي تسير حياة الإنسان المعاصر الذاتية والمجتمعية. ويتلاقى علال الفاسي في إبراز قيمة الحرية المطلقة لله وهو يستمدها من معارفه الإسلامية، مع الفلاسفة الوضعيين كديكارت[6] وروجيه باستيد...[7] ولكن علال الفاسي يتفوق وهو يقرر أن حرية الإنسان مستمدة من حرية الله المطلقة، لأن الإنسان في كماله يتخلق ببعض أخلاق الله، أي أنه يقتبس من نوره، ولكنه لا يقوى على أن يريد أكثر مما تتسع له إنسانيته، فهو لا يقوى على أن يعاكس بعض ما يريده الله، ولا تتسع حرية الإنسان في إرادته على أن يريد أكثر مما تتسع هذه الإرادة، حرية الله خلاقة، وحرية الإنسان مطلقة مبدعة.

ويؤكد علال الفاسي أن هذه الحرية الكاملة أو المحدودة وهي حرية الإختيار هي منبع كل الحريات الأخرى. وعلى حد تعبيره: "منها تطل كل الحريات الأخرى".

ويعتبر علال الفاسي أن الإسلام لا يعتبر الحرية حقا من حقوق الإنسان فحسب، ولكن يعتبرها كذلك واجبة على الإنسان. فنحن، كبشر، يجب أن نتمتع بالحرية وليس من حقنا أن نتنازل عنها. والطاعة والقانون العادل لا يحدان من الحرية، ولكنهما يعممانها.

وحتى تكون الحرية كاملة لا يمكن أن تبقى في إطار التجريد. ليست هي حرية النفس التي هي مطلقة، لأنها خاصة بالفكر وعلاقته بالإرادة وبالواقع، لكنها الحرية المدنية التي تتمثل في الحياة الإجتماعية. وهي أصل كل الحريات الأساسية لأنها تتعلق بحياة الإنسان، وترجع إلى إثبات قيمته وضمان كرامته كفرد. وهي التي تتيح له أن يتقدم نحو الحرية الكاملة كمثل أعلى.

وتتمثل هذه الحريات الأساسية في:

6- René Descartes (1650 -1696)، فيلسوف فرنسي، ضالع في الرياضيات والفيزياء.

7- Roger Bastide (1898 -1974)، عالم اجتماع فرنسي، متخصص في الأنتروبلوجيا.

ـ الحرية القومية: تعني إستقلال الوطن. ولا تغني عن هذه الحرية الحريات العامة التي قد يحصل عليها شعب ما في ظل الإحتلال. هي ليست حقا فحسب لكنها واجبة أيضا. فليس من حق دولة ما أن تتنازل عنها أو تقبل الإستعمار؛

ـ الحرية الشخصية : كل شخص له الحرية المطلقة في تصرفاته لا يعتدي أحد عليها. تدخل الدولة بالإشراف والتوجيه والمساعدة وبالحماية أحيانا لا تتنافى مع الحرية الشخصية. والدولة لا تبدو إلا كحارس على تنفيذ القانون وتعميم الحرية بين المواطنين. وتنظيم القانون إنما كان لضمان عدم الحيف أو الاعتداء على الحرية الشخصية في كل مظاهرها، من حرية التصرف، إلى المنزل، إلى الملكية الخاصة، إلى الشغل، إلى الدين والتدين، إلى حرية الفكر والتعبير عنه؛

ـ الحرية السياسية: حرية العمل في الميدان العام والمشاركة في تدبير شؤون البلاد، ليس عن طريق الإدارة والأمن ووضع النظم والقوانين، والحكم والتعليم والقضاء فحسب، ولكن عن طريق الرأي والتفكير والتوجيه وتأطير المواطنين وتنظيمهم كذلك. الحرية السياسية لا تتحقق إلا في الحكم الديموقراطي، أي في النظام الذي يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه. ولذلك فأكبر مظهر للحريات السياسية هو حرية الإنتخاب، وإبداء الرأي، أي التعبير الخارجي عن التفكير الباطني. ولا يمكن أن تتأتى هذه الحرية بغير حرية الحركة والإجتماع والتكتل. والأحزاب السياسية أحسن الدعائم التي ينبني عليها النظام الديموقراطي. ومثل الأحزاب النقابات والجمعيات المهنية والفكرية. ولا شيء يضمن الحريات السياسية مثل إستقلال القضاء؛

ـ الحرية الإجتماعية: يُقْصَدُ بها حرية التعليم والإستشفاء والعمل، وإختيار العمل الذي يريد ويرغب فيه المواطن، والتأمين ضد البطالة، والحصول على القدر الحيوي من الأجور الذي يتفق مع قدر العمل وحاجة العامل، والتأمين على المرض والشيخوخة وولادة المرأة؛

ـ الحرية الإقتصادية: تقوم هذه الحرية على تعادلية في المجتمع. فلا إقطاعية في الأرض وما تنتج وما يصنع منها من حديد وفحم وسماد. ولا إقطاعية في رأس المال

(البنوك مثلا)، ولا إحتكار لوسائل العيش ووسائل الإنتاج ووسائل العمل. العمل للجميع والفرص متساوية في الإبتكار. وحق العمال وسائر المنتخبين يجب أن يكون مضمونا لمراقبة التدابير الإقتصادية والمالية، وإقرار الضمان الإجتماعي، وتحرير المواطن من خوف اليوم والغد، أي من التهديد بالعوز والبطالة والشيخوخة.

ولكل الحق في أن يأكل وفق حاجته ويلبس ما يليق بكرامته، ويتزوج ويبني الأسرة التي يريد، ويجد الوسائل للإستشفاء عند الحاجة والدراسة وشغل الوقت الثالث. كل ذلك ليس عن طريق الصدقة أو الإسعاف، ولكن عن طريق العمل الشريف والكسب المشروع في ظل حماية الدولة وكنفها، وفي أمن من كل إضطهاد وإستعباد.

حينما يحلل علال الفاسي هذه الحريات جميعها يتنقل بين أفكار الفلاسفة في مختلف عصور التاريخ فيدرس الفكر الفلسفي في تحليل مشكل الحرية من الفكر المسيحي حتى الفكر الماركسي وما بعد الماركسية. ويطبق هذه النظريات الفلسفية على الحريات العامة التي تعني المغرب والتي كافح من أجلها، وهو يناضل من أجل الإستقلال وبناء الإستقلال كحرية الرأي والتعبير والإجتماع وتأسيس الأحزاب والجمعيات والنقابات، والحريات الإجتماعية، كحرية التعليم والصحة.

والمنطلق الأول والأخير في الفهم العميق لمفهوم الحرية هو ثقافته الإسلامية التي تنفذ إلى عمق الفكر الإسلامي وإلى مقاصد تعاليم الإسلام وشريعته.

وبذلك جمع علال الفاسي في معالجته لهذا المشكل الفكري الحياتي في آن يبين النظرية في أصولها الإسلامية والفلسفية وبين التطبيق في نضال الشعوب من أجل الحرية.

ويطور علال الفاسي التفكير في الحرية وهو يستعرض نظريات الفلاسفة لينتهي إلى الرأي الإسلامي وهو رأي يسمو بالحرية إلى أسمى مراتبها.

ويمكن تلخيص نظرته الفلسفية إلى الحرية كما يلي:

ـ الحرية هي مجموع العمل النفسي للتوفيق بين الإرادة وبين المعرفة. وليست مجرد شعور ثابت، بل هي أعظم صفات الوجدان الإنساني. لذلك فالحرية الأساسية هي حرية الإختيار، ومنها تطل كل الحريات الأخرى؛

ـ تاريخ الإنسانية كله هو تاريخ الحرية بهذا الإعتبار القيمي الذي أشرنا إليه؛

- أول مظهر للحرية هو الإرادة. أي أن يكون المرء حرا في مايريد، وأن يعمل ما يريد أو لا يعمل. هذا هو المفهوم البدائي للحرية، أي الحرية المطلقة. ولهذا فإن الحرية هي التي تضفي القيمة على العمل، أي عمل.

الإسلام والشريعة والسلفية:

عُرف علال الفاسي منذ نشأته بأنه عالم إسلامي تخرج من كلية القرويين التي حمت الثقافة الإسلامية في الغرب الإسلامي أزيد من ألف ومائة سنة. ومن القرويين إستمد علال الفاسي العناصر الأولى لثقافته الإسلامية الواسعة. وكانت بداية الحركة الوطنية مطبوعة بالطابع الإسلامي. الفكرة السلفية التي نادى بها الثائرون في المشرق كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والتي نقلها عنهم الثائرون الإسلاميون في المغرب كالشيخين أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي، هي التي طبعت الفكر الثوري عند تلاميذهم وفي مقدمتهم علال الفاسي. ولذلك كانت الحركة الوطنية ذات أبعاد، في مقدمتها العودة بالتفكير الإسلامي إلى أصوله السليمة، وتطهير المجتمع من الخرافات التي إلتصقت بالدين، ومقاومة الإنحرافات التي كان الإستعمار يستغلها لتدعيم جذوره، ومعارضة كل سياسة صليبية تنهجها إدارة الحماية في المغرب كالسياسة البربرية التي أشرنا إليها سابقا.

العمل السياسي إرتبط، إذن، بالإسلام لأن المجتمع المغربي مجتمع إسلامي، ولأنه يستجيب للأفكار الإسلامية الواضحة في ذهنه أكثر مما يستجيب للأفكار التجريدية السياسية أو الإقتصادية. وعن طريق الإسلام، كان الشعب يفهم الوطنية ويقاوم الإستعمار، وعن طريق الإسلام كان يتفهم الممارسات الإقتصادية للإستعمار.

وإنطلاقا من ثقافته وممارسته السياسية عن طريق الإسلام كتب علال الفاسي عدة كتب، وفصول من كتب، عن الفكر الديني والإسلامي وعن الشريعة الإسلامية. وتتسم كتاباته بالنزعة الفلسفية في فهم الدين ودور الشريعة كـقانون إسلامي في تطوير المجتمعات. الدين عنده ليس خاصا بجانب من جوانب الحياة دون غيرها، ولكنه يسري في كل شؤون الحياة. ويعتبر الإلحاد موقفا سلبيا لا يسري في أمة إلا عادت القهقري وآلت بعد عزتها إلى الإنحلال. أما الثورات التي قامت في العالم المسيحي ضد الكنائس ومظاهر الدين فهي، في الحقيقة، ثورات ضد الأنظمة الكهنوتية، كما وصلت إليه في عصور التخلف. وإنطلاقا من الفكرة الثورية للإسلام كما فهمها، قال علال الفاسي: "الإسلام بصفة خاصة لا يمكنه إلا أن يجند كل ثورة تقضي على التحكم في العقول والأشخاص باسم الدين، أو تمنح طائفة من البشر مكان التشريع الديني والقداسة الروحية التي تجعلهم آلهة أو أنصاف آلهة".

وللعقل قيمة كبرى في الإسلام والقرآن. الدين، في نظر الإسلام، لا يمكن إلا أن يكون عونا للعلم. والصراع الذي قام بين العلم والدين في أوروبا لم يكن في الحقيقة إلا كفاحا من العلم رغبة في التحرر من الإرتباط الكلي بالأفكار الرسمية للكنيسة.

يعالج علال الفاسي فكرة فصل الدين عن الدولة. منشأ هذه الفكرة آت من رد فعل لبعض الرهبان الألمان لمقاومة الإضطهاد الحكومي للمسيحية. وإذا كان الإسلام لا يعطي سلطة معينة لرجال الدين لأن السلطة الكنيسية غير موجودة في الإسلام، فلا مجال لفصل الدين عن الدولة، حتى لا تكون هناك دولة داخل الدولة.

من هذه الأفكار التحررية عن الدين يدرس علال الفاسي الإسلام فيرى أنه لم يكن موجها لمعاداة أي دولة أجنبية أو محاربتها، ولا لمعاداة دين من الأديان، ولكنه ثورة عقلية وروحية وإجتماعية ضد الوثنية وضد الطغيان والإستعباد كلما ظهر. فهو ثورة على المجتمع الفاسد، وتحرير العقل من سيطرة أي طغيان ينومه. الإسلام يستدعي من أجل تحقيق أهدافه إتصالا كاملا بالفكر الإنساني في شتى أشكاله، والتعاون المطلق مع كل ذوي الأهداف المشتركة ولو لم يدخلوا في الإسلام، ولو لم يعترفوا به كدين سماوي منزل.

ويعتبر علال الفاسي أن أعظم طابع يميز الديانة الإسلامية هو قابليتها للتطور وقدرتها على أن تكون صالحة لكل الطبقات ولكل العصور. فقد إحتفظت بأصول العقيدة في وحدانية الله والإيمان بما جاء في القرآن من نظريات وممارسات، وتركت للمسلمين حق النظر في كل ما هو من شؤون الحياة التي تتطور بحسب تطور المصلحة.

ولهذا فالإسلام حركة متطورة إلى الأمام يمنع المسلمين من الإنكماش على أنفسهم والإستسلام لعوامل الإنحطاط، بل يدفعهم للإتصال بكل العقول والمعارف، وإلتقاط الحكمة من كل الجهات، والتطلع إلى كل جديد.

ويعتبر علال الفاسي أن الشريعة الإسلامية نزلت أصولها من السماء، ولكنها تفتح لنفسها طريق النمو مع الزمان، لا في قواعدها الأساسية، ولكن في جزئياتها التي تنطبق عليها. وبما أنها نزلت، في أصولها، من السماء، فهي قائمة على أسس من العدل ومبادئ الإنصاف. وهي تتميز كذلك بحمايتها للأخلاق، لأن الأخلاق جزء من إيمان، وهي بذلك تدخل في دائرة الإلزام الإسلامي، وتتميز الشريعة كذلك بيسر تكاليفها، وبتحرير الإنسان من أثقال دينية ودنيوية ما أنزل الله بها من سلطان. الخطيئة الأصلية التي أثقلت كاهل البشرية زمنا لا وجود لها في الإسلام. ولذلك فالشريعة تدعو إلى الحريات الأساسية: الحرية من الاسترقاق، وحرية المرأة، والتحرر من الحرب العدوانية التي إعتبرها الإسلام جريمة.

ومن مميزات الشريعة عند علال الفاسي أنها لا تطلب من الإنسان الإيمان بما فوق العقل ولا بما يناقضه، ولا ما يتنافى مع الفطرة السليمة أو يعارضها. فهي متعادلة، وتعادل بين الروح والمادة ولا تحتقر الجسد فتأمر بتعذيبه ولا تذل النفس، ولا تقر الزهد المغرق الذي يتجاوز حدود الطاقة. وهي تفرق بين المعاملات بين الربح والربا، ولا تعطي للمال قيمة الغاية.

وإذا كانت الشريعة تحفظ الإستقرار التشريعي فلأن أصولها ثابتة، ولكنها تساير الظروف والأزمنة بحسب تغير المقتضيات والإعتبارات. وهذا هو سر الإجتهاد الذي أباحه الإسلام للقادرين عليه من المسلمين.

الفكر الديمقراطي:

مثال آخر عن شمولية فكر علال الفاسي نأخذه من فكره الديموقراطي، أو بصورة عامة من فكره السياسي ونظريته في طبيعة الحكم وممارسته. ويمكن أن نجمل نظرياته في ذلك في النقط التالية:

- إذا كانت قيمة الحكم هي أنه يعمل للمجتمع جميعه، فإن في كل عضو من المجتمع سلطة معنوية يتحمل مسؤوليتها كحق وواجب: لا يحق لأحد أن يسلبه منه ولا يجوز له أن يتخلى عنه، حتى في إهمال الإنتخابات وعدم المشاركة فيها، ولا أن يتخلى عن مراقبة السلطة إذا ما أناب عنه، عـن طريق الإنتخاب، من يقوم بها بالتشريع أو بالتنفيذ؛

- الحكم يجب أن يكون مشتركا بين الشعب والرؤساء الذين يختارهم. ولذلك فمسؤولية الحكومة خير حل للمشاكل التي تعرض لأنظمة الحكم؛

- الحق الذي تملكه الأمة في أن تحكم نفسها بنفسها، هو نفس الحق الذي تملكه في أن تنيب عنها من يقوم بتسيير شؤونها، وهو نفس الحق الذي يمكنها من المراقبة الشعبية لأعمال من تنيبهم عنها.

هذه الأسس تفرض عند علال الفاسي تنظيم الحكم على أساس ديموقراطي دستوري برلماني إنتخابي. وهو بذلك يرفض كل أنظمة أوتوقراطية أو إستبدادية أو ديمقراطية شكلية لا تنبع فيها المؤسسات من الشعب، أو تنبع من المصالح المالية والإقتصادية المتناقضة التي يصبح الحكم فيها أداة للدفاع عن هذه المصالح أو لنصرة مجموعة من أصحاب المصالح ضد مجموعة أخرى. ولا يقبل الحزب الوحيد[8]، ذلك أن الحزب الوحيد يلعب الدور الرسمي في الدولة، ويكون عصبية في الحكم بين المواطنين الأكثر إخلاصا للحزب والنظام القائم عليه، ويؤدي، بالتالي، إلى تكدس السلطة في يد فئة واحدة.

8-هذا الرأي أعلنه علال الفاسي (1949) وظل مخلصا له رغم كل التطورات التي حدثت في المغرب المستقل.

- ضرورة رقابة الناخبين على ممثليهم حتى يبقى للشعب نصيبه من المسؤولية أثناء نيابة شخص عن مجموعة.

على أساس هذه الأفكار التي إعتنقها كمبادئ، ظل علال الفاسي يكافح في سبيل إقامة نظام ديمقراطي في المغرب وأسهم عمليا في المجلس التأسيسي الذي إنتخب رئيسا له، رغم أنه ولد ميتا. ووضع القانون الأساسي (1961) وشارك في برلمان (1963). وقاد بنفسه الحملات الإنتخابية والاستفتائية.

وكان النظام الديمقراطي عنده المثل الصالح للحكم ولإخراج البلاد النامية من أزماتها.

القضايا الإقتصادية:

مثال آخر عن شمولية فكر علال الفاسي نأخذه من تفكيره في القضايا الإقتصادية. درس علال الفاسي النظريات الإقتصادية التي فكر فيها علماء الاقتصاد في مختلف العصور والأمم. ويعتبر علال الفاسي إبن خلدون أسبق وأوسع فكرا من كارل ماركس في تفسير التاريخ بالمؤثرات الإقتصادية. ليست المؤثرات الإقتصادية وحدها هي التي تصنع التاريخ، بل يعتبر الاقتصاد فقط من أهم العوامل وأبرزها وضوحا إلى جانب بواعث أخرى كالباعث السياسي والعامل الديني والروحي والنفسي والطبيعي، والتسلط وحب السيطرة والاستئثار بالنفوذ.

من هذا الأفق الواسع درس علال الفاسي النظريات الإقتصادية عند الأوروبيين والأمريكيين وعند قدماء المسيحيين والمسلمين، عند ابن خلدون وابن مسكويه مثلا. وإنتهى إلى نظريات ليست جميعها من إبتكاره، ولكنه تبنى بعضها ودافع عنها. وإستنتج بعضها من الحلول التي ارتآها الإسلام لقضايا المال والغنى والفقر، ولتعامل المجتمع مع كل الوسائل المالية والإقتصادية في المجتمع الإسلامي الذي ينشده.

وهذه بعض النظريات التي تحدد فكر علال الفاسي الإقتصادي والتي كان يوجه إليها بلاده وهو يكتب أو يخطب في الحزب أو البرلمان أو في التجمعات الطلابية والشعبية، وفي المحاضرات التي كان يلقيها في الكلية كأستاذ أو كمحاضر.

يرى علال الفاسي أن:

ـ المشكلة الإجتماعية العصرية تتلخص في إحتكار الثروة في يد أقلية ضئيلة تستخدمها لغير صالح الفرد والمجتمع؛

ـ الرأسمالية المتضخمة آفة العصر قضت على الكفاءات وعلى الإستعمال الرشيد للثروة، وسخرت الإنسان كعبد للمصالح التي يكونها الإحتكاريون؛

ـ الرأسمالية تقضي على الحرية التي ينشدها الإنسان كقيمة؛

ـ خطر الرأسمالية العصرية أنها تقضي على كل الأنظمة والديانات والمبادئ السامية التي يدين بها الإنسان.

وعلى ضوء هذه المبادئ يؤكد علال الفاسي فشل معظم الحلول التي أتى بها الإقتصاديون والفلاسفة الإجتماعيون. ومنها النظريات الشاذة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي. ويخلص من ذلك إلى الحلول التي نجدها في الإسلام لمشكلة المال سواء كان عينا أو منفعة أو عقارا وتعامل الإنسان معه. ويمكن تلخيص نظرياته الإقتصادية المستمدة من الإسلام فيما يلي:

-المال وسيلة لا غاية أي إن كسبه يجب أن يكون لتحقيق المصالح البريئة المعتدلة للفرد والمجتمع. ولذلك فكل تجارة في المال محرمة ومنها الربا والقمار، كما هو محرم تبذير المال وإنفاق في غير المصلحة أو في إفساد الذمم وتخريب المجتمع؛

ـ الإكتساب واجب على الإنسان، ولكن من أبوابه الشرعية. الملكية إذن مباحة حتى يستطيع الإنسان أن يصرف على نفسه وعائلته. ولكن لا يجوز أن يتخذ

المال وسيلة للإحتكار، وإلا خضع لقانون كنز المال، لأن هذا الكنز يجعل منه غاية ويعطل هذا المال عن تحقيق مصلحة المجتمع؛

- الزكاة حل لمشكل المجتمع الغني والمجتمع الفقير، وهي ليست صدقة يتبرع بها غني على فقير، ولكنها حق للفقير في مال الغني، وهي ترويج وإستعمال للمال؛

- الإسلام يوجب أن يتمتع كل فرد من المجتمع بالقدر الحيوي لحياته وتعليمه وأمنه وسلامته. ولذلك يحقق التضامن الإجتماعي في أوسع مظاهره؛

- الاحكتار لكل ما يحتاجه المجتمع في حياته يعتبر محرما؛

- الإرث في الإسلام وسيلة من وسائل توزيع الثورة، حتى لا تظل محتكرة في يد فرد واحد بعد وفاة صاحبها. فإن لم يكن للميّت وارث فالمجموعة الإسلامية بواسطة الدولة هي التي ترثه؛

- ملكية العقار، أرضا كان أو ما يلحق بها، مباحة. ولكن على ألا تجتمع الأراضي كلها في يد قلة من الناس فيقع المجتمع في جريمة الإحتكار والإستغلال المضاربات لغير المنفعة.

هذه مجمل النظريات الإسلامية التي إستعملها علال الفاسي حلا للمشكلة الإقتصادية التي يرهق العالم الآن حلها. وهي التي تحرر العالم من الصراع الذي أصبح أبديا بين الفقراء والأغنياء، بين الذين يملكون المال والذين يملكون العمل ، بين الذين يملكون القوة أو العلم فيحمون ثروتهم ويتسلطون على ثروة الآخرين ويستنزفونها.

وإذا لم تكن فيها الحلول لكل الجزئيات التي تنشأ عن المشاكل الإقتصادية فهي أصول لحل هذه المشكلات.

المناضل المفكر:

من هنا نجد أن علال الفاسي المفكر يكمل علال الفاسي المناضل، ويكمل علال الفاسي العالم ويكمل علال الفاسي الداعية. وتلك هي الصفات والظاهرات التي تمثلت فيه كزعيم قاد معركة الإستقلال بكل ما أوتي من مواهب نضالية وفكرية وعلمية، وبكل ما رزق من قدرة على الإندماج في الروح المغربية وتفهمها، والنضال في سبيل المغرب إنطلاقا من هذا الإندماج، ومن التعرف على باطن الروح المغربية التي يعبر عنها تاريخ المغرب ورجاله وعلماؤه وأبطاله كما يعبر عنها واقعه النضالي ويؤشر عليها مستقبله المُرتقب.

علال الفاسي إذن لم يكن مناضلا عاديا أحب بلاده وإندمج في حلبة النضال فيها على نحو ما نرى عند كثير من المناضلين الذين إحتفظ بأسمائهم وآثارهم تاريخ إستقلالهم، ولكنه مناضل متميز. إذا سألته:

ـ لماذا تكافح في سبيل بلادك وإستقلالها؟ ولماذا تعطي حياتك من أجلها فتسجن وتعذب وتنفى، وتتخلى عن رفاهيتك ومصالحك الخاصة وعائلتك فداءً لها؟

لما أجابك:" إنني أحبها وإعترف لها بجميلها علَيَّ وعلى بني قومي" فحسب، ولكنه يجيبك أيضا:

ـ لأنها بلاد متميزة لها أرضها المعطاء التي إستطاعت أن تجتذب إليها الإنسان المغربي فيرتبط بها ويحبها، ويناضل في سبيل حريتها ضد كل التيارات الأجنبية الغازية التي تفد إليها محمولة على قوة عسكرية، أو قوة علمية إلى جانب القوة العسكرية، ولأنها بلاد لها إنسيتها التي تطبع وجودها في الكون. وتتمثل إنسيتها في قوميتها ولغتها ودينها وأرضها وتاريخها المثمر وحضارتها وخصوصياتها جميعا، كما تتمثل في العلماء والمفكرين والمناضلين والأولياء الذين تغلغلوا في روح بلادهم وتعمقوا في فهم أسرار أمتهم، وتمثلت فيهم قدرتهم على الجذب، فكان عملهم العلمي أو الجهادي منبعثا من تعمقهم في أسرار بلادهم وقومهم.

ولأضاف أيضا:

-لأنها بلاد مسلمة تعمق الإسلام في روح شعبها، فاصطبغت حياتها بالإسلام وإمتزجت بالعقيدة. وكوّن الإسلام فيها المنهج الحضاري الذي يسير عليه الإنسان في هذه البلاد، سواء في علاقته بالله التي لا تنفصل عن علاقته بالإنسان، أو في علاقته بنفسه أو بأسرته وعائلته أو في علاقته بالناس أجمعين.

ولأجابك أيضا:

- المغرب يقطنه شعب مسلم له رصيد زاخر منذ تطوره الحضاري قبل الإسلام ممثلا في الأبطال والمفكرين والمبدعين الأمازيغ، وتطوره بعد الإسلام ممثلا في الفكر الإسلامي وفي أبطال الإسلام في كل منحى وكل مثال، سواء كانوا علماء أو أدباء أو فنانين أو أولياء أو مجاهدين.

وهكذا نجد أن علال الفاسي لم يحب الأرض والسماء والإنسان العادي في المغرب ليهب نفسه للنضال في سبيلها فحسب، ولكنه أحب، إلى جانب ذلك، عمق هذه الأرض والسماء والإنسان. أحبّ العبقرية المغربية التي تتجلى في كل ما ذكرناه. فكان نضاله من أجلها، وكان إخلاصه لها، وكان تقديره العظيم لهذه البلاد بكل مقوماتها ومكوناتها وإنسانها، بكل تاريخها وحاضرها ومستقبلها.

-6-

كان الباحثون يقسمون الإيمان إلى إيمان العلماء وإيمان العجائز. ويتميز إيمان العلماء بمعرفة الله عن طريق العقل أو القلب، ويتمز إيمان العجائز بالتقرب إلى الله عن طريق العاطفة، والتعلق به عن طريق القلب. وإذا طبقنا هذا المفهوم على الوطنية نجد أن علال الفاسي كان وطنيا بالمفهومين معا، فهو عالم فيلسوف حينما يتعمق روح الوطن وإنسان هذا الوطن، وهو يحب هذا الروح العظيم الذي يسكن وطنه حينما يتعلق بأصوله الأمازيغية والعربية، وحينما يتعلق بنضاله للحفاظ على هذه الأرض ويدخرها للإسلام، أو حينما يتعلق باعتناق الإنسان المغربي للإسلام والدفاع عنه والتبشير به ونقله إلى شمال البلاد في أوروبا وإلى جنوب البلاد

في إفريقيا السوداء، أو حينما يتعلق بالنضال في سبيل البقاء على هذه البلاد في وجه التيارات الأجنبية الغازية من الشمال أو من الشرق سواء قبل الإسلام أو بعده، أو في وجه الغزو الفكري الديني والعقدي والإنسي.

وطنية علال الفاسي إذن مثال لوطنية المفكرين، ونضاله مثال لنضال العلماء الواعين بمسؤولية العلم.

وقد طبعت شخصية علال الفاسي ظاهرات ثلاث أساسية هي: أنه مفكر وعالم ومناضل.

ونقصد بالعالم المفهوم الإسلامي الشامل لعلوم الإسلام وفلسفته، كما تجلت في كبار علماء الإسلام فميّزتهم بسعة الأفق ووفرة العلم والقدرة على التمثل لروح العلم والإلتزام بأهدافه ومقاصده.

تجمعت هذه الظاهرات الثلاث في شخصية علال الفاسي فمنحت هذا البلد شخصية فريدة متميزة ليس في العلم والنضال والتفكير فحسب، ولكن كذلك في توظيف عناصر هذه الشخصية، مجتمعة لا متفرقة، في سبيل الوطن والمواطنين. هكذا نجد أن علال الفاسي حينما يفكر في الوطنية ينطلق من الفكر والعلم لا من مجرد الحب العاطفي للوطن والمواطنين، وحينما يدرس أو يكتب في القضايا العلمية الإسلامية. لا يدرسها أو يكتب فيها لهدف العلم فحسب، ولكنه يوظفها لتوجيه المجتمع المغربي الذي هو جزء من المجتمع الإسلامي الكبير. وحينما يفكر في قضايا الإنسان أو في قضايا المجتمع لا يفكر تجريديا لمجرد لتفكير كرياضة فكرية أو للخروج بنتائج علمية تجريدية، ولكنه يفكر للوصول إلى نتائج فلسفية مجتمعية يتوجه بها ويوجه الآخرين لبناء مجتمع جديد هو مجتمع ما بعد الإستقلال، مجتمع المواطنين الأحرار في وطن حر، مجتمع الشعب المتحرر من خوف اليوم والغد، المجتمع الديمقراطي الذي تعود للإنسان فيه سيادته السياسية والإقتصادية، وسيادته التي تعني التحرر من البؤس والفقر والجهل والتسلط والإستعباد والاستغفال.

الإستقلال والديمقراطية فلسفيا:

نضال علال الفاسي إذن ليس محدود المنطلق ولامحدود الهدف. بل إن الإستقلال نفسه لم يكن يعني في نظره إلغاء معاهدة الحماية والإعتراف بالإستقلال فحسب، ولكنه كان يعتبر هذا الهدف قريب المنال، ولذلك فالإستقلال يعني إستقلال الأرض من كل إستعباد ولو كان إستعباد المواطنين أنفسهم، فكان يسمي هذا الإستعباد "الإستعمار البلدي" أي تكديس الأرض في يد مجموعة من المواطنين يستغلونها لصالحهم دون الفلاحين الحقيقيين أو يتركونها هملا فلا تنتج فيضيقون بذلك على قوت المواطنين. إستقلال الأرض إذن لا يعني خروج الأجنبي، عسكري أو مدني، منها فحسب، ولكنه يعني تأهيلها ليستفيد منها كل المواطنين حتى لا يظلوا عبيد الأرض يخدمونها ولا يملكونها أو لا ينتفعون منها. لذلك كان يتبنى بحماس شعار: "الأرض لمن يحرثها".

ويأتي إستقلال الإنسان ليكمل المعنى الحقيقي للإستقلال. وتفكير علال الفاسي في إستقلال الإنسان المغربي لا ينطلق من المعنى اللغوي الضيق للإستقلال، وإنما ينطلق من المفهوم الواقعي والمستقبلي للإستقلال. يعني ذلك تحرر المواطن عقليا بالعلم، أي إتاحة الفرصة له ليصبح في مستوى الإنسان الذي ميزه الله بالفكر المتنور العالم. ومن هنا جاءت الأفكار التي دافع عنها لتعميم التعليم لدى كل المواطنين حتى يكون العلم حظا مشاعا بين أبناء الشعب جميعهم. ويعني الإستقلال أيضا تحرر المواطن من البؤس والحاجة. وذلك لا يكون إلا بضمان الشغل للجميع وفي كل المستويات حتى لا يكون أحد من المواطنين عالة على الآخر، ولا تكون فئة من المواطنين عالة على المجتمع.

ويعني الإستقلال أيضا عند علال الفاسي تحرر الإنسان من الخوف، سواء منه الخوف الذي يأتي من صاحب سلطة بدنية أو صاحب سلطة حكومية أو إدارية. ومن هنا يأتي المفهوم الحقيقي للديمقراطية عند علال الفاسي. الديمقراطية عنده لا تعني فقط مؤسسات لا سلطة لها ولا أثرها لها في الحياة، أو دستورا لا ينظم العلاقات بين السلطات والمؤسسات تنظيما عمليا وتطبيقيا، ولكنها تعني

مؤسسات سليمة ذات آثار عملية تطبيقية، وتعني إلى جانب ذلك تحرير الإنسان من تجاوز الحد في إستعمال السلطة كما كان يعبر. تجاوز الحق في إستعمال السلطة هو التعبير القانوني عن الظلم بكل أنواعه، سواء تمثل في الاعتقال والسجن بدون مبرر قانوني، أو تمثل في الضرب والإهانة، أو تمثل في فرض إتاوات بدون مبرر، أو تجاوز في إستغلال السلطة أو إستغلال حاجة المواطنين أو إستغلال محافظتهم على كرامتهم لأخذ رشوة منهم أو إبتزازهم أو سلبهم حقهم ولو كان حقا معنويا.

هذا هو التطبيق الحقيقي للديمقراطية كما يراها علال الفاسي، وهي التي تعطي للإستقلال مضمونه الحقيقي.

والإستقلال عند علال الفاسي يعني ضمان تحرر الوطن والمواطنين في المستقبل. فليس أسهل من ضياع الإستقلال، والأمثلة عندنا كثيرة من جميع الشعوب التي أضاعت إستقلالها ومنها المغرب، ولكن ليس أصعب من المحافظة على الإستقلال. ولن يكون ذلك إلا ببناء البلاد إقتصاديا وإجتماعيا. تحرر إقتصاد الوطن من تحكم الأجانب هو الذي يعطي للوطن إستقلاله. وكم من البلاد تعتبر نفسها مستقلة ترفع رايتها وتصدر وقوانينها وتؤسس حكوماتها وتبعث بسفرائها، ولكنها مستعمرة إقتصاديا مادام الأجانب يتحكمون في مصير ميزانيتها واقتصادها.

وكثير هي الدول التي فقدت إستقلالها عن طريق تحكم الدول والمجموعات المالية في توجهها الإقتصادي والمالي. فهذا التدخل، الذي لا يعرف حدودا، يسميه علال الفاسي إستعمارا لا يقل خطورة عن إستعمار الأرض والإدارة والجيش. والتحرر من هذا التدخل الخطير مما يدخل في مفهوم الإستقلال عند علال الفاسي.

ضمان الإستقلال في المستقبل يتطلب تصفية مشاكل الإستعمار بما فيها مشاكل الأرض. وعلال الفاسي عاش بوعيه الكامل مع أرض المغرب، فقد تعلم من نضاله الطويل أن الإستعمار لم يستطع أن يهزم الروح المغربية المتشبثة بالحرية والإستقلال والجهاد في سبيلهما، ولكن الإستعمار حاول أن يهزم ولو ظاهريا روح وحدة المغرب فمزق بلادنا شر ممزق. ولعل أي بلاد مستعمرة في إفريقيا وآسيا لم تمزق وحدتها كما مزق المغرب في شماله وجنوبه. وعى علال الفاسي هذه

الحقيقة بنضاله الفكري منه والعملي فطالب، والمغرب يتأهب لاستكمال إستقلاله، باسترجاع كل أراضيه الشمالية والصحراوية الشرقية منها والجنوبية حتى يقطع الطريق على أي نوع من أنواع الإستعمار في المستقبل، وحتى يعطي للمواطنين المغاربة جميع إمكاناتهم في أرضهم ووحدتهم ليبنوا مستقبلهم. وقد أكدت نظرته العميقة صوابها في السنين الأولى للإستقلال، فاقتطعت منا صحراؤنا الشرقية. ومنها بدأت المعاناة في الحفاظ على ما تبقى من صحرائنا الجنوبية.

وحدة الأرض ووحدة المواطنين ليست جديدة في فكر علال الفاسي . فقد كان نضاله منذ البداية، ضد الظهير البربري منطلقا من الوحدة العقدية والإجتماعية والوطنية والقانونية للمواطنين كافة. وما كتبه عن الظهير البربري يؤكد أنه كان يفهمه بالمعنى الواسع الذي أراده منه الإستعمار الفرنسي حينما شرعه، لا بالمعنى الضيق أي محاولة تنصير الأمازيغيين. فكرة التنصير قد تكون هدفا عند رجال الكنيسة والمتعصبين الدينيين، ولكن المنظرين الإستعماريين لم يكن يهمهم أن يتحول المغاربة إلى النصرانية إلا من حيث إن النصرانية وسيلة لتحطيم الوحدة العقدية التي كرسها الإسلام في هذه الديار. ومن تحطيم الوحدة يمكن إحتلال هذه البلاد التي زادها الإسلام متانة وتأبيا على كل إستعمار بتوحيده المتمثل في توحيد الله، ومن توحيد الله وحدة الوطن، ومن وحدة الوطن وحدة المواطنين.

يؤكد علال الفاسي أن الإستعمار لا يقبل ولا يرضى بأن يصبح المستعمرون جزء منه بدينه وقوميته وجنسيته ووطنيته. في هذه الحالة سيكون الإستعمار مضطرا أن يتعامل مع الشعوب على قدم المساواة، وسيكون من حق هذه الشعوب أن تصبح فرنسية أو إنجليزية أو إسبانية أو هولندية مثلا، وعند ذلك سيسقط في يد الإستعمار، فلا يستطيع إستغلالها أو إستخدامها أو إبتزازها.

هكذا يسقط الإستعمار من أساسه. وإنما يريد الإستعمار أن يمسخ الشعوب على مثاله فتفقد كل هوياتها المتمثلة في الدين واللغة والقومية والوطنية والوطن، ولا تكون لها هوية أخرى. وبذلك تصبح غنيمة سهلة في يد الإستعمار يبتزها ويستغلها كما يريد.

بهذا الإدراك ذي البعد الكبير والآفاق الواسعة للإستعمار يمكن أن نفهم لماذا الإستعمار مُصِرٌ على أن يبقى التعليم بلغته لا بلغتنا القومية، ومُصِرٌ على أن يبقى الاقتصاد مرتبطا باقتصاده، مادامت معالم الهوية الأخرى قد أفلتت من يده. التبعية هي الأساس دائما، وليس الإندماج أو الإمحاء.

هكذا، فهم علال الفاسي فلسفة الظهير البربري القائمة على الإستلاب الكلي، وليس فقط تنصير طائفة من الشعب.

من هنا إزداد إيمان علال الفاسي بوحدة الكيان القومي إلى جانب وحدة الكيان الأرضي. منذ شبابه الأول كان يتغنى: "كلنا من بدوي خالص أو بربري". ويتغنى: "صوت ينادي المغربي من مازغ ويعرب". ويؤكد في كتاباته أن "الأصول الأولى للشعب إنصهرت جميعها بالإسلام، فلا جنس ولا عرق يفرقها، وإنما هو الإسلام والوطن يجمعها". وهذا الكيان الموحد في الوطن والمواطنين هو الذي يمنح المغرب صلابة البقاء وقوة الدفاع عن كيانه المادي وعن كيانه المعنوي المتمثل في هويته بكل ما يطبع هذه الهوية من قومية ودين ولغة وإنتماء للمجموعة الإسلامية والمجموعة العربية والمجموعة الإفريقية.

إستقلال الوطن وإستقلال المواطنين بهذا المعنى الواسع للإستقلال يتطلب إستقلال المجتمع المغربي. وقد إهتم علال الفاسي بهذا الإستقلال، فأكد، فيما كتب، على تحرير المجتمع من الانحلال الإجتماعي والفساد الخلقي وانتشار الأوباء التي تنخر جسم المجتمع. وقد تناول المجتمع بالدراسة والبحث إنطلاقا من التفكير بالمجتمع حتى مشاكل المرأة والزواج والطلاق والعائلة والبغاء وحماية العائلة ومشاكل البيت والوالدين وأبناء الشعب والنسل والتعليم، والمسكرات والمخدرات وقضايا الصحة والعاهات... الخ.

لا نستغرب من سياسي يهتم بقضايا الإستقلال والصراع ضد المستعمر أن يشغل نفسه بهذه القضايا الإجتماعية التي هي من إختصاص المجتمعين أكثر منها من إختصاص السياسيين. لا نستغرب من ذلك لأن علال الفاسي ينطلق من فكر شمولي، ومن فكر إسلامي. والإسلام لم يترك قضية من قضايا الإنسان إلا تناولها

بالبحث والتوجيه. وعلال السياسي ينطلق من علال العالم الإسلامي كما قدمنا. ولذلك فتحرير المجتمع المغربي من سلبيات القضايا التي أشرنا إليها يدخل في صميم الرسالة التي تحملها. ثم إن ذلك يدخل في صميم الإستقلال بالمفهوم الواسع للإستقلال، لأنه يؤكد دائما أن تخلف البلاد في هذه القضايا الأساس يخل بالمعنى الحقيقي للإستقلال.

***

إلتحق علال الفاسي بالرفيق الأعلى يوم الإثنين 13 مايو 1974 بمدينة بوخاريست (عاصمة رومانيا) وعمره 64 سنة.

رحمه الله...

الحسن الثاني ...

محرر الصحراء

(1929- 1999)

-1-

ما كتبته ساعة اللوعة والحسرة والفاجعة كان مصدره القلب والعاطفة. ما أريد أن أكتبه بعد عودة اليقين، آمل أن يكون بين السيرة الذاتية وسيرة الآخر. فقد لا يُرضي السيرة الذاتية أن تمزج بها سيرة الآخر، ولايرضى سيرة الآخر أن تمزج بها السيرة الذاتية، فلكل منهما فنه من القول، والخلط بينهما فن من القول لا أرتضيه ولا يرتضيني.

ولعله ليس أصعب من البحث عن مفتاح شخصية:

- متفتحة حتى لتكون بين يدي كل الذين يضعهم القدر في طريقها يعيشون معها، أو بالقرب منها، أو في عصرها، أو يقرأون عنها؛

- منغلقة حتى ليصعب على الأقربين والأبعدين والقارئين أن يقتربوا منها ومن سلوكها ومن مكوناتها الذاتية والغيرية.

شخصية الحسن الثاني ليست غامضة، ولكنها قريبة بعيدة، ولو قرب مقام وبُعد مقام. متفتحة على كل الناس، خاصة وهو يقترب من الناس خطيبا، والبداية من "شعبي العزيز" أو يقترب منهم محتفلا أو زائرا أو مخالطا، أو سائقا سيارته في الشارع العام. وتقترب شخصيته المتفتحة وهو يعالج مع مستمعيه من جماهير الشعب مشاكلهم في التعليم والفقر والبطالة وسكنى البؤساء، أو يحلل تقريرا فاضحا عن الوضعية الاقتصادية والاجتماعية، ويدعو الجميع وفي مقدمتهم كل المسؤولين أن يعملوا على رأب ما إنصدع، ورتق ما إنفتق من شؤون الاقتصاد

والمجتمع والحكم والإدارة، أو يحلل من قبة البرلمان وضعية المؤسسات المنتخبة ويتعهد بألا يترك مجالا للتزييف، وأن يفتح باب المصداقية والنزاهة والشفافية في موضوع يتصل بكل مواطن ومواطنة بالغين سن الرشد.

وتنفتح شخصيته وهو يعالج القضايا الدولية والوطنية أمام صحفيي العالم وشاشات التلفزات. يفتح قلبه ويعبر عن حقيقته كملك لبلاد ملكية دستورية، وعن حقيقة شعبه كدولة قائمة السيادة والوحدة منذ إثنتي عشر قرنا أو تزيد، ويعبر عن سياسته الداخلية بكل أبعادها الإيجابية والسلبية وسياسته الخارجية -العربية والإسلامية منها - بكل رؤياه الفلسفية، وبعده المتفتح على المستقبل وعدم تعصبه أو إنغلاقه على العالم الجديد.

تنفتح شخصية الحسن الثاني وهو يترأس مجالس وقمم العرب والمسلمين كربان سفينة تواجه الأعاصير، ولا تكاد تجتاز إعصارا حتى تدخل في منطقة إعصار جديد، وبشخصيته المتفتحة ينتصر وسط التيار ويتحقق بقيادته ما لم يحققه محيط الأعاصير تحت أية قيادة أخرى.

ويسجل التاريخ...

وتكون شخصيته رائدة بين شخصيات العصر وهو يحاور العرب والمسلمين والأوروبيين والأمريكيين والأفارقة. لا تنغلق شخصيته مع الذين أحسنوا لبلاده أو أساءوا، مع الذين كانوا في مستوى القضايا التي عالجها معهم والذين لم يكونوا في المستوى. كان بعضهم يقع في الخطأ أو الإساءة، ولكنه يقف خجلا أمامه وهو يبتسم في وجهه محللا القضية - ولتكن قضية الصحراء - في بعدها العالمي والإفريقي والوطني والإنساني والأمني.

وتنفتح شخصيته، وهو يعاني أخطر ما عاناه حاكم، وبالتالي ملك، من غدر وخيانة من الذي والذين وثق فيهم، ووضع الثقة حاجزا بينه وبين الشك في غدرهم وخيانتهم حتى أصبحت الدولة في مهب الرياح، وأصبحت حياته (في الصخيرات وعلى متن الطائرة) تحت أكبر خطر مسلح عرفة ملك إستهدفته الخيانة والغدر.

شخصيته المتفتحة برزت لتجتاز الأزمة في مرحلتيها (وهي أزمة واحدة) ولينتصر لشعبه بفضل شخصيته.

وتنفتح شخصيته على متطلبات العصر في سيرة الحكم ووسائله. لا يقف مع الثوابت والتقاليد من حكم المخزن. وقد ورث الكثير من ذلك. ولا يقف متهيبا للإنفتاح على عهد الديمقراطية في فترة الأعاصير التي عرفتها بلاد تفتحت فانتهى بها الأمر إلى إنقلابات وثورات بعضها كاد أن يكون مدمرا، بل يقف من الديمقراطية متفتحا على شعبه واثقا فيه رغم ما يكتنفه من ظروف التخلف التعليمي والاقتصادي والاجتماعي، ومن جدة التجربة وحدتها، ومن تخلف إدارة تعيش بعقلية الماضي، ولو أنها حديثة متجددة، أكثر مما تعيش بعقلية الاستقلال فأحرى الديمقراطية.

تفتحت شخصية الحسن الثاني على وسائل العصر في الحكم فزاوج بين موروث المخزن من السلطة الملكية المطلقة وبين ما يتطلبه العصر من إشراك الشعب عن طريق المؤسسات المنتخبة. لم تكن الإدارة على قدر تفتحها فخيبت أماله في الممارسة. ولكن تفتحه ظهر فيما تعهد به في القانون الأساسي، فكان أول دستور أشرف عليه وأحسن دستور عرفته بلاد عربية وإسلامية حتى بداية الستينات وأدق دستور زاوج فيه بشخصيته المتفتحة بين الملكية الدستورية في صورة المحافظة على الموروث والتفتح على الحديث.

وتتالت الدساتير...

تفتح شخصية الحسن الثاني رافقته فيما واجه من صعوبات الحكم سيكشف التاريخ عن الكثير منها. وهي صعوبات تعقدت بمقدار تعقد الحكم في بلاد إستقلت، وهي تعاني مخلفات عهدين خطيرين: عهد التخلف وعهد الحماية. صعوبات نتجت عن بناء الدار على ركام من الأنقاض السياسية والقبلية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. صعوبات نتجت عن تطلعات شباب تفتح على المستقبل. بعضه عاش تحت تأثير زخم من التيارات الشرقية والغربية، بعضها يدعو إلى الثروة والانقلاب. والبعض الآخر يبتغي الحكمة في الحفاظ على هيكل

الدار وترميم ما يحتاج إلى الترميم منها. صعوبات تأتي من الحرب الباردة التي لم تكن مفاعيلها تقتصر على الكبار الذين بين أيدي كل منهم أزرار السلاح الذري، ولكنها تنشر ظلالها وضبابها على كل بلاد العالم الثالث، فتسبب حروبا في بعض البلاد العربية والأسيوية والإفريقية وتسبب اضطرابات سياسية وفكرية في كثير من البلاد، والمغرب من بينها.

الشخصية المتفتحة هي التي تستطيع أن تتعامل مع الحكم في عصر أحدثت فيه الحرب الباردة توترات خطيرة، قد تظهر في شكل إنفجارات، ولو تافهة، ولكنها تعبر عن نفسها وانتمائها لفترة التوتر.

وتفتح الشخصية في الحكم لا يعني إنحلالها، أو وقوفها عاجزة أمام الأحداث الجسام. كثير من الأحداث التي مرت بعهد الحسن الثاني، مما أشرنا ملمحين إلي بعضه، يقبل التعامل معه بشخصية متفتحة لا تنهار أمام الصعاب، بل تقبلها كأحداث من مستلزمات الحكم، ولكن تواجهها بالصرامة، وأحيانا بالعنف الذي تفرضه السلطة، ولو تنكرت له الديمقراطية والعدل أحيانا.

تفتح شخصية الحسن الثاني لا يخطئك في رؤيتك الفاحصة في مسيرة حكمه، وقبل حكمه الرسمي، خاصة منذ إعلان الاستقلال (1955) حتى يوم الفاجعة (23 يوليوز 1999)، ولكنها تنغلق بمقدار ما تنفتح. الحكم يفرض كثيرا من الظروف التي تدفع الحاكمين أن تنغلق شخصيتهم حتى إن الباحث لا يكاد يتبين ظروف الانفتاح من ظروف الانغلاق. ولذلك فإنه لا يستطيع أن يكتشف أسرار بعض الممارسات السياسية الداخلية والخارجية التي لم يمارسها بانفتاح شخصيته، ولكن بانغلاقها: الاقتراب في بعض الأحيان، والابتعاد في كثير من الأحيان مما تفرضه الديمقراطية والدستورية في الحكم يضع الباحث وسيضع المؤرخ في حيرة. لماذا يتقدم المغرب خطوة نحو الديمقراطية ويتخلف خطوات؟ التوجه في بعض القضايا العربية يجعل من المغرب أحيانا رائدا في الصراع العربي الإسرائيلي، بل مجاهدا ومحاربا ومضحيا، وأحيانا داعيا للتفاهم والصلح. الموقف من الدول الإفريقية التي أساء بعضها إلى المغرب وما يزال موقف الخصومة،

وقد تآمر هذا البعض على وحدة المغرب، فباع وحدة المغرب ببضع دولارات قابلة للتحويل أو التخزين، ولكنه موقف الود والتقارب والاحتضان في كثير من الأحيان، ولبعض الرؤساء الذين لم يقفوا منذ باعت المنظمة كرسي المغرب بثمن بخس موقف الثائر على خطأ لا يرتكبه إلا الذين لا يديرون الحكم بمسؤولية.

ويتجلى غموض شخصية الحسن الثاني في الثقة العمياء التي يضعها أحيانا في الذين كانوا يعملون على تدميره وتدمير عرشه، وفي الذين أساءوا بتصرفاتهم إلى حكمه، وحمّلوه مسؤولية أخطاء لا يرتكبها إلا الخاطئون.

ذكاء الحسن الثاني وتجاربه وسوء الظن الذي يغلب على الحاكمين لم يكن يسمح بانغلاق شخصيته أمام الحقائق الفاضحة، ولكن "حساباته" كانت تفرز إنغلاق الشخصية لديه. وقد أعلن ذلك في آخر تصريح صحفي دولي، فيما أذكر، حينما قال ما معناه: "إن عيبي هو الثقة المطلقة في البعض، والتي تتجلى في آخر المطاف أنها في غير مكانها". لست أدري أكان إكتشاف هذا العيب الإنساني باعثا على إكتشاف أخطاء الثقة ونتائجها الفادحة، أم أن الاكتشاف جاء بعد فوات الأوان، ولم يكن له مفعول في الشهور أو الأسابيع التي كانت قد بقيت من عمره؟

حينما تتفتح شخصيته يرضى الحسن الثاني كل الرضى، وحينما تتعقد شخصيته "قد" يغضب كل الغضب حتى لتظنه أنه لن يرضى أبدا. ولكن الشخصية المتفتحة تغلب على الشخصية المعقدة حتى أنك لتبحث عن هذه تحت قنديل ديوجين.

لا أعيد إنفتاح الشخصية وانغلاقها لازدواج الشخصية ولكني أعيده لطبيعة الحكم من جهة، وللظروف التي فرضها الحسن الثاني على نفسه في مسيرة حكمه من جهة أخرى. وهي ظروف صعبة إلتزم بها متعمدا، ولم يترك الملك يفرضها عليه، بل كان يفرض على نفسه أن يكون ملكا متميزا. فإن لم يفرض ذلك على نفسه فرضته شخصيته وثقافته والعصر الذي وجد فيه ملكا والظروف التي عاشها سكان المغرب المستقل. إنها جميعها - وظروف غيرها كثيرة - تفرض عليه أن يكون

شخصيتين متميزتين متفردتين. شخصية متفتحة، وشخصية منغلقة، وهما شخصية واحدة لا إزدواجية فيها.

قد يكون من الصعب على المحلل أن يزاوج بينهما، ولكن هذا يصعب على المحلل من بعيد، أما المحلل الذي عايش الحسن الثاني حاكما بالنيابة وحاكما بالفعل فسيجد مفتاح هذه الشخصية ذات البعدين بعد الانفتاح وبُعد الانغلاق.

-2-

كان الحسن الثاني إذا أثنى بزواره، ولو خلال زيارة عمل سياسي يستبقيهم بعد نهاية العمل ليطلعهم على بعض المنجزات العمرانية التي يقوم بها. كان وهو يتحدث شخصية أخرى لا تغمرها هموم السياسة.

أذكر أن بعثة من اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال كانت في جلسة عمل معه. أنهى الحسن الثاني الجلسة وخاطبنا قائلا: "الآن تعالوا لتروا ما أنجزته في هذه الدار".

كانت الدار في طور الانجاز. ما يزال "الزلاجون" تحيط بهم أدواتهم وهم ينقشون .

كان يشرح لنا أحيانا، ويتلفت إلى العمال والصناع، يحادث كلا منهم في مهنته، ويسأله عما أنجز وما بقي عليه إنجازه. كانوا يتحدثون معه في مثل البساطة التي يتحدثون بها مع رب منزل عادي.

إنتهينا من الجولة التي أطلعنا فيها على مبادراته في البناء وتزيين المنزل. توقف وسط ركامات التراب والجير التي كانت تتجمع هنا وهناك ، فيما بدا ، عن موضوع مهم:

- "يقولون عني الحسن الباني (إبتسم إبتسامة خفيفة)، وأنا حقيقة باني لأني أهتم بالبناء. البناء معمار ومظهر كبير من مظاهر الحضارة. كما أبني في السياسة أبني على الأرض. أعتبرهما من مصدر واحد. وهي عقلية وليست هواية. المغرب في حاجة إلى البناء والتعمير. تلك مشكلته الأولى. المواطن يجب أن يسكن، وأن تملك

العائلة البيت الذي تسكنه. وزارة السكنى والتعمير يجب أن تكون مستقبلا من أهم الوزارات في المغرب".

فكر الملك قليلا قبل أن يضيف:

- "من عقلية البناء جاءتني فكرة بناء السدود. المغرب كان مقبلا على كارثة بيئية وفلاحية وإنسانية. عار أن ينقل الماء في البواخر من إقليم إلى إقليم[1]. ليس في المغرب إقليم يكتفي بذاته في ماء الشرب والري. أما أن ينقل الماء الذي يتوفر عليه إلى إقليم آخر فذلك قمة الفقر. المغرب بلاد جافة، ومع ذلك تغمره المياه سنة بعد سنة أو أخرى من الجفاف، والماء يضيع في البحر. ولذلك قررت أن تقوم سياستي على بناء السدود في مختلف أنحاء المغرب. عمل مكلف، ويرهن ميزانية الدولة في القروض الهائلة، ولكن لا سبيل إلى إنقاذ المواطنين من العطش وإنقاذ الأراضي من التصحر إلا بالسدود. أرأيتم كيف أني متجه إتجاها صائبا منذ فكرت في سد "وادي زيز" في منطقة صحراوية حتى السدود التي تزود المناطق الحضرية بالماء الشروب"؟[2]

يمكن أن نقارن هذا المخطط الذي كان جوهر السياسة الاقتصادية والاجتماعية للحسن الثاني بما تعانيه الجزائر دوريا من عطش في الشرب والري. الجزائر أنفقت ملايير الدولارات في السياسة الصناعية والتسلح، ولم تكن لها سياسة مائية تؤمن لمواطنيها الإكتفاء الذاتي من الغذاء والشرب[3]. غنى الجزائر بالبترول والغاز كان يجب أن يوازنه على الأقل الغذاء والماء، ولكنها تعطي المثل لقول الشاعر:

كالعير في البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

1- كان الملك يقصد بها نقل الماء من آسفي إلى طنجة بالبواخر، حينما عاشت طنجة خلال سنوات 1994 -1996 فترة عصيبة من ندرة الماء الشروب.

2- يتوفر المغرب حسب دراسة أنجزتها الوزارة المنتدبة المكلفة بالماء (مايو 2014) على 135 سدا بطاقة إجمالية من التخزين تصل إلى 17.5 مليار متر مكعب وأن هناك 13 سدا كبيرا في طور الانجاز بسعة 2.6 مليار متر مكعب، علما أن التساقطات المطرية تقدر بحوالي 140 مليار متر مكعب.

3- تعيش الجزائر (2017) أزمة خانقة نتيجة تقلص الموارد الناتجة من البترول فقد إنخفض سعر البترول من 147 دولار للبرميل (شهر يوليوز 2008) إلى 50 دولار (مايو 2017) في الوقت الذي تحتاج الجزائر إلى حوالي 40 مليار دولار سنويا لدعم المواد الأولية الإستهلاكية. إضطرت الجزائر إلى خفض إستثماراتها بشكل كبير. ومع ذلك لا زالت تعمل لمعاكسة المغرب. أحداث الكركارات خير مثال على هذه السياسة الانتحارية.

إذا تساءلنا عن اهتمامات الحسن الثاني بقضايا بلاده هل كانت بالشؤون الداخلية أكثر منها بالشؤون الخارجية، قد تجد صعوبة في الجواب القاطع. فقد كان يهتم بالشؤون الداخلية حتى إنك لتحسب أن إهتمامه بالشؤون الخارجية لم يكن واردا بنفس الأهمية، وكان يهتم بالشؤون الخارجية حتى إنك لتحسب أن إهتمامه بالشؤون الداخلية لم يكن واردا في جدول أعماله.

لا شك أن الحسن الثاني كان يدرك أن العمل الداخلي لا بد من إسناده بالعمل الخارجي، ضرورة أن المغرب لا يعيش في عزلة دولية، وأن تطوره الاقتصادي والاجتماعي رهين بعلاقات التعاون مع أوروبا وأمريكا. وتطوره السياسي في الإطار العربي لا يمكن أن يتم على نحو ما يرضي مركز المغرب، والسلطة العليا فيه، إلا بالتفكير والعمل الجدي في قلب السياسة العربية.

هناك عامل أساسي يجب أن يوجهنا في تحليل هذا الموضوع، وهو العامل الشخصي. تدخل هذا العامل بعد أن تطورت نظم الحكم في بعض البلاد العربية إن لم نقل في جميعها. فقد أصبحت معظم البلاد العربية تبتعد كثيرا عن الأنظمة الديمقراطية، معظمها تحكم بنظم ثورية عسكرية. بعض البلاد العربية الأخرى البارزة كان الحكم فيها فرديا بطابع ملكي أو جمهوري. وكان رؤساء الدول في هذه المجموعة أو تلك يتزعم كل منهم القضايا العربية، وكأن كلا منهم وكيل عن الأمة العربية. من أهم مميزات الحسن الثاني أنه كان ذا شخصية قادرة على إكتساب الأصدقاء. فما من رئيس دولة إلا كان يخرج صديقا له من أول لقاء. يقدره ويحترمه ويضع في نفسه منزلا رحبا لمكانته. يرجع ذلك إلى سعة أفقه وثقافته المزدوجة ومرونة تفكيره وقدرته على التحليل والمبادرة. وقد عايش الحسن الثاني سبع رؤساء أمريكيين وخمس رؤساء فرنسيين، وثلاث ملوك سعوديين وكلهم كانوا أصدقاء له معجبون بقدرته على الحكم وبراعته في التحليل السياسي. والأمر مثل ذلك عند كثير من رؤساء الدول الغربية والعربية.

ليست هناك مدرسة أو كلية لتكوين وإعداد الملوك. ومع ذلك فالحسن الثاني دخل المدرسة، ثم الكلية، ليعد نفسه ملكا. مدرسة محمد الخامس كانت أحسن مدرسة للتكوين، وكان محمد الخامس كالأساتذة المتميزين الواثقين بعلمهم وكفاءتهم، لا يبخلون على طلبتهم بالمعرفة والأسلوب وتقديم المثال العملي. تلميذه الأول كان هو الأمير الحسن الذي عبّ من المدرسة والأستاذ كل ما يمكن أن يمنحه أستاذ لتلميذه المتميز من ضروب المعرفة بالملك، وأساليب توظيف هذه المعرفة باللغة حتى ينجح في المهمة التي يعده لها.

وإلى جانب مدرسة محمد الخامس كانت هناك المدرسة الوطنية والصراع التي إنطلق بينها وبين المدرسة الاستعمارية.

مدرستان كانتا تتصارعتان للبقاء. وكان صراعا غير متكافئ ظاهريا، ولكن المدرسة الوطنية كانت أقوى وأشد، وأقوم فكرا ومنطقا، وأكثر قوة بشرية. كانت المدرسة الاستعمارية هي المدرسة الناجحة والسائدة فيما بين الحربين، والتي تملك السلطة والمعرفة والتقنية والمال والنفوذ. ولكن المدرسة الوطنية كانت تملك صفتين أساسيتين: الشجاعة والتحدي.

الحسن الثاني تخرج من هذه المدرسة أيضا بكل ما استطاعت أن تقدمه لطلابها ملخصا في الشجاعة والتحدي. وهما مفتاحان من مفاتح شخصيته التي أصبحت شخصية ملك متسلحة بالشجاعة والتحدي، وجدهما في المدرسة الأولى: مدرسة محمد الخامس، وفي المدرسة الثانية: المدرسة الوطنية.

المدرسة الثالثة، هي المدرسة العالمية التي تحمل المسؤولية في أوج تألقها. شخصيته المنفتحة دفعته ليعبّ من عالمية الحياة التي عاشها. لم يكن - أميرا وملكا- يعيش على أرض المغرب وفي حدود جغرافيته فحسب، ولكنه كان يعيش ويفكر ويحكم وأمامه خريطة العالم بكل أبعاده البشرية والاقتصادية والتكنولوجية والعلمية، وبكل أطره من ملوك ورؤساء حكومات، وبكل نظمه المدنية والعسكرية

والديمقراطية والدكتاتورية والفوضوية والمعاصرة والمنكمشة والغنية والفقيرة والعالمة والمتعالمة الجاهلة. بدأ تفتحه على المدرسة العالمية ووالده يمسك بيده، وهو إبن الرابعة عشر ربيعا، ليحضر معه أهم مؤتمر قمة[4] (14 - 24 يناير 1943) حضره إلى جانبهما رئيسا العظميين (روزفيلت وتشرشل) التي كانا يخططان للانتصار في الحرب العالمية الثانية. وكان المتعلق بالعالمية منذ تلك اللحظة التي شهدتها قمة آنفا، لعلها كانت المفتاح الذي فتح أمامه الطريق أمام الرؤساء الأكبر والأصغر الذين عرفهم العالم من الحرب العالمية الثانية حتى يوليوز 1999.

وتأتي المدرسة "الكلية" التي سبقت وتأخرت كل المدارس التي راودت فكر الأمير الحسن، وهي مدرسة المنفى. مدرسة يمكن أن نقول أنه لم يخطط لها بينما كانت كل الظروف تفتح أبوابها على مصراعيها.

ليس هناك مثال آخر في العالم يماثل المدرسة التي دخلها محمد بن يوسف وهو يمسك بيد ولديه (الأمير الحسن والأمير عبد الله) لمدرسة المنفى. تعلم فيها الأمير الحسن وسنه لم يتجاوز أربع وعشرين سنة، الصبر والممارسة والأمل والانتصار على ظلم وغباوة السياسة الاستعمارية كما تعلم فيها كيف يقاوم الإحباط والهزيمة والاستسلام. وتعلم فيها أخيرا كيف يعد نفسه، وهو يساعد والده ويفاوض الإدارة التي أبعدته، إلى الإمارة المثالية، إلى الملك الذي سينتصر رغم كل ظروف الفشل والغدر والخيانة. ومع ظروف النجاح والبطولة وفتح أبواب المستقبل، بدأ الأمير يخطط للملك في الظروف السوداء التي مر منها في المنفى.

ما من شك في أن الأمير الحسن، وهو يتتبع بطولة الشعب المغربي طيلة مدة النفي كان يأمل، ويتجدد أمله كل يوم في العودة المظفرة. لم تنهزم معنوية محمد بن يوسف كما لم تنهزم معنوية الأمير الحسن وهما يجتازان شهور المحنة (26 شهرا) بل لجأ إلى الاستفادة من كل الظروف التي تكون فيها قائدا مرحلة الإستقلال والبناء بكل أبعادها.

4- إنعقد المؤتمر في فندق متواجد في حي آنفا بالدارالبيضاء، وبذلك سمي بمؤتمر آنفا. إستدعي إلى المؤتمر الجنرال دوغول والجنرال جيرو من فرنسا بينما إعتذر ستالين، حاكم الاتحاد السوفياتي، عن الحضور.

وكانت ظروف الممارسة مفاجئة لعلها للأمير المتوثبة حاسته إلى الملك، ولكنه خاض المفاجأة بقلب ثابت وشجاعة نادرة وهو يعلن الفاجعة لشعبه في رحيل بطل التحرير (26 فبراير 1961).

وبدأت مرحلة الملك وسط أعاصير وتيارات وهي تعصف بأغلب الأنظمة القائمة.

- 4 -

قليل هم الحاكمون الذين واجهوا رؤساء دول كبرى وصغرى وأقنعوهم بآرائهم وحكمتهم ومنطقهم وشجاعتهم وتحديهم. وكما واجه الحسن الثاني بعض الرؤساء بالشجاعة والتحدي، والمثال من دوغول الذي اعتبر في يوم ما من دكتاتوريته "الديمقراطية" أنه البقية الباقية من الذين خلّصوا العالم من نظام هتلر، وأنه وارث مجد القديسة جان دارك. وجد هذا العملاق نفسه أمام شجاعة الحسن الثاني وتحديه، فطأطأ الرأس على قدر ما تستطيع قامته الفارعة وهو يواجه إبن محمد الخامس.

كثير هم الملوك والملكات والرؤساء الذين حاورهم الحسن الثاني. أقنعهم أو لم يقنعهم، تلك قضية أخرى. ولكنه كان يبهرهم بأنه يحاور بفكر منظم، وعقلية متمكنة، وحكمة ودهاء، وبعد نظر. إختلف مع معظمهم في قضايا وطنية وعربية ودولية، ولكنه الاختلاف الذي ينتهي بالتقدير واحترام الرأي الآخر، وليس الإختلاف الذي ينتهي بقطع العلاقات وإعلان الحصار الجوي والبحري والاقتصادي.

الشجاعة والتحدي لم تكونا تخرجان بالشخصية عن دورها الانفتاحي. فلم يكن يشهر سيفا إنطلاقا من تحديه لذلك لم تكن علاقات المغرب الدولية والوطنية تعرف إنقطاع الحبل.

في العلاقات الوطنية كان يوافق ويخالف، يقبل التوجه السياسي من هذا الحزب أو ذاك أو يرفضه. وحينما يخرج الأمر من نطاق الرأي السياسي إلى نوع من التحدي يعتبره مساسا بالمقدسات[5] يكون رد التحدي متحليا بالشجاعة التي

5- راجع فصل "مَحمد بوستة... الديبلوماسي الحكيم"، صفحة 201.

لا يخطئها مكان الاستعمال ولا زمانه. بل تتجاوز ما يقدر لها أن تكون. ولكن الشخصية المتحلية بالتحدي يصعب عليها أن تتحمل تحدي الآخر لأنها تعتبره محاولة هزيمة. والمتحدي الشجاع لا يقبل الهزيمة، ولم يكن الحسن الثاني ليقبلها، ولو كانت متصورة غير واقعية.

إذا إقترنت القضية الوطنية باستكمال وحدة التراب تتجلى شجاعة وتحدي الحسن الثاني في أجلى مظهريهما، وأقوى ما تكون الشجاعة التي تقترب من المغامرة، والتحدي الذي يقترب من المواجهة.

فاوض المغرب إسبانيا في استرجاع طرفاية وسيدي إفني قبل أن يفتح ملف الصحراء كاملة، لأن المنطقتين الصغيرتين كان لهما وضع استعماري خاص. وبذل أحمد بلافريج جهودا مضنية مع "إسبانيا-فرانكو" التي كانت لا تمانع في عودة المنطقتين على شرط أن تكونا آخر مطالب المغرب. ورفض أحمد بلافريج هذا الشرط وتوتر الجو. وكان الأمير الحسن يمارس، كولي العهد، رئاسة أركان القوات المسلحة الملكية. وحينما علم بتعصب المفاوض الإسباني في عودة طرفاية ترأس مفرزة من القوات المسلحة، واقتحم المدينة دون إستئذان والده. محمد الخامس حمد شجاعة إبنه وتحديه العسكري الكبير. وبقي شرط إسبانيا في جراب وزير خارجيتها.

ظلت "إسبانيا- فرانكو" تحلم بمجد الامبراطورية حتى في السبعينيات من القرن العشرين، وكان الحسن الثاني يقابل فرانكو أو يرسل إليه ليستمجز قابليته للتفاهم، ولو بتكوين "خلية للتفكير" كما إقترح في قضية سبتة ومليلية. ولكن شخصية فرانكو العسكرية كانت تنتمي للعهد الاستعماري. فلم تقبل أن تنسجم مع أوضاع إستقلال الشعوب.

- 5 -

وكانت المسيرة الخضراء أعظم إنجاز حققه الحسن الثاني...

حينما توجه الحسن الثاني إلى شعبه بخطاب (16 أكتوبر 1975) تبيّن للشعب، من خلال لغته ولهجته وحماسه وصرامته وجديته، أنه إتخذ قرارا مصيريا،

وأشعرنا بمغامرة قد تكون خطيرة. ما أزال أذكر، وقد نظر بعضنا إلى بعض بعد نهاية الخطاب. أحدنا علّق جادا:

- "ستكون المسيرة مغامرة عسكرية ب 350 ألف من مواطنين ومواطنات، شعب أعزل إلا من المصحف وقربة ماء".

قال ثاني الحضور:

- "إسبانيا-فرانكو لن تقف مكتوفة الأيدي في وجه التحدي"...

علق ثالث:

- "الخوف كل الخوف ألا تنجح المسيرة الخضراء في التحضير لها وتجميع رجالها ونسائها من شمال المغرب وجنوبه وشرقه وغربه، والإدارة، كما نعرفها، مهلهلة متفسخة. وعند ذلك تكون نتيجتها عكس ما يريد منها الحسن الثاني".

قال رابعنا: "المسيرة مناورة. فستتدخل دولة صديقة لتوقيف العملية تحسبا لتحولها إلى معركة خاسرة في الصحراء"...

أشهد أنه لم يكن أحد من المجموعة الحاضرة للخطاب متفائلا بنجاح المشروع. ولكن قوة التنظيم والتجهيز ونقل المواطنين من كل مكان والخطب المصاحبة التي كان يلقيها أقنعتنا جميعنا بأن الملك مصمم على إنجاحها.

في هذه المرة لم يعتمد الحسن الثاني على أحد ليترك له الأمر، ثم ينام ملء جفونه، كان يتابع الفريق الذي كلفه بالتحضير بالليل وبالنهار. ولعله استطاع أن يختار هذه المرة فريقا آمن بالمسيرة وصمم على العمل لإنجاحها. الفريق كان مكوّن من ضباط سامون في الجيش: محمد أشهبار، وعبد العزيز بناني ومحمد الزياني. ما رأيت الحسن الثاني من خلال الشاشة، كما رأيته آنذاك، ووجهه ينطق بالمسؤولية، وملامحه تؤكد لن يشعر بالمغامرة ويقدم عليها. ومن المؤكد أن كثيرين من أصدقائه الأجانب نصحوه باتقاء الكارثة. ولكن الحسن الثاني تجلى كقائد معركة سلمية متأكد من نجاحها.

حُضرت المسيرة لمدة شهرين قبل أن تطلع عليها الحكومة والإدارة الترابية في سرية تامة. وأعلن الملك تنظيم هذه المسيرة (16 أكتوبر 1975) ساعات قليلة بعد إصدار محكمة العدل الدولية رأيها الاستشاري، وإعترفت فيه بأن "روابط البيعة كانت قائمة على مر العصور ما بين القبائل الصحراوية وملوك المغرب".

وإذا كانت المسيرة قد نجحت في إخضاع إسبانيا التي كانت تعيش تحت ثقل رئيسها المحتضر، فقد نجحت في القضاء على اللعبة التي كانت الإدارة الاسبانية في الصحراء تعدها، بتآمر مع آخرين، لإنشاء دويلة تحت نفوذها تعاكس المغرب. ونجحت المسيرة في تجنيد العالم كله مع المغرب، وهو يسترجع صحراءه، ضدا على إسبانيا وهي تتمسك باحتلالها، ونجحت المسيرة في ربط الصحراء بوطنها الأم إلى الأبد، فهي المستعمرة التي لم تتحرر بالمفاوضة ولا بالاسترجاع العسكري، ولكنها تحررت بمشاركة 350 ألف مواطن ومواطنة، كل منهم ساهم في التحدي الشجاع، وكانت حياة كل منهم معرضة لرد التحدي بالسلاح، لا بالقسم والمصحف.

ونجحت المسيرة... وكانت هي الخطة الوحيدة لإقناع إسبانيا بتسليم الصحراء للمغرب، وإنزال العلم الإسباني عن الإدارة الحاكمة في العيون ورفع العلم المغربي (28 فبراير 1976). المسيرة أقنعت إسبانيا بعد ذلك بتوقيع إتفاقية مدريد الثلاثية (18 نوفمبر 1975)، وهي التي أقنعت الحسن الثاني مرة أخرى باستعادة وادي الذهب بعد أن أعلنت موريطانيا أنها غير معنية بإدارة هذا الإقليم (14 غشت 1979). المسيرة أقنعت كذلك الحسن الثاني بأن يدخل مع الجزائر في حرب تسترت فيها وراء "البوليزاريو" حتى تدخلت الأمم المتحدة لتفرض وقف إطلاق النار (1991)، بعد أن تلاعبت ليبيا والجزائر بمنظمة الوحدة الإفريقية لتكون مع مبدأ تقرير المصير لا مع مبدأ وحدة الشعوب والأمم. وقد لعبت المنظمة، وأمينها العام الطوغولي إديم كودجو، دورا خطيرا بقبول المنظمة أمام بما سمي بالجمهورية الصحراوية في المنظمة (12 نوفمبر 1984) فإنسحب المغرب من المنظمة، وعلى أرضه وجدت نواتها في مؤتمر الدارالبيضاء (1961). حدث هذا والدول الإفريقية أكثر الدول تعرضا للتمزق العرقي والوطني والقبلي وللنزاع الحدودي.

حقق الحسن الثاني جزءا مهما من وحدة المغرب وكان فخورا بذلك. كما كان الشعب كله فخورا بما فعل.

كانت فكرة المسيرة الخضراء أروع ما تفتقت عنه عبقرية الحسن الثاني طيلة حكمه. المسيرة كانت تحديا شجاعا لإسبانيا، وربما لغيرها من الدول التي كانت ما تزال تتعاطف مع الاستعمار.

حينما يدرس التاريخ المسيرة الخضراء سيعتبرها أكبر إنجاز لشخصية متفردة متميزة لم تتراجع فيها شجاعتها وتحديها أمام الأصدقاء الذين نصحوه بألا يغامر، والخصوم الذي اعتبروها تهورا يعرض أكثر من ثلث مليون مواطن ومواطنة للإبادة، وهم لا يحملون غير المصحف وراية الوطن.

المحافظة على وحدة الوطن وسلامة أرضه كانت مقياسا لقوة التحدي عند الحسن الثاني. إذا كان لم يقبل بقاء الصحراء خارج أرض الوطن، فلم يقبل أن تتحداه إسبانيا وآخرون بإنشاء دولة إنفصالية عن الوطن، ولو تكونت خارج الوطن، وجندت على حدوده. المسيرة لم تتم إلا بتعبئة المواطنين في الصحراء بمواطنة كاملة، وتعبئة القوات المسلحة للقضاء على كل الجيوب التي ينشئها الانفصاليون ولبناء جدار فاصل ضد أي عدوان. والتحدي لم يقبل العدوان الممنهج الجزئي في "حاسي بيضاء" و"تندوف"، ولم يقبل المغامرين وتجنيدهم وتسريبهم من الحدود، ولم يقبل إستغفال بعض الدول الإفريقية، فان تحدي المنظمة بالتخلي عنها، هو الرد الذي تعاني المنظمة عواقبه حتى الآن.

ولكن التحدي يعرف كيف يترك الممر للعاصفة حتى تمر. تحداه بعض الرؤساء العرب فلم يستجب للتحدي، لأنه كان يعرف عمق أسبابه، وتركه يغرق في كأس ماء.

التحدي أحيانا يجب أن يتلفع بالحكمة وإلا انتهى إلى مغامرة.

إهتمام الحسن الثاني بالسياسة العربية تزامن مع الظروف المضطربة التي عاشها الوطن العربي، وظروف الزعامات المفتعلة أو الحقيقية، ثم ظروف النكبات التي حطمت الزعامات من جهة أخرى، معنويا وسياسيا، وقد لا يكون التحطيم عمليا.

كان الحسن الثاني يحاول أن يربط علاقات أكثر قوة مع ملوك العرب ورؤسائهم التقليديين السعودية والإمارات والكويت. وقد يكون التعاون الاقتصادي من أسباب هذه الصلات، وإن لم يفته أن يربط علاقات صداقة مع مصر وخاصة في عهدي أنور السادات ومحمد حسني مبارك. فلا غنى لأي بلد عربي عن علاقات ودية وإقتصادية مع مصر.

كانت رئاسته المؤتمرات القمة العربية في الغالب ناجحة، حتى ولو كان جدول أعمالها معقد بسبب الخلافات، وخاصة بين سوريا والعراق، وبين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، أو بين هذه ولبنان. كان جدول الأعمال معقدا دائما بسبب قضية فلسطين التي لم تجد لها طريقا للحل.

علاقة المغرب بالعراق، لم تكن ممتازة، ولكنها لم تكن سيئة. فرغم أن صدام حسين لم يكن يحضر بنفسه مؤتمرات القمة العربية. فقد كانت علاقته مع الحسن الثاني بواسطة نواب الرئيس (عزة إبراهيم الدوري وطارق عزيز) يطبعها الود والاحترام.

كان الحسن الثاني، بمؤهلات شخصية متألقة وفكر عالم يقظ، يبدو في القمة أمام الملوك والرؤساء العرب ويفوز باحترامهم وتقديرهم، وقبولهم للحلول المعتدلة والاقتراحات التي يعرضها. وأكثر ما كان يتألق في المحادثات الثنائية التي يجريها مع الملوك والرؤساء والتي تمهد لتلك الحلول المعتدلة. كما كانت خطبه في المؤتمرات تجمع بين الفكر السياسي واللباقة الدبلوماسية. وهما وسيلتان إلى إنجاح المؤتمرات.

ولكن الحسن الثاني وقع في حرج كبير بحادث إحتلال العراق للكويت (2 غشت 1990) وقد تأثر سياسيا بالحادث الكبير الذي أعطاه بعده الدولي الكبير، وبعده العربي الأكبر.

إعتبر الحسن الثاني الاجتياح حربا ستصيب بشرارتها الدول العربية المجاورة للكويت: السعودية والإمارات على الأخص. ولم يكتف باستنكار اجتياح الكويت بل إنه تضامن مع السعودية التي كان تخشى أن يستمر الاجتياح إلى حدودها، خاصة وأن الجيش العراقي إحتل الكويت جميعها خلال ساعات قليلة.

قام الحسن الثاني بارسال كتيبة من القوات المسلحة الملكية للوقوف في مؤخرة الجيش السعودي الذي قد يضطر للدفاع عن أرضه، على أن تقف ردفا للمقاتلين فلا تضطر للقتال.

ألقى الحسن الثاني خطابا صارما (15 يناير 1991) ليلة إندلاع الهجوم الدولي على العراق. وكان مما قاله :

- "الحرب المتوقعة لن تكون الحرب الكلاسيكية المعهودة بل ستكون حربا مدمرة قاسية لا ترحم أحدا وستمتد أمواجها وأصداؤها ودوي مدافعها إلى أقصى حدود المعمور، ذلك لأن تبعات هذه الحرب ستكون تبعات عميقة ولن تكون ذات أمد غير قصير على الدول العربية وعلى الأمة الإسلامية وعلى المجتمع العالمي من الناحية الاقتصادية".

ولم يفت الحسن الثاني في خطابه أن يقارن بين اجتياح الكويت والمسيرة الخضراء في الصحراء حينما شرح الفرق بين العمل داخل المشروعية الوطنية والدولية والاجتياح الذي تم في غير إطار المشروعية.

وبعد أن أكد "إن الكثرة تغلب السبع" توسل الحسن الثاني لصدام حسين بأن "يتخلى عن مغامرته ويجل جيشه من الكويت لتجنب العراق والبلاد العربية جميعها شرا كبيرا".

لكن لا حياة لمن تنادي. ومثلها النصيحة التي بعث بها للرئيس جمال عبد الناصر ليلة الحرب (يونيو1967) وإستعداده للمساعدة إذا أصر على مواقفه. كان جواب عبد الناصر على الرسالة الشفوية التي حملها له أحمد بلافريج:

- "شكرا، لسنا بحاجة إلى مساعدة".

وكان للعراق وللأمة العربية والإسلامية ما توقعه الحسن الثاني بعد انصرام أزيد من ربع قرن على هذه العملية الخاسرة.

ولكن شجاعة الحسن الثاني السياسية العربية كانت على المستوى الدولي في اجتماعات القمة العربية التي كان المغرب يخرج منها محكم الرأي والقرار بقدر ما ينجح في إذابة الجليد في بعض المواقف. أذكر من العلاقات بين الفلسطينيين والملك حسين، والقرار الذي صدر عن مؤتمر القمة السابع المنعقد بالرباط (أكتوبر 1974) بإعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

رغم ما كان يسود بينه وبين بعض الأنظمة العربية من توتر كان الحسن الثاني يعرف كيف يضع البلسم على الجراح.

-7-

ليس هناك من لم يفاجأ "بالإتحاد العربي الإفريقي" الذي عقد (13 غشت 1984) بين المغرب وليبيا. لم يكن الحسن الثاني أكثر شجاعة وثقة بالنفس حينما أقدم على هذه المبادرة التي لا تقترب منها في العمل الداخلي إلا مبادرة المسيرة الخضراء على إختلاف العملين والهدفين.

لنفكر جيدا في استغلال الظروف المغربية، المغاربية، الدولية، التي أوحت للحسن الثاني بمبادرة الإتحاد بين الدولتين. والذين فوجئوا بالمبادرة كلهم كانوا يعتقدون أن الصلة السياسية والإيديولوجية والممارساتية، كانت تبعد ليبيا عن المغرب بعد الأرض عن القمر.

طيلة مدة الحكم الثوري في ليبيا حتى إقامة الإتحاد العربي-الإفريقي (15 سنة) لم يكن المغرب على وفاق سياسي أو إيديولوجي مع ليبيا. ومعروف أن الحكم الليبي كان يسند ويساعد المتطرفين الذين يخططون لثورة انقلابية في المغرب، على نحو ما كانت الجزائر في عهد هواري بومدين ومصر في عهد جمال عبد الناصر. وتحول الإسناد والمساعدة المالية والعسكرية إلى الانفصاليين الصحراويين الذين تكوّنوا في أحضان الحكم الاسباني في الصحراء، وتبنتهم الجزائر وليبيا حتى سحبت ليبيا تبنيها ومساعدتها بعد إتفاقها مع المغرب. وقد أكد

العقيد معمر القذافي، خلال إستقباله لعدد من المفكرين المغاربة، "أنه كان يساعد الصحراويين بالفعل، ولكن لأنهم زعموا له أنهم يحاربون الاستعمار الاسباني، وليس لإنشاء دولة انفصالية عن المغرب. فهو من أنصار الوحدة العربية، وليس من المنطق أن يساعد على تمزيق إحدى الدول العربية".

لنتذكر هذا الموضوع ونحن ونفكر في تكوين الإتحاد العربي الإفريقي.

يمكن أن نقول إن الإتحاد نشأ فجأة وفي إحدى لمعان الذكاء حدة التي كانت تغمر فكر الحسن الثاني. فقد بعث القذافي (يوليوز 1984) بمذكرة إلى رؤساء الدول العربية، بعد أن قام بزيارة إلى معظمها، ومنها المغرب، عبّر فيها عن خيبة أمله في البلاد العربية، بعد أن لاحظ الخلافات والتمزقات التي تغمرها، وتمنى أن يراها وقد تمكنت من إقامة وحدة فيما بينها. وبعد أن قرأ الحسن الثاني المذكرة بمحضر المبعوث الليبي أجابه بقوله: "إذا كان ليس في استطاعة المغرب وليبيا أن يلزما الدول العربية كلها بالوحدة، فإن إحتمال إقامة إتحاد بين المغرب وليبيا، ليس مما ينبغي أن يقابل بالرفض، بل إن العكس هو الصحيح".

كان هذا الجواب مفاجأة للمبعوث الليبي وبالتالي للعقيد الذي استقبله بكامل الترحيب. وخلال شهر واحد (13 يوليوز - 13 غشت 1984)، كانت لجان دراسة معاهدة الاتحاد العربي-الإفريقي قد إجتمعت وأعدت المشروع ووقع رئيسا الدولتين على المعاهدة في مدينة وجدة.

ربما كان هذا الاتحاد بين دولتين تفصل بين عاصمتيهما حوالي 2.500 كلم أسرع إتفاق دولي أنشئ بين دولتين، ولعل الظروف التي كان يجتازها العالم العربي قد أثرت تأثيرا كبيرا في إنشاء الاتحاد والإسراع به.

قد تكون ظروف ليبيا، ومركزها الدولي يهتز إهتزازا خطيرا، وعلاقاتها بكل الدول الغربية أمريكا وبريطانيا على الخصوص أسوء علاقة عرفتها العلاقات الدولية، وعلاقاتها بمعظم البلاد العربية لا تقل سوء عن العلاقة مع الدول الغربية. قد يكون لكل ذلك أثره في قبول إقتراح المغرب بترحيب كبير والإسراع في إنجازه. وقد تكون رغبة ليبيا الصادقة في تكوين وحدة عربية أو جزء من هذه الوحدة سببا

أساسيا في الترحيب بالإقتراح المغربي والإسراع في تنفيذه. وقد تكون حاجة المغرب كذلك إلى تطويق قضية الصحراء التي تضافر فيها الاستعمار بكل أشكاله، ومنظمة الوحدة الإفريقية التي سارت في إتجاه معاكس لوحدة المغرب، وقد تخلص جزء من الاستعمار، حتى كانت المسيرة الخضراء التي أنهت الاستعمار الاسباني للصحراء، ولم يتركها حتى ترك خلفه مؤسسة إنفصالية تتولى دعمها الجزائر ثم ليبيا. وكان المغرب يستهدف تخذيل ليبيا بهذا الاتحاد عن مزيد من المساعدة للانفصاليين، وتوجيه موقفها في منظمة الوحدة الإفريقية لصالح المغرب.

ثم، وهذا سبب غير أصيل فيما يبدو، هو معاهدة التعاون والإخاء التي أبرمت قبل هذا التاريخ بسنة ونصف (19 مارس 1983) بين تونس والجزائر وإنضمت إليها موريطانيا. وهي معاهدة إذا كانت تعرقل إتحاد المغرب العربي، التي كانت كل دولة من دوله الخمس ترفع شعاره، فإن استثناء ليبيا والمغرب من المعاهدة التونسية الجزائرية قد يكون لغير صالح الاتحاد. ولم يكن هناك سبب لهذا الإقصاء. فجاء الاتحاد العربي-الإفريقي ردا على المعاهدة الثنائية الثلاثية ولو كان المغرب وليبيا نفيا أن يكون الاتحاد ردا على المعاهدة.

إذا كان المجتمع الدولي والعربي قد فوجئ بهذا الاتحاد، فإن دولا معنية قد كان لها رد فعل سلبي. وإذا كان رد الفعل السلبي للولايات المتحدة منتظرا، لما لها من علاقات غير سليمة مع ليبيا، فإن رد الفعل المماثل (الجزائر وتونس) كان لا يبعث على الارتياح علما أن الاتحاد كان مفتوحا في وجه كل دولة عربية وإفريقية، وخاصة دول المغرب العربي.

وكما ولد الاتحاد فجأة، مات فجأة بعد أن عمّر سنتين وأسبوعين (20 غشت 1986)، دون أن يأسف أحد على نهايته. لم يحقق الاتحاد أي نقطة من أهدافه. فقد حدث أن إستقبل الحسن الثاني شيمون بيرز رئيس حكومة إسرائيل في إطار نشاطه لإيجاد حل تفاوضي للقضية الفلسطينية. إستقبال شجاع وجريء، لا أظن أن أحدا من الرؤساء العرب كان يقدم عليه إلا أنور السادات والملك حسين. ومن أجل ذلك كان هذا الاستقبال يقابل بإنتقاد حتى من الشعب المغربي. ولكن المواقف السياسية للحسن الثاني كانت تتخطى ما يوجه إليها من إنتقاد.

ووقف القذافي، مدفوعا بحافظ الأسد، موقفا عدائيا صارما. لم يبدأ بتساؤل ومحادثات، ولم يمر بانتقاد وإبداء الموقف المخالف، ولكنه موقف صارم أُحادي. فقد قطعت سوريا جميع العلاقات مع المغرب. أما القذافي فقد رفض أن يستقبل مبعوثا مغربيا يناقش معه الموضوع بعد الإستماع إلى أسباب وظروف ونتائج إستقبال رئيس حكومة إسرائيل. ثم عقد معمر القذافي إجتماعا مع حافظ الأسد وهو في زيارة لبلاده، وصدر عنهما بيان مشترك "يعلن عن مناقشة الرئيسين الليبي والسوري زيارة رئيس وزراء العدو الصهيوني للمغرب التي تشكل عملا خيانيا... وتحديا لمشاعر الأمة العربية، وتفريطا في حقوقها القومية وهي حلقة لترويض الواقع العربي لقبول الاستسلام"... وقرر الرئيسان إدانة هذا العمل "الخياني" والتصدي لنتائجه وآثاره... ما من شك في أن هذه الأوصاف، بالإضافة إلى تصريحات القذافي للصحافة، أثارت حفيظة الحسن الثاني الذي إعتبر أن مبادرته تدخل في نطاق السيادة التي تتمتع بها بلاده بصريح نصوص الإتحاد، كما إعتبر أن لغة البيان المشترك وأحاديث القذافي تخرج عن اللياقة السياسية بين الدول ورؤسائها. فاتخذ قرار حاسما ضمنه خطابا ألقاه على الشعب، أعلن فيه إلغاء معاهدة الإتحاد العربي الإفريقي الذي يجمع المغرب وليبيا.

-8-

مفتاح التحدي يفتح أمامنا بابا واسعة في تاريخ المغرب السياسي الحديث: قدم حزب الاستقلال وثيقة المطالبة بالاستقلال مرهونة بالديمقراطية. وعاش المغرب قبل ذلك معركة الاستقلال الكبرى (1952 - 1955) في جو فكري متميز، يخطط للاستقلال في ظل نظام الملكية الدستورية. وحقق المغرب الاستقلال، وبدأت النخبة السياسية تقرع باب الديمقراطية. ولم يرحل محمد الخامس إلا بعد أن تعهد بأنه سيقيم نظام حكم على أساس الملكية الدستورية الديمقراطية.

وجاء الحسن الثاني وفي عنقه دين لوالده، وتفكير للاستجابة لمطلب لم يعد مطلب النخبة السياسية فحسب، ولكنه أصبح مطلبا شعبيا.

ولكن تفكير الحسن الثاني في الديمقراطية كان ذا بُعد مختلف عما عرفته الديمقراطيات الغربية والديمقراطية الشعبية. كان إلى حد ما تمتزج فيه المعاصرة بالتراث، والحداثة في الحكم بالمخزن، والملك الديمقراطي بالملك الحاكم "يلي ويحكم". قد يكون هذا التفكير ناشئا عن شخصية متشبعة بتاريخ الملوك السابقين.

كانت اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال في جلسة سياسية معه. ومن مميزاته أنه لا يترك الجلسات السياسية جافة، وإنما يطعمها بكثير مما يفيد ويثير الإعجاب. في هذه الجلسة تسائل الحسن الثاني في جدية كاملة: "أنا... أتساءل دائما من أنا؟ هل أنا مولاي إسماعيل؟ أو سيدي محمد بن عبد الله؟ أو الحسن الأول؟"

كان يجيب بين كل إسم وآخر بلحظة صمت. لعله، بهذا، يترك لمخاطبه فرصة التحلي والتفكير. كدت أجيب: "أنت جميعهم..."

ولعل تساؤله لم يكن للحظة وإنما كان يعيش معه. ولعله كاد أن يجيب على حيرة محاوريه: "أنا أعظمهم".

لو أجاب بهذا الجواب، لكان صادقا سياسيا وواقعيا.

قد يكون الحسن الثاني متشبعا بفكرة أن لكل بلاد ديمقراطيتها، والمغرب قد لا يحتمل القدر الذي تحتمله دولة أوروبية أو أمريكية للأسباب التي لا يد للشعب فيها، وقد يكون متشبعا بأن الديمقراطية قد تفضي إلى الفوضى أو أنواع من التمرد قدم الشرق العربي أمثلة منها...

هنا يأتي مفتاحا الشجاعة والتحدي لينضما إلى مفتاح أشرنا إليه سابقا: المواجهة والخوف من المغامرة.

الشخصية في هذا المثال أصبحت تحت ثقل كثير من الحسابات. وأهم حساباتها أن الشعب المغربي لا يتحمل قدرا مهما منها كما لا يتحمل الجسم العليل قدرا كبيرا من الدواء. وأهم حساباتها أن الديمقراطية الغربية كانت تقع في أزمة مفهوم آخر للديمقراطية تبنته الكتلة الشرقية، وصادف قلبا خاليا فتمكن من كثير من البلاد المماثلة تحت إسم "الديمقراطية الشعبية". وأهم حساباتها أن بعض

المغامرين في المغرب أخذوا يمنحون مفهومها ثوريا للديمقراطية، يمارسون ثوريتهم من خارج البلاد، وحتى من منبر دول مناوئة. وأهم حساباته أن بعض رؤساء الدول العريقة في الديمقراطية (فرنسا كمثال) نظمت دستورها بما يشبه النظام الرئاسي فأصبح - دوغول مثلا - ملكا غير متوج، حيث لم يتردد في القول: "فرنسا هي أنا وأنا هو فرنسا" ولو أن الدستور فسح الباب أمام الشعب حينما استفتاه عن اللامركزية (1969) يخذل هذا الملك غير متوج ويلجئه إلى أن يستقيل.

هذه الحسابات جميعها جعلت مفتاحي الشجاعة والتحدي يقفان في منتصف الطريق، فكانت الديمقراطية نصا (مقبولا نسبيا) في الدستور ومرفوضا (نسبيا) في الواقع المعيش. الشجاعة والتحدي دفعا بالحسن الثاني إلى أن يستجيب ليضع دستورا جيّدا نسبيا (7 دجنبر 1962). وما أعتقد أن بلادا ملكية أو شبه ملكية في العالم الثالث عرفت دستورا مثله. والتراجع والتشبث بالماضي، والتردد أمام المستقبل جعلت الدستور (الذي عدل لاحقا عدة مرات) يفرغ من مضمونه ليعطي للملكية الدستورية مضمونا مغربيا لا نجد تعريفا له في القانون الدستوري. كان "منح" الدستور تحديا للمطالبين به والمنتقدين للمغرب بأنه يعيش تحت حكم فردي مطلق. وكان إفراغ الدستور من محتواه (النسخة الثانية المصوت عليها يوم 31 يوليوز 1970) شجاعة في مواجهة الاحتمالات التي طالما تغنى بها خصوم الديمقراطية وأعداؤها من المتمسحين بالأعتاب، والواقفين دائما على الأبواب.

شخصية حافلة بالمتنوعات يصعب أن تفتحها بمفتاحي الشجاعة والتحدي فقط، فلنبحث إذن عن مفتاح آخر لعله يفتح لنا الباب أو جزء من الباب.

-9-

حينما كنا نتابع الحسن الثاني يحاور ويحاور في ندوة صحفية، وغالبا ما كانت مع صحفيين فرنسيين، كان الصحفيون المحاورون يعدون أسئلة متنوعة ومستفزة، لا يرجون من جميعها أن يستفيدوا، والفائدة أساسية في كل استجواب، ولكنهم يرجون أيضا أن يثيروا قضايا وتناقضات تبدو لهم مثيرة في بلاد كالمغرب.

كثيرون منهم يعرفون المغرب ومسيرة سياسته وعمق نظام الحكم فيه، ولكنهم لا يستطعمون خصوصيات الشعب المغربي، وربما يستغربون أن يكون على رأس المغرب مثقف يتحدث إليهم بفرنسية تبهرهم وهم أبناء فرنسا، ويمارس حكما يناقض أوله آخره، ثم ينجح على نحو ما يبدو لهم من نجاح.

أكثر ما كان يدفع هؤلاء إلى الاستفزاز الحكم الديمقراطي في شكله ومظاهره، وهو في نفس الوقت لا يتفق في شيء مع ما ألفوه في الديمقراطيات الغربية، لأنهم محاصرون فكريا في الديمقراطية الغربية، مؤمنون بأنه لا حكم إلا الديمقراطية الغربية، ولا ديمقراطية إلا التي ينتجها الغرب، كما أنه لا إقتصاد إلا الإقتصاد الغربي، ولا ثقافة إلا ثقافة الغرب.

كان الحسن الثاني يهتبل المناسبات للحديث في موضوعات إستفزازية، وخاصة حينما يريد الصحفي أن يثيره في موضوع يمس شخصيته كملك وكمهنته كملك للمغرب. يتحدث عن أنواع الديمقراطيات ومزاياها، وخاصة الفرنسية منها، ولكنه يعود إلى الديمقراطية فيتحدث بما يقع أو لا يقع عن خصوصيات المغرب بداية من إمارة المؤمنين ولو وضعهم في دوامة من الغموض لقصور ثقافتهم، وعن الحكم الذي يمارسه الملك داخل الديمقراطية المغربية، وليست الغربية ولا الشرقية، ولعلهم يخرجون بنتيجة هي أن الرجل يفكر بعقليتين ويطبق نظامين وهو يدير دولة واحدة.

قد تكون من وسائل إقناعه أن المغاربة مرتبطون بإمارة المؤمنين، ذات المسؤولية عن رفع الظلم ورفع الفقر ورفع الأمية. حتى تكون إمارة تجب لها الطاعة، أكثر مما لعلهم يرتبطون بحكومة تعمل ببرنامج ويحاسبها البرلمان على الظلم والفقر والجهل...

ما أشك في أنهم لم يكونوا يقتنعون، ولكن الذي يهمهم هو إطلاع قرائهم على هذا التناقض عند ملك لا تتناقض في عقله الأفكار، ولكن لكل منها قناة تلتقي جميعها في النهر الكبير، نهر الحكم والملك والدولة.

وحينما نتابع الحسن الثاني وهو يجالس العلماء في الدروس الحسنية مثلا، وينتهز الفرصة، ليفسر حديثا أو آية قرآنية بمنطق العقل، بعد أن يضيق بمنطق

النقل، ويكون لتفسيره حظ كبير من نظر، ثم يخرج من الدرس ليرأس إجتماعا لحل معضلة إقتصادية أو إجتماعية أو إتخاذ خطة في مشكلة سياسية معقدة عربية أو أوروبية. قد تستغرب من شخصية المفتي في شؤون الإسلام ومحاولة إدراك أسرار القرآن، ثم ينتقل إلى محاولة إدراك أسرار الاقتصاد والسياسة.

لا يتركك الحسن الثاني تستغرب في الموقف الأول مع الصحفيين الغربيين، ولا في الموقف الثاني مع العلماء المسلمين، فكل نشاطه الفكري من هذا النوع الذي ينتقل فيه من رجل تقنيات معاصرة إلى رجل روحانيات أصيلة، ولا حدود للأشباه والنظائر.

مفتاح تكوين شخصية من هذا النوع يعود بنا إلى عهد فتوة الحسن الثاني، وهو تلميذ في المدرسة. كان لوالده، محمد الخامس، الفضل في أن يكونه مزدوج الثقافة، مزدوج وسائل التفكير. كرسي الأستاذية في المدرسة يتعاقب عليه "فقيه المسيد" لتحفيظ القرآن، وأستاذ الفقه والمعاملات في الفقه الإسلامي، وأستاذ علوم العربية والتاريخ الإسلامي، ثم أساتذة الفرنسية والفيزياء والرياضيات والتاريخ الأوروبي والجغرافية السياسية والبشرية. وإذا ما اتجه في الدراسة الجامعية إلى الحقوق والقانون، فلأنه أراد أن يدخل الحكم - الذي كان ينتظره - من باب القانون.

هذا المزيج من الثقافة يتاح لآخرين، ولكنهم لايعرفون كيف يوظفونه لاستنتاج نوع من الحياة لا تخصه بمقدار ما تعم مسؤولياته في الحكم، ونوع من الثقافة لا تعرف التخصص بمقدار ما تعرف مزج الأفكار والنظريات والأنظمة للخروج بخلاصة قد تبهر المتابعين لمسيرته في الحكم، فيصنفونه أحيانا في التقليديين الذين يتعاملون مع الحكم بعقلية عصر أمراء المؤمنين، ويصنفونه تارة في التقدميين الذين يتعاملون مع الحكم بعقلية المستفيد من الدستور الفرنسي المقلد له، والمستجيب للتجربة الفرنسية في مختلف عهود جمهورياتها، بما فيها جمهورية دوغول.

والمفتاح الثاني نجده في أنه ظل دائما طالبا، ولكن من الطلاب الذين يناقشون وينتقدون. وقد كان كذلك في المدرسة، ولكنهم يستفيدون، وقد لا يعترفون بأنهم

يستفيدون. كان يقرأ كثيرا- ويكلف أحيانا من يقرأ له ويستفيد بما يقرأ الآخرون- ويتابع الحياة السياسية والاقتصادية الأوروبية على الأخص والعربية بضرورة المسؤولية التي لم يحاول قط التملص منها.

في مدرسته هذه إكتسب الحسن الثاني معرفة واسعة، وأكثر من المعرفة إكتسب خبرة في القضايا الحافلة بالمتناقضات وبمواطن القوة والضعف والحرج. في هذه المدرسة، تعلم كيف يتعامل مع قضايا المغرب، وقضايا الحكم بالأخص، مستفيدا من نجاح الآخرين ومن أخطائهم.

ولكنه لم يكن طالبا مندمجا في نظام المدرسة وتوجهاتها. كان يتعلم بحذر ونقد وبحث عن مواطن الزلل. ولو كان في استطاعته أن يفعل، لأمسك من أذن هذا الرئيس أو ذاك، وهذا المفكر السياسي والباحث الاقتصادي، ليهمس فيها بلغة أستاذ:

- ما هكذا تدرأ دفة الحكم...

- ما هكذا كان يجب أن تعبر عن رأي دولتك في المؤتمر الدولي...

-ما هكذا يكون التفكير في قضية فكرية أو اقتصادية...

كثيرا ما كان الحسن الثاني يبدو، حتى في ندواته الصحفية، أنه معلم وأستاذ فيشير برفق إلى أخطاء الآخرين، وكثيرا ما يبدو في المؤتمرات العربية التي كان يرأسها أنه ذو رأي متميز يخرج بالمشكلة عن مسارها المدمر، ولكن طريقته في الأداء والتعبير تختلف تمام عن طريقته، الحازمة حينما يكون الأمر بينه وبين من تجب عليهم الطاعة.

-10-

طالب... أستاذ.

هذا مفتاح من مفاتيح شخصية الحسن الثاني كملك بالأصالة أو بالنيابة لمدى أربعة عقود.

مدرسة المسؤولية أية مدرسة كانت..؟ ما أظن ملكا واجه من الصعوبات في الحكم مثلما واجه الحسن الثاني. تحمل المسؤولية في عصر الانتقال، إنتقال من عهد الحماية إلى عهد الاستقلال، من عهد تسع ملايين نسمة إلى عهد الثلاثين، من عهد الأمية والبطالة الضاربتين أطنابهما دون أن يطالب أحد بالتعليم أو العمل، إلا على استحياء، إلى عهد الملايين الذين يقفون على أبواب المدرسة ومئات الآلاف الذين يقفون في الشارع يحتجون مطالبين بالعمل، من عهد الأرض التي تعتمد على المطر، فإذا انحبس خرج الناس إلى الشوارع حفاة يطلبون الغيث، إلى عهد الأرض التي تطالب بالسد لتروى وإلا أضربت عن الإنتاج، من عهد البحث عن متعلم يملأ فراغ موزع بريد إلى عهد الآلاف يحملون الدكتوراه، يملأون ساحة البرلمان بالصراخ إحتجاجا على فشل الحكومة في سياسة التشغيل، من عهد القناعة "باللي جاب الله" إلى عهد العائلات التي تتنافس في الرفاه لأن من حقها أن تعيش في الرفاهية، من عهد الذين يشوفون ويسكتون إلى عهد الذين من حقهم أن يتكلموا وأن ينتقدوا الحكم ويطالبوا بتجديد الدولة وتغيير السياسة، من عهد الذين يعيشون متذمرين في نظام الحكم المطلق إلى عهد الذين يطالبون بالدستور وقد لا يرضيهم فيرفضون التصويت عليه بنعم والذين يطالبون بتطبيق الدستور فلا يبقى زينة في بيت الدولة، من عهد الذين قد يصبرون على الضيم والظلم يأتي من رجل سلطة في البادية قائلين "اللهم يبارك في عمر المخزن" إلى عهد التشهير بالظالمين والمرتشين والمستغلين والمتعاملين مع الشعب باحتقار.

عهد الحسن الثاني كان عهد إنتقال قافز. بدأ بشعب له مواصفات وإنتهى بشعب له مواصفات أخرى. في كل يوم كان الحسن الثاني يفاجأ بتغيير في الكيان، وتغيير في العقلية، وتغيير في المفاهيم، ومنها مفهوم الحكم، وتغيير في الخط الذي يسير فيه الشعب وهو يتعلم أو يشتغل أو يؤسس هياكله الاقتصادية والاجتماعية، وتغيير كبير في لغة الخطاب، وأكثر ما كان يثير الحسن الثاني لغة الخطاب.

الذي يرصد نفسه لدراسة اجتماعية لواقع الشعب بين بداية ولاية الحسن الثاني ونهايتها (38 سنة ونيف) سيخرج بنتائج مدهشة عنوانها "التغيير". والذي يظن أن هذا التغيير الكبير كان يمر من وراء فكر الحسن الثاني وشعوره وإحساسه

بأهميته لا يعرف الحسن الثاني. لم يكن يغفل عن شيء، ولو تغافل. لم يكن حدث ما من الأحداث المهمة المؤثرة في سير الدولة أو الشعب لا يوقظ منه التفكير حتى وهو يمارس لعبة "الكولف" أو يسامر أصدقاء ليس لهم في الحكم نصيب.

المسؤولية كانت تؤرقه، ولا تدخل في عالم النسيان. بل ربما كان من مميزات شخصيته أنه يتعامل معها بكثير من الحرص ويتتبع جزئياتها ودقائقها، والاهتمام بكل الذين لهم علاقة بها، ويتحمل منها ما كان يمكن أن يتركه لذوي المسؤولية.

قد يبدو أحيانا أن الحسن الثاني متغافل عن هذا الموضوع أو ذاك، ولكن فيما أعتقد، كانت القضايا تؤرقه ، ولو كان عاجزا عن حلها.

قد يبدو أحيانا أن الحسن الثاني كان إتكاليا، "يكلف بها عمرا ثم ينام"، ولكن ذلك يأتي ضمن ضعف إعترف به أنه يثق أكثر مما تحتمله الثقة، أو يثق في بعض "العُمَريين" ممن كان الشعب لا يرى ضرورة الثقة العمياء فيهم. وقد أوذي في شخصه وحكمه من جراء هذا الضعف ولكن ذلك لا يمنع من إعتبار أن المسؤولية كانت إحدى مكونات شخصيته.

حينما يبدو أن الحسن الثاني لم ينجح في التعامل مع مشكلة من مشاكل الحكم فليس لأنه لم يتحمل مسؤوليتها، ولكن لأن عوامل الإحباط كانت أقوى من عوامل النجاح، ولكنه لا يقبل أن يعترف، ولو لنفسه.

وحينما نأخذ المسؤولية كمفتاح لشخصيته نتأكد من أن مفهومه للمسؤولية يأخذ كثيرا من أبعاد الماضي. لم يستسغ الحسن الثاني قط أن يوزع المسؤولية على الذين عليهم أن يتحملوا نصيبهم منها. فهو صاحبها، وإليه يعود أمرها جميعه، يتحملها جميعها لأنه لا يصح في الأذهان أن يتحملها معه آخرون ولو حاولوا إستنادا إلى الدستور أو إلى القانون. ولذلك كان أحيانا يغلب على أمره تفكيرا أو ممارسة. ولذلك أيضا، ولا تناقض في الأشياء، كانت شخصيته قادرة على التعامل مع المتناقضات. كانت ثقته اللامتناهية في الذين كان يكلفهم بالتنفيذ أحد مظاهر ضعفه.

غير أن هذا المتعلق بالمسؤولية الكبرى كان مدرسة تعلم فيها سبل الحكم وتسيير دفة الدولة، والقبض بزمام السلطة بحزم، تجنبا لكل ما يمكن أن يدخل في الحسبان ولو لم يكن هناك شيء يدخل في الحسبان.

مسيرة حكمه تبرز شخصية فريدة. قد تكون الفرادة في التمييز، في التعدد، في الأصالة، في التقدمية، في الشدة، في الحلم، في الغضب، في البذل، في الذكاء، في التشبث بالحكم، في الصبر على الأذى والنقد الجارح حينما يأتي من وراء البحار، في الابتسامة الجميلة يطلقها في وجه خصمه أو صديقه، في التعامل مع الأحداث الكبار كما لو كانت صغارا، في الاهتمام بكل صغيرة حتى لو كانت تعليمات في الزخرفة والنقش.

شخصية متميزة تبحث عن مفاتيحها تظن أنك وقعت عليها، ولكنها تظل مغلقة. هي من الشخصيات التي صنعتها الثقافة والمعرفة والذكاء وصناعة الملك وسلطان الحكم وظروف العصر. وتجاوز النطاق الجغرافي، والآفاق المنفتحة على الناس ودنيا الناس. صنع جزء منها بنفسه قد تتكرر في الذين يصنعهم الملك والمعرفة، ولكنها لا تتكرر كما صنعها، لأن ما أعطاه لنفسه، لا يمكن أن يعطيه للآخرين حتى لو قدر، فهو مغرم بالتفرد. ولذلك صنع شخصيته على قدر غرامه.

هل نجحت في الكشف عن مفاتيح شخصية الحسن الثاني؟

حاولت وما أظن أني وصلت...

***

إلتحق الحسن الثاني بالرفيق الأعلى يوم الجمعة 23 يوليوز 1999 عن سن السبعين.

رحمه الله...

الفهرس

بيبلوغرافيا الكاتب

في الرواية :

- **سبعة أبواب** : خمس طبعات؛ دار المعارف، القاهرة (1965)؛ شركة الطبع والنشر، الدارالبيضاء (1973)؛ الدار العربية للكتاب، تونس/طرابلس (1984)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001)، دار نشر المعرفة، الرباط (2011).
- **دفنا الماضي** : ست طبعات؛ المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت (1966)؛ شركة الطبع والنشر، الدارالبيضاء (1973) و(1979)؛ مطبعة الرسالة، الرباط (1980)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001)، دار نشر المعرفة، الرباط (2011).
- **المعلم علي** : سبع طبعات؛ المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت (1971)؛ مطبعة الرسالة، الرباط (1973)؛ الدار العربية للكتاب، تونس (1981)؛ شركة الطبع والنشر، الدارالبيضاء (1983)؛ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس (2003)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001)، دار نشر المعرفة، الرباط (2011).
- **صباح ويزحف الليل** : طبعتان؛ دار الآداب، بيروت (1984)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).
- **وعاد الزورق إلى النبع** : طبعتان ؛ مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1989)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).

- **شروخ في المرايا** : طبعتان ؛ دار توبقال للنشر، الرباط (1994)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).
- **سفر التكوين** : (رواية سيرة ذاتية) طبعتان؛ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (1996)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).
- **القاهرة تبوح بأسرارها** : (رواية سيرة ذاتية) : طبعة واحدة؛ دار الهلال، القاهرة (2000).
- **ما بعد الخلية** : طبعة واحدة، دار نشر المعرفة، الرباط (2003).
- **لم ندفن الماضي** : طبعة واحدة، طبعة واحدة، دار نشر المعرفة، الرباط (2006).
- **شرقية في باريس** : طبعتان، دار مرسم، الرباط (2006) و (2016).
- **الأرض ذهب** : طبعة واحدة، دار نشر المعرفة، الرباط (2009).
- **المنفيون ... ينتصرون** : طبعة واحدة، دار نشر المعرفة، الرباط (2014).

في القصة :

- **مات قرير العين** : (مجموعة من تسع قصص) طبعتان؛ مطبعة الأطلس الدارالبيضاء (1960)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).
- **الأرض حبيبتي** : (مجموعة من إثني عشر قصة) طبعتان؛ دار الآداب، بيروت (1971)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).
- **وأخرجها من الجنة** : (مجموعة من عشر قصص) طبعتان؛ الدار العربية للكتاب، تونس/طرابلس (1977)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).

- **هذا الوجه أعرفه** : (مجموعة من ست عشر قصة) طبعتان؛ مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1997)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).
- **يطو وأخواتها** : (مجموعة من اثني عشر قصة)، دار مرسم، الرباط (2008).
- **سعادة الباشا** (مجموعة من ست قصص)، دار نشر المعرفة، الرباط (2017).
- **شهرزاد في ليلتها الثانية بعد الألف** (مجموعة من ست قصص)، دار نشر المعرفة، الرباط (2017).
- **سلسلة قصص الشباب** : سلسلة من عشر أجزاء، طبعتان، دار نشر المعرفة، الرباط (2010) و(2016) :
  - أزمة البطل (رواية قصيرة).
  - آدم يبحث عن حواء (رواية قصيرة).
  - تحرير البطل (رواية قصيرة).
  - أكتب بالجسد (مجموعة من ثلاث قصص).
  - الوردة الذابلة (رواية قصيرة).
  - إنه الظلام (رواية قصيرة).
  - نشوز (رواية قصيرة).
  - المسؤولية (رواية قصيرة).
  - طاقة متجددة (مجموعة من ثلاث قصص).
  - أنانية متوحشة (مجموعة من ثلاث قصص).

في الدراسات الأدبية والفكرية :

- **نبضات فكر** : طبعة واحدة، مكتبة الوحدة العربية، الدارالبيضاء (1961).
- **فـي الثقافة والأدب** : طبعتان ؛ مطبعة الأطلس، الدارالبيضاء (1964)؛ مطبعة الرسالة (1981).

- **رسالة فكر** : طبعة واحدة، الدار التونسية للنشر، تونس (1969).
- **عالم شاعر الحمراء** : طبعة واحدة، دار الثقافة، الدارالبيضاء (1982).
- **مع الأدب والأدباء** : طبعة واحدة، دار الكتاب، الدارالبيضاء (1974).
- **ملامح من شخصية علال الفاسي** : طبعة واحدة، مطبعة الرسالة، الرباط (1974).
- **الثقافة والفكر في مواجهة التحدي** :طبعة واحدة، دار الثقافة، الدارالبيضاء (1976).
- **الفكر العربي بين الاستيلاب وتأكيد الذات** : طبعة واحدة، الدار العربية للكتاب، تونس/طرابلس (1977).
- **دفاع عن فن القول** :طبعة واحدة، الدار العربية للكتاب، تونس/طرابلس (1984).
- **الماهدون الخالدون** : طبعتان، سلسلة كتاب العلم، مطبعة الرسالة، الرباط (1991)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط (2017).
- **من اللغة إلى الفكر** : طبعتان، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1993)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر (2016).
- **أزمة المفاهيم وإنحراف التفكير** : ثلاث طبعات، مركز الدراسات للوحدة العربية، بيروت (1998) و(2004) و(2010).
- **لا مفهوم للثقافة** : طبعة واحدة، دار نشر المعرفة، الرباط (1999).
- **الشيخوخة الظالمة** : طبعتان؛ دار الثقافة، الدار البيضاء (1999)؛ وزارة الثقافة والاتصال المغربية، الرباط (ضمن الأعمال الكاملة للكاتب، 2001).
- **نحب الحياة** : طبعة واحدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (2005).
- **الشخصية شخصية المغرب نموذجا** : طبعة واحدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط (2017).
- **محمد بوستة ... الدبلوماسي الحكيم** : طبعة واحدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط (2017).

في الدراسات الإسلامية :

- **تـاريخ الإسـلام** : خمس طبعـات ؛ مطبعــة الأطـلس، الدارالبيضــاء (1958) و(1961) و(1962) و(1963) و(1965).
- **صراع المذهب والعقيدة فـي القرآن** : أربع طبعات؛ دار الكتاب اللبناني، بيروت (1973)؛ دار الآفاق الجديدة، بيروت (1979)؛ مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1996) و(2004).
- **مجتمع المؤمنين من هدي القرآن** : طبعتان؛ مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1988) و(2004).
- **في الثقافة الاسلامية والآداب القرآنية** : طبعة واحدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1992).
- **الإسلام فـي مواجهة التحديات** : طبعة واحدة، مطبعة الرسالة، الرباط (1996).
- **الإسلام من أعماق القرآن** : طبعة واحدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط (2017).

فـي أدب الرحلات :

- **صحفـي فـي أمريكا** : طبعة واحدة، مطبعة الأطلس، الدارالبيضاء (1962).
- **من مكة إلى موسكو** : طبعة واحدة، دار الكتاب، الدارالبيضاء (1971).

فـي الدراسات التاريخية :

- **تاريخ الحركة الوطنية (جزءان)** : ثلاث طبعات؛ شركة الطبع والنشر، الرباط (1976)؛ مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1985) و(2000).
- **قصة المواجهة بين المغرب والغرب** : طبعة واحدة، دار الغرب الإسلامي، بيروت (2003).

- **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي (ثلاث أجزاء)** : طبعة واحدة، دار الغرب الإسلامي، بيروت (2005).

في الدراسات السياسية :

- **الاستقلالية** : طبعة واحدة، مطبعة الأطلس، الرباط (1960).
- **في الإصلاح القروي** : طبعة واحدة، مطبعة الرسالة، الرباط (1961).
- **هذا هو الدستور** : طبعة واحدة، مطبعة الرسالة، الرباط (1962).
- **دفاع عن الديمقراطية** : طبعتان؛ دار الفكر العربي، طنجة (1966)؛ مطبعة فضالة، المحمدية (1967).
- **معركتنا العربية في مواجهة الاستعمار والصهيونية** (بالاشتراك مع محمد العربي المساري وعبد الجبار السحيمي) : سلسلة كتاب العلم، مطبعة الرسالة، الرباط (1967).
- **معركة المصير في سبيل إصلاح التعليم وتعريبه** (بالاشتراك مع محمد العربي المساري وعبد الجبار السحيمي) : سلسلة كتاب العلم، طبعة واحدة، مطبعة الرسالة، الرباط (1967).
- **التطور الدستوري والنيابي بالمغرب** : ثلاث طبعات؛ مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1978) و(1986) و(1993).
- **الفكر التقدمي في الاديولوجية التعادلية** : طبعة واحدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (1979).
- **مع الشعب في البرلمان** : طبعة واحدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1983).
- **سلطة المؤسسات بين الشعب والحكم** : مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1987).
- **لماذا إنهارت الشيوعية ؟** : طبعة واحدة، دار الآفاق الجديدة، الدارالبيضاء - بيروت (1991).

- **في الفكر السياسي** : طبعة واحدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء (1992).
- **تجديد الدولة وتغيير السياسة** : طبعة واحدة، مطبعة الرسالة، الرباط (1999).

في المؤلفات المترجمة :

- **دفنا الماضي :**

الإيطالية :

- **Il Marocco Tra Due Generazioni In Un Romanzo**
  Di Abd Al Karim Ghallab
  Adalgisa de Simone -University Palermo (1969).

الفرنسية :

طبعتان؛

- **Le Passé Enterré**
  Francis Gouin
  Publi-Sud, Paris (1990), Editions Okad, Rabat (1990)

الانجليزية :

- **We buried the past**
  Dr Roger Allen
  Professor at the University of Pennsylvania, U.S.A
  Haus Publishing, London, England (2017).

- **سفر التكوين :**

الإسبانية :

تحت إشراف المؤسسة الأوروبية للثقافة.

- Génesis
  Angel Gimeno Corzan
  Editiones del Oriente y del Mediterraneo Madrid (2002)

الكاتالانية :

تحت إشراف المؤسسة الأوروبية للثقافة

- Génesis, Una Vida en el Marroc Contemporani
  Marta Serra Oliveras
  Proa
  (2002) Barcelona

- **نبضات فكر :**

ترجمها إلى الأردية الأستاذ محمد إسحاق الندوي، مطبوعات إقرأ، كراتشي، الباكستان (1990).

فـي الكتب والدراسات التي ألفت
حول المؤلف ومؤلفاته

- **دراسات تحليلية نقدية لرواية دفنا الماضي** : قام بها ثلاثة عشر من النقاد العرب، مطبعة الرسالة، الرباط (1980).
- **الأدب الثقافـي عند عبد الكريم غلاب (المقالة، القصة الرواية)** الأستاذ أحمد فطري : طبعة واحدة؛ دار الثقافة، الدار البيضاء (1982).
- **عبد الكريم غلاب : بيبلوغرافيا بأعماله وما كتب عنه من مصادر عربية (1947-1991)**، الدكتور جواد صالح الطعمة، أستاذ اللغة العربية والأدب المقارن بجامعة إنديانا بالولايات الأمريكية المتحدة، دار توبقال للنشر، الرباط (1993).
- **عبد الكريم غلاب** : طبعة واحدة؛ الأستاذة فاطمة الجامعي الحبابي، مطبعة فضالة، المحمدية (1996).
- **الكتابة والوعي، دراسات لبعض أعمال غلاب السردية**؛ الدكتور عبد العالي بوطيب : المتفـي برينتر (2001).
- **عبد الكريم غلاب، ضوء يشرق من المغرب** : إشراف الدكتورة سعاد الصباح، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت (2003).
- **رواية شروخ في المرايا قراءة من مكون الشخصية**، الأستاذة خديجة الزومي، مطبعة الرسالة، الرباط (2011).
- **عبد الكريم غلاب الأديب والإنسان "شهادات ودراسات نخبة من الكتاب والنقاد"** : إعداد الأستاذ عبد الرحيم العلام، مؤسسة منتدى أصيلة، أصيلة (2011).



هذا الكتاب

الماهدون هم أصل الحياة. تركوا بصماتهم على ملامحها المتطورة منذ كان آدم ونوح، منذ كان الأنبياء والفلاسفة والمفكرون وكبار المبدعين.

الماهدون، بطبيعتهم وبحكم رسالتهم، ثوريون... تبدأ الثورة في فكرهم وتتسرب إلى عملهم وممارستهم.

في خضم معركة النضال الوطني والسياسي بالمغرب تكوّنت مجموعة من الشخصيات. كل منها ذات خصوصية، تتفق ولا تختلف في أصالتها، لا تستغني عن أخواتها، لا تستغني عنها أخواتُها. كل منها مكملة للأخرى، ومنها جميعها تكوّنت الكتيبة ذات التفرد والإختصاص المتنوع.

هذا الكتاب يرصد ستا وعشرين من الماهدين الذين تمكنوا من تغيير مجرى نهر التاريخ. أحدثوا الحدث وغيّروا الحاضر، ورسموا خط السير لمغرب اليوم.

ومع كل ماهد قصة حياة جيل... قصة الوطن.

الناشر





الثمن : 80 درهما/ 14 EUROS